رواية

د. خولة حمدي

أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ





أرني أنظر إليك

د.خولة حمدي

رواية

إهداء

إلى أطفالي الأحبّاء، مرام ولينة ويوسف

لم أدرك أنّ الدّنيا قد تكون مخيفة حتى رزقتكم

حفظكم الله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن.

«قليل من الفلسفة يؤدي إلى الإلحاد،
لكن التّعمّق في الفلسفة يؤدّي إلى الإيمان»

فرانسيس بيكون

الرّياض في ١٤ نوفمبر ٢٠١٠،

السّيد المحترم (........)،

سررت بالجلوس إليك مساء الأسبوع الماضي عند السّيد (........) وسررت أكثر بالرّسالة المفاجئة التي وصلتني منك حالما رجعت إلى بيتي! في الحقيقة، لقد استمتعت بالاستماع إلى قصّتك في حضور صديقنا المشترك، ورغبت في الاستزادة، لكنّني علمت أنّ الحياء يمنعك من الخوض في تفاصيل كثيرة. وقد أسعدني طلبك بتشريف قلمي المتواضع بصياغة قصّتك بشكل روائيّ.

لقد سألتك في جلستنا تلك بكلّ وضوح: لماذا لا تكتب قصّتك وتنشرها؟ إنّ فيها من المغامرات والصّراعات الفلسفيّة ما يكفي لصناعة نصّ ناجح يحقّق مبيعات وفيرة! ناهيك عن تماهيها مع اهتمامات شباب اليوم وتقديمها لإجابات وافية عمّا يؤرق الكثيرين منهم من تساؤلات وجوديّة! كما أنّ رصيدك اللّغوي والمعرفيّ يجعلانك مؤهلا تماما للكتابة بشكل محترف.. فلمَ لا تفعل؟

لكنّك رددت بانكسار وصراحة:

- أخشى أنّني لن أكون محايدا في الطّرح وسيغلبني هوى نفسي في تزكيتها أو الدّفاع عنها. لذلك أرى أنّ قلما موضوعيّا هو الأقدر على نقل القصّة.

خشيت في تلك اللّحظة أن تكون قد عهدت إلى أحدهم بتلك المهمّة وأنّ الفرصة قد فاتتني، لذلك لم أتجاسر على السّؤال. لكنّك شرّفتني بثقتك وعرضك الذي وافيتني به بعد الجلسة مباشرة.

لقد اطّلعت بشغف على الملفّات التي أرسلتها خلال الأيّام

الماضية بشكل متواتر. وشرعت في تدوين ملاحظاتي بخصوصها. أتفهّم رغبتك في تحوير المعلومات الأساسيّة التي تخصّ عائلتك لما فيها ممّا يمكّن المطّلعين من التعرّف إلى هويّة والدك وأخوالك، وبالتالي الاهتداء إلى شخصك بالذّات. ولا أمانع إطلاقا من اعتماد الأسماء المستعارة التي اقترحتها، لتكون أنت «مالك الشّريف»، وصديقنا المشترك «نديم المغربي».. وأشكر لك الحريّة التي تركتها لي لأضع أسماء مناسبة لبقيّة الشخصيّات.

أمّا بالنّسبة إلى الأحداث، فأصدقك القول. إنّ ما سردته يعرضني إلى معضلتين: إنّ الدّوافع التي ذكرتها لبعض الأفعال تبدو غير منطقيّة من حيث البناء الرّوائي! في الرّواية، ينبغي لكلّ حدث أن يُبنى على سلسلة من الأحداث التي تمهّد له فلا يكون مفاجئا أو شاطحا بالنّسبة إلى القارئ -مهما كان ذلك حقيقيّا بالنّسبة إلى من يعيش الحدث- لذلك فاسمح لي بالتّمهيد بما أراه مناسبا في سياق الرّواية. أمّا المعضلة الثانية فهي ملء الفجوات فيما يتعلّق بالخصوصيّات التي لا ترغب في كشفها، ولكنّك صارحتني بها في مذكّراتك.. فوجب إذن تعويضها بما يناسب من أحداث متخيّلة، دون الإخلال بجوهر القصّة ومقاصدها.

سأرسل إليك فصول الرواية بشكل متتابع لتطّلع عليها وتعلمني بملاحظاتك، ويهمّني بشكل خاصّ رأيك في أحاديث النّفس التي تدور في خلد البطل ومدى تطابقها مع ما عشته أنت من صراع داخلي.

في انتظار ردّك سريعا، لك منّي كلّ الودّ.

تحياتي.

الفصل الأول

- حنين -

-١-

باريس، ٢٠٠٤/٠٥/٠٢

وأنـت تعبر بوابـة الصّعـود رقـم خمسـة عـشر مـن مطـار باريـس «شـارل دي غـول»، وتسـير باتّجـاه الطائـرة الرّابضـة في نهايـة الممـرّ، يتتابك إحساس بالخفّـة لـم تستشـعره مـن قبـل. يتـلاشى قلـق الفـترة الماضيـة ويتحـوّل إلى غلالـة رقيقـة، قريبـا تتكسّر قشرتهـا الهشّـة.

هذه الرّحلة، ينتظرك الخلاص على طرفها الآخر.

تستقرّ في مقعـدك في الدّرجـة السـياحيّة، وتغمض عينيـك. تسـتعجل انقضـاء السـاعات الثمانيـة الـتي تفصلـك عـن وجهتـك، ومـا يليهـا مـن الانتظـار حـتّى حلـول الموعـد المرتقـب. لكـن مـا وزن تلـك السّـاعات القليلة أمـام سـنوات أمضيتهـا تتقلّـب عـلى جمـر القلـق؟ عبر مسـاحات اللايقيـن الـتي تغمـر فضـاءك، يـراودك يقيـن واحـد.. ذاك الرّجـل الـذي سـتلقاه هنـاك، في نيويـورك، يملـك الإجابـات الشّـافية على كل تسـاؤلاتك. سينتهي الاضطـراب وترجـع السّـكينة لتحـلّ بـين جنباتـك بعـد أن تتّضـح رؤيتـك.

سـتجد عنـده مـا يـرضي شـقّيك المتنافريـن المتناقضـين.. قلبـك وعقلـك.

هكذا تمنّي نفسك.

تـنادي جـارة سـفر عـلى ابنتهـا. سـارة. فيحتقـن وجهـك وترتبـك نظراتـك. تبحـث عـن خيالهـا الـذي تعلـم ألّا وجـود لـه في الجـوار، وترتسـم ابتسـامتها بـين عينيـك في إلحـاح مزعـج. حنـين سـخيف إلى فـترة تعـرف ألّا مجـال لعودتهـا. لكـنّ القلـب يهفـو، وتضطـرب دقّاتـه عنـد

ذكر اسمها، أو سميّها، وما أكثرهنّ! خليق بك بعد كلّ هذا الوقت أن تسلوها وتلتفت إلى غيرها، وما يباعد بينكما أكثر بمسافات ممّا جمعكما في زمن ما. ألقيت بنظرة بعيدة عبر نافذة الطائرة.. فألفيت كتلا من السحاب الأبيض على مرمى بصرك، تلتقي بأفق سماوي ذي تدرج لونيّ أزرق.

هيج الاسم الحنين، فرحت تترنّم بأبيات لا تزال روحك الشّقيّة تطرب لترادها، كما كنت دوما تفعل:

أُحِبُّ مِنَ الأَسماءِ ما وافَقَ اِسمَها	أَو أَشبَهَهُ أَو كانَ مِنهُ مُدانِيا
وَلا سُمِّيَت عِندي لَها مِن سَمِيَّةٍ	مِنَ الناسِ إِلّا بَلَّ دَمعي رِدائِيا

أرجعت بصرك وهو حسير، وألقيت برأسك إلى ظهر المقعد. وما تكون هذه الرّحلة غير إتمام لانعتاقك من ماضيك وذكرياته المحنّطة؟ قريبا ستخلّفها وراءك مع سنوات عمرك التي شطبتها من سجّلات وعيك. والأهم من ذلك، ستثبت لها أنّك على حقّ.. وهي على باطل.

ارتسمت على شفتيك ابتسامة سخرية تليها غصّة أسى في حلقك.. أما زلت تستعمل كلمات المعجم نفسه؟ الحقّ والباطل. وهل تملك معجما غيره وقد نشأت على القرآن، تلاوته وحفظه وتدريسه وإمامة النّاس به قياما وخطابة؟ هل تملك أن تضغط على زرّ إعادة التشغيل، فتعود صفحات روحك بيضاء نقيّة تكتب فيها من جديد بلغة أخرى، وبمعجم آخر؟

ليتك تفعل.

لكنّك تعلم ألا سبيل إلى مسح الذاكرة.

في وقت ما من شبابك الأول، كانت لديك نظرية وجوديّة مفادها أنّ العقل وفيّ لوجدان صاحبه. فلو أنّ شخصا ما فقد الذاكرة، وألقي

نفسه في محيط لا يعرف عنه شيئا، بعيدا عن نقاط ارتكازه الأساسيّة وأهله وبيئته، فإنّ استدلالا عقليّا محضا سيؤدّي به خلال وقت قصير إلى الوصول إلى نفس معتقداته الفكريّة السّابقة! كنت منذ صغرك تعتبر نفسك تجسيدا لـ(حي بن يقظان) في العصر الحديث، فلا تعارض في رأيك بين الفلسفة والدين، ولا العقل والشريعة.. كنت تزعم أنّ رؤيتك للعالم حينها تتكامل في صورة مثالية.

كنت واثقا من نظريّتك تلك، فخورا بها.. فاتك أن تضع تصوّرا لما تؤول إليه حياة الإنسان الذي يغيّر عقله مساره ويضبط البوصلة على اتّجاه غير مألوف! أيّ الاتّجاهين سيسترجع إن هو جرّب العزلة على جزيرة مهجورة، نقيّا من أيّ ذاكرة؟

لكنّك تخطّيت كلّ ذلك الآن. تعتقد جازما بأنّك فعلت. لم تعد أنت كما أنت. لكنّها هي ما زالت كما هي. لم تعد ذاتك الجديدة منسجمة مع الماضي الذي جمعكما. في الحقيقة، لم تعد ذاتك تنسجم مع أيّ شيء انتميت إليه في وقت سابق. أنت الآن حرّ من قيود العرف والعادة والمجتمع والعائلة والدّين جميعا!!

أنت تؤمن بعقلك وحده.. وتتبع دليله إلى حيث يقودك.

-٢-

هل تذكر، حين رأيتها أوّل مرّة؟

كان ذلك في مطلع السّنة الدّراسيّة الثانية لك في باريس، سبتمبر ١٩٩٨. كنت قد حقّقت إنجازك الأوّل واجتزت اختبار دخول كلّيّة الطبّ، دون أن تعبر معضلة السّنة التحضيريّة المضنية. ذاكرتك رغم مواتها كانت قد احتفظت بمخزون عالي الجودة بعد سنوات تردّدك على كلّيّة الطبّ التونسيّة، فقبلت في حين رجع نحو ألف ومائتي طالب خائبين، وتوزّعوا على اختصاصات أخرى كان الطبّ في أعلى قائمتها.

مرّت سنتك الدّراسيّة الأولى هادئة باردة، خالية من أيّ معنى. كنت تدرس لتملأ فراغ وقتك وخواء قلبك، ولا تفكّر في أيّ شيء آخر. تجربتك الباريسيّة الميتة استمرّت لسنة واحدة، قبل أن تدبّ الحياة مجدّدا في شرايينك.

في الأسبوع الأوّل لسنتك الدّراسيّة الثانية، رأيتها.

كانت قاعة المحاضرات تغصّ بالبشر، لا تكاد تجد موطئ قدم بين الطلبة الثلاثمائة الذين يتزاحمون لحضور درس «التّشريح» ذاك. ومع ذلك رأيتها، ورأتك. لم يكن من الصّعب تمييز شخصين غريبين مثلكما في بحر متلاطم من الشّقرة والسّفور. كان حجابها علامتها المميّزة. هل صوّبت بصرك تجاهها ترمقها مأخوذا في دهشة، حتّى انتبهت هي إلى نظراتك الملحّة فالتفتت؟ لعلّك فعلت. فقد التقت عيونكما بعدها، ولم تحوّل بصرك عنها حتّى أشاحت بوجهها، وقد تناسيت قاعدتك الذّهبيّة بغضّ البصر عن الأجنبيّات. ولكنّها بدت

في تلك اللحظة قريبة بشكل لم تستوعبه. وهل تبقى أجنبيّة، وهي التي تشاركك الانتماء، في جوّ مشبع بالغربة؟

استرقت النظر إليها خلسة، تسجّل ملامحها في دفاتر ذاكرتك، وتبحث في ثنايا وجهها عن سرّ احتباس أنفاسك ووجيب قلبك. هل كانت عيناها الكستنائيّتان الواسعتان كثيفتي الرموش؟ أم ثغرها الصّغير الباسم كأنّه معلّق في وضع الابتسام؟ أم هو وشاحها الحريريّ محكم التثبيت حول هالة بياض فاتنة؟

كانت الدرّة المصونة اللائذة بقوقعتها، ومن حولها مئات الأذرع العارية والشعور المكشوفة. وأنت، كانت لحيتك الكثّة علامتك الخاصّة. لا شكّ أنّ ذلك الإحساس الصّميم بالألفة قد أدركها هي الأخرى، فقد استدارت بعد دقائق قليلة، لتنظر في اتّجاهك. تلك المرّة، غضضت بصرك في ورع وتظاهرت بالتّركيز على كلمات المحاضر.

الأولى لك، والثانية عليك.

ستراها بعد ذلك كثيرا. في قاعات المحاضرات، في معامل التجارب، في غرف التشريح أو في أروقة المستشفى الجامعي، وحول أسرّة المرضى، وفي غرف العمليات، أو في ساحة الكليّة وعند المشرب. كان من اليسير أن تعرف اسمها. سارة. تناديها رفيقتها فتلتفت.. لتستمرّ أنت من بعدها في ترديد الاسم بصوت خفيض، مستعذبا همس السّين ورقّة الرّاء على طرف لسانك. ستراها وتتمنّى أن تجد قدماك طريقا إليها، ولكنّك ستحجم حياء واحتراما. ستقف على مسافة، حيث تستشعر وجودها وتنتبه إلى حركتها، ولكنّك لن تقترب. كنتما في الصفّ الثالث معا، ثمّ الرّابع.. تستمرّ في مراقبتها وترقّب حضورها في شغف، ولا تجرؤ على مواجهتها أو اقتحام عالمها.

كنتما في الصفّ نفسه.. وأنت تكبرها بثلاث عشرة سنة.

كان فرق السنّ واضحا آنذاك. يكفيك أن تطالع وجهك في مرآتك، لتلمح التجاعيد التي وجدت طريقها إلى جبينك وزاوية عينيك، والشّيب الذي خطّ فوديك وأطراف لحيتك، وأنت لم تتجاوز الثلاثين إلا بسنوات ثلاث! كيف تبرّر لها مكونك حتّى تلك السنّ دون شهادة؟ وكيف تفسّر سنوات عمرك المتسرّبة مثل قطرات ماء بين الأصابع؟

ستنتظر في صبر، أن يهبّ لكما القدر فرصة.. ستنتظر طويلا.

لم تصطدم بها صدفة، فتسقط الأوراق والدّفاتر بينكما، فتلتقي النظرات أو تتلامس الأيدي عفوا وأنتما تجمعانها عن الأرض.. ولم تدافع عنها من عصابة شباب مستهتر حاولت مضايقتها، مع أنّك كنت تتوق لاستعراض مهاراتك القتالية أمامها! لم يجمعكما أيّ من مشاهد السينما التي تمنّيتها سرّا وهدهدتها في أحلام المنام واليقظة.

كانت صدفتك من نوع آخر.

كنت طالبا جادّا، ودفاترك الثمينة محطّ أنظار الزملاء والزميلات على حدّ سواء. خطّك الجميل المنمّق، الذي تراعي فيه تناسق الخطّ العربي -الذي تعلّمت فنونه مراهقا- حتّى وأنت تكتب بالفرنسيّة، كان يجعلك قبلة الجميع حين تقترب الاختبارات ويحتاج المتغيّبون لنسخ المحاضرات الفائتة. صديقة مقرّبة منها طلبت دفترك ذات يوم. وحين أعادت إليك أوراقك، كانت من بينها ورقة إضافيّة، لا تدري إن كانت قد وقعت منها سهوا أم عمدا! كانت قائمة أرقام هواتف وبريد إلكتروني لعدد من الزّملاء والزّميلات. لا تدري على وجه الدّقة ما كان الدّاعي لاجتماعها على تلك الصّفحة. ربّما كانوا يرتّبون لمجموعة مراجعة؟ أو يخطّطون لاستمرار التّواصل بينهم خلال الإجازة؟ ولعلّ الفتاة طلبت أرقام من تثق فيهم من الزّملاء حتّى تتّصل بهم وقت الحاجة، للاستفسار عمّا يستعصي عليها فهمه من الدّروس؟

لكنّ كلّ ذلك لم يعنك في شيء. كانت تلك الورقة هناك، وكان

اسمها ورقمها وبريدها مدوّنين عليها. قبل أن تعيدها إلى صاحبتها، حرصت على تدوين الرقم والبريد عندك. وبقيا لديك ردحا من الزمن، تتأمّلهما كلّ ليلة، تمرّر أصابعك على الحروف كأنّما تناجي صاحبتها بلا كلمات، ولا تفعل بعد ذلك شيئا.

استجمعت شجاعتك خلال الإجازة الصيفيّة التالية. احتميت بالغياب، وتجرّأت على الكتابة إليها. فكّرت أنّك لن تواجه نظراتها إلّا بعد أسابيع من قراءتها لنصوصك، وربّما تكون آنذاك دهشتها قد فترت وردّة فعلها قد نضجت، فلا تقابلك بعيون متّسعة عن آخرها. كان عليها قبل ذاك أن تفكّ الشيفرة وتحزر هويّة المتواري خلف العنوان المجهول. أنشأت بريدا جديدا، لا يحمل أدنى تلميح لاسمك أو انتمائك، مجرّد رموز متراصّة لا تعني شيئا، إمعانا في التّخفي. كان بريدا خاصّا من أجلها.. تفتحه في اليوم عشرات المرّات بارتجافة في السبّابة، وترقب الشاشة الخالية من أيّ بريد وارد.

هل كنت تتوقّع ردودا على ضجيجك وثرثرتك؟

كتبت لها تلك الصّائفة عن أيّ شيء وكلّ شيء.. عن نفسك وأفكارك ومشاغلك ومخاوفك، عن وحدتك وضياعك وذاكرتك المثخنة بالهزائم.. لكنّك لم تذكر كليّة الطبّ مرّة واحدة. ولم تشر إلى معرفتك بها من قريب أو بعيد. كانت أقرب إلى الخواطر منها إلى الرّسائل.. فبم عساها كانت تردّ؟

تدرك الآن أنّك لم تكن تنتظر منها ردّا، بقدر ما كنت تنفّس عن اضطراباتك الدّاخليّة.. حتّى لا تقودك أفكارك القاتمة إلى محاولة انتحار أخرى. كنت حزينا مكتئبا في تلك الأيّام، بعد أن وصلك نعي خالك الأقرب إلى قلبك، وأنت غير قادر على السّفر لوداعه. خالك عمّار قضى نحبه عن سنّ يناهز الخامسة والسّبعين، أمضى عقدها الأخير في الحبس الانفرادي.

-٣-

١٩٩٩/٠٧/١٣

يا من تقرئين رسالتي، إليك مفاتيحها.

لا أتوقع منك ردودا أو تجاوبا، وأنا الذي وصلت دون سابق إعلام، واقتحمت خلوتك دون استئذان. سيكفيني أن تقرئي. وربّما تتساءلين في حيرة بينك وبين نفسك، من ذا الذي يجرؤ؟ وذلك غاية ما أرجو، أن أثير قدرا من فضولك واهتمامك.

سأكتب إليك، كأنّني أكتب إلى نفسي، بلا حواجز أو اعتبارات. وذلك ممكن لأنّك لا تعرفين من أكون. واختفائي وإخفاء هويّتي قد يبدو لك جبنا.. لكنّه يمنحني مساحات من الحريّة لا تتوافر في الظروف الطبيعيّة لأيّ محادثة بين اثنين، ويحرّرني من الحياء والخوف، ويفتح بوابات الصّراحة على مصاريعها.

دعيني أؤكد.. أنت لا تعرفينني! لا تبحثي عن وجهي في دائرة معارفك والمقرّبين منك، فإنّ موقعي حتما خارجها. خارجها تماما. حتّى أنّني لا أعرف كيف يكون صوتك. لكنّني أحفظ الملامح والابتسامة. ولا تسائلي أين سبق والتقينا، لأنّنا لم نلتق. لذلك لا تشغلي نفسك بمن أكون، فإنّني لا أريد أن أكون أمام عينيك.. سوى كلمات.

ها أنّني قد سلّمتك المفاتيح، فافتحي الأبواب!

***

١٩٩٩/٠٧/١٥

الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، والنعاس يجافيني. لديّ الكثير لأحكيه.. لكنّني ترقبت بعد رسالة الأمس، علّك تردّين. لكنّك لم تفعلي. إنّي تناقض في ألّا أتوقّع منك ردًّا، لكنّني في حقيقة الأمر أطمع في أن تفعليها وتردّي؟!

أنت لن تردّي إذن، وأنا سأثرثر كما أشاء.

لو كنت عرفتني في حياتي السابقة، منذ سنوات، لما خلت جملة في نصّي من «أناه» و«أنا». لعلّها نرجسيّة شفيت منها؟ أو ربّما فخر مشروع بما حباني الله به من نعم؟ أمّي كانت تقول أنّ «عقلي يزن البلد»، وتتنبّأ لي بمستقبل لا تضاهى نجاحاته. كنت قد بدأت السلّم من منتصفه، لا من أسفله، متفوّقا على أقراني في بنية الجسم ورجاحة العقل وجمال الخلقة. أترين؟ أقول «كنت». لم أعد أثق بما أنا عليه الآن. بل، أعلم أنّ جسمي ما زال على متانته وعقلي على نجابته وملامحي تحتفظ بوسامتها رغم ما مرّ عليها من نوائب.. لكنّ المشكلة في قلبي، فقد شاخ قبل الأوان. وها أن لقاءك ينفض ما علاه من رماد ويحرّك جذوة قد انطفأت.. أو كادت تنطفئ.

هل تعلمين؟ لقد توقّفت عن الإيمان بالأشخاص منذ سنين، منذ خيبتي الأولى. بل لعلّي انتظرت الخيبة الثانية لأتوقّف عن الثقة في الآخرين. لست انطوائيا منعزلا سريع التأثّر، ولا متهوّرا مندفعا غزير العاطفة، ولست أحمّل الأمور أكثر ممّا تحتمل. لكنّني بُليت بطعنات متتالية دفعتني إلى مشارف الهاوية. حتّى فكّرت في إنهاء حياتي مرّات، وحاولت مرّة. فلماذا أتعلّق بك؟ وأنت شخص فانٍ كالآخرين.. وقد تخذلينني مثلهم؟ وما أدراني بأنّك أهل لثقتي ومشاعري وأنا لا أعرف

عنك إلّا أقلّ القليل؟ لكن ليس بيدي حيلة. أعلّق قلبي بك عمدا، كمرساة تشدّني إلى الحياة.. حتّى لا أفقد الأمل، مرّة أخرى.

حين دخلت السّجن، بدا ذلك ابتلاءً يكشف عن أصالة معدن الرّجل. فرحت بالاختبار على صغر سنّي وأبديت من الجلد ما أغاظ جلّادي. الصّبر والثّبات على أرض المعركة، معانٍ تشرّبتها طفلا ومراهقا وتغذّتني آمال البطولة، حتّى آن أوان الاختبار على أرض الواقع. لكنّ تكرار المحنة واجترار الألم يفعلان بالقلب الأفاعيل. مرّة تلو مرّة أعبر الممرّ طويل، بطول الصّراط يوم القيامة -في عينيّ آنذاك- وأدخل غرف التحقيق التي فيها تهدر الإنسانية، ولا يتردّد في جنباتها غير الأنين والصراخ. وتفتر الابتسامة عن وجهي، مع إلحاح السّؤال القاسي.. إلى متى هذا العذاب؟

كنت أعود إلى زنزانتي -بعد ساعات التحقيق المرعبة- يقودني جلّاد فظّ، يطاردني بالسّياط والسّباب. وفي الزنزانة التي تشبه القبر، أتكئ بظهري إلى جدارها الحجري، واهن الجسد، معذّب الرّوح منهك الحواسّ من شدّة الضّرب والتعذيب. أضع رأسي بين ركبتيّ، أختبئ من نفسي ومن العيون التي ترقبني. أتمنّى ألا يرى ضعفي أحد من رفقاء المحنة. لكنّ عجزي مفضوح رغم العتمة، الخور يتسلّل حتّى يسيطر على ذاتي المحطّمة.

وتسيل دموعي الحرّى، وتتساقط على أرض المهانة، التي خلتها يوما موطني الذي أحب. لقد سرقوا الأوطان وسرقوا معها مشاعرنا الجميلة. ثمّ حين تهدأ لوعتي، تجري على لساني كلمات أبيات من النونية الشهيرة للشيخ القرضاوي، فأرفع بها صوتي قليلا.. وكأني أعزّي بها نفسي الممزقة، وأضمّد جراح روحي، وأشدّ من أزر عقلي المهزوم المشتّت، مردّدا -بين دموعي- في صوت شجيّ:

تالله ما الدّعواتُ تُهزَمُ بالأذى — أبدًا وفي التاريخِ بِرُّ يميني

ضع في يديّ القيدَ ألهِب أضلُعي — بالسّوطِ ضع عُنُقي على السّكّين

لن تستطيعَ حصارَ فكري ساعةً — أو نزعَ إيماني ونورَ يقيني

فالنورُ في قلبي وقلبي في يديْ — ربّي وربّي حافظي ومُعيني

سأظلُّ مُعتصمًا بحبلِ عقيدتي — وأموتُ مُبتسمًا ليحيا ديني

وأنتبه على صوت نشيج مكتوم من رفقاء الزنزانة، وقد هيّج النشيد مشاعرنا فعرّى ما نكتمه عن بعضنا من ضعف. ويبقى الكل في صمت، فقد كانت الدموع أبلغ من أي قول.

حين حُرِمت من مواصلة الدّراسة، ورأيت آمال المستقبل تتحطّم أشلاء، غلبت المرارة على طعم البطولة الموهومة. ها أنّني قد دفعت سنوات الشباب الغالية لأحصد علامات شائهة على البدن وجروحا غائرة في الكرامة ونزيفا مستمرّا للأمل. بعد أن كنت أسدا يصول ويجول في ساحة الكليّة، أصبحت عاطلا متبلّدا لا يغادر غرفته. هل يبقى للحياة معنى بعد ذلك؟

قلت أنّني خُذلت من قبل من أهديتهم ثقتي، أولئك الذين شاركتهم القضيّة. بعد فترة سجني الثالثة، بحثت عن رفاق الأمس، فلم أجد لأحدهم حسّا. ألفيت قسما منهم قد سارع بالهجرة قبل أن تطاله ألسنة اللهب. يهرب مخلّفا البلاد رمادا وقد وارى الثرى كلّ أحلام الأمس.. وقسم لفظه السّجن بعد سنوات من العذاب كانت كفيلة بوأد بذرة الحياة داخله. يتجاهل بعضهم اتصالات البعض الآخر، ويشيح بوجهه ويقطع الطريق إذا ما جمعهم رصيف واحد. الكلّ مراقب والوشاة كثر، والكلّ يشكّ في الكلّ. أنت لا تُجلب إلى غرفة التحقيق إلّا إذا وشى بك أحدهم أو جاء ذكرك على لسان آخر، ولو عرضا.. الكلّ مضطرّ لذكر اسم أو أكثر ليخفف عن نفسه جرعات

الألم، وليرضي نهم المحقق السادي لمزيد من الأسماء، فيكف عنه الضرب، وتتوقف طاحونة العذاب الجهنمية ولو مؤقتا. وكلّ اسم يذكر سيأتي عليه الدّور عاجلا أم آجلا. يعتذر إليّ والد أخ عزيز.. «اغفر لأخيك، فقد ذكر اسمك في التحقيق مضطرًا، يجب أن تتوارى عن العيون!».

أتوارى عن العيون؟! إلى متى؟

إن لم تكن صفعة على وجوههم وشوكة في حلوقهم، فما جدوى العيش؟

حين ألفيتني لا أصلح شوكة في حلق أحد، قرّرت إنهاء حياتي.

كان ذلك بعد أن خُذلت للمرّة الثّانية.

كنت قد خطبت زميلة لي في الكليّة، سبقتني في إنهاء دراستها مع توقف مساري الدّراسي مرّة إثر مرّة بينما واصلت هي صعود السّلم الذي تركته غير بعيد من الثلث الأخير. كنت قد رأيت فيها مواصفات فتاة الأحلام، من خلق رفيع وأدب جمّ ونسب شريف وشكل حسن. بعد أن صدر بحقي الحكم الأخير بقضاء ثلاث سنوات وراء القضبان، أرسلت مع أخيها تبلّغني ألا طاقة لها على الصّبر أكثر!

هل تعلمين؟ لا ألومها. ومن ترضى بزوج خرّيج سجون، ما يكاد يغادر السّجن إلا وحنّ إليه من جديد؟! كلّ امرأة تبحث في نصفها الآخر عن استقرار وأمان وسكن.. وما كنت عليه كان غير ذلك. أكون حمّلتها ما لا تطيق، حين طمعت في بقائها في انتظاري؟ أكون قد غاليت في أحلامي حين تمنّيت أن تكون ذكراها بلسما يورثني الرّضا في ظلمة سجني؟ وأن يقيني بريق الأمل متيقظا، مترقّبا مستقبلا جميلا يجمعنا؟ ليست كلّ النّساء تتحمّل أن تكون شاطئ الأمن الذي يرنو إليه الرّجل، ويتوق إلى أن تبرأ جراحه على يديها. أم لعلّ جراحي

أخافتها؟

لم أسألك بعد، وأنت هل تخيفك جراحي؟ لا أبحث الآن عن جواب. لن أقترب حتّى لا تجفلي وتنفذي بجلدك. لكن فكّري في هذا.. ما الجدوى من حياة لا تكون فيها جزءًا من شيء عظيم؟ هذه الحياة التي أعيشها منذ تلك الأونة، تتساوى والعدم. أن أعيش من أجل نفسي وحدها، أيّ سموّ في هذا؟ لذلك لست نادما على ما قدّمت وما خسرت، ولو رجع بي العمر إلى الوراء لكرّرت الأمر نفسه. كنت لأندم لو أنّني لم أحاول ولم أسخّر نفسي من أجل قضيّة آمنت بها.

الهزيمة مرّة.. لكنّ العجز أمرّ.

•••

١٩٩٩/٠٧/١٦

حين تلاشت كلّ آمالي في تحسّن الوضع، اشتريت علبة حبوب منوّمة، وابتلعت حبّاتها واحدة إثر الأخرى، في هدوء تام. ثم استلقيت على السّرير، راجيا أن أستيقظ في مكان آخر.. في مكان بعيد عن حياتي الموبوءة. في العالم الآخر، حيث لن تطالني أيدي البشر الآثمين الظالمين.

لكنّني فتحت عينيّ، لأجدني في نفس الموضع، بعد أن غرقت في غيبوبة عميقة لساعات طويلة! لم أستوعب أبدا كيف فشلت تلك الكميّة المركّزة من المخدر في القضاء عليّ! تعرّقت أنهارا وتقيّأت مرارا، ثمّ فقدت الوعي تماما، لأستيقظ بعد ساعات على صداع حادّ واضطراب شديد. اكتشفت مذّاك مهربا مثاليا لمعاناتي. كنت في الفترة التي سبقت تلك المحاولة أعيش اكتئابا حادّا يصيبني بالأرق معظم الليالي. الحرمان من النّوم كان شديد الأثر على مزاجي، وتلك

النومة الطويلة -التي أردت لها أن تكون الأخيرة- كانت بداية إدمان خارج عن السّيطرة. كنت في حاجة إلى النوم، الكثير منه.

بعد أسبوع أرغمت فيه عقلي على راحة قسريّة، عبر الحبوب المنوّمة، اتّصلت بوالدي وقلت في حزم: لم أعد أطيق صبرا على هذه الحال.. سأهاجر!

وهكذا هاجرت.

عدت أصعد السلّم من بدايته وقد فقدت الأسبقيّة وكلّ الامتيازات القديمة. عدت أكافح يوما بيوم، أقاتل لأبقى.. عَلّي ذات يوم أحيي القضيّة التي ما عادت تهمّ أحدا. حين يمرّ المرء بما مررت به، يصبح الحاضر هو كلّ شيء. اللحظة الرّاهنة هي كلّ ما أملك. لا خيال. لا أحلام. لا آمال زائفة. حتّى وأنا أكتب إليك، أنحّي كلّ أمل مغرٍ بأن تقابلني وتهتمّي لأمري. أضع تركيزي على الكلمات التي تشاركها وحدها.

أرى كوابيس منذ أيّام. أرى جلّاد الأمس، وظلمة الحبس.

لكنّ أسوأ مخاوفي، هو غد لا أراك فيه.

***

١٩٩٩/٠٧/٢٢

أخّرت هذه الرّسالة متعمّدا.. أترك لك المجال لتستوعبي الرسالة الأخيرة.

كم أبدو يائسا ومثيرا للشفقة، بعد كلّ الأزمات التي مررت بها وتخطّيتها، حين يكون منتهى رضاي في رؤية وجه لا يبالي بوجودي، فقط رؤيته والإحساس بابتسامته الدّافئة، وأنا أمرّ على مقربة دون إحداث جلبة أو جذب انتباه.

هذا مخيف. لا شكّ أن هذا يخيفك!

وربّما يملؤك غرورا.

سبق أن قلت أنّني لا أتوقّع منك ردّا. وأنت محقّة في تجاهلي، ولكنّني أطمع في يوم، تتحدّث فيه وجها لوجه.. وإن كنت لا أستعجله. فأمامي مشوار طويل، وأريد أن أقطعه وحيدا. حين أصبح جاهزا لمواجهتك، سأظهر أمام عينيك.

انتظريني، رجاء.

***

١٩٩٩/٠٧/٢٥

رحلة الفرار من بلدي كانت قاسية وطويلة. لن أسمي بلدي، ولا البلاد التي عبرتها حتّى حططت الرّحال في باريس، فأنا مصرّ على الغموض كما ترين. لن أترك بين يديك خيطا تتبعينه لاكتشاف هويّتي. هل أثرت فضولك؟ أتمنى ذلك.

خرجت في صندوق سيّارة نقل، مثل بضاعة مهرّبة، وعبرت الحدود. وبعد شهور انتقلت إلى بلد آخر بهويّة منتحلة. تنقلت لشهور بين مواطن شغل مختلفة، وتعلّمت مهارات حرفيّة عدّة، مع مجموعة من الشّباب المهرّب في ظروف مشابهة لظروفي، وانتظرنا في صبر أن تتاح لنا فرصة المواصلة إلى أوروبا.

كانت أوروبا حلمي، لسبب وحيد. كنت قادرا هناك على مواصلة تعليمي الذي حرمت منه في بلدي. والذي كان قادرا على توفير تعليم خاصّ لي في أيّ مكان من العالم يقع عليه اختياري. لكنّني في عناد شرس -ستعلمين أنّه طبع أصيل فيّ- أصررت على إعالة نفسي والإنفاق على دراستي حتّى الرّمق الأخير.

كانت مسألة كرامة واحترام للذّات، ولو أنّني تراجعت في أيّ لحظة

واقـررت بعجـزي، لتلقفتـني شـبكة الحمايـة الأبويّـة بترحـاب لا يـكلّ. أعـترف مـع ذلـك أنّـي طلبـت معونـة والـدي في مرحلـة واحـدة، مرحلـة الهرب. لـم أكـن قـادرا مـن موضعـي داخـل البلـد أن أدبّـر وسـيلة هجـرة مناسـبة، وأنـا الممنـوع مـن مغـادرة تـراب الوطـن. وقـد تدخّـل معارفـه بحنكـة في مختلـف مراحـل رحلـتي حـتّى تمّ تسـليم الطّـرد البشريّ الـذي كنتـه إلى صديـق باريـسيّ كان في انتظـاري.

في باريـس، بـدأت رحلـة أخـرى، مـن الوحـدة، الوحـدة الشـديدة.. رغـم وجـود أصدقـاء كـثر مـن حـولي، كنـت وحيـدا في تدبّـر أمـوري الماليـة ومقاومـة أمـواج اليـأس الـتي تـتردّد بـإصرار عـلى شـاطئي. ولـو أنّـي طلبـت المعونـة في أيّ وقـت، لوجـدت مـن يلـبّي. لكنّـني أخفيـت ظـروفي الحالكـة عـن رفـاق بعنـادي المعهـود، وامتنعـت عـن الشّـكوى. أشكو للمرّة الأولى، إليـك أنـت. فالوحـدة قاسـية، والليـل شـديد الظلمـة عـلى القلـوب الوحيـدة.

***

١٩٩٩/٠٧/٢٧

الليلة عيد مولدي.

الأجـواء مـن حـولي ليسـت احتفاليّـة أبـدا. فوطـأة السّـنوات الـتي تمـرّ بي غـير عابئـة ثقيلـة عـلى صـدري. لا معـنى للاحتفـال لمـن هـم مثـلي، يهابـون رحيـل الشّـباب. لـم أحتفـل كثـيرا حـتّى في المـاضي. لـم يكـن تقليـدا معتـبرا في عائلـتي. ربّمـا كان احتفـالي الأوّل والأخـير حـين أحـرزت شـهادة ختـم التعليـم الثانـوي، وتهيّـأت لـوداع عائلـتي والرّحيـل إلى الجامعـة. كان أشـبه بحفـل وداع.

لكنّـني اليـوم تلقّيـت الكثـير مـن الاتّصـالات الـتي تتمـنّى لي يـوم مولـد سـعيدا. شـعرت بوحـدة أقـل، وابتسـمت أكـثر. لكـنّ هـذا لا ينفي

الإحساس بسنة أخرى قد ولّت.

***

١٩٩٩/٠٧/٢٩

ما زلت مصرّة على التّجاهل؟

تمنّيت أمنية منك بعام سعيد، لكنّني قد لا أحصل عليها في وقت قريب.

ولأنّني قد ثرثرت كثيرا واستنزفت رغبتي في الاسترسال، سأتوقّف الآن.

-٤-

توقّفت فجأة عن الكتابة كما بدأت. كنت مدفوعا برغبة ملحّة للفضفضة، وقد انحسرت الرّغبة مثلما جاءت. كأنّك شعرت بثقل تلك المحادثة أحاديّة الجانب، وانتابك خجل من نفسك. كم كنت بائسا ومثيرا للشفقة!

أم لعلّه وعيك بسنتك الثالثة والثلاثين وهي تصير حقيقة، وأنت ما زلت على مقاعد الدّراسة؟

في الأيام الأولى التي تلت تفريغ شحنتك من الكلام، سيطر عليك إحساس بالنّدم. ما على هذا نشأت وتربّيت! كيف تقتحم حياة الفتاة الغافلة عنك وبأيّ صفة؟ ألست تفتنها وتفتن نفسك بحديثك المتهوّر عن المشاعر والتعلّق؟ ألا تشبه الآن الشباب المائع والمتهوّر، تتسلّل من الباب الموارب وأنت لا تملك نيّة في ارتباط رسميّ؟ تريد أن تحجز قلبها، فلا يسرقها منك أحد؟ ما هكذا تكون شيم الرّجال!

ثمّ فترت الملامة شيئا فشيئا. أنت لم ترتكب إثما. لم تواعدها سرّا ولم تختل بها. لم تغازلها صراحة ولم تدعها إلى ما يغضب الله. سيغفر الله لك فيض العاطفة الذي لم تملك السّيطرة عليه. استمررت تفتح البريد بشكل يوميّ. تعيد تلاوة رسائلك البليدة طالما لم يرد ردّ من طرفها. ثمّ تتوقّف أمام كذبتك الصّغيرة. كنت تكذب بشأن الصّوت. فقد سبق لك سماع صوتها.

كان رقمها معك، وكان صوتها متاحا على الطّرف الآخر. وماذا فعلت بالرّقم الثّمين بعد أن غنمته؟ لا أنت طرقت الباب حتّى تسمع جوابها، ولا أنت حاولت حتّى المعاكسة الهاتفية المنتشرة

تلك الأيّام بين صفوف الشّباب والمراهقين. كنت أجبن من الإقدام على الاقتراب من دائرتها، فقنعت بالفتات. كنت تتّصل بها بعد أن تحجب رقم المتّصل، وتستمع في صمت وأنفاس محبوسة إلى صوتها وهي تقول مرّة بعد مرّة: ألو؟ من معي؟!

نعم، كانت تلك أول كلمات بصوتها تصل إلى سمعك موجهة إلى ذاتك أنت دون غيرك!

أيّ اكتفاء بلغته بمحاولاتك اليائسة تلك؟ ظللت ما يقارب سنة، تواظب على تلك الاتّصالات السّخيفة. كلّما أصابك أرق أو شغلك شاغل، وجدت نفسك تتسلّل بالاتّصال بها، تستمع إليها تقول «ألو» ولا تردّ بحرف واحد. وما الذي كنت لتقوله بأيّ حال؟ إنّي يا فتاة أكبرك بثلاث عشرة سنة، ولكنّني لمّا أتخرّج في الجامعة بعد. أدرس صباحا وأعمل مساء، أغسل الأطباق في مطعم. سجين سابق وممنوع من زيارة بلدي، لكنّني أطمع في ودّك؟ كان تقديرك لنفسك منخفضا حينها. قبل بضع سنوات، كان تقديرك في أعلى مراتبه. كنت ترى نفسك شيخا حافظا، وطبيبا في المستقبل القريب، ومجاهدا في سبيل الله.

تلك التّجربة كسرت نفسك.

لكنّك قرأت في نظرتها حينما التقيتما في المدرّج مرّة أخرى ما أرعبك. إنّها تعرفا أوّلت نظرتها القصيرة المتواطئة وبسمتها الخفيفة حين لمحتك أعلى المدرّج في مكانك الاعتياديّ، وجزمت بأنّها حزرت، فتعرق جبينك، وتسارعت دقّات قلبك. تستعيد الآن المشهد بتفاصيله بالتّصوير البطيء... التفتت بعفويّة، تحدّث زميلتها الأقرب إلى مجلسها، ثمّ ارتفعت عيناها إلى الصّفوف الخلفيّة. وخلال ثوان التقت عيناها بعينيك. كانت تعلم أنّك هناك.. مثل عادتك. هل

كانـت الابتسـامة تخصّـك، أمر أنّها بقايا محادثتها الحديثـة مـع جـارة المـدرّج؟ لـم تكـن واثقـا البتّـة مـن أيّ شيء، لكنّـك أيّها المريـب تـكاد تقـول خـذوني! لـو أنّها لـم تشـكّ ولـم تحـزر، فإنّ ارتبـاكك لحظتها قـد يكـون حـرّك رمـاد الشـكّ فحوّلـت انتباهها إليـك.

هـل كانـت صدفـة أخـرى، أن تكـون أوّل محادثـة مباشرة بينكما بعـد ذلك بأيّام؟

كنـت في المكتبـة، تنسـخ اختبـارات السّـنوات الماضيـة. كنـت تضـع أوراقـك عـلى المنضـدة، تتناولهـا واحـدة إثـر الأخـرى وتضعهـا عـلى اللـوح الزّجاجـي للماسـح الضـوئيّ، ثـمّ تطبـق عليها غطـاء الآلـة، حـين ظهـرت أمامـك. ألقـت نظـرة عـلى المنضـدة، ثـمّ بادرتـك دون تفكـير:

- هل يمكنني أن أنسخها منك حين تنتهي؟

هـل باغتتـك مبادرتهـا؟ فقـد ارتبكـت، وتلعثمـت. لكنّـك تداركـت الأمر سريعـا. أعـددت نسخة إضافيّة للرّزمة من أجلها، ثمّ أخذتها إلى طاولتهـا. حـين صرت عـلى بعـد خطوتـين منهـا، سـمعت صوتها خافتـا وهـي تهامـس جارتهـا:

- انقطعت الرّسائل فجأة. ربّما لأنّني لم أردّ.

ستحبس أنفاسـك مـرّة أخـرى وأنـت تطالعهـا في جمـود، مثـل تلـك اللحظـات الـتي تقبـع فيهـا سـاكنا عـلى طـرف الخـطّ تسـمعها تقـول «ألـو»، بينمـا تحـاول صديقتهـا التكهّـن:

- هل تظنينه معنا.. في الكليّة؟

تهـزّ كتفيها علامـة الجهـل ثـمّ تسـترسل غـير منتبهـة لوجـودك خلفهـا تماما:

- إحسـاس غريـب، أن تكـوني مراقبـة! قـد يكـون في أيّ مـكان.. في نفـس الوقـت، أشـعر بأنّـي سـأتعرف إليـه إن لقيتـه.. شـخصيّته حـاضرة بشـدّة

في رسائله، ولا شكّ أنّ شيئا ما سيدلّني عليه! سأعرفه حين أراه!

تسمّرت مكانك، ترتجف فرقا. تتحيّن التفاتتها التي ستؤكّد شكوكك. عرفتك!

لكنّها ستلتفت، وتبتسم في امتنان لا تشوبه شائبة وهي تتسلّم منك رزمة الورق، لتتبيّن أنّ فراستها المزعومة محض أوهام. بعد أن تبخّر القلق، ستحتفظ بذكرى الابتسامة المنعشة لوقت طويل. كما ستمتدّ جسور التواصل بينكما منذ ذلك اللقاء. ستحظى بمرآها كثيرا في فضاء المكتبة الذي تبيّن أنّه المكان الأمثل لمحادثات عفويّة وقصيرة متكرّرة. تعليقات ساخرة من المحاضرة، أو استفسارات سريعة عن نقاط مبهمة من الدّرس الصّباحيّ. كم أخذت من الوقت لتستوعب أنّها كانت تخلق الفرص وتمهّد الطريق التي ستسلكها أنت باتّجاهها؟

ومع ذلك، فقد بقي السّؤال الملحّ معلّقا طيلة تلك الفترة. هل عرفتْ لاحقا -في وقت ما- أنّك أنت مراسلها المجهول؟ لم تكن قد ردّت على خواطرك مرّة واحدة. وكنت قد توقّفت عن هلوستك الصيفيّة إمعانا في الحذر. أيّ رسالة إضافيّة قد تكون فخّا تنصبه لنفسك فتكشفها.

الفصل الثاني

- ازدواج -

-١-

كانت عائلتك في تونس قد عرفت فجر الصّحوة الإسلاميّة الأولى، فقد كان خالك عمّار -أقرب أخوالك إليك- ذا صلة وثيقة بروّاد حركة «الاتّجاه الإسلاميّ» أو «الجماعة الإسلاميّة» التي عرفت خطواتها الأولى في أواخر السّتينيات وبداية السّبعينيات، وقد جمعته برموزها ومؤسّسيها الأوائل علاقات وديّة، تصل إلى الزيارات العائليّة والتّواصل الاجتماعي. كان ذلك قبل أن يُنفى من نفي ويُسجن من سجن، وينفرط العقد في أصقاع الأرض.

لكنّك تذكر في طفولتك الغضّة تلك كيف كانت حلقات الدّعوة ومجالس العلم التي تُعقد في منزل خالك أحيانا، فتحضرها وأنت الصبيّ الذي لم يبلغ الحلم، ملتصقا أولا، ثمّ كجزء لا يتجزّأ منها في وقت ثانٍ، منتبها لكلّ حرف يقال، تكتشف العالم بعيون نضجت قبل أوانها.

كان خالك عمّار ينتبه لوجودك عند المدخل، مترددًا في الولوج، فيناديك مبتسما:

- تعال يا مالك!

ثمّ يقدّمك لضيوفه في فخر، ويبادرك مشجعا:

- هلّا أسمعتنا شيئا من حفظك؟

فتنزل على ركبتيك، وتأخذ ترتّل آيات ممّا تحفظ من ذكر الله. فإذا ما فرغت، ربّت على كتفك مستحسنا ودعاك إلى الجلوس على يمينه، وهو يهمس لك:

أصغ في سكون، وتعلّم.

ستذكر تلك المجالس لاحقا بكلّ زهو أمام أقرانك في كلّيّة الطبّ، بعد أن يصل مدّ الدّعوة إلى الجامعات وتستوطن الحركة في الأنشطة الطلّابيّة، أنّك عرفت الطريق قبلهم جميعا، وجاورت الرموز الذين يتطلع إليهم الشباب المبهور باهتمام، بل طعمت من نفس الموائد وحاذيتهم في المجالس!

ولعلّ تلك الذكريات البعيدة لم تكن لتظلّ قويّة واضحة في ذهنك لولا هجرة خالك المستعجلة وأنت في سنّ الثامنة. فكلّما ذكرت طفولتك ومغامراتك الأولى في تونس، ظهرت أمام عينيك بسمة خالك عمّار تفترّ عن صفّ من الأسنان البيضاء الناصعة، وهو يربّت على رأسك ويقدّمك لضيوفه في مجلسه ذاك. ستحتفظ لتلك الذكريات بطعم حامض، تماما كطعم الزيتون الذي تلتقط حبّاته خلسة من أطباق المقبّلات المقدّمة للضيوف.

هاجر خالك أوّلا، ثمّ مهّد لوالدك الطّريق وعبّدها، وحثّه على الالتحاق به بعد أن استقرّ في الرّياض، يدرس الوضع ويقيس الفوائد بمقاييس الدّنيا والدّين، حتّى خلص إلى أنّ المملكة السّعوديّة هي الموقع المناسب للمرحلة.

إذن سافرت وعائلتك إلى المملكة سنة ١٩٧٥، حيث استقرّ بك المقام زهاء عقد من الزّمن، أو دون ذلك قليلا، ولعقود طويلة أخرى بالنسبة إلى والديك. أمّا خالك عمّار فقد سبقك بالعودة كما سبقك بالهجرة.

كان والدك مهندس بترول، في زمن احتلّ فيه النّفط مركز اهتمام العالم، وكانت الفرص مواتية هناك. ولم يكن ما اجتذب والدك إلى المملكة بريق الذّهب الأسود وحده، فقد كان كذلك رجل علم

ودعـوة. وقـد تمنّى لـك وإخوتـك أن تنهلـوا مـن منابـع العلـم الشرعيّ علـى أيـدي مشـايخ لا تطاردهـم الحكومـة ولا ينظمـون حلقاتهـم خفيـة!

في وقـت مـضى، كان جامـع الزّيتونـة العريـق في تونـس العاصمـة ينافـس الأزهـر الشريـف مـن حيـث الإشـعاع الدّيني عـلى المنطقـة. كان رجـال العلـم مـن مشـارق الأرض ومغاربها يقصدونـه لإكمـال دراسـتهم العليـا في الدّراسـات الشرعيّـة والأدبيـة، وقـد لعـب دورا تاريخيّـا في مقاومـة الاسـتعمار الفرنـسيّ. لذلـك فقـد رأى المسـتعمر وهـو ينفـض كفّيـه مـن المسـألة التونسـيّة رافعـا حمايتـه المزعومـة، أن يـترك مسـؤوليّة هـدم الكيـان الزّيتـونيّ للتونسـيّين أنفسـهم. لـم يفلـح الاسـتعمار في اجتثـاث الثقافـة الإسـلاميّة مـن جذورهـا، لكنّـه فـوّض المهمّـة لحكومـة الزعيـم «بورقيبـة» النّاشـئة. خـلال السّنـوات الأول مـن تاريـخ الاسـتقلال، سـيعمل بورقيبـة عـلى تقويـض «الرّجعيّـة» وتدعيـم أسـس «الحداثـة» فيمـا يُسـمى سياسـة «تجفيـف المنابـع». سـيغلق الجامعـة الزيتونيّـة؛ لينتهـي عهـد التعليـم الزّيتـونيّ مـرّة واحـدة، وتصبـح واحـدة مـن أعـرق الجامعـات في العالـم الإسـلاميّ طـيّ النّسـيان. وبعـد أن كانـت تونـس تُصـدّر الفكـر والثّقافـة، سـيلجأ مثقفوهـا في ستينيات القـرن العشريـن إلى اسـتيراد فكـر «مالـك بـن نـبي» مـن الجزائـر و«سـيّد قطـب» مـن مـصر، لتتشـكل الخليّـة الأولى لمـا عرفتـه طفـلا بالجماعـة الإسـلاميّة.

كان لخالـك عمّـار أبلـغ الأثـر في تكويـن لبنـات الأسـاس لشـخصيتك في تونـس طفـلا وفي الرّيـاض مراهقـا وشـابًا. كان الشّـمس الـتي سـطعت في سـنوات عمـرك الأول فملأتهـا ضيـاءً ونـورا. وكان القمـر الـذي بانعكاسـه اهتديـت في فـترة شـبابك المتخبّـط المندفـع. فقـد كان لعلاقتـك بـه مـن الخصوصيّـة والشّـأن مـا أثـار طويـلا غـيرة الكثـير مـن الأقـارب والأقـران. رغـم فـارق السـنّ، الـذي يتجـاوز الأربعـين عامـا، كان أحدكمـا للآخـر صاحبـا مقرّبـا وأمـين سرّ لا ينـازع منزلتـه أحـد.

أينما حلّ خالك، كان مجلسه قبلة للسّياسيين والعلماء والدّعاة والمفكّرين. وكما تفتّحت براعم عقلك في صالون منزله في الضّاحية الشّمالية للعاصمة التونسيّة، فقد نضجت ثماره في مجلس قبلته الفخمة في العاصمة الرّياض.

وقد كان يحتفي بك بشكل ملحوظ، ويستقبلك استقبال النّدّ للنّد في مجلسه العامر على الدّوام بزوّار ذوي شأن في الحركة الإسلاميّة من كلّ أنحاء العالم الإسلاميّ. كان ينصت باهتمام لما تقول، ولا يصغّرك أبدا في عيون ضيوفه ولا عيني نفسك، وأنت الأصغر سنّا غالبا في ذلك المجلس، وبالطبع مقاما.

وكان يخلو بك كثيرا في مكتبه الخاصّ حين يخلو المجلس من الزوّار، يجاذبك أطراف الحديث. فتطرح أسئلتك كما يحلو لك، عن الأوضاع السّياسيّة والقضايا الفكريّة والشؤون الفقهيّة والمسائل العقديّة.. فتنهل من بحر علمه وتستزيد من واسع معرفته واطلاعه. لم يكن يخفي عليك أشدّ الأمور حساسيّة وأكثرها حرجا وأهميّة، فتستشعر المسؤوليّة تجاه تلك المعلومات التي لم تكن في متناول أيّ كان.. فقد كانت تمسّ الشأن السّياسيّ لعديد الدّول من أحداث كانت تجري في ذلك الحين، كالثّورة الإسلاميّة في إيران، وحرب الخليج الأولى، ومأساة الإخوان المسلمين في سوريا وانطلاق شرارة الجهاد الأفغاني.

يقول لك في لهجة جادّة:

- نحن لا نقرأ التاريخ.. وإذا قرأناه، كانت قراءتنا سطحيّة. لا نعتبر ولا نتعلّم الدّروس. لذلك تكرّر الأمم الأخطاء ذاتها، وتتكرّر المآسي والنّزاعات الخرقاء!

فترة معترضة:

- أيّ تاريخ نقرأ يا خال؟ أليس ما نتعلّمه تاريخا مزيّفا مغلوطا يكتبه المنتصر؟ قبل أن نقرأ التاريخ، وجب أن نحقّق تاريخنا ونعيد كتابته!

يبتسم مستحسنا ثمّ يضيف في ثقة وتؤدة:

- تذكّر يا مالك أنّ الناس على صنفين.. فئة قليلة تصنع الحدث، ليكون هو التاريخ.. وأخرى كثيرة تحرّره أو تقرؤه. ونحن يا بنيّ ممن يصنعون التاريخ.

لكنّك تردّ في إصرار:

- مشروع إعادة كتابة التاريخ.. ألا يبدو هذا هدفا ساميا يستحق العمل عليه؟

- ليس الآن يا بنيّ، وليس أنت.. ستكون جرّاحا عظيما أوّلا. ألم تتّفق؟

ثمّ تضحكان في مرح. لم تكن حينها قد جاوزت السّادسة عشرة. لكنّه يحدّثك مثل رجل راشد ومسؤول.

خالك عمّار وحده كان واحتك الخصبة التي استظللت بظلها لسنوات، فما جفّت ينابيع روحك في صحراء المملكة القاحلة، بل تدفّقت وازداد معينها. كنت تعلم بلا ريبة أنّ ما كنت عليه من قدرة هائلة على الإبحار في علوم الدّين والتمكّن من ناصية اللغة وعلوم السّياسة والمجتمع، كان الفضل فيها بعد الله إلى هذا الخال العظيم. وسيبقى الأمر كذلك طويلا، حتّى رحيله سنة ١٩٩٩ بعد أن أقعده مرض عضال لحقه جراء سنوات السّجن الطويلة. لذلك، كان من المحتّم أن تتكفّن على وجهك كالأعمى، بعد أن انطفأت شمسك وغاب قمرك، دون أن تسنّى لك فرصة وداعه مرّة أخيرة.

كان من المخطّط لك منذ البداية أن ترجع إلى تونس، بعد ما

يقارب العقد من التحصيل المكثّف على جميع الأصعدة، لمواصلة تعليمك الجامعيّ. مثلما توقّعت، وتوقّع الجميع من حولك، أحرزت المجموع الذي فتح أبواب الخيارات أمامك، فانتقيت كلّيّة الطبّ، فتغرّبت للمرّة الثانية، في وطنك.

رجعت صيف ١٩٨٣، وأنت ذاك الشاب اليافع ذو الثمانية عشر ربيعا إلا نيف، مسلّحا بإيمان عميق راسخ، وذخيرة فكريّة تزعم أنّها لا تتوافر للكثيرين ممّن هم في مثلك سنّك. كنت تحفظ المتون الشرعيّة من الكتب بهوامشها وأرقام صفحاتها، فضلا عن القرآن الكريم كاملا، وأنت لمّا تجاوز الخامسة عشرة. وكان شغفك بالقراءة لا حدود له، ونهمك العلميّ الذي غذّاه المحيط الأسريّ يتواثب في صدرك. كانت أختك الكبرى قد دخلت قبلك كلّيّة الصيدلة في مدينة المنستير، وأخوك الأكبر قد انتسب إلى كلّيّة الهندسة في مدينة سوسة، غير بعيد عنها، في حين استقرّ بك الحال في تونس العاصمة وحيدا.

كان ذلك رصيدك الذي واجهت به عالم الجامعة المثير، مغتربا عن أسرتك، بلا رقيب ولا سائل، وكلمات خالك عمّار، الذي استقبلك في المطار ووضعك تحت جناحه حتّى تجاوزت صعوبات الاندماج الأولى، تتردّد في ذهنك:

- أن تعيش تجربة الجامعة في مجتمع منفتح، وتحافظ فيه على مبادئك، فأنت مأجور أكثر ممّن ينأى بنفسه عن هذه التحدّيات.

قرّرت منذ البداية أن تحافظ على سمتك الإسلاميّ الذي اعتدته في المملكة. فتركت لحيتك الغضّة كما هي، وكانت بلا جدال تنمّ مباشرة عن هويّة صاحبها، في مجتمع لا يعتبر اللحية في تلك السنّ المبكّرة أمرا طبيعيا. وقد كانت الجامعة حينها تمور وتثور بمختلف تيّارات الفكر السياسيّ التي بدأت نشاطها على استحياء منذ عقد،

حين خلّفت البلاد مهاجرا، وعرفت سنواتها الذّهبيّة أوان رجعتك.

كانت الحركة الإسلاميّة الّتي تحاشت حتّى ذلك الوقت الدّخول في صراع مباشر مع السّلطة، تستقطب زرافات من الشّباب في المدارس الثانويّة والجامعات والمساجد. فشهدت في تلك الأيّام تظاهرات طلّابيّة جامحة، ولم تكن ذكريات «ثورة الخبز» بعيدة عن الأذهان. لم تكن للحركة آنذاك أهداف سياسيّة واضحة المعالم، بل كان تركيزها يقتصر على الصعيدين الثقافيّ والاجتماعيّ. ورغم أنّك لم تُضمر انضماما لكيان أو لآخر، فقد وجدت نفسك تُبحر مع التيّار وأمواج الحماس تجرفك. كانت تجربة مختلفة عن كلّ ما سبق. وكأنّك تتوّج مسيرة طالب العلم الّذي كنته بالعمل الحركيّ الّذي تمنّيته وأنت تقرأ عن الفتوحات والغزوات!

بيوت أعمامك وأخوالك كانت مفتوحة أمامك، لكنّك آثرت استئجار شقّة مفروشة لك وحدك. كانت إمكانات والدك المادية في الرّياض تسمح بتوفير ذلك المستوى من الرّفاهية، ولم تكن في تلك الفترة تمانع العيش في كنف رعايته المادّية. وسرعان ما تحوّلت شقّتك إلى مقرّ دائم لاجتماعات الحركة الطلّابية الّتي نشطت فيها بإثارة متّقدة. كنت تتلمّس الطّريق، تكتشف الحرّية والمسؤوليّة، وتعاني لكبح لجام نفسك الجامحة. وقد تهوّرت، وذقت الألم، وعرفت لحظات نصر شخصيّ لا تقدّر بثمن. كنت تتوق إلى القيادة، وإن عزفت عن الانخراط في الحركات السّياسيّة الّتي حاولت اجتذابك. أعرضت عن السّياسة، لكنّك لم تعرض عن مقاومة الظلم، واحتفظت طويلا بصفتك كمستقلّ غير قابل للامتصاص أو الذوبان في كيان لا يشبهك.

كنت تعدّ نشأتك في بيت عامر برجال الدّعوة مبنيّ على أسس عقائديّة سليمة، ميزة فريدة لا يعرفها السّواد الأعظم من المحيطين بك من «المهتدين الجدد». فالحال العامّة يسيطر عليها جهل دينيّ

مدقع، نتيجة عقود من الهيمنة الاستعمارية والعلمانيّة. وقد استمرّ يراودك ذلك الإحساس العميق بالتميّز، طفلا وشابّا، كلّما انتشرت وإخوانك في الشّارع بعد صلاة الجمعة بجامع «صاحب الطابع» وسط العاصمة، بأقمصتكم البيضاء، وشعوركم الطّويلة ولحاكم النّابتة، وبعضكم يعتمر العمائم. تنفتح أبواب الجامع على مصاريعها ويتدفّق الخلق خارجها، مثل مدّ جارف يغمر الطرق المجاورة، كأنّما سقطتم مباشرة من كتاب التاريخ، من القرون الهجريّة الأولى! كنت ترى نظرات التّعجب والذهول في عيون الناس على المحطة وداخل القطار، وكان ذلك الإحساس بدهشة النّاس الصّادقة يُشبع غرورك ويملؤك زهوا.

رغم عمق مشاعرك الإيمانية آنذاك وصدق طهارتها، فإنّك تستحضر تلك المشاهد من الذّاكرة بطعم سكّريّ حلو، كطعم تمرات الإفطار التي تلازم جيبك يومي الإثنين والخميس. كنت ترى نفسك ذا شأن عظيم. كنت تعتقد في إحرازك مرتبة عليا، ترفعك عن مستوى الجهلة والخطأة.

كنت...

مجدّدا، برعاية خالك عمّار، عدت لتجتمع بأولئك الذين عهدتهم طفلا طلّاب علم، وقد أضحوا في الثمانينيات زعماء وقادة. ستدخل بيوتهم هذه المرّة، وتتباسط معهم، يشاركونك اهتماماتهم، وتخرج محمّلا بالكتب. تروي شغفك للمعرفة وتتجرّأ بأسئلتك على تخطّي حدود اللّياقة أحيانا كثيرة، وتستغلّ سماحة مضيّفيك وسعة صدورهم، ثمّ تغيّر شيوخك كلّ فترة، إذا ما شحّ نبع الاستفادة المرجوّة، وتتحيّن فرص تحصيل جديدة أينما أتيحت. كنت تستزيد من العلوم في نهم، وتشبع اهتمامك تجاه الأشخاص الذين يذكرون في الاجتماعات الطلّابيّة بمزيج من الإعجاب والفضول. كنت قد غدوت

خلال وقت قصير موسوعة متنقّلة، وقد ألممت بمعالم التيّارات التي تحرّك الجامعة وفكرها وسبرت أغوارها عن قرب.

رغم اطلاعك على كل تلك الأفكار والأدبيّات، ولقاءك الكثير من قيادات العمل الإسلامي في الثمانينيات، وتشبعّك بالفكر الإسلاميّ، وحصيلتك القويّة التي تمثّل النّواة الصلبة لعقيدتك، وهي الفكر السّلفي.. رغم كلّ ذلك، لم تنخرط في عمل تنظيميّ، وبقيت معتزًّا بفردانيتك وأنت تستمتع بالتّغريد خارج السّرب. ولأنّ جزءًا واضحًا من شخصيتك كان «التمرّد على القيود»، فقد عرف كلّ من تعامل معك عن قرب وعرف طبعك عن إغراتك بالعمل التّنظيمي، فنأيت بنفسك عن كلّ شدّ وجذب.

كانت حصيلتك الفكرية ما تنفكّ تتضخم يوما بعد يوم، كنت تقرأ، وتناقش، وتحلّل، بل في أحايين كثيرة تخطب الجمعة في مصلّى الجامعة، وتؤمّ الطلبة. وكنت تعتكف سنويًا العشر الأواخر من رمضان سواء في مساجد العاصمة أو أحيانا في الرّياض حيث ظلّت تقيم العائلة، كنت شديد الثقة في إيمانك، وقربك من الله.. ما عدا تلك الأوقات التي تعلّبك فيها قصّة حبّ هوجاء، فتتعلّق بإحداهنّ، زميلة أو جارة، وتهيم بها.. ثمّ ما تلبث أن تفرّغ طاقتك العاطفيّة غير المنضبطة، وتتوب إلى رشدك، فترجع ذلك الشابّ المثالي مستقيم الأدب والخلق.

لم يكتب لك أن تحتفظ باستقامتك تلك إلى الأبد. فقد اقترن اسمك سريعا بحركات الشّغب. لولا تكرار دخولك السّجن وخروجك منه، لكنت قد تخرّجت طبيبا في بلدك. لكنّك بقيت على عتبات السّنة الخامسة. تعود إلى الكلّية وتعتقل فيها، وتستعدّ لاختبارات السّنة الرّابعة.. عبثا. كانت الجامعات مراقبة عن كثب، وغدت الاعتقالات في صفوف النّشطاء السّياسيّين روتينا يوميّا. وبعد أن اعتقل رموز

الحركة الإسلاميّة وصدرت بحقّهم أحكام بالسّجن المؤبّد، عمّ الهرج في صفوف الطّلبة، واعتقلت بدورك، للمرّة الأولى. كان حكمك مخفّفا، مراعاة لسجلّك النّاصع حتّى اللّحظة، ولحداثة سنّك وسلامتك من تهمة «الانتماء». فقد كان حساب «المنتمين» إلى الحركة الإسلاميّة عسيرا. دخلت السّجن شهرا واحدا، عرفت خلاله أهوالا ما كنت تصدّق وجودها. واعتبرت نفسك بطلا، وأنت تغادر أسوار الحبس سليم الجسد والعقل، ما عدا خدوش بسيطة في البدن وجراح في الكرامة.

لم تستطع بعدها أن تدخل اختبارات الفصل الدّراسي، وانشغلت بالعمل السّياسيّ حتّى النّخاع بقيّة السّنة. فقد جاء انقلاب نوفمبر ١٩٨٧ ليغيّر مفاهيم عالمك ويرسم مسارات جديدة في مخيّلتك ما كنت تجرؤ على مغازلتها في وقت سابق. وأعدت سنتك الثّالثة في كلّية الطّب. حين جاء الانقلاب الأبيض، حسبت وحسب رفاقك أنّ زمنا أسود قد ولّى، وزمنا آخر مشرقا قد أقبل. فقد أخلى سبيل عدد من القادة الذين زجّ بهم نظام بورقيبة في المعتقلات، وبدأت السّلطة حوارا مع الاتّجاه الإسلاميّ لإشراكه في «صناعة التغيير».

سنتان، هما عمر الأمل.

بعد ذلك ظهر وجه آخر للجنرال المنقلب، حين انقلب مرّة أخرى على وعود التّسوية والشراكة ووضع اليد في اليد مع جميع الجهات، لبناء مستقبل البلاد! انحسر الأمل حين مرّت موجة اعتقالات ثانية سنة ١٩٨٩، لتحصدك فيمن حصدت. أقمت في حبسك ثلاثة أشهر هذه المرّة، بينما بلغتك أنباء هروب بعض القادة إلى الجزائر. كانت تفاصيل الكابوس الأسود تتكرّر من جديد. فكّرت حينها أنّها ضريبة لا بدّ أن تُدفع لآخر مليم قبل أن يستتبّ الأمن ويعمّ الاستقرار، فقبلت بالتّضحية عن طيب خاطر. كان لا بدّ من تخطّي عقبة الانتخابات

التشريعية الحرّة الأولى من نوعها، والتي ستعطي الشرعيّة لمن يختاره الشعب حقًّا، بعد دهور من الرّتابة المحتكرة والزّعامة المزيّفة.

وكثيرا ما جلست تراجع النفس، تموج في ثنايا عقلك أسئلة كثيرة.

هل تراك تتشبث بأوهام؟

أم أنها ضريبة الثبات؛ لا بد أن يدفعها أهل الحقّ في كل مكان؟

هل تستحق الثّمرة كلّ هذه التّضحيات؟

وهل تراك تقطفها يوما ناضجة شهيّة، تلك الثمرة؟

أم أنها أرض السّراب؟

كنت تغيب -في حديث النفس هذا- حتّى وأنت تجتمع برفقاء الدّرب، في بعض الأمسيات الصيفية، في خلوتكم على الشاطئ، وفي الهزيع الأخير من الليل، والقمر بدر كقرص من الفضة، يتهادى انعكاس ضوئه على وجه البحر أمامكم.. حتّى يقاطعك أحدهم في حماس:

- أنشدنا يا مالك!

وسرعان ما يؤيّده آخرون، فتبتسم في رضا وتنشئ تصدح بصوتك العذب، منفّسا عمّا يجيش في صدرك من لوعة، وهم يردّدون من بعدك:

يا رسول الله هل يرضيك أنّا

إخوة في الله للإسلام قمنا

ننفض اليوم غبار النّوم عنا

لا نهاب الموت لا بل نتمنى

أن يرانا الله في ساح الفداء

ثمّ جاء الاعتقال الثالث سنة ١٩٩١ ليصيبك بضربة قاصمة. ثلاث سنوات كانت المدّة التي قضيتها سجينا بعد أن ترشّحت للانتخابات التشريعيّة ضمن قائمة مستقلّة. كان لا بدّ أن تفعل شيئا، حتّى وأنت تتأخر عن ركب زملائك من الخرّيجين وتضيّع سنة أخرى في كليّة الطبّ. كنت تؤمن أن شخصا مثلك قادر على إحداث تغيير إذا ما وصل إلى مجلس النوّاب. لكنّ آمالك تبخّرت، حين طورد المرشّحون المحسوبون على التيّار الإسلامي، وامتلأت بهم السّجون. لقد تجرّؤوا على المجاهرة بأحلام غير مشروعة! فما كان من السّلطة إلا أن أخرجت شريط إثارة رديء النّوعيّة، عن محاولة اغتيال الرّئيس، لتحصد رؤوس المعارضة مرّة واحدة، وتكبّل أقدام القواعد الحركيّة التي قد تواصل منها النّضال السّياسي.

وبينما كنت خلف القضبان، بلغك نبأ تنفيذ حكم بالإعدام على المتّهمين في «قضيّة باب سويقة». شباب في عمر الزّهور، اتّهموا بإضرام النيران في مقرّ لحزب التجمّع الحاكم في باب سويقة، فراح حارس المبنى ضحيّة الفعلة. كانت العبثيّة التي تلفّ عالمك تهزّك من الدّاخل. كان ثباتك يُختبر، وقوّة عزيمتك تمرّ بأزمة وجود. بعد سبع سنوات من بدء نشاطك في ساحة الجامعة، كمستقلّ ثوريّ الفكر والعاطفة، انتهت رحلتك الشّبابيّة الطائشة، ليشيب قلبك موؤود الأحلام.

خلال فترات اعتقالك الثلاث، قاومت الملل والإحباط في السّجن بتدوين دروسك على علب السّجائر التي لم تدخّنها يوما، ومغلّفات قوارير المشروبات. تفكّ صمغها برفق وترفعها عن القارورة البلاستيك. ثمّ تمضي السّاعات تعتصر الذّاكرة وتكتب بخطّ دقيق كلّ ما تستحضره عن المناعة وعلم البكتيريا والتشريح. يطلق سراحك فتحفّز للاختبارات، ثمّ لا تلبث أن تعاود الكرّة.

لكنّك على الأقلّ استثمرت معرفتك الطبيّة في خدمة المساجين. كان جيران زنزانتك مثلك، ممّن يسمّون «سجناء الرأي». لم يرتكب أحدكم شيئا ممّا يجرّمه القانون، لكنّ أفكاركم وآراءكم لا تناسب الدّولة والقائمين عليها. لذلك فإنّ معاملة السّجانين لكم كانت تتراوح بين الخشية والقسوة. يخشون عقولكم التي رفضت العبوديّة وتمرّدت على النّظام وقلوبكم الثابتة التي لم يردعها التعذيب الوحشيّ المستمرّ.. لكنّهم لا يتورّعون عن ممارسة القسوة في كلّ سياق، انتقاما لنفوسهم الخانعة الذليلة. لذلك كانوا يحرمونكم من حقّكم البديهيّ بعلاج جراحكم بعد كل «حفلة» تعذيب. فكنت أنت طبيب الزنزانة الرّسميّ، وكلّ ما بحوزتك أدوات مرتجلة ممّا يتوفّر بحوزة المساجين، وزاد طالب في السّنة الرابعة من العلوم الطبيّة.

حين غادرت السّجن تلك المرّة، لم يسمح لك بالتّسجيل في الجامعة من جديد. كنت قد انقطعت لوقت طويل، فسقط عنك حقّك في التعليم! حُرمت من دخول الجامعات التونسيّة، وبقيت طبيبا إلا ثلث!

تذكر الآن تلك الفترة بمزيج من الألم والحقد. ما جدوى نضالك السّياسيّ وقد نُفي القادة وهُجّروا إلى أوروبا وخلّفوا أمثالك من الشّباب المندفع حطاما؟ لا أنت حقّقت الحريّة التي من أجلها دفعت سنوات شبابك، ولا أنت نجحت في مشوارك التعليميّ وأصبحت طبيبا. لا تزال هزيمة انتخابات ١٩٨٩ مرّة في حلقك، بطعم الخبز الكالح الذي يقدّمونه في الحبس.

-٣-

لـم تكـن ابـن المدينـة الصّاخبـة، وإقامتـك في العاصمـة بعـد أن ترعرعـت طفـلا في قريتـك الوادعـة عـلى ضفـاف وادي «مجـردة»، أمـرا مسـتجدّا لـم تألفـه آنفـا، إلّا لفـترة وجـيزة قبـل رحيلكـم إلى الجزيـرة العربيّـة.

ولـدت عـام ١٩٦١ في قريـة صغـيرة في ريـف «تسـتور»، العـروس الأندلسيّة العريقة، على مبعـدة ساعة وثلث من العاصمة. كانت دُور القريـة كما عرفتها دائمـا، صغـيرة متفرّقـة متباعـدة، مبنيّـة بالحجـارة في معظمها، تلمح عـن بعـد قبابها البيضـاء المنخفضـة التي تنبئك حالما تنزل في المحطّة أنّك قد وصلت. ولم تكن عينك تخطئ، وأنت على بعد مئات الأمتار بعد، مبنى «فيلا» جدّك الشّامخة، المرتفعة عن كلّ ما عداها، تتوسّط مساحات شاسعة من الأراضي الزّراعيّة وغابات الزّيتـون وأشجار الخـوخ والمشـمش واللّـوز والبرقـوق.

ولم يكن من العجب، وأنت سليل عائلة عريقة النسب شديدة الغـنى، أن يكـون مسـكن العائلـة مبنيّـا بالآجـر الأحمـر عـلى الطّريقـة العصريّـة لمساكن العاصمة. تطلّ شرفـات الفيـلا عـلى الجهات الأربع، لتـشرف عـلى ممتلكات جـدّك مترامية الأطـراف، وعـلى الجبـال البعيـدة المكلّلـة بالثلـوج شـتاء، المكسـوّة بالخـضرة بـاقي فصـول السّـنة. ولـئن بقيـت القريـة طويـلا محرومـة مـن الكهربـاء والمـاء الصّالـح للـشراب، فقـد حظـي مسـكن عائلتـك بالإنـارة في وقـت مبكّـر، ومـدّت إليـه أنابيـب الماء قبل الجميع! وكثـيرا مـا مـلأك الزهـو طفـلا، وأنـت ترقـب عـودة الجـرّارات سـاحبة صهاريـج المـاء المعبّـأة مـن روافـد الـوادي والعيـون

القريبة، لتسقي عطش باقي دور القرية، أو تراهم ينزعون بطاريات الجرّارات نفسها لتشغيل أجهزة التلفاز الصّغيرة مساءً.

أمنت مبكّرا وأنت الفتى الغرّ السّاذج أنّ الغنى والنفوذ إذا اجتمعا، كانا مفتاحا لكلّ الأبواب المغلقة.

تبدو ذكريات تلك الفترة القديمة بعيدة شاحبة، لكنّك تحتفظ منها بطعم الاعتزاز والاستعلاء. ألم تكن كريم المحتد، طيّب النّسب والعرق، ابن أسرة ضاربة الجذور في السّلطة والنّفوذ؟ أينما يمّمت وجهك في ربوع قريتك الصّغيرة وما جاورها من القرى في جهة «تستور»، كان يكفي أن تذكر اسم جدّك أو أبيك ليغدق عليك من التّرحاب والتّوقير ما لا يتناسب وسنّك الصّغيرة. وحيث كنت في روحاتك وجيئاتك مصحوبا بخالك عمّار غالب الوقت، فلم يكن أحد يحتاج إلى سؤالك من تكون، بل تمتلئ جيوبك بقطع الحلوى والأوراق النّقديّة من حيث لا تحتسب.

كانت عائلة أمّك كذلك ذات نسب كريم يكاد يكون مكافئا لمنزلة عائلة أبيك، لكنّها عرفت برجال العلم أكثر من الجاه. فبينما كان جدّك لأبيك وأعمامك من بعده ذوي مناصب حكوميّة، أو مسؤولين في الجيش والشّرطة، فقد كان جدّك الأوّل لأمّك طبيبا شرعيّا، درس الطّبّ في فرنسا، وأولاده وأحفاده مهندسو بناء وزراعة، أرسلهم إلى تركيا وروسيا وإنجلترا ليعودوا محمّلين بشهادات ترفع الرّأس وتزيد من شأن العائلة.

حين رجعت بعد اغتراب دام عشر سنوات في المملكة السعودية، وزرت بيت جدّك القديم، وجلست تحت ظلال الشجر الوارفة، وتشمّمت عبير زهور النّارنج الفوّاحة، أحسست برقّة عجيبة تغمرك. أدركت في عجب أنّ الغلظة التي ظننتها فيك أصيلة، والقسوة الظاهرة

الـتي تغلّف سـلوكك، لـم تكـن إلّا قـشرة هشّـة أورثتـك إيّاهـا سـنوات عجـاف من العيـش في صحـراء قاحلـة، لا لـون يداخلها إلّا صفار الرّمـل والصّخـر، ولا تستنشـق في هوائها غير الغبـار، ولا إحسـاس إلا بشـواظ الشّـمس الحارقة معظـم فصـول السّـنة. تبـدّد انطباعـك الزّائـف عـن نفسـك وقلبـك خـلال أسـابيع قليلـة مـن عودتـك إلى وطنـك، واكتشـفت في نفسـك تذوّقا اسـتثنائيا لآيـات الجمـال.

كانـت الشّـقة الفاخـرة الـتي اسـتأجرتها في ضاحيـة «المـرسى» غـير بعيـدة عـن البحـر. وكان مـن العـادات المسـتجدّة الـتي اكتسـبتها بعـد رجوعـك، الجلـوس لسـاعات طويلـة قبالة البحـر. تعلّقـت سريعا بأشـكال الجمـال الـتي كنـت غافـلا عنهـا لسـنوات مديـدة.. جمـال الشّـواطئ وعذوبـة نسـيمها العليـل. لقـد ذهبـت إلى الشـواطئ مـن قبـل.. شـواطئ جـدّة والخـبر. لكـن شـتّان بينهـا وبـين الشّـواطئ التّونسـيّة!

كنـت تمكـث سـارحا، قـرب مرفأ «سـيدي بوسـعيد»، متأمّـلا الكائـن الخـرافي، ذي درجـات الأزرق والأخـضر المدهشـة، الممتـدّ إلى الأفـق!

وجـدت مـلاذا في مقهـى صغـير مطـلّ عـلى البحـر مبـاشرة. لـم تكـن تـدرك أيـن سـينتهي بـك المطـاف وأنـت تـنزل درجـات السـلّم الحجـري المـؤدّي إلى الشّـوارع الخلفيّـة الضيّقـة الـتي لا يسـلكها إلّا العارفـون بالمكان. ولـم تكـن لتصبـح مـن ضمنهـم إلّا بعـد هيمانـك الطّويـل بـين الطّرقـات بـلا هـدى. لـم تكـن واجهـة المقهـى العاديّة لتشـفّ عمّـا يخبّئه جانبـه الآخـر. لكـنّ موقعـه المنفـرد البعيـد عـن الزّحـام والضّوضـاء أغراك بالتّجربـة، لتتعـرّف عمّـا سـيصبح فيمـا بعـد معتكفـك الخـاصّ والدّائـم. انـزواؤه عـن الشّـوارع السّـياحيّة العامـرة بالـزوّار يوفّـر خصوصيّـة اسـتثنائيّة تجعـل منـه المـأوى المثـالي للعشّـاق الباحثـين عن خلـوة! لذلك فقـد كان جلوسـك بالسّـاعات إلى طاولـة منفـردة، ناظـرا إلى الأفـق، أمـرا مسـتغربا سريعـا مـا اسـترعى انتبـاه موظّـفي المـكان. شـابّ وسـيم تظهـر

على هيئته علامات الثراء، ولا يصطحب معه أحدا كما يفعل أقرانه، هل هناك أدعى من هذا للاستغراب؟ ولم يكن يضاهي شكلك غرابة إلّا رجل أشيب يرتدي حلّة رسميّة كاملة، وربطة عنق، يضع على عينيه نظارات شمسيّة طيلة الوقت، ويطلب فناجين القهوة واحدا إثر الآخر، فيحتسيها ببطء ونظراته تتردّد بين الماء، وبين منديل حريريّ تعبث به أنامله. كنتما أنتما الاثنان زبائن المقهى الدّائمين.

كان مكانك المفضّل على الشّرفة المكشوفة، قواعدها الضخمة تنبت من الماء وكأنّها جذوع أشجار خراسنيّة، لحاؤها طحالب وفطريّات لزجة خضراء. وقد كان من الطّريف أن يشرع موظّفو المكان في معاملتك باحترام غريب، بعد أسبوع واحد من ارتيادك المتكرّر للمقهى. لاحظت في مزيج من الاستغراب والرّضا أنّ النّادل يترقّب قدومك في نفس موعدك اليوميّ، فيستقبلك عند المدخل ويقودك بحفاوة إلى مقعدك المفضّل عند الشّرفة. ثمّ راودتك الرّيبة والحرج حين أصبح يرفض أخذ الحساب على المشروبات التي تحتسيها ببطء طيلة جلستك المطوّلة! وكنت تصرّ في عجب على الدّفع، وينحني النّادل بدوره ملحّا على ألّا تفعل! فإذا طالت المساومة واستمرّ الإلحاح من الجانبين، أردف النّادل بخضوع وهو يتناول منك الورقة النّقديّة:

- ما تراه مناسبا يا سيّدي!

خالجك شكّ ذات مرّة بأن يكون صاحب المقهى على معرفة ببعض أعمامك أو أخوالك. لكنّه بقي مجرّد شكّ لم يبلغ مرتبة التّأكيد. ولم يكن الغموض لينجلي عن المسألة، إلّا بعد أن توطّدت العلاقة بينك وبين نادل شابّ لم يبلغ العشرين، كنت تمازحه مثل أخ أصغر من حين إلى آخر وتغدق عليه البقشيش رغم تمنّعه الغريب. تجرّأ ذات يوم وسألك بشيء من الرّهبة:

- ما هو عملك يا سيّدي؟

أجبت ببراءة:

- أنا طالب في كلّيّة الطبّ.

فردّ في صدمة وارتياب لم تخطئهما عينك:

- فقط؟!

قلت بنفس البراءة والعجب:

- هل من المفترض أن أكون شيئا آخر؟!

- إذن لست من المباحث؟!

بينما ظهرت على وجهك علامات الدّهشة مردفة برغبة عارمة في الضّحك، كتمتها بصعوبة، تراجع الولد وولّى راكضا، ليبلّغ بقيّة زملائه بالاكتشاف. سيطر عليك الذّهول لبرهة، وقد اكتشفت سرّ المعاملة فوق العاديّة التي حظيت بها خلال الأسابيع الماضية! أسرعت تلملم أشياءك المنثورة على المنضدة، واندفعت لا تلوي على شيء، حين بلغت المرفأ لاهثا، ألقيت بنفسك على أحد المقاعد الخشبيّة، وانتابتك موجة ضحك هستيري!

انقطع حضورك لأيّام ريثما واتتك الشّجاعة لتواجه النّادل من جديد. وقد سرّك أن تستقبل بابتسامة متواطئة هذه المرّة، بدل الاحترام الزّائف المشوب بالرّهبة. وسريعا ما تباسطت مع كلّ العاملين الذين كانوا يخشون حضورك قديما، لتصبح بالنّسبة إليهم «الدّكتور»، فقط بدون اسم. لكنّهم عرفوا عنك أيضا عشقك للهدوء والسّكينة، فلم يكن أحدهم ليقاطع خلوتك مع البحر ما لم ترفع كفّك طالبا خدمتهم.

هل تدري ما سرّ ولعك بالبحر؟

كنت تجد الرّاحة على حافّته. تلقي بهمومك بين أذرعه المفتوحة على مصاريعها، وتستقبل موجاته الهادرة أو الحانية، لتجرف معها آهاتك وأوجاعك وكلّ ما يثقل الرّوح والعقل والضمير. لا أحد يعلم كم من الآلام يحتضن ذلك الكيان الهائل المشبع بالأسرار، وكم ينطوي ظاهره وباطنه على خبايا ألقيت إلى جوفه منذ آلاف السّنين!
كنت تبثّه شجونك العميقة، بلا كلمات.. وكان عقلك يمور بين يديه بحوارات لا تنقطع.. وكان وحده يسمعك، يعي ما تهمس به، ويخفّف عنك. وكنت تغادر شاطئه. وقد أورثك من سكينته وحكمته الكثير. وكأنّما كنت تتلقّى الموعظة على يدي معلّم خبير.

احتفظت بعادتك الغريبة تلك لنفسك، حتّى لا يقتحم الفضوليّون عالمك، وحتّى لا تشوّه كثرة الزّوّار سكينة معتزلك. وحين كنت تستأذن من رفاقك في اتّحاد الطّلاب، أو من زملائك في المحاضرات لتنفرد بنفسك والبحر، كانت تتواثب التعليقات المازحة واللّامزة على ألسنتهم، عن سرّ اختفائك الغامض. وقد احتفظت بالسرّ لنفسك أبدا، حتّى قال أحد الظّرفاء يوما:

- أتمنّى أن أفهم أين تختفي كلّ مرّة؟ أتراك قد تزوّجت ونحن لا ندري؟!

وراق لك ما افترضه مازحا، فاعتمدته حجّة لهروبك، كلّما رغبت في الانسحاب داخل قوقعتك، فلم تكن تتوانى أن تلقي على مسامعهم وأنت تغادر الجلسة، بلهجة ذات معنى:

- أترككم الآن يا معشر العزّاب.. فأنا رجل متزوّج وعليّ واجبات!

فتلاحقك الضحكات والنّكات من البعض، ونظرات الغيظ والحسد من البعض الآخر!

وذات عصر يوم ربيعيّ، كنت شاردا ببصرك بعيدا، تتلقّى باحتفاء

خيوط الشمس الأخيرة، وقد آذنت بقرب المغيب. كنت في تأمل عميق كعادتك، تصغي إلى هدير الموج الذي يتحطّم في صخب عند قدميك، يقاطعه صوت أغنية يأتي خافتا من المقهى. انتبهت إلى كلماتها، بعد أن سرى اللّحن الشجيّ في ثنايا عقلك. أنت تعرف جيّدا تلك القصيدة.

لا تشغل البال بماضي الزمان　　　ولا بآت العيش قبل الأوان

واغنم من الحاضر لذاته　　　فليس في طبع الليالي الأمان

ابتسمت في سخرية وأنت تستمع إلى رباعيّات الخيّام. يا لها من حالة بائسة رخيصة، أن يعيش الإنسان لحظته فقط! وهل يعقل أن تقطع ذاتك عن جذورك ومجد أمتك وتاريخ أسلافك؟ ولا تحلم بمستقبل الأجيال القادمة من بعدك؟ لا يمكن لعاقل أن يحتمل العيش مبتوتا عن ماضيه، منفصلا عن مستقبله!

لا توحش النفس بخوف الظنون　　　واغنم من الحاضر أمن اليقين

فقد تساوى في الثرى راحل　　　غدا، وماض من ألوف السنين

أشفقت على الشاعر الشقي الذي يعيش حالة تيه وضياع لا شكّ. لكنّ الأسئلة تولّدت في ذهنك، ورحت غصبا عنك تتأمّل في كلماته باهتمام. شعرت فجأة بأنّ الكلمات منطقيّة نوعا ما. أليس كلّ النّاس إلى فناء، في نهاية الأمر؟

لبست ثوب العيش لم أستشر　　　وحرت فيه بين شتى الفكر

وسوف أنضو الثوب عني ولم　　　أدرك لماذا جئت؟ أين المفر؟

حين وصلت إلى هذا الحدّ، رحت تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. ما هذه الشكوك؟ أنت تعرف لماذا جئت، إيمانك راسخ كالجبال الرّواسي، ولا تعرف تلك الحيرة التي لا تصيب إلا أهل النفوس الضعيفة! قلت لنفسك في ثبات، ورحت تلملم أشياءك

لتمضي من المكان. كانت خطواتك في الخروج متسارعة كأنّك تفرّ من ساحة معركة!

وأنت تهرول فرارا من المقهى والأغنية والأفكار الدّخيلة التي أخذت تسيطر على وعيك، تساءلت في ريبة.. لماذا؟ هل هزّت الكلمات أعماقك؟ هل كانت حجرا ألقي في بحيرة ساكنة هادئة.. فنشر موجات من الشكوك؟

لم تكن تشقيك في ذلك الوقت أسئلة وجوديّة، ولم يكن عقلك قد تمرّد على شيء بعد، لا من المقدّس الموروث ولا من أحداث الحياة السّياسيّة الصّاخبة، لكنّها كانت البداية لكلّ ما تلاها. وحدتك المزمنة وخلواتك الطّويلة بنفسك، دونما شاغل يشغلك، لا هي ذكر وتسبيح ولا عبادة وتأمّل.. قد تكون الخلوة الطّويلة علاجا روحيّا بالنّسبة لآخرين، لكنّها بالنّسبة إليك قد ولّدت عادة خطرة.. «الإكثار من التّفكير»، ما قادك بعد ذلك إلى جحيم مقيم.

-٣-

وإلى جانب البحر، كانت هناك القرية. كان بداخلك حنين جارف على الدّوام يشدّك إلى القرية. فما إن تلوح فرصة إجازة ولو لأيّام قليلة، أو حتّى في نهايات الأسبوع العاديّة، وأحيانا بلا سبب أو مناسبة،إلا تترك أشغالك وكليّتك ومواعيدك، وتهرع إلى محطّة سيّارات الأجرة بـ«باب سعدون» وتمضي إلى ملاذك الثّاني.

في الثّمانينيات، كانت قريتك لا تزال تحتفظ بسحر ورونق ما يسمّى «قرية». خضرة يانعة على مدّ البصر، وحدائق غنّاء تخلب الألباب، وكتل سكنيّة محدودة. ما إن تلفظك سيّارة الأجرة على الطّريق الرّئيسيّة، حتّى تستنشق عبير القرية الذي تستجيب له جيوبك الأنفيّة بشكل خاصّ، هو مزيج من رائحة التّراب والطّين، وعبق الزّهر والعشب وروح النّهر. نعم، لم يكن ذلك وهما. كنت مثل الطّير تجد للماء رائحة تميّزها على بعد كيلومترات!

وبعد أن أقمت عقدا في صحراء الجزيرة العربيّة، عدت غريبا إلى قريتك، لا يكاد يميّز سكّانها فيك «مالكا» الفتى القديم، الصبيّ ذا السّنوات العشر، في آخر زيارة لك. كنت تسير على الطّريق غير المعبّدة، فتقابلك الدّور بأبوابها المشرعة. فقد كان إغلاق الباب في ذلك الزّمان علامة شحّ وانعدام مروءة! تفتح البوّابات الخشبيّة على مصاريعها من بعد صلاة الفجر من كلّ يوم، وتظلّ نسوة الدّور يرحن ويجئن ويقضين شؤون بيوتهنّ بمرأى ومسمع من المارّة والضّيوف المحتملين.

وكانت العيون تتابعك في عبورك مشيا إلى فيلا العائلة، وترقبك

الكلاب وتمطّى، ثمّ تهمّ نابحة وقد استفزّها مرور الغريب الذي يتخطّى حدوده. كنت غريبا، والكلاب نفسها تدرك غربتك! غريبا بهيئتك ولهجتك، وعطرك الباريسيّ الذي تغدق منه على ياقتك وكلّ قطع ثيابك، وحتّى بلحيتك الكثيفة وشعرك المسترسل على كتفيك!

ولم يكن غريبا أن يقطع طريقك عجوز مسنّ يضع برنسا صوفيًا على كتفيه، فيهتف بك في غلظة:

- ابن من أنت؟

وما أن تفصح عن نسبك، حتّى ينقلب العبوس بشرا، وتجد نفسك مدعوّا إلى مائدة إفطار، عليها عسل وسمن، وبيض «عربي» وخبز «طابونة» ساخن.

كنت مصحوبا بهيبة اسمك ومكانة عائلتك أينما حللت، ومع تكرار الزّيارة، وجدت لك مكانًا في قلوب أهل القرية، فتعوّدوا على لكنتك وتقبّلوا هيئتك، وحظيت منهم بالاحترام والتّبجيل.

كان منزل جدّك، على بهائه وضخامته، فارغا! إلّا من حارس، تقوم زوجته بأمر أهل البيت إذا ما حلّوا زوّارا. فقد تفرّق ذووك في أرض الله الواسعة، ولم يتسلّم أحدهم مشعل الزّراعة عن جدّك رحمه الله. كانت شركة خاصّة، في تلك الآونة، تستثمر الأرض الزّراعيّة الممتدّة على ملك العائلة، وتدفع إيجارا لعمّك الأكبر القائم بشأن ميراث جدّك، ما عدا المزرعة المحيطة بالفيلا التي بقيت تحت رعاية الحارس وزمرة من العمّال الموسميّين تحت إمرته.

وكانت لك شرفة أخرى، في ملاذك الثّاني، يحلو لك فيها الجلوس المستمرّ، منذ الفجر وحتّى تطلع الشّمس من مشرقها، ومنذ العصر وحتّى تؤذن الشّمس بالمغيب وراء الجبال. شرفتك تلك تقبع في الباحة الخلفيّة للدّار، تظلّلها سقيفة خشبيّة، تعانقها سوق شجيرات الورد

الـتي تنمـو عنـد قواعدهـا.. فتنـشر في الفضـاء رائحـة سـاحرة، وآه مـن الرّوائـح الـتي تظلّـل ذكرياتـك! ولـم يكـن يؤنسـك في سـاعات الشّـحر، إلّا شقـشـقة العصافير المبكّرة، وهـي تـترك أعشاشـها وتنطلـق مسـبّحة.. ثمّ وهـي تعـود إليهـا زرافـات ووحدانـا سـاعة الغسـق، وكأنّ تسـبيحها لـم ينقطـع.

في صبيحـة ذلـك اليـوم الهـادئ، أديـت صـلاة الفجـر في مسـجدك المحبّـب، وتلـوت أذكار الصبـاح كما تعـوّدت منـذ نعومـة أظفـارك، ثمّ عـدت وحيـدا إلى منـزل جـدّك. أعـددت كوبـا مـن القهـوة التركيـة -الـتي كان يحلـو لـك ارتشـافها كل صبـاح حـتى أدمنتهـا- وهممـت بالصّعـود إلى غرفتـك. كان ذلـك طقسـك اليومـيّ المفضـل مـا دمـت في قريتـك الوادعـة، تجلـس في شرفـة غرفتـك تراقـب تصاعـد بخـار القهـوة الحـارّ يلامـس بـرودة صبـاح ربيعـي غائـم، وأنـت تطالـع كتابـا. كانـت متعـة رائحتهـا الثقيلـة، تسـبق متعـة طعمهـا السـخيّ، وأفـرع أشـجار حديقـة المنـزل الخلفيـة، الـتي تطـل شرفـة غرفتـك عليهـا مـن الطابـق الثـاني، تمايـل وكأنهـا ترغـب في مصافحتـك، تـكاد تلامسـها يـداك.

عرّجـت عـلى المكتبـة في طريـق صعـودك، لتنتقـي كتابـا. وقـد كانـت المكتبـة أثمـن مـا في المنـزل العامـر مـن كنـوز. فقـد حـرص والـدك عـلى أن يقتنـي عـبر عـشرات السـنوات آلاف الكتـب، مـن شـتى صنـوف المعـارف. فاكتسـت جدرانهـا الثلاثـة رفوفـا خشـبية متينـة امتـلأت عـن آخرهـا بالكتـب المتزاحمـة. أمّـا الضّلـع الرابـع مـن الغرفـة فقـد كان يشـغله مكتـب أنيـق مـن خشـب الـزان.

اتجهـت نحـو رفّ يضـمّ كتبـا أدبيـة، ودواويـن لأشـهر شـعراء العـرب، واسـتقرّت عينـاك -دون قصـد- عـلى ديـوان يضـمّ أشـعار الفيلسـوف أبـو العـلاء المعـري «رهـين المحبسـين»، ذلـك أنّـه كان رهـين العمـى ورهـين بيتـه لا يـكاد يغـادره.

ارتجفت. لم تلبث أن تناسيت أبيات الخيام المربكة لأفكارك، والعابثة بصفاء نفسك في الأسابيع المنصرمة، حتّى يظهر في طريقك اسم آخر يشوّش عليك هدوء عقلك! أنت لا تجهل أبا العلاء المعري، وموقفه الرافض لوجوده في الحياة، وأنّ فكرة توريط نفس أخرى بالوجود بسببه جناية عظيمة، فقال بيته الشهير:

هذا جناه أبي علي   وما جنيت على أحد

لكنّك كنت دائما تتجنّب قراءة شعره، لأنك تأثرت مبكرا برأي أهل الحديث فيه، وأنه كان ربوبيا يؤمن بالإله، وينتقد الأديان والشرائع، ووصمه بعضهم بالزندقة! لكنّ مزاجك يتوق إلى بعض الفلسفة، في هذا الصباح الرّائق، ذي الجوّ الضبابي البارد.

صعدت الدّرج متأبطا الديوان، وبيدك قهوتك الشهية حارة طازجة. جلست في استرخاء في شرفة غرفتك في هدوء مطبق، إلا من حفيف أوراق الأشجار تميل بها النسائم المنعشة، والطير يستقبل نور الصباح صادحا بالنغم. وفي جوّ من السّكينة العذبة، رحت ترتشف قهوتك، وتقرأ:

غَيْرُ مُجْدٍ في مِلّتِي واعْتِقادي   نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنُّمُ شادِ

وشَبِيهٌ صَوْتُ النَّعيِّ إذا قِيسَ   بِصَوْتِ البَشيرِ في كُلِّ نادِ

...

ضَجْعَةُ المَوْتِ رَقْدَةٌ يُستريحُ الـ   ـجِسْمُ فيها والعَيشُ مِثلُ السّهادِ

رحت تقول لنفسك، هذا رجل ساخط تستوي عنده الحياة والموت، السّعادة والشقاء! إنه يعتقد أنّ في الموت راحة من مصائب الدّنيا، وينسى أنّ بعد الموت حسابا يترقّبه. أم تراها حياته كانت عصيّة بلا لحظة هناء، فهانت مقارنة بها أهوال الآخرة في نظره القاصر؟ هل يا ترى ستحصّل أنت من الحياة غير ما حصّل أبو

العلاء؟ ألن توقظك خيبات الأمل، وكذب الرجاء، وظلمة اليأس، وحرقة القنوط، من زيف الأماني وخداع الأحلام، ووهم السعادة، وحتى من بهجة الحب؟

لكنّك كنت مفعما بالتفاؤل في تلك المرحلة، منتشيا بالشباب والأمل. لا يمكنك أن تستوعب ما يدّعيه من ظلم الحياة!

يَرتَجي النَاسُ أَن يَقومَ إِمامٌ	ناطِقٌ في الكَتيبَةِ الخَرساءِ
كَذَبَ الظَنُّ لا إِمامَ سِوى ال	عَقلِ مُشيراً في صُبحِهِ وَالمَساءِ
فَإِذا ما أَطَعتَهُ جَلَبَ ال	رَحمَةَ عِندَ المَسيرِ وَالإِرساءِ
إِنَّما هَذِهِ المَذاهِبُ أَسبا	بٌ لِجَذبِ الدُنيا إِلى الرُؤَساءِ

لا إمام سوى العقل؟ فهل تكون النبوّات والشرائع في نظره سوى أباطيل؟ هززت رأسك في استياء. لقد أسرف في الإيمان بعقله فشقي به، وأسلمه إلى اليأس والجزع، ولم يظفر بشيء، سوى العذاب. برمت بهذا الفيلسوف البائس، وضقت ذرعا بشعره. لقد اكتفيت! أغلقت الكتاب في ضيق لا تدري مصدره. رفعت رأسك إلى السّماء.. فألفيتها قد اكفهرت وتلبّدت بالغيوم! تجمّعت سحب سوداء كثيفة، كأنما تعكس ما جثم على صدرك من همّ. أغمضت عينيك، وقد شرعت قطرات خفيفة من المطر تتساقط، أنبأك بها وقعها على ورق الأشجار الكثيفة من حولك، وملمسها الندي على بشرة وجهك المتطلع نحو السماء.. كأنه يلتمس منها ما يطمئن روحك القلقة.

رحت تتلو في خشوع، مغمضا عينيك في ابتهال:

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ).

-٤-

أمّا ملاذك الثّالث، فهو المسجد.

وقد كان مسجد القرية الوحيد، مسجد عائلتك أيضا! هو مسجد موروث عبر الأجيال، بناه الأسلاف على مقام وليّ من أولياء الله، هو جدّكم الأكبر، وبقيت مفاتيحه بيد أهلك يتوارثونه أبا عند جدّ، كأنّما هي مفاتيح الكعبة! كان مسجدكم الأقدم والأجمل كذلك في كلّ المنطقة، ترتفع جدرانه الحجريّة السّميكة خمسة عشر مترا عن الأرض. وكان ما يميّزه، إلى جانب ضخامته وهيمنته على الهضبة التي أقيم عليها، طابعه الأندلسيّ الأصيل الذي ينضح كلّ ركن فيه بتاريخ ممتدّ من العراقة، وقبّته الهائلة التي تعدّ تحفة معماريّة بحدّ ذاتها. وكنت تطيل الجلسة فيه، منتظرا الصّلاة، وبعد الصّلاة، وتغرق في أفكارك، تحيط بك السّكينة، حتّى يهيأ للنّاظر إليك في تحليقك الرّوحاني العميق أنّك تنتظر وحيا سيهبط لا محالة!

وكان أهل القرية ينسبون لصاحب المقام الكرامات والمعجزات، ويشتطّون في سردها، فتهتف بالإمام ما إن تنفرد به:

- يا مولانا، ألا ترى أنّ علينا منع الزّيارة عن المقام؟ هذا شرك!

فيبتسم ويقول مترفّقا:

- نحن نشرح للنّاس كلّ فترة وفترة في خطبة الجمعة، ونذكّرهم ببشريّة صاحب المقام، ونعظهم في التوحيد.. لكنّ النّاس يحبّون تناقل الحكايات والكرامات، وليس في ذلك شيء طالما اقتصر الأمر على الحكي!

- وماذا عن الذّبائح والعطايا؟

- النّاس يتصدّقون باللحم والطّعام في مناسباتهم، ويقصدوننا لتوزيعها على المحتاجين.. فتنصحهم بإخلاص النّيّة لله، فهل علينا غير ذلك؟

تنسحب في غير اقتناع، تغالب نزعتك لتقويم سلوك العامّة المنحرف. لكنّ نظراتك كانت تتسلّل دون وعي منك، في لحظات خلوتك، إلى النّافذة الوحيدة المشرفة على المقام من داخل المسجد. كنت تجد في نفسك سكينة غريبة وأنت تقبض بكفّيك على الأعمدة المعدنيّة للشبّاك، وتقف متأمّلا الكيان الخشبيّ المزخرف المحيط بالقبر المرتفع مترين تقريبا عن الأرض. تقف هناك، ما لا تحصي من الوقت، لتجد الدّمع يجري على وجنتيك بلا شعور منك، وكأنّك تشتكي عذابات قلبك لصاحب المقام! لقد كنت موجوعا منذ ذلك الوقت، وقد كنت شقيّا بفؤادك طيلة الوقت، وحزنك القديم يشقّ روحك فلا تجد له شفاء. وكنت تخشى أشدّ ما تخشى أن يضبطك أحد الأهالي متلبّسا، وأنت تقول ما لا تفعل، ولا تنتهي عمّا تنهى عنه!

في تلك السّويعات الّتي تنزوي خلالها عن أهل القرية، كنت كثيرا ما تتفكّر في أمرهم. يدهشك أشدّ ما يدهشك، الصّفاء النّفسي الّذي يرفلون في نعيمه! هؤلاء النّاس ببساطتهم وضنك عيشهم -كما تحسب- كانوا أسعد منك. لم يكن أحدهم قد تلقّى ما تلقيته من علم شرعيّ، ولم يبلغ أحدهم ما بلغته من الثّراء المادّيّ، ولا نسبه يضاهي عراقة نسبك. ولكنّهم يبدون، ممّا لا جدال فيه، أوفر اطمئنانا وراحة بال.. فيما أنت تصارع التّناقض داخلك باستمرار، ولا تنقطع عن التّفكير المزمن.

وكانت الصّلاة الأعظم مكانة والأشدّ تأثيرا في نفسك في تلك المرحلة، هي صلاة الفجر. وكان أهل الفجر، أهل السّحر، يترنّعون في

المسجد قبل الأذان بساعة أو ساعتين ربّما. فمهما بكّرت قبل الأذان، كنت تجد الإمام، الشيخ إسماعيل، هناك، كأنّما هو يقوم اللّيل كلّه، من العشاء إلى الفجر. كان شيخا طاعنا في السّنّ، على مشارف الثّمانين من عمره، وجهه الأبيض مشرب بحمرة، ولحيته الكثّة بلون الحليب الصّافي، حسن الصّوت نديّه، ونور الإيمان يشعّ من قسماته. كان شيخا زيتونيّا، من الرّعيل الأوّل ممّن حمل شعلة التعليم، فكان مدرسا لوالدك، وللأجيال التي تلت في القرية. ولم يكن في القرية كلها من يعلوه مقاما في علوم القرآن إلا الشيخ الضّرير عبد الجليل، مؤدّب القرية. لا أحد يدري تحديدا كم يبلغ الشيخ عبد الجليل من العمر، لكنّ الشيخ إسماعيل تلمذ على يديه طفلا وحفظ القرآن في كتابه. وجهه الأبيض مغضّن مثل قطعة فاكهة جافّة، لكنّ ماء الحياة لمّا يفارقها.

وكنت تدعو في نفسك فترة ما قبل الفجر «محضر الملائكة». كنت تتخيّلهم وقد تجسّدوا في تلك السّويعة قبل أذان الفجر، والشيخ إسماعيل يتلو القرآن بصوت رخيم، وقد انطفأت أنوار المسجد كلها إلا من مصباح وحيد يتوسّط المحراب، فيلقي بظلال من السكينة.. والشيخ عبد الجليل يهزّ رأسه مع التلاوة مطرقا، وكأنّه في عالم علوي، وليس لكم منه نصيب إلّا جسده.. أمّا روحه فمحلقة تهيم في ملكوت الله.

لم يكن يرتاد المسجد في ذلك الوقت من السّحر عادة سوى نفر لا يتجاوزون الخمسة، كنت أنت سادسهم، أو ستة أنت سابعهم.. فيغمرك إحساس قويّ بأنّكم من وصفهم الله في كتابه بالـ «مصطفين الأخيار». وكنت تستشعر حضور الملائكة حقّا، ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.. ومن أصدق من الله قيلا؟

كنت ترتدي ثوبك القصير نسبيا، حفاظا على السّنّة، وتضع

عطرك المحبّب، وتحتفظ في جيبك بسواكك الذي لا يفارقك.. فتشعر بروحك تطير، تسابق قدميك إلى المسجد. وحين تتجاوز العتبة، ترى بأمّ عينك المشهد الملائكي، فتخطو بهدوء مهيب إلى الدّاخل، وتنضمّ في خشوع إلى «رفقة الجنّة». عبر الظلمة الخفيفة، يتجلّى شبح الشيخ إسماعيل بجوار المنبر يسترسل في تلاوة لا تنقطع، تثير الشجون وتذيب قسوة القلب.. وهيئة الشيخ عبد الجليل مسندا ظهره لسارية المسجد، وبجواره من يقوده من أبنائه، والشيخ يهزّ رأسه -شأن الحفاظ- لأعلى وأسفل، في حالة من الوجد.

كان يطيب لك أن تحمل في جيبك على الدّوام زجاجة من المسك الأبيض، يأتيك به الأهل من الرياض في إجازاتهم.. وكنت تحبّ أن تهادي به من تبجّلهم من كبار القرية، وتخصّ الشيخ عبد الجليل بأغلاها وأطيبها رائحة. وكان أجمل ما يكون، حين تفرغ من صلاة الفجر، ويهمّ الشيخ عبد الجليل بالانصراف، فتقوم مسرعا لتعترض طريقه، فتقبّل رأسه وظاهر كفّه، فيتعرّف عليك من رائحتك المميّزة، وقد كنت تلوت عليه خلال أشهر الإجازات الصيفية، القرآن كلّه، على مدار سنوات عدّة. كنت تسلّم عليه بما يستحقّ من تكريم، ثم تخرج قارورة المسك الأبيض، لتضع قطرات على ظهر يده، فيشمّها ويمسح بها لحيته، وما يلبث وجهه أن يشرق صفاءً ونورًا، وتعلو شفتيه ابتسامة ملائكية ثم يرفع رأسه ويمدّ صوته هاتفا:

- ياروااائح الجنة!

كنت تشعر في تلك اللّحظة، من فرط تأثّرك، وكأنّما أخذت صكّا بدخول الجنة من ذلك الرّجل الرّبّانيّ! فتغمرك السّكينة، وتفيض عيناك هياما وشوقا إلى الجنّة، وألما وحزنا على شقاء نفسك، وشعث قلبك.. وتقول بضراعة:

- ادع لي يا مولانا!

فيرفع يديه، وقد تعلّق مقبض عصاه برسغه، ويلهج لسانه بأطيب ما سمعت من دعاء أب حنون لابنه. فيتضاعف السّيل من مقلتيك، وينتابك نشيج لا تكاد تسيطر عليه، يطفئ نارا كانت تشتعل في صدرك منذ ذلك الوقت.

ولم تكن تعلم يقينا، ما مصدر ذلك الألم الذي يدمي فؤادك.

منذ البدء، كنت تصارع المتناقضات بداخلك، وتنتهي إلى الاستسلام.

كنت مجبولا على الطّهر والنقاء، والنّزعة الملائكية! تعذّب نفسك على الصّغائر، وتجلد ذاتك طويلا على النّظرة المحرّمة لإحدى الفتيات.. ومع ذلك تشعر باستمرار أنّك ما زلت ملوّثا بالذنوب.

كنت كثيرا ما تقول لنفسك، في خلواتك الطّويلة تلك، على حافّة البحر أو في شرفة بيت جدّك، لو أنّ نفوس البشر تسامت على متاع الدّنيا الفانية لكانوا عند الله في مكانة أعلى من الملائكة، كون الملائكة مفطورين على الطاعة، ولا تنازعهم نفوسهم إلى المعصية! لذا، فقد كنت في حلبة سباق لا ينافسك فيها بشر، بل ملائكة!

كنت تقول في تصميم: سأجعل الله يباهي بي الملائكة.. وأثبت للملائكة أنهم أخطؤوا حين جادلوا وراجعوا الله سبحانه في خلق أبينا آدم، ووصفوا جنسنا بالإفساد وسفك الدماء!

ومع تلك المحاولات شديدة النّرجسية في منافسة كائنات نقيّة من الملكوت الأعلى، كنت دائم النّقمة على ضعفك البشري، دائم الحزن والحسرة، شديد الاحتقار لهوى نفسك وشهواتك! كنت تشعر بالتقزّز من جسدك ورغباتك! وأنت تلعب هذه اللعبة الخطرة، كان ينتابك في أحايين نادرة، إحساس بالنّدّيّة للملائكة.. لكن غالبا ما كنت

تعترف بالهزيمة المرّة، يتلوها تداعٍ في غياهب النّقمة على الذات، ورغبة ملحّة في التّطهّر، من أبسط الذنوب وأقلّ التّقصير.

كنت في صراع مستمرّ، بين كائن علويّ يحدوه شوق الرّوح للملأ الأعلى، وآخر سفليّ تجذبه رغبات الجسد وثقل الخطيئة. لكنّ هذا الصّراع انتقل، بعد مرحلة قصيرة من عودتك إلى تونس ودخولك عالم الجامعة، من العالم الروحي إلى العالم المادي المحسوس والملموس. كيف لا، وأنت عاشق الجمال بجميع أشكاله؟ وكيف يمكنك أن تغمض عينيك عن حسناوات الجامعة اللّواتي يتهادين من حولك؟

عشت بوادر صدمة ثقافيّة حادّة. انتقلت من بلد عربيّ إلى آخر عربيّ، لكن الفوارق المجتمعيّة والحضارية كانت صادمة. وكان ذلك التّفتّح المفاجئ يرهبك ويغمرك جزعا. كان البون شاسعا بين المجتمع السّعوديّ المحافظ إلى الدّرجة القصوى، والمجتمع التونسيّ الذي تبدّى أمام عينيك غير بعيد عن المعايير الأوروبية في لباس البنات وفتنتهنّ! لم تكن تلمح فيما مضى إلّا خيال امرأة متّشحة بالسّواد، تشدّ على ردائها وتغضّ البصر. أمّا في جامعتك تلك، فالجميلات الكاسيات العاريات يتمايلن في دلال وغنج، ويواجهن النظرة بأحرّ منها. ستعرف في تلك الفترة وأنت الغرّ السّاذج، قصص حبّ أحاديّة الجانب، تعشّش في ذهنك وحده، بسبب نظرة عابرة وابتسامة جريئة. وهل الذّنب ذنبك؟ وقد تربّيت على أنّ الأنثى لا تختلط ولا تضاحك ولا تخاطب الغرباء.. فإن فعلت، فهو الحبّ إذن! ستمضي شهور، تخلّفك محمّلا برصيد غير هيّن من العواطف المحبطة وقصص الحبّ الفاشلة، قبل أن تلملم شتات نفسك الحائرة وتستردّ تركيزك على ما يهمّ.

في ذلك الأوان، كان التّواصل الثّقافيّ والفكريّ في تونس مع الغرب

محدودا، ولم تكن القناة الفرنسية الثانية قد شرعت في بثها على الهوائيات التونسيّة إلا في أواخر الثمانينيات. وكانت هناك مكتبة وحيدة في شارع الحبيب بورقيبة وسط العاصمة، تعرض أمام مبناها عشرات المجلات والصّحف الأجنبيّة. ولم يكن زبائن تلك الصّحف والمجلّات إلا نفرا قليلا من مدرّسي المعاهد الثانوية الخاصّة من الأجانب، أو أبناء بعض الأسر الفرنسيّة التي استقرّت في العاصمة إبّان الاستعمار.

وكان أن تعرّفت على مقاعد كليّة الطبّ إلى زميل كانت والدته ذات أصول فرنسيّة، وكانت تعمل في سفارة بلدها بالعاصمة التّونسيّة. وقد فتح لك ذلك الزّميل نافذة لم تكن تحلم بها على الثّقافة الفرنسيّة. كانت ثقافتك حتّى لحظة عودتك إلى تونس عربيّة - إنجليزية، بحكم إقامتك الطويلة في الرّياض. ولم يكن حظّك من الفرنسيّة يتجاوز حفنة من العبارات والكلمات المتفرّقة، كنت تحفظها في الإجازات على يد مدرّس خصوصيّ، استعدادا لعودتك المرتقبة إلى الوطن. كنت تعلم أنّ دراسة الطبّ في تونس تحتاج الإمساك بزمام اللغة الفرنسيّة التي كانت آنذاك، ولا زالت، تعتبر في تونس لغة العلم. ومع ذلك فإنّك لم تنضبط في تعلّم اللغة بشكل جادّ حتّى أتيحت لك فرصة دخول المركز الثّقافيّ الفرنسيّ الملحق بالسّفارة. فلبثت أسابيع تصارع الكلمات وتلوي لسانك بها بصعوبة، فتقاطع المحاضرات تارة وتحضرها طورا حتّى لا تضيّع الفصل الدّراسي.

إذن قمت في وقت مبكّر من وصولك إلى تونس بالاشتراك في المركز، وعزّزته باشتراك ثانٍ في المجلس الثقافي البريطاني، حتّى لا تقطع علاقتك بالثقافة الإنجليزية. كنت تدرك أنّ ولوج تينك المنشأتين في ذلك الوقت يعدّ ميزة لا تتاح إلّا لنفر يسير من التونسيّين، أبناء علية القوم والطبقة المخمليّة! ولعلّك لا تنكر أثر تردّدك عليهما على

شخصيّتك الازدواجيّة الفريدة! كنت تنهل من معين الثقافات الأجنبيّة من منبعها، وتستزيد من الفكر السّلفيّ والإخوانيّ والجهاديّ بحكم النشأة واللقاءات الدّوريّة في منزل خالك. وقد كان توفّر كلّ ذلك في متناول يدك شيئا استثنائيّا حقًّا، في عصر لم يكن العلم مكتسبا ديمقراطيّا بعد، ولم تكن الشبكة العنكبوتيّة الكونيّة توصل المعلومة إلى كلّ بيت بعد!

كنت تحضر بانتظام أهمّ الأنشطة الثقافية في كلا المركزين، وتطالع في نهم ما حوته المكتبة الورقية من كتب ومجلات وصحف، وتشاهد الأشرطة في قاعة السينما التي كانت تعرض الأفلام الأجنبيّة متزامنة مع عرضها في الدّور الأوروبيّة، دون ترجمة ودون أن يطالها مقصّ الرّقيب! وكنت تخالط حين تدخل المركز صفوة الصّفوة من الجامعيّين والمثقفين، فلا تسمع أذنك إلا الفرنسيّة أو الإنجليزيّة بلكنة أهلها، لأنّ روّاد المكان من الطلّاب إمّا أجانب وإما هجين عرق أوروبي، وإما تونسيّون ولدوا في أوروبا وأمريكا وعاشوا هناك سنوات طوال حيث كان ذووهم إمّا ديبلوماسيّين وإما رجال أعمال، ثمّ عادوا واستقرّوا في تونس. فيهيّأ إليك ما إن تطأ قدماك المركز أنّك قد قطعت الحدود وسافرت عبر الأجواء، لتحطّ في التوّ واللحظة على أرض أجنبيّة، وأنت لم تغادر الأراضي التونسيّة! كان الجوّ أوروبيّا صرفا، والجميع -بما في ذلك العاملون- على هيئة ولغة وسلوك غربيّ في الصّميم، ولا شكّ أنّ ذلك قد أسهم إلى درجة كبيرة من تمكينك من الأخذ بناصية اللغة الفرنسيّة بأسرع من المتوقّع.

كنت تداوم الحضور، خاصّة يوم الأحد، يوم إجازتك الأسبوعيّة الوحيد، لتعيش فصلا من فصول الملهاة المستمرة التي انغمست فيها، وحلقة من حلقات انفصام الشخصيّة الفكريّة التي كنت تمارسها دون وعي، وكأنّك منوّم مغناطيسيّا، ولا حيلة لك في تحديد

هويّة واحدة لنفسك! كان يوما مشهودا بالفعل، يجدّد المأساة بتفاصيلها.

كنت تحرص على صلاة الفجر، تغادر شقتك قبل الفجر بنصف ساعة أو أكثر، وحينها لا تجد في شوارع ضاحية المرسى التي تقطنها سوى من لم يحالفها الحظ من بنات الليل اللاتي يقفن في زوايا مظلمة وفي مداخل العمارات، يرتدين أشبارا قليلة من الثياب، وحين يشعرن من مكمنهنّ بمرور رجل يظهرن أمامه فجأة في ذلك العري الفاضح ويستعرضن مفاتنهنّ في غنج. فكنت تحث الخطى، غاضا بصرك، حتّى لا تدنّس عينيك بذلك المشهد الشنيع وأنت تقصد المسجد، تسأل الله أن يجعل في قلبك نورا وفي بصرك نورا وفي سمعك نورا وفي لسانك نورا وعن يمينك نورا وعن يسارك نورا، ومن فوقك نورا ومن تحتك نورا وأمامك نورا ومن خلفك نورا. كانت اللحية والثوب القصير كفيلين بحمايتك، لكنّك كنت تخشى على طهارتك أن تبطلها نظرة تلهب الغرائز، وتعكّر طمأنينتك وتشوّشك لأيّام.

كان المسجد يقع على بعد شارعين من مسكنك. لم يكن بالمسجد الكبير، إلّا أنّ إمامه طبيب الأسنان الشابّ الذي لا يكبرك سوى بسنوات قليلة قد حباه الله بحنجرة ذهبيّة، تهتزّ لها الأفئدة وتطرب لها الأسماع، ويحفظ القرآن كلّه عن ظهر قلب، لا يكاد يخطئ. وحين يحلّق بك ذاك الصوت الملائكيّ في صلاة الفجر، تستشعر البركات تنهمر عليك من السّماء، مثل شلّال يغمر صدرك وينعشه.

كنت تمكث في المسجد مع رهط من شباب الحيّ، سلفيي التوجّه في الغالب، من بعد الصّلاة إلى طلوع الشّمس، تقرؤون أذكار الصّباح ثمّ تتلون ما تيسّر من القرآن، كلّ بمفرده، مستندين إلى حيطان المسجد أو متكئين إلى سارية من سواريه. وبعد أن تراجع جزءا أو

جزءين من ذكر الله الحكيم، لتتسنّى لك مراجعته كلّه مرّة كلّ شهر، كنت تغادر المسجد مع شابّ أو اثنين، فتيمّمون وجوهكم شطر مطعم «الصفصاف»، مطعمك المحبّب، حيث تتناولون إفطارا يسيل له اللّعاب.. «صحن تونسي» قوامه سلطات وهريسة حارّة وبيض وزيتون وفلفل مخلل، أو «صحن كفتاجي» من الخضار والبطاطس المقليّة، بالإضافة إلى قطعة أو اثنتين من فطائر «البمبلوني».

ثمّ تعود إلى الشّقة، تستحمّ وتتعطّر، وتغيّر هندامك استعدادا إلى القسم الثّاني من نهارك الحافل! على السّاعة الثالثة عصرا، تغادر الشّقة مجدّدا، ليبدأ مشهد مختلف مغرق في السرياليّة. يخرج إنسان آخر، بسمت آخر وعقل آخر ولهجة أخرى، ومشاعر أخرى!

تستقلّ قطار الضاحية إلى المركز الثقافي الفرنسي، مولّيا وجهك قبل الغرب، لتلقى هناك رفاقا آخرين، شبابا وفتيات، كنت قد واعدتهم لمشاهدة شريط أو حضور عرض، أو جلسة لهو بريء. وبعد إغلاق المركز، حوالي السّاعة التاسعة، تخرج مع مجموعة مختلطة من الشباب لتناول العشاء في أحد المطاعم الفاخرة في ضواحي العاصمة، وتسهرون حتّى وقت متأخر من الليل!

ثمّ تعود إلى شقّتك وحيدا. تلقي بجسدك على فراش من شوك، منهك الفكر حائر العقل، تعاني صراعا نفسيّا حادّا وضياعا وجدانيّا، وتمزّقا في الهويّة، تكاد جمجمتك تنفجر من وطأة الألم.

لم يكن أحد ممّن عرفك في أحد العالمين، هذا أو ذاك، يتخيّل ولو لوهلة واحدة ما تكون عليه حين تعبر الحاجز الفاصل بين شقّي ذاتك المنفصمة.

كنت تجمع المتناقضات ذاتها في ما تأتيه.. فكانت لك هيئتان مختلفتان.. هيئة حين تصاحب من تعدّهم من الأخيار، من أتباع

التيّارات الإسلاميّة داخل الكلية وخلال النّشاط الدّعويّ، أو خارجها في مجالس خالك عمّار ومن امتدّت إليهم علاقاتك بفضله.. وهيئة أخرى حين تكون في محاضراتك ونشاطك الطّلّابيّ وناديك الثّقافيّ. الأولى، ثوب أبيض قصير وعمامة وسواك.. والثانية جينز من الماركات العالميّة، وأقمصة مستوردة وعطور باريسيّة هي أبلغ ما يعبّر عمّا كنت فيه من ترف زائد، وشعور بالزهو وحظّ النفس، حين تبدو علامات الإعجاب في عيون من تتوق إلى محادثتهنّ من الفتيات!

هل تذكر آسيا، غادة الكلية وفاتنة القلوب فيها ذلك الحين؟ كانت هجينا تونسيّا فرنسيا، حسناء بشكل لم تألفه، وأنت من يأسرك الجمال ويسبي روحك، وقد كانت معك في الفصل ذاته. وقد وجدت نفسك تساق معها، وتنسى ذاتك، فتفتح لها قلبك، وتتقرّب إليها، وكان أن استلطفت حديثك واستعذبت صحبتك، وكثرت بينكما نظرات العيون والابتسامات. ورفرفت أجنحة الحبّ في سماء أحلامك، وأصبح الترنّم بأبيات شعر الغزل إحدى لازماتك في خلواتك.

هل تذكر يوم رآك بعض الإخوة تحادثها في ساحة الكلّيّة؟ اتّجه نحوك غاضبا وقد عزم على تأنيبك بشأن علاقتك بها. فلمّا وصل أمامكما هتف بلهجة صارمة:

- مالك، هل لي بكلمة؟

ثمّ استدارت آسيا، لترمقه بعينين واسعتين فاتنتين، فتسمّر مكانه وراح يتأتئ في تلجلج وتلعثم. فابتسمت في خبث وأنت تشاغبه:

- ما الأمر يا خالد؟ تكلّم!

تنحنح الرّجل في ارتباك وتمتم:

- سأراك لاحقا.

- طبعا.. الكلام لاحقا.

فإذا وقفت أمام حسنك صامتًا.. فالصمتُ في حَرَمِ الجمال جمالُ!

ضحكت، بينما همس لك خالد وهو يبتعد:

- أيّها المحظوظ!

ثمّ هرول مبتعدا وأنت تواصل ضحكك.

استمرّ نعيمك لشهور، والدّنيا لا تتسع لسعادتك، حتّى كان يوم له ما بعده.

كان صبيحة يوم أحد شتويّ ماطر، وكنت قد بكرت مع صديق لك إلى جامع «صاحب الطابع»، حيث بدأت تحضر درسا أسبوعيّا. ركبت القطار من محطّة المرسى، وقد كانت العربات شبه خالية في ذلك الوقت من اليوم، والنّهار لمّا يتثاءب. بعد بضع دقائق، في محطة قرطاج، صعدت فتاتان، إحداهما تحمل مظلّة. تابعتها بدون اهتمام وهي تطوّح بها لتنفض قطرات المطر، قبل أن تغلقها. حين طوت المظلّة التي حجبتها عنك، التقت نظراتكما على حين غرّة. كانت هي، ملكة الجمال التي همت بها حبّا. اتسعت عيناها الفاتنتان ذهولا، وهي ترى من شاغل قلبها في أروقة الكلية بأناقته ووسامته، وقد تجلّى أمام ناظريها في هيئة كأغرب ما تكون.. كأنّما هو أحد أولئك الذين لا تشاهدهم قطّ إلا في أفلام التلفاز التي تعرض في ذكرى المولد النبوي أو رأس السنة الهجرية، والتي غالبا ما تكون فيها السّيوف والرّماح، والخيل والدروع.. و«هيا يا قوم».. و«ويحك يا عكرمة»!

كانت تلك نهاية علاقتك بها، حين اكتشفت الوجه الثّاني لشخصيّتك المزدوجة.

عرفت بعض الانضباط لاحقا، وتحكّم العقل في اختياراتك أكثر،

فخطبت زميلة لك حين بلغت الرّابعة والعشرين. كانت تصغرك بعامين، ولم تكن مسيرتها الدّراسيّة قد تعطّلت مثل مسيرتك. ولم تكن باهرة الحسن، مثل آسيا، لكنّها جميلة.. ذاك الجمال الهادئ الذي لا يأسر من النّظرة الأولى، لكنّه يستقرّ في النّفس ويورثها ارتياحا عند النّظرة الثانية وما يليها من النّظرات. وقد راقت لك صفاتها الأخرى التي تتجاوز الجمال الخارجيّ، وقد ازددت نضجا واتّزانا. كانت ملتزمة دينيًا، ناشطة اجتماعيًا، ومتفوّقة دراسيًا. فماذا تطلب بعد؟

كنت جادًا والفتاة ليست بلعوب، فلم تتأخّر في التّقدّم لها. ورغم تعثّرك الدّراسيّ، فقد كنت واثقا بأنّ مثلك لا يُرفض. وقد كانت هناك خطبة، ودبلة ذهبيّة لها وأخرى فضّيّة لك، في حفل عائليّ مضيّق.

وبعد أسبوع واحد، كنت وراء القضبان.

امتدّت المحاكمة لشهور طويلة، ثمّ صدر الحكم بسنوات ثلاث. خطيبتك وأهلها أدركوا أنّ مستقبلك قد غدا غائما ضبابيًا. هل يكون لك أن تصبح طبيبا يوما ما؟ بل هل بقي لك أيّ مستقبل في البلاد وقد مُهر جبينك بختم «عدوّ النّظام»؟ كان التعلّق القلبيّ هشّا بعد، ولم يكن أحدكما متيّما بالآخر. لعلّها أجرت حسابات كثيرة، بالورقة والقلم، عن الحظوظ والإمكانات والاحتمالات.. ثمّ رأت أنّها تستحقّ أفضل ممّا تهديها، فأرسلت إليك دبلتك مع أخيها، وأنت في حبسك.

الفصل الثالث

- هروب -

-١-

حاولت الانتحار.

لا، ليس بعد خيبتك العاطفيّة.. بل بعد خروجك الثالث من السّجن!

وهل ينتحر المؤمن؟

لعلّك بدأت تفقد إيمانك منذ ذلك الحين. لعلّ الخيبة صدّعت أركان عقيدتك. لعلّك لم تكن مؤمنا بتلك القوّة منذ البداية. ولعلّها كبوة الفارس.. لحظة ضعف عابرة تمالكت نفسك بعدها. وما السّقطات العظام إلّا نتاج لحظات ضعف عابرة كتلك. لو أنّك لقيت حتفك تلك المرّة، لانتهى كلّ شيء إلى غير رجعة.

تعلم منذ الأزل أنّ الإيمان يزيد وينقص. لكن هل كنت تعتقد قبل ذلك أنّه قد يختفي يوما؟ يتبخّر؟ هل ينضب معين الإيمان كما تجفّ منابع العيون في موسم الجفاف؟ وهل كان موسم جفافك ممّا يمكن التنبّؤ به وتوقّع عواقبه؟ تستيقظ يوما فلا تجد في قلبك إيمانا؟!

كانت وحدتك بعد فترة الحبس الثالثة مفتاح الشّرور. كانت شقيقتك قد أنهت دراستها وتزوّجت وسافرت مع زوجها إلى ألمانيا، وشقيقك هو الآخر أنهى سنوات تعليمه وعاد إلى الرّياض حيث تنتظره وظيفة جاهزة هيّأتها معارف الوالد الكريم. أمّا خالك عمّار، فقد استمرّ سجنه سنوات بعدك. ولم يكن هناك من أقاربك بالعاصمة من يمكنك اللّجوء إليه. رفاق الأمس تنكّر بعضهم لبعض وانزوى كلّ في قوقعته درءًا للشّبهات وتضليلا لعيون المراقبة اليقظة. كنت ممنوعا من السّفر بعد الإفراج عنك، مقيّدا بإقامة جبريّة في مدينتك لا تبرحها. تسجّل حضورك في مركز الشّرطة صباحا ومساءً، كلّ

يوم، بإمضاء سخيف على دفتر أصفر. ورغم الابتسامة الودودة التي يلاقيك بها موظّفو المكتب، كيف لا وأنت زائرهم اليوميّ، فإنّك لم ترد يوما على تحيّة الإسلام وأنت تصلهم وتغادرهم مطأطئ الرّأس، لا ترى عيناك غير الصفحة الملعونة التي تمهرها بإمضائك.

هل تراهم افتقدوك يوم فقدت الوعي وغبت عن الدّنيا ساعات طويلة؟ لعلّ مشاغل أخرى ألهتهم عن ردّ الزّيارة وتفقّد وضعك. لم تصل دوريّة شرطة إلى شقّتك ذلك الصّباح الذي طالت فيه نومتك إلى المساء. بدا أنّ أحدهم لم ينتبه إلى غيابك. فاجأك ذلك الاكتشاف. لو أنّك خططت للهرب مثلا، لكنت وصلت إلى سواحل أوروبا أو حدود الجزائر الآن، دون أن تجد دوريّات غاضبة تجدّ في إثرك. حين ظهرت في مركز الشرطة صباح الغد، قرأت علامات الدّهشة على وجه الموظّف الذي طالع السّجل في حيرة مستفسرا عن الغياب الذي انتبه إليه لتوّه. غمغمت في شبه اعتذار:

- كنت مريضا.. لم أستطع مغادرة السّرير بالأمس.

يهزّ رأسه متفهّما، ثم يوصيك بلهجة حادّة ألّا تعيد الكرّة، حتّى لا تواجهك عواقب وخيمة.. ولعلّ العواقب تكون من نصيبه إن اكتشف رئيسه تهاونه!

تلك الصّدفة فتحت عينيك على حقيقة الأمر. أنت لست مهمّا. ذاتك نفسها لا أهمّيّة لها بالنسبة إلى جلّاديك. لو أنك قضيت نحبك في حفلة تعذيب في وقت سابق، لألقيت جثّتك في المجاري دون تردّد. لو أنك متّ وحيدا في شقتك ربّما لم يكن أحد لينتبه حتّى تنفذ رائحة العفن إلى الشّقق المجاورة. ذلك التوقيع المتكرّر كان علامة خضوعك واستسلامك. كان تنويما لا شعوريّا لإرادتك. ستظلّ تسعى صاغرا جيئة وذهابا، صباحا ومساءً، دون أدنى محاولة لفكّ قيدك الوهميّ. آلاف مثلك، يسيّر الخوف حياتهم. وكان يمكن لوضعك أن

يستمرّ كما هو لسنوات طويلة أخرى، لولا استفاقتك المفاجئة. بعد أن فشلت محاولة الموت، فكّرت أن فرصة الحياة لا تزال ممكنة.

هاتفت والدك بعد أيّام قليلة. كان هناك قلق مترسّب من التّجارب الماضية يجعل المكالمات الهاتفيّة شبيهة بالأحاجي. الخطوط قد تكون مراقبة. إذا تناهت إليك خشخشة أو سمعت تكّة تسبق وصول صوت المُتّصل به، فهذا يعني أنّ طرفا ثالثا يستمع إلى المحادثة. لكنّك كنت مشبعا بالتمرّد ذلك المساء. قلت في تحدّ:

- لقد فاض بي الكيل.. أريد مغادرة البلد في أقرب وقت.

حلّ الصّمت لبرهة على الجانب الآخر. تقرأ صدمة والدك الذي يفكّر حتما بأنّك جننت. لم يكن يخاف سلامتك وحدك، فالعائلة كلّها مهدّدة، حتّى في المهجر. لم يزر والدك تونس منذ سنين، ولعلّ اسمه يمثل في لوائح المطلوبين. ألم يرجع خالك عمّار إلى الوطن بعد غربة امتدّت زهاء عقد ونصف من الزّمن، لم يكن له خلالها أيّ نشاط سياسيّ، ليلقى عليه القبض في المطار فور وصوله! تهمته التورّط في تمويل «جماعة مشبوهة»، فقد استمرّ في إرسال حوالات ماليّة لعائلة صديق قديم في تونس، بعد أن ألقي بعائلها في السجن بحكم مطوّل. لذلك لم يكن أحدكما في مأمن إن هو جاراك في حديثك اللّاعقلاني. أمام صمته، واصلت في عناد:

- أريد أن أواصل دراستي.

لم يكن من المناسب أن يناقشك على الهاتف. مجرّد الأخذ والردّ في الموضوع يؤكّد تورّطه في جريمة تهريبك المزمعة. تحزر سبب تردّده، لكنّك تعلم أنّه سيفعل شيئا حتّى لو لم يصرّح بالموافقة. يقول أخيرا في حذر:

- والدتك قلقة عليك.. تحدّث إليها قليلا.

تأخذ والدتك السمّاعة، وتتكلّم في لهوجة يخالطها الدّمع. هكذا

هي كل اتصالاتك بها. سيل من العاطفة وطوفان من العبرات. ولدها الأصغر، قرّة عينها، بعيد عنها ولا سبيل إلى رؤيته. حين أعادت السّماعة إلى والدك، قال بصوته الرّصين الهادئ:

- سأتّصل بك خلال يومين. اهتمّ بنفسك.

ذلك الوعد الضمنيّ كان كافيًا لتوقن بأنّه سيفعل شيئا بشأن طلبك.

جمعت متاعا قليلا في حقيبة ظهر، ثلاثة أثواب ومصحفا وسواكا وقارورة عطر. ولم تنس إجازتك في القرآن الكريم، فقد كنت تعدّها أثمن من كلّ مقتنياتك. نزعت عنها إطارها المذهّب، وحفظتها في ظرف كرتونيّ لتعيد تأطيرها حين تصل إلى وجهتك.

بعد توقيعك مساء السّبت، كانت سيّارة خاصّة داكنة اللّون في انتظارك في الممرّ الخلفيّ لعمارتك السّكنيّة. لن تعرف أبدا ما لون السيّارة تحديدا، فقد انتشلتك في الظلام وخلّفتك في الظلام. وصلت إلى المنطقة الحدوديّة قبل انبلاج الفجر. طلب منك سائقك أن تترجّل، فسرت خلفه متعثّرًا في عتمة اللّيل. أنزلك إلى وادٍ ترابيّ جافّ أشبه بحفرة عميقة، وقال: انتظرني هنا!

خلّفك صاحبك في ظلمات ثلاث، ظلمة الليل وظلمة الحفرة وظلمة أفكارك المتشائمة. ماذا لو نسيك ولم يعد؟ استمرّ انتظارك ساعة أو نحوها، تقاذفتك خلالها الظّنون. ثمّ لاح الفرج مع صوت محرّك قديم يقترب.

ظهر صاحبك برفقة مهرّب جزائريّ في منتصف الثلاثينيات. كان الاتّفاق قد حُسم بينهما، فجرى استلام الطّرد البشريّ في صمت يضاهي سكون الخلاء من حولكم. ركبت الصّندوق الخلفيّ لشاحنة نقل بضائع مكشوفة. بين خزّانات الوقود الفارغة، استقرّت بك الجلسة. مهرّبو البنزين عبر الحدود التونسيّة الجزائريّة كانوا قد

انخرطوا في نشاط جديد في السّنوات الأخيرة، يشمل تهريب الآدميّين. كثيرون من المطلوبين أو الممنوعين من السّفر لا يجدون لهم مخرجا من جحيم الوطن إلّا بعبور الحدود. وهي رحلة طويلة مرهقة، وغير آمنة.

انطلقت بك الشّاحنة الجزائريّة مترنّحة عبر الطّرقات الرّيفيّة الوعرة، وكلّ شيء حالك من حولك. كان المهرّب قد أنهى عمليّات تبادل عدّة مع مهرّبين محلّيين. أفرغ حمولته من البنزين واستلم الطرد البشريّ وها هو يقفل راجعا في اتّجاه التّراب الجزائريّ.

تتقدّم الشّاحنة على مهل، مطفأة الأنوار الأماميّة، على طريق ترابيّة مدروسة. بغتة، تظهر في الأفق كشافات سيّارات حرس الحدود. كنت على أبواب العبور، ورحلتك المحفوفة بالمخاطر توشك على الانتهاء، لكنّ كلّ شيء مهدّد بالتّداعي خلال لحظات. رأسك مرجل قلق يغلي. تشعر بارتباك سائقك حين تضغط قدمه بعصبيّة على دوّاسة الوقود، لتنتفض العربة وتنفضك معها.

عبر مسافة كيلومترات عدّة، تندفع الشّاحنة المجنونة، تطاردها أبواق سيّارات الحرس التي تطوي الأرض وراءها، وزخّات رصاص حيّ وفيرة. تمرّ الرّصاصات قريبا منك، فوق رأسك، يهشّم بعضها زجاج الشّاحنة الخلفيّ ويستقرّ آخر في حاويات البنزين الخاوية. وفي لحظة ما، يفقد سائقك السّيطرة. عند منعرج ضيّق، اختلّ توازن العربة. مال ثقلها على الجانب الأيمن، ثمّ تدحرجت منقلبة رأسا على عقب. انقذف جسدك خارج الحاجز المعدنيّ مسافة أمتار، وارتطمت بالأرضيّة الترابيّة غير المريحة. أنت لا تزال واعيا. والظلام حالك على حاله. سيّارات حرس الحدود تقترب، تتوقّف عند العربة المنقلبة، وتسلّط كشافاتها على موقع الحادثة. تزحف بما تبقّى فيك من رمق، بطنك ملتصق بالتّراب، تحجبك عن الأضواء تلّة ترابيّة منخفضة. لا أحد يعلم بوجودك. جهودهم مركّزة على السّائق وحده. عليك أن

تبتعـد. أن تبتعـد إلى حيـث الأسـلاك الشـائكة الـتي تفصلـك عـن الجهـة الأخـرى. سـتفعل ذلـك رغـم الألـم، وتـودّع بنظـرة مذنبـة مهرّبـك الـذي اسـتخرج مـن السّـيارة فاقـد الوعـي.

بعـد ليلـة عـذاب مضنيـة، سـتعثر عليـك عائلـة جزائريّـة، تعيـش في تلـك البقعـة المنعزلـة مـن العالـم. لـم تكـن تفقـه سـلفا معنـى «أن تعيـش عـلى الحـدود». لقـد سـافرت كثـيرا، وقطعـت حـدودا جغرافيّـة بـين بلديـن. تسـلّم جـواز سـفرك لموظّـف الجمـارك ليمهـره بختمـه فتغـادر بلـدا وتدخـل آخـر. عرفـت مجـازا حـدود اليـأس والأمـل، حـدود العقـل والجنـون، وفي تلـك اللّيلـة الـتي عشـت فيهـا تفاصيـل الترنّـح بـين حـدود الحيـاة والمـوت، وعيـت أخـيرا كيـف يكـون «العيـش عـلى الحـدود» بالمعنـى الحـرفيّ للعبـارة. هنـاك أنـاس يعيشـون عـلى الحـدود طيلـة الوقـت. ليسـت الحـدود بالنّسـبة إليهـم تجربـة عابـرة، فهـم هنـاك، في فضـاء الـ«مـا بـين بـين»، إلى مـا شـاء الله!

لا شيء مغـرٍ في الحيـاة عـلى الحـدود. كلّ شيء شـحيح، بدايـة بأبسـط مرافـق الحيـاة الضروريّـة مـن مـاء وغـذاء وكهربـاء. حـتّى الأرض معظمهـا بـور. البيـوت أشـبه بالأكـواخ المتداعيـة، وكلّ شيء مقفـر فيمـا حولهـا. وفي أفنيـة البيـوت القليلـة المكوّنـة للقريـة، تتكـدّس حاويـات بلاسـتيك تنتظـر دورهـا للرّحيـل. سـكّان القريـة بـلا اسـتثناء، يمتهنـون التّهريـب كحرفـة أصيلـة متوارثـة عـبر الأجيـال.

جـاد فقـراء الحـال بمـا لديهـم بسـخاء وإخـلاص. شـاركت العائلـة مسـكنها المتواضـع لأيّـام لبثـت خلالهـا ممـدّدا في إرهـاق، وقـد أنهكتـك سـقطتك وخلّفتـك كتلـة مـن الرّضـوض والكدمـات. حـين اسـتعدت عافيتـك وتماثلـت جراحـك للشّـفاء، خرجـت تتمشّى في الأنحـاء. لـم يكـن هنـاك الكثـير لـتراه. امتـداد شاسـع للقفـر، وأسـلاك شـائكة، تظهـر وراءهـا مـن حـين إلى آخـر دوريّـة خيّالـة تونسـيّة تـشرف عـلى الشريـط الحـدوديّ ثـمّ تقفـل راجعـة أدراجهـا. وراع هائـم بـين التّـلال الجـرداء، صحبـة

قطيعة الهزيل. الطريق التي يتبعها المهرّبون تتلوّى هناك، في عمق الغابة. تلمح المنطقة المشجّرة التي كان من المفترض بك أن تعبرها منذ أيّام، وتتنهّد. تتساءل، ماذا حلّ بسائقك؟ هل تراه نجا؟

حديث الرّصاص والشاحنة المنقلبة تناقله الجيران القلّة لأيّام، بمنتهى الإثارة. خرج معظمهم تلك اللّيلة حين تناهى إليهم دويّ الطّلقات. دفعهم الفضول للاقتراب والفرجة، غير عابئين بخطر الرّصاصات الطّائشة. فكتبت لك النّجاة، حين عثر عليك مسجّى غير بعيد عن الحدود. لكن لا أحد يعلم ما الذي حلّ بالسّائق المنكوب. ليس من المنطقة. لم يكن يفترض به المرور قرب هذه النقطة، فالمنفذ على الجهة الأخرى، داخل الدّغل.

اقترب منك الرّاعي بابتسامة سمحة وقد عرف قصّتك من أهل القرية -ومن لم يعرف قصّتك وأنت الغريب جليّ الغربة- جلس إلى جوارك على الأرض، وأخرج من جرابه قرص خبز من القمح وكوز لبن ماعز، ودعاك إلى تقاسم وجبته. قبلت الدّعوة دون تردّد، تناولت قطعة الخبز الجافّة وأخذت تلوك لقيماتها في تؤدة، وتحتسي جرعات اللّبن في صمت.

ترمي ببصرك إلى الأفق، حيث تعانق خضرة الجبال زرقة السّماء. لكنّها سكينة ما بعدها سكينة، وخلاء ما بعده خلاء، وأمواج من الأفكار تهاجمك وقد انهارت دفاعاتك، تماما كما كانت تتمكّن منك فتصرعك على ضفاف بحر المرسى. تأخذ صورا من شريط حياتك في التدفّق من بوابّة الذاكرة، فتدمع عيناك جزعا لما مضى من عذاب، ولما سيأتي من مجهول.

هناك، في تلك الخلوة مع نفسك، في منطقة الحدود، بدأت الأسئلة الوجوديّة تتسلّل مرّة أخرى إلى روحك المنهكة. لقد اكتويت بلهيب المحنة لسنوات، غادرت موطنك شريدا، ودفعت ثمن إخلاصك

لعقيدتك، واصطفافك في خندق الحقّ، في مواجهة الباطل. وها أنت تقف على عتبة «اللاشيء»، ترمق في حسرة مشاهد الفقر المدقع التي تملأ ناظريك. هؤلاء الأحياء الأموات على الحدود، على هامش الوطن والبشريّة، نسيتهم الحياة أو كادت، فما جادت عليهم من معانيها بأكثر من فتات.. بينما يعيش الظلمة المتجبّرون ذوو النّفوذ من خونة الدّين والوطن في ترف متبطرين. تتأمّل الأكواخ المتداعية وأسمال الأطفال المهلهلة، أين هي من القصور والجنّات التي يرفل فيها أصحاب السلطان؟ لا ذنب لهم إلّا أنّهم ولدوا على الحدود، فكان قدرهم الشّقاء!

تتصاعد المرارة إلى حلقك، وتتساءل في حرقة، أين الله من هؤلاء؟ وأين الله من أولئك؟ أوليس بيده أن ينصف هؤلاء، ويفتك بأولئك؟ فلماذا إذن؟

تضيق بك الدّنيا بما رحبت، ويشتدّ بك اليأس في ساعات الهجير، تحت لهيب الشّمس الحارقة يهيأ إليك من لفحاتها أنّ أبواب جهنّم قد فتحت على مصاريعها، فتفتك بك الهلاوس، يغلبك سوء الظنّ واليأس من رحمة الله، وتنتابك الرّيبة. هل كان جهادك مجرّد وهم؟ لماذا لم ينصركم الله وأنتم أولياؤه؟ لماذا تهجّرون من دياركم ووطنكم طوعا وقسرا؟ لماذا يترككم الله لآلة البطش تسحقكم ولا يحرّك ساكنا؟

يتقلّب مزاجك بين الصّباح والمساء، ويعتريك الشكّ.. هل أنّ مثلك كمثل الصّحابة الذين تكالبت عليهم الأحزاب من كلّ صوب (إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)؟ أم أنّك ممّن قالوا (مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)؟

هل كان وعد الله لكم غرورا؟!

-٢-

خـلال أسـبوع، كنـت قـد اتّفقـت مـع مهـرّب آخـر. المسـيرة مـن القريـة إلى المدينـة أكثر أمنـا. لـم تطـاردك الرّصاصـات هـذه المرّة، وأنـت تبتعـد عـن الحـدود وتتوغّـل في الـتّراب الجزائـريّ، سـيلازمك إحساس غريب بالحرقة. تعلم أنّك لن ترجع في الاتّجاه المعاكس مرّة أخرى. أنت مطرود من بلدك، محروم من العودة إليه. أنت تفرّ من جحيم السجّن والتعذيب والإقامة الجبريّة والحرمان من حقّك في مواصلة دراستك الجامعيّة.. لكنّك مترع بالمرارة، متخم بالحنين.

كان تركك للوطن، وخروجك منه خائفا تترقب، طعنة في قلبك. ورغم المرارة التي تجدها في حلقك، تهوّن على نفسك.. أليست لك أسوة في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصحبه الكرام؟ (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ).

فما بالك جزعا كسير الفؤاد هكذا؟ لقد خرجت ونفذ سهم القضاء، فانس أو تناس ما استطعت، لأن ليالي الحرمان من دفء الأهل والأحباب، ومن حلو الذكريات ستطول، وما تلك إلا البداية!

أوصلك المهرّب إلى منزل متواضع في مركز ولاية «سوق أهراس» الجزائريّة، حيث كان عدد آخر من الحرّاقة مجتمعين. كان الإخوة الجزائريّون يجتهدون لتوفير الحلول الممكنة لإخوانهم التونسيّين الفارّين من وطنهم. تساررت مع رفاق رحلتك ممن قادتهم خطواتهم إلى ذات المنزل. بعضهم ينوي البحث عن عمل، والبعض الآخر سيكتفي بالاختفاء لفترة ريثما يصله الخبر اليقين: هل تجدّ السّلطات التونسية في إثره؟

اتّصلت بوالدك. كان من المفترض بك أن تتصل بالوسيط منذ أسبوع، واختفاؤك الغامض ملأه جزعا. حين وصله صوتك بعد أسبوع من التقلب على جمر القلق، انتحب على الهاتف دون موارية. أنت الآن بأمان. استعدّ للخطوة التالية. استلمت اسم الوسيط وعنوانه، واتّصلت به على الفور. كان كهلا جزائريّا سبقت له زيارة تونس سياحة، فتعرّف إلى والدك في ظروف لا تذكرها، لكنّ العلاقة بينهما وإن كانت سطحيّة فقد استمرّت وديّة، وكان بينهما من الارتياح والثقة ما جرّأ والدك على طلب هذه الخدمة من الرّجل.

وصلت إلى العنوان، فسألت عن صاحب الاسم حتّى دلّوك عليه. استقبلك الرّجل بترحاب وحفاوة لا نظير لهما كأنّك صديق حميم، وأبدى تفهّما لوضعك:

- ستكون ضيفا علينا ريثما ننظر في سبل مساعدتك.

لبثت عنده بضعة أيّام، بينما تواصل مضيّفك مع إخوة آخرين، ثمّ عاد إليك بمقترحه:

- بوسعي تدبير عمل مؤقت لك في مصنع قريب لي، حتّى تتمكّن من إعالة نفسك في الفترة المقبلة.. في انتظار حلّ أفضل.

في الأثناء اتّصل بك بعض الإخوة من الحرّاقة الذين لقيتهم في دار الضّيافة. كانوا قد انتقلوا في غيابك إلى منزل عمّ أحدهم، وهو مدرّس في مدرسة إعداديّة في مدينة جزائريّة قريبة. كانت شقّته خالية آنذاك لعودته إلى تونس أثناء العطلة الصيفيّة. فكّرت في الفرص المتاحة، ثمّ اتّخذت قرارك. غادرت منزل مضيّفك شاكرا، لكنّك لم تقبل بعرضه رغم ما تكبّده من عناء لتدبيره. شعرت أنّك إن انفصلت عن الحرّاقة وقبلت بالاستقرار والعمل، فقد تضيّع فرصا مقبلة. كنت تجهل أنّ تلك الأيّام في ضيافته كانت آخر عهدك بالرّاحة

والرفاهية قبل سلسلة طويلة من الابتلاءات. لكنّك كنت تدرك حتما بأنّك منذ تلك اللحظة قد تمرّدت على الحماية الأبويّة وشرعت في تدبّر أمرك بنفسك.

التحقت برفاقك إذن، وأنت لا تملك تقدير فرص فوزك من خسارتك. في الأيّام التالية، عاد اثنان منهم أدراجهما إلى تونس بعد أن وصلتهما أخبار مطمئنة بأنّ الملاحقات لم تشملهما. أمضيت أسابيع أخرى من الترقّب، حتّى اقترب موعد العودة المدرسيّة، وصار عليكم إخلاء شقّة العمّ الذي أوشك على الرجوع.

انتقلت من جديد، إلى مبيت جامعيّ في الجزائر العاصمة هذه المرّة. كنت متمسّكا بهويّتك كطالب وتتصيّد فرص الالتحاق بالجامعات، ورغم حيرتك بشأن خططك المستقبليّة فقد انتابك شعور بأنّ الفرص ستكون أفضل في العاصمة.

في المبيت الجامعيّ، تعرّفت إلى سامر، أحد شباب التوجّه الإسلاميّ من الضفّة الغربيّة. ارتاح أحدكما إلى الآخر وسارّه بأمره. وكانت بينكما محادثات طويلة باعتبار الاستئناس والصحبة. كان فيلسوفا، ولوعا بالجمال مثلك. لذلك لم يكن من الغريب أن تستمرّ مسامراتكما بالساعات، حتّى خيوط الفجر الأولى في متعة وانسجام. وقد كانت تلك الأوقات تسلّيك وتنسيك ما يشقيك من تفكير في مستقبلك وقادم أيّامك. كنت كالنّعامة، تدفن رأسك في رمال النّقاشات الفكريّة، وتنتظر فرجا قد يأتي قريبا.. وقد لا يفعل أبدا.

بعد أسابيع من مراوحتك مكانك دون أن يستجدّ شيء بخصوص ملفّك في الجامعة الجزائريّة، اقترح عليك سامر الانتقال إلى بيروت. كان عائدا إلى الضفة ويمرّ بالعاصمة اللّبنانية، ويمكنه تيسير قبولك في جامعة بيروت. لكنّك تردّدت. لبنان على مسافة شاسعة من الوطن،

لكنّها أقرب إلى المملكة العربيّة السّعودية، حيث العائلة. شكرت لطفه وطلبت مهلة للتفكير. كان عليك استيفاء جميع السبل الممكنة قبل اتّخاذ قرار الرّحال البعيد.

بإيعاز من زميل لك في السّكن، حاولت أن تجرّب حلّا آخر. غادرت إلى فاس عن طريق الدّار البيضاء لتحاول الالتحاق بالجامعة في المغرب الشّقيق. غامرت بشكل لا يصدّق وأنت تستظهر على الحدود بجواز سفرك التّونسيّ ممهورا بختم مزيّف! على ممحاة بيضاء، رسمت بعناية ختم الحدود الجزائريّ بقلم حبر أزرق. لقد كنت ماهرا والحقّ يقال. لكنّ المجازفة فاقت كلّ مستويات الجنون السّابقة. كان يمكن لأمرك أن ينتهي عند تلك المغامرة، فتساق إلى السّجون من جديد. لكنّ لطف الله كان ملازما لك، لعلّها دمعة وجد صادقة ذرفتها ذات ليلة في قيامك؟ فعبرت جيئة وذهابا بسلام بعد فشل مسعاك.

أمضيت يومين يتيمين في فاس، زيارة خاطفة لالتماس فرصة ممكنة. قصدت الجامعة، حيث التقيت عميد كليّة الطبّ. كان لقاء غريبا وملتبسا. وقفت أمام المكتب تصارع الارتباك والأمل الزّائف الذي تشبّث بتلابيبه حتّى آخر رمق. أولم تصل إلى هذه الغرفة بطريقة ما؟ لعلّه الفرج إذن. عاين الرّجل شكلك باهتمام، ثمّ ألقى نظرة عابرة على ملفّك. رفع رأسه بابتسامة غريبة، ثمّ قال:

- لا بأس، يمكنك الالتحاق بالكليّة...

هل أشرقت الأنوار في ثنايا صدرك وصدحت البلابل في رأسك وهو ينطق بالكلمات التي تنهي معاناتك؟ لكنّ للحديث بقيّة.. وأيّ بقيّة! سمعت الرّجل يضيف، لتتلاشى علامات الانشراح التي غمرت ملامحك لبرهة:

- إذا صادقت القنصليّة التونسيّة على ملفّك.

تلك الـ «إذا» الشّرطيّة كانت القاصمة. مصادقة القنصليّة كانت تعني ببساطة تسليم نفسك إلى جلّاديك. كان شرطا تعجيزيّا، وقد رمى الرّجل فأحسن التّسديد. فرجعت على عقبيك بخفي حنين.

دعني أصارحك بشيء، لا يخفى عليك. لقد بليت بالحبّ والعاطفة الجارفة منذ الأزل.. لكن هل تعلم من كانت محبوبتك الأثيرة، تلك السّاكنة في السّويداء؟

إنّها نفسك!

أنت لم تحبّ أحدا كما أحببت نفسك، لا سارة ولا آسيا ولا غيرهما! ولعلّك عشقتهن لأنّك رضيت عن صورتك في عيونهن! كنت تتيه إعجابا بانعكاس قوامك في المرآة، وتستزيد من عبارات الإعجاب وحتّى الغيرة التي تنهال عليك أينما حللت. كنت تقتات على نظرات الانبهار التي تحيط بك كلّما وقفت في ساحة الكلّيّة تخطب، فتنمو الأنا داخلك وتتغوّل. كنت مغرورا نرجسيّا بلا مبالغة!

لكن ذاتك المستعلية تهبّ في المقابل تجادل عن نفسها: أليس لمثلك حق في هذه النرجسية؟ في زمن التردّي والهزيمة.. وقد عزّ فيه نظيرك! لسان حالك ينطق بقول الشاعر:

وَمَا الدّهْرُ إلّا مِنْ رُواةِ قَصائِدي إذا قُلْتُ شِعرا أصْبَحَ الدّهرُ مُنشِدا

لكن تلك التّجربة المريرة كلّها.. من السّجن إلى الهجرة، كانت تحطّم أناك وتسحقها. لم تعد تطيق صورتك الهزيلة في المرآة. سوء التّغذية خلّف جسدك كومة من العظام، بعد أن كان مثالا للكمال! أهملت وجباتك ولم يعد يدخل جوفك سوى ما يسدّ الرّمق. لقد حاولت التخلّص من حياتك واستعجلت المرور إلى العالم الآخر، وهل كنت لتفعل لو أنّك لم تصل إلى مرحلة متقدّمة من إدراك

ذاتك؟

وأنت تواجه الرّفض والنّبذ مرّة إثر أخرى، كان تقديرك لنفسك يتضاءل، واعتزازك بذاتك ينكمش ويضمحل. عدت من رحلتك تلك وقد ازداد داخلك إظلاما واستحال قلبك قطعة من السّواد.

-٣٠-

عـاد صاحبـك سـامر مـن الضّفـة، وقـد تدبّـر لـك كمـا وعـد وثيقـة سـفر فلسـطينية!

عودتـه أنعشـتك. ووثيقـة السّـفر أوقـدت حماسـك، لا لوظيفتهـا في حـلّ مشـكلاتك، بـل لرمزيّتهـا. مـا زلـت تتلقـى الحـبّ رغـم كلّ شيء، وهنـاك من يهتـمّ لأمرك! رفضـت لفتتـه الكريمـة شـاكرا، لكنّـك نفضـت عنك غبـار اليـأس، وقـرّرت محاولـة شيء مـا. في الحقيقـة، كان اسـتخدام تلك الوثيقـة مخاطـرة بالغـة. كان مـن الممكـن كشـف انتحالـك ببسـاطة، فأنـت لا تتقـن بـأيّ شـكل اللهجـة الفلسـطينية. لكـنّ اللهجـة الجزائريّـة، ذاك شـأن آخـر.

بدأت الحكاية بملاحظة عابرة من أحد الإخوة:

- هـل تـدري أنّ ياسـين يشـبهك كثـيرا؟ حـين رأيتـه بالأمـس في مدخـل المبيـت، حسـبته أنـت!

كان شـبها طفيفـا لا يصـل إلى حـدّ التّطابـق، لكنّـه قـد يخـدع عينـا غـير مدقّقـة. تبـدوان مثـل ابـني عـمّ، أو قريبـين بينهمـا رابطـة دم، لا أكـثر. سرعـان مـا نمـت الفكـرة في عقـل سـامر وأورقـت:

- إن كنـت ترفـض المخاطـرة باسـتعمال الوثيقـة الفلسـطينية، فالأمـر أيـسر بجـواز سـفر جزائـريّ!

أقنعـك. وبحـرج شـديد، صارحـت الشـيه بطلبـك. قلـت في حـرج بعـد مقدّمـات طويلـة شرحـت فيهـا حساسـيّة وضعـك:

- مـاذا لـو طلبـت تأشـيرة السّـفر إلى لبنـان باسـمك، ثـمّ بلّغـت بعـد رحيـلي عـن ضيـاع جـواز سـفرك؟

كانت خطّة متهوّرة، لكنّ الأخ ياسين وافق!

وهكـذا أصبحـت «ياسـين عبـد الهـادي». في غضـون أسـبوعين، حصلـت عـلى جـواز سـفر وتأشـيرة دخـول إلى لبنـان، وأصبـح بمقـدورك المغـادرة متى شـئت. أعـددت حقيبـة ظهـر صغـيرة، حـوت مقتنياتـك القليلـة منـذ وصولـك إلى الجزائـر. ودّعـت سـامر، رفيـق الـدّرب الـذي تقاطعـت طريقـه مـع طريقـك لشـهور يسـيرة، وانطلقـت.

في المطـار، سـجّلت في الرّحلـة ثـمّ قصـدت مكتـب مراقبـة الحـدود. مـررت بسـلام واسـتقررت في قاعـة المغـادرة تنتظـر الطائـرة مـع بـاقي المسـافرين. فجـأة، دخـل رجـل في بدايـة الكهولـة، يرتـدي معطفـا طويلا، إلى فضـاء الانتظـار ونـادى باسـمك المنتحـل «ياسـين عبـد الهـادي». ارتجفـت. فكّـرت للحظـة بالتّـواري عـن الأنظـار، التّـلاشي، وإنـكار علاقتـك بالاسـم وصاحبـه. لكنّـك وقـد عـبرت الحـدود، لـم يعـد يفصلـك عـن بغيتـك إلّا بوّابـة الصّعـود إلى الطّائـرة.. فكيـف تعـود أدراجـك وقـد غـدوت قـاب قوسـين مـن الهجـرة؟ تماسـكت، وأجبـت المنـادي رافعـا ذراعـك.

- تفضل.

ترتعش أنفاسك وأنت تترقّب حكما بإجهاض خطّة هربك.

- لقد نسيت مل، هذه.

تمتـدّ كـفّ الرّجـل إليـك ببطاقـة الخـروج الـتي أهملـت تعبئـة عـدد مـن حقولهـا مـن بـاب الحـذر والتّمويـه.

- آه، أنا آسف.

تتكـئ عـلى الورقـة وتـشرع في مـل، الفضـاءات الفارغـة مسـتنفرا خيالـك الواسـع.

تمّـت المعجـزة وركبـت الطّائـرة. ولـم يقـترب منـك أحـد مجـدّدا حـتّى أقلعـت.

يتكـرّر مشـهد الرّعـب عنـد شـبّاك مراقبـة الجـوازات في بـيروت. ترمـق

الموظّف الشّاب بابتسامة مهتزّة، بينما تتنقّل عيناه الفاحصتان بين ملامحك وصورة الجواز التي لم يكن من العسير كشف الفروقات بينك وبينها. يلقي عليك بعض الأسئلة. أنت تعرف كلّ ما تحتاج معرفته عن صاحب الجواز، ويمكنك تقديم مبرّر مقنع بشأن سفرتك. يهزّ رأسه وهو يملأ استمارة الدّخول، ثمّ يطلب توقيعك أسفلها. توقّع لاإراديًا، ثمّ تنتبه بغتة. لم يكن ذلك إمضاء صاحب الجواز، بل إمضاءك أنت يا مالك! وشتّان بين الإمضاءين! يطلب منك الموظّف مرافقته، فتنصاع وأنت تكاد تميّز شبح ابتسامة نصر مزهوّة على شفتيه. لقد كشف أمرك.

في المكتب الدّاخلي، كان موظّفا أمن في انتظارك. طلبا منك الجلوس، وطرحا أسئلة أخرى.

- لماذا جئت إلى لبنان؟

- سياحة!

فتحا الحقيبة التي تحوي أغراضك القليلة، فوجدا وثائق دراستك.

- إنّها تخصّ صديقا.. يريد التّسجيل في جامعة دمشق.

سلّماك جواز السّفر وسمحا لك بالمغادرة. لم تصدّق أنّه قد سمح لك بالخروج من الشّرك الذي وقعت فيه بغباء بتلك البساطة. فكّرت حينها بأنّك لا تعتبر صيدا ذا بال بالنّسبة إليهما. وربّما يتسلّيان بمناكفتك ثمّ يطلقان سراحك في انتظار صيد أوفر قيمة.

خرجت من المطار، واستقللت سيّارة أجرة باتّجاه فندقك. وأنت تغادر السيّارة وتمشي نحو مدخل البناية، انتبهت إلى شابّ مفتول العضلات ينزل من سيّارة سوداء توقّفت عند المنعطف. كان يتجاوزك طولا، رغم سنتيمتراتك المائة والخمسة والثمانين، ويبدو مثل جدار فولاذي متحرّك. راودك إحساس متشائم بأنه كان وراءك طيلة الرّحلة من المطار، واقتفى أثرك إلى داخل الفندق. تقاذفتك الظّنون، وأنت تنهي إجراءات التّسجيل في بهو الفندق، بينما يجلس حارسك بهدوء

في قاعة الانتظار. وحالما توجّهت إلى المصعد، تحرّك على أثرك فورا.

لم يطل ترقّبك للمواجهة كثيرا. ما إن التقت دفّتا المصعد لتحبس كليكما في المساحة الضّيقة، حتّى ضغط مرافقك على زرّ الإيقاف، ليظل المصعد معلّقا بين طابقين، بينما ارتفعت قبضة الرّجل باتّجاه صدرك. باغتتك الحركة رغم توقّعك لشيء ما، لكن هذا؟! لم تدرك ما الذي يحصل في البداية، ولم تملك أن تدافع عن نفسك وأنت الضليع في فنون الرّياضات القتالية. كان الموقف خارج توقّعاتك. ثبّتك مهاجمك على الجدار بذراعه الصّلبة، ثمّ شرعت كفّه الأخرى تفتّشك تفتيشا جسديّا حميما. ما لم تجرؤ قوات الأمن على اقترافه في فضاء المطار، تولّى الرّجل تنفيذه بين جدران المصعد. لقد أثرت شكوك ضباط الأمن في المطار في نهاية الأمر. ربّما حسبوك مهرّبا لبعض الممنوعات.

بعد دقائق طويلة من الاستسلام القسريّ، أفلتك رجل الأمن. فُتح باب المصعد، فجررت نفسك خارجه، دون أن تتبادل كلمة واحدة مع الرّجل. مضيت صامتا إلى غرفتك، مبتلعا المهانة والذلّ. حين بلغت الغرفة، توجّهت مباشرة إلى الحمّام وأنت تلهث. فتحت الحقيبة، أخرجت دفترك وشرعت تمزّق كل الأوراق التي تحمل عناوين الإخوة الجزائريّين الذين عرضوا مساعدتك وأرقام الاتّصال بهم. رميتها كلها في المرحاض وأغرقتها دون تردّد. ثمّ استلقيت على السّرير طلبا للرّاحة.. ونمت بعمق حتّى الفجر.

خرجت بعد الصّلاة لتتمشى في محيط الفندق. كانت الشّمس قد أشرقت، وأخذت تنير طرقات المدينة الخاملة. بعد مغامرة الأمس، كان من المنطقيّ أن يلازمك الحذر. أثناء سيرك، كنت تتوقّف بين الفينة والأخرى أمام إحدى الواجهات الزّجاجيّة، تتظاهر بالفرجة، بينما يمتدّ بصرك إلى المشهد المنعكس على الزّجاج، تختلس النظر إلى ما وراءك، تتثبّت إن كنت مراقبا. لكنّك لم تكن.

-٤-

كانت السّاعة قد شارفت على الثّامنة صباحا حين أوقفت سيّارة أجرة. أعطيت السّائق العنوان. إلى مخيّم صبرا. ثمّ سرح ذهنك في ملكوت الله، تتجاذبه هواجس الهجرة وهلاوس المراقبة. لم تعرف من بيروت أكثر ممّا رأيته في رحلة السيّارة القصيرة تلك، ثمّ التهمتك المخيّمات المكتظّة الخانقة. ستحتفظ في ذاكرتك بوجه قاتم معتم، هو لون تجربتك، لمدينة ملوّنة نابضة بالحياة.

انتهت الرّحلة عند مدخل المسجد، حيث دكّان يبيع الدّجاج. تعرّفت إلى الموقع الذي وصفه سامر. دخلت الدّكان، ولبثت ساكنا. كانت بعض النسوة داخل المحلّ. انتظرت مغادرتهنّ قبل أن تتقدّم إلى البائع وتسأل عن الشّيخ «يحيى».

- سيأتي بعد قليل.. تفضّل واجلس.

على كرسيّ خشبيّ قديم، جلست نحو ثلث السّاعة، تتابع عيناك في اهتمام كلّ زبون يدخل المحلّ ثمّ يغادره محمّلا بقطع الدّجاج، دون أن يعير انتباهه. ثمّ دخل شابّ في حدود الخامسة والثلاثين، قصير قمحيّ البشرة بلحية كثّة، يلبس زيّا خفيفا وعمليّا ويضع غطاء الرّأس الرّوسي. ألقى عليك نظرة واحدة، ثمّ اقترب مبتسما وحيّاك باللّهجة التّونسيّة:

- عسّلامة يا راجل!

لو أنّك لم تكن متيقّنا بأنّك في بيروت، لحسبت نفسك قد انتقلت فجأة إلى تونس. وقفت في دهشة، لتصافح الرّجل الذي كان يتوقّع مجيئك. الشّيخ يحيى. كان غزّاويا فتحاويّا ذا انتماء إسلامي،

وصاحب نفوذ في المخيّم. درس الشريعة في تونس وتعلّم اللّهجة التونسيّة. كانت لديه مهارة تقمّص شخصيّات متعدّدة والتمكّن من مختلف اللّهجات العربيّة بسهولة ويسر، وهي ملكة شائعة لدى الفلسطينيّين بشكل عام ستلحظها مع الوقت، نظرا لطول تهجيرهم وتفرّقهم في أصقاع الأرض.

أخذك إلى منزله ودعاك إلى وجبة غداء شعبيّة مشبعة، وقضيت الليلة عنده في انتظار ترتيب مكان إقامة جديد. سرعان ما توفّر المسكن، فقد جاءك الشيخ في الغد برفقة شابّ من معارفه:

- حسن لديه غرفة شاغرة فوق منزل أهله ذات مدخل مشترك مع العائلة. ستقيم هناك حتّى تسوّي وضعيّتك وتلتحق بجامعة بيروت.

لكنّ مساعيك باءت بالفشل. كان عليك تحقيق المعادلة المطلوبة من قبل وزارة المعارف اللّبنانيّة. لكنّ ردّ الوزارة جاء بعد طول انتظار برفض ملفك! كان رفضا غامضا وغير مبرّر، إلّا أنّ دخولك البلاد بأوراق هويّة مزوّرة كان يقفز أمامك كمبرّر قويّ وكافٍ! رغم أنّ طلبك يحمل اسمك الحقيقيّ، مالك الشريف، ورغم الشهادة وبطاقات النتائج لسنواتك الماضية في كليّة الطبّ! وإن لم يكن قد وقع الرّبط بوسيلة ما بينك وبين ياسين عبد الهادي، فهناك مبرّر قويّ آخر.. أن تكون الوزارة قد اتّصلت بالقنصلية التونسية وعرفت بحقيقة فرارك وأنّك مطلوب في بلادك. وهذا يعني أنّ بقاءك في المخيّم لم يعد آمنا.

كنت تتهيّأ للسّفر إلى دمشق برّا، حين وصل خبر للشّيخ يحيى يقتضي الاستنفار العامّ. كان ذلك يوم ١٣ أبريل ١٩٩٦. كانت المناوشات بين إسرائيل وحزب الله قد اندلعت منذ أيّام وتبادل الفريقان بضعة صواريخ في المناطق الجنوبيّة. وبالأمس، اقتحمت طائرات إسرائيلية المجال الجويّ السّوريّ وقصفت موقعا عسكريّا. ستنتشر الأخبار

سريعا ذلك اليوم بمحاصرة إسرائيل لموانئ بيروت وصيدا وصور. كانت الحرب قد أعلنت في المنطقة، وأغلق المطار عشيّتها. لم يكن بيدك إلّا العودة أدراجك.

التحقت بمجموعة الشيخ يحيى في مخيم صبرا وشاتيلا، فالبلاد في حالة حرب ولا بدّ من تنظيم المقاومة. كل من بالمخيّم يتذكّر حرب لبنان سنة ١٩٨٢ واحتلال الجيش الإسرائيلي لبيروت، لذلك فقد كانت حالة التأهّب في أقصى مستوياتها. لكن لا أحد من شباب المجموعة لديه خبرة في القتال أو دراية بالشؤون العسكريّة والحربيّة، باستثناء الشيخ يحيى. فكان الخيار إيجاد نقطة استراتيجيّة للمراقبة وتنظيم نوبات حراسة.

وقع الاختيار على عمارة في مخيّم صبرا. كنت في الحراسة مع بعض الإخوة تلك الليلة. حفرتم خندقا قليل العمق في تراب الباحة الأماميّة يمرّ تحت سور العمارة ويسمح بالمراقبة من موقع متوارٍ عن الأعين. كنتم تسمعون أزيز الطائرات الإسرائيلية وهي تحوم حول المنطقة، وتقوم بدوران لولبيّ استعراضيّ.

لأول مرة تواجه الموت عن قرب.

في الحرب، هناك مفردات أخرى يتحدث بها العقل قبل اللسان. فإنّ للحرب لغتها. حين تحمل السلاح لتقتل، وتعلم أن عدوك بيده أيضا السلاح ليقتل.. تتيقن حينئذ أنّ الموت يحوم فوق رأسك، وأنه في كل مُنعطف حولك، وتتضح في ذهنك الصورة.

يا لهذه الحياة.. ننغمس فيها بكلّ ذواتنا وتجرفنا مشاغلها وأحداثها، وكأنّنا خالدون فيها! لا ندرك حقيقة سخافتها إلا حين نقترب كثيرا من الموت، فنصبح قاب قوسين أو أدنى.. نوقن بأنّ جزعنا على تفاصيلها الصغيرة حماقة. لمَ الجزع ما دمنا سنفارق كل

شيء بالصوت؟

أيّتها الدّنيا.. غرّي غيري! فلقد عرفتك وعرفت قدرك، فصرت هيّنة عليّ!

شقت الفضاء مقاتلة إسرائيلية نفاثة على ارتفاع منخفض جدا. كاد قلبك ينخلع من بين أضلعك لصوت محرّكها الفتّاك! هل سيقصفون مواقعكم الآن؟ هل لديهم إحداثياتها؟ تسارعت أنفاسك، وتعرّق جبينك، ورحت تتخيل كل لحظة أن قذيفة ستهبط على خندقك فتدكه وتمزقكم أشلاء.

تمنيت فقط لحظتها لو أنك تحتضن أمك للمرة الأخيرة وتقبل يديها.. وأن تقبل رأس أبيك. مرت أكثر من مقاتلة في غارة أخرى، اهتزت العمارة التي تجاور الخندق، حتى شعرتم أن حوائطها ستنهار على رؤوسكم، ليس من قصف حدث، بل من عنف أزيز المحركات النفاثة.

اضطرب قلبك مرة أخرى، ورحت ترتجز بيتين، قفزا إلى خاطرك دون غيرهما -وما أكثر ما تحفظ من الشعر- لم تعلم تأثيرهما على نفسك سوى تلك اللحظة:

أذلّ الحياة وعزّ الممات	وكلّا أراه طعاما وبيلا
فإن كان لا بد من واحد	فسيروا إلى الموت سيرا جميلا

تبادلت مع أحد رفاقك نظرات قلقة، ثمّ اقترحت في ضيق:

- يجب أن ننسحب ونعلم الإخوة!

أومأ موافقا، فانسللتما خارج الحفرة وركضتما نحو المسكن الآمن. بعد تشاور مع أفراد المجموعة، كان القرار بضرورة الانسحاب ضمانا للسّلامة.

في تلك الأيّام، كنت قد تدرّبت بشكل مستعجل على استعمال

السّلاح، وكيفية تركيبه وتفكيكه. وأثناء عمليّة الانسحاب، كنت تحمل بندقيّة آليّة. كنتم مضطرين إمعانا في الحذر إلى سلوك طريق مواربة، تقتضي تسلّق سور المبنى والقفز إلى الجهة الأخرى. كانت عمليّة شاقّة بذاتها، فما بالك إذا أضفت السّلاح على كتفك. تقدّمت ببطء ترفع قدما إثر الأخرى حتّى صرت أعلى الحائط، تنظر إلى الارتفاع الشّاهق الذي ينبغي اجتيازه هبوطا وتتنهّد. تلك مهمّة يسيرة مقارنة بما انقضى. تحكم قبضتك على سلاحك حتّى لا يسقط أثناء الرّحلة وتهمّ بالانطلاق. في تلك اللّحظة، انطلقت زخّة من الرّصاص بصوت قويّ يصمّ الآذان. قفزت على الفور، أو بالأحرى اندفعت دون تفكير لتحطّ كومة واحدة. لقد كان الصوت قريبا. قريبا جدّا. كأنّه من سلاحك! تفقّد صندوق الذخيرة، بينما يعمّ الهرج من حولك. سبع رصاصات. ذلك هو العدد النّاقص! في حركة لاإراديّة انفكّ صمّام الأمان وانطلقت رصاصاتك الطّائشة. لكنّها لحسن الحظ لم تسبّب سوءا غير الهلع. فكّرت حينها أنّك لن تكون رجل ميدان ولن تحمل سلاحا ما دمت مخيّرا. كنت قادرا على التعرّف على الأسلحة ومناقشة مزايا كلّ منها، لكنّك بعيد عن السّيطرة عليها!

في وقت ما من تلك اللّيلة، تناهت إلى سمعك أصوات انفجارات متتالية. هاجمت الطّائرات محطّتي طاقة في بيروت، وانطفأت أنوار المدينة. تفرّقت المجموعة بعد ذلك. التحقت بفرقة دفاع مدنيّ قبلت إيواءك. كنت في منطقة هادئة بعيدة عن خطّ النّار. لم تحتج إلى حمل السّلاح مرّة أخرى، ولم يكن وجودك يشكّل مساعدة فعليّة. كانت الفرقة توفّر لك الإقامة لا أكثر.

بعد أسبوعين، وقّع الطرفان اللبناني والإسرائيلي اتّفاقية وقف إطلاق النّار.

كانت تجربة عملية ثريّة لمثلك. لطالما داعب خيالك مصطلح

«الجهاد»، مثل الآلاف من أبناء الحركة الإسلامية. كان لجرس حروف الكلمة وقع سحريّ يحلق بك إلى آفاق علوية، ويشدك إلى مجد ماض تليد.. ولم يكن ينقصك -بعد تجربة السّجن- سوى خوض غمار حرب، وحمل شرف هذا المسمى «مجاهد في سبيل الله»، ليكتمل سجلّك الـشّرف!

ها أنت قد حملت السلاح، ورابطت على ثغر، وقاتلت -ولو نظريا دون اشتباك- أعداء الأمة من الغاصبين! صحيح أنك لم تواجه خطرا محدقا، ولم تشتبك بشكل مباشر، ولم تقتل، أو تلق جراحا. لكنّك وقفت ثابتا، وطائرات العدوّ تحلّق فوق رأسك! وقد كانت غزوة! وقد كان حلما وأضحى حقيقة!

كنتم تتواصون في مرحلة الفتوة، في الجامعة، وقبلها بفضل الرباط في الجهاد: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها).

فلتحمد الله.. أن أقرّ عينك، بنوال شرف الجهاد في سبيله!

كانت حالتك الإيمانيّة تتأرجح بشكل عجيب، مثل رقّاص ساعة يزور قطبين متناقضين كلّ ثانية! وقد كانت تلك الأيّام، رغم قسوتها، أيّام علوّ همّة وشحن مكثّف لبطاريّة الإيمان التي نفدت طاقتها أو كادت.

بعد يومين، جمعكم الشيخ يحيي على عشاء شهي في منزله. كانت الدعوة لسريّتك الذين رابطوا معك، وكان يخاطبكم في فخر: (أيها المجاهدون)! ولم لا؟ ألستم وفيتم بما عاهدتم الله عليه؟ وكان الشيخ يحيي «شيخ المجاهدين» آنذاك، قبل أن يرتقي إلى الله شهيدا بعد تلك الحادثة بسنة ونيف على أيدي الصهاينة، وهو يحاول

العبور تسلّلا إلى فلسطين المحتلّة.. بعد رحيلك عن بيروت بوقت قصير!

وبعد العشاء، اجتمعتم في جلسة معدّة على سطح المنزل، حيث تناثرت الوسائد المريحة على السجّاد، وانساب شعاع رقراق من القمر، أضفى جوا من الجمال والدّعة، ودارت أكواب الشاي الأخضر، ووريقات النعناع المنعش. التفت إليك الشيخ يحيى مخاطبا، وقد بلغته أصداء ولعك بالشعر والإنشاد:

- أشجنا بنشيد جهادي يا مالك!

واستحسن رفقاء سريّتك الطلب، فرحت تترنّم بصوت رخيم:

فوقَ المنابرِ قِفْ ونادي لبّيكَ يا صوتَ الجهادِ

لبّيك إنّا ثائرون متى عَـزمْتَ على الأعـادي

بالــدّمِ نكتُبُ للأُلى ســرًا دفينا في الفـؤادِ

لِيَلوحَ رَكْبُ محمّدٍ رَكْبُ العَـطارِفَةِ الشّدادِ

نـارٌ إذا حـضر الوغى نـورٌ يَدُلُّكَ للرّشـادِ

شيعَ الهنا صوتُ الجهادِ وبتُّ من ألمٍ تنادي

بعد تلك الأزمة الدّوليّة، راجعت مخطّطاتك الشخصيّة. صار لزاما أن تغادر إلى أوروبا. وعدك الشّيخ يحيى مرّة أخرى بتدبّر الأمر، لكنّ السّبل ضيّقة والإجراءات طويلة. في الأثناء، وجد لك عملا في مدرسة تكوين في اللّغات والرّقن على الحاسب الآلي. كان صاحب المدرسة شابّا مصريّا على صلة بالشيخ. كنت تهتمّ بتسجيل الطلّاب -ومعظمهم من الإناث- تسلّمهم بطاقات الانخراط وجدول الدّوام وتقدّم التّوجيهات الأوليّة. وكثيرا ما كنت تقدّم أيضا درسا بسيطا في الرّقن، كلّما تغيّب المدرّس المصريّ المسنّ، وهو كثير الغياب نظرا

لحالته الصحيّة المتداعية. لم تكن معرفتك النظريّة السّاذجة تزيد على ما يلمّ به كلّ شابّ في مثل سنّك نشأ على التّرف ودخلت الأجهزة الذكيّة حياته في وقت مبكّر. وقد كانت تلك المعرفة السّطحيّة كافية لتعطي دروسا للغير.

كنت تبيت في المدرسة، وتقوم بمهام التنظيف والكنس أيضا. وفي إحدى اللّيالي، وصلك خبر بتمشيط الحيّ من قبل قوات الأمن اللّبنانيّة، بحثا عن أمثالك من المقيمين غير القانونيّين. قرّرت المغادرة برفقة صديق فلسطيني على الفور. أغلقت المدرسة في وقت مبكّر وخرجتما مشيا على الأقدام. لم تكن لديكما وجهة محدّدة. مررتما بمقبرة موحشة. تبادلتما نظرة متشاورة. لم يكن دخول المقابر ليلا يخيفك، لكنّك لا تمانع إن توفّرت فرصة أوفر رفاهية. استقرّ بكما الرّأي على قطع مسافة مائتي متر إضافيّة، إن لم يحالفكما الحظّ بإيجاد مكان للمبيت، تعودان إلى المقبرة.

بعد حوالي مائة متر، توقّفتما عند عمارة قيد التّشييد. كانت هناك غرفة حارس مضاءة، ثمّ ظلام حالك يسود البناية. تسلّلتما في حذر حتّى المدخل. كانت الشّقق بلا أبواب. تحسّستما الطّريق على ضوء القمر المنساب من شقوق النّوافذ. من حسن الحظّ، كان بالحمّام حوض استحمام. كان مغبّرا تعلوه بقايا موادّ البناء، لكنّه كان سريرا ملائما لتلك اللّيلة. رغم كلّ شيء، نمت بعمق حتى الصباح.

لم يستمرّ عملك في المدرسة طويلا. كان كلّ شيء ينبئ بنهاية قريبة، بداية من صحّة الأستاذ المترديّة وصولا إلى تشغيل أمثالك للاضطلاع بأكثر ما يمكن من المهام من باب التوفير. كان صاحب المدرسة يعاني من أزمات مالية متكرّرة، وبعد شهرين من إقامتك في المبنى، تقرّر إغلاقها. استعاد صاحب المؤسّسة المفاتيح، وبتّ بلا مأوى مرّة أخرى. أقمت لأسابيع مع بعض الشّباب اللّبنانيّ في مخيّم

لـم تتوفّـر فيـه أدنى مرافـق الحيـاة الكريمـة. ثـمّ توسّـط الشـيخ يحـيى -مرّة أخـرى- لمعالجـة وضعـك، فالتحقـت بمسـجد هـو جـزء مـن جامعـة بـيروت العربيّـة.

منـذ غـادرت شـقّتك في ضاحيـة المـرسي، تنقّلـت بـين مسـاكن عـدّة، كلّهـا تتنافـس في تعليمـك الزّهـد والتّواضـع! أنـت المزهـوّ بمكانـة عائلتـك الاجتماعيّـة وإمكاناتهـا الماديّـة، لقـد كان كلّ حديـث مـن الأجهـزة المنزليّـة يصلـك إبّـان ظهـوره، ومفروشـاتك الجميلـة الفاخـرة يتـمّ تغييرهـا كلّ سـنة بأخـرى جديـدة. كنـت تعيـش ترفـا حقيقيّـا. وتلـك الغـرف الخاليـة تقريبـا مـن كلّ أثـاث، ذات الجـدران المتـآكل طلاؤهـا، تتضـوّع في فضائهـا رائحـة نفّـاذة هـي مزيـج مـن رائحـة السّـجائر والمجـاري والأنفـاس الكريهـة لسـوء تهويتهـا.. كيـف يمكـن أن تكـون مـأوى لأمثالـك؟ كنـت تنـزل دركا إثـر آخـر، حـتّى وصلـت إلى الحضيـض.

وقد كان الحضيض مقصورة إمام الجمعة!

أقمـت بتلـك المقصـورة الضيّقـة الخانقـة، وقـد كانـت عـلى ضآلتهـا تحـوي مكتبـة ودورة ميـاه. لكـنّ المكتبـة المهملـة كانـت قـد غـدت مرتعـا للقـوارض الـتي تتسـلّل مـن المرحـاض. لـم تكـن تدخـل مخدعـك إلّا في سـاعة متأخـرة مـن الليـل، بعـد أن يتـمّ إغـلاق المسـجد، وإلّا فإنّـك كنـت تؤثـر السّـهر في مجالـه الرّحـب، حـتّى يـؤذن لـك بالمغـادرة. ومـا إن تغلـق عليـك بـاب المقصـورة حـتّى يتملّكـك الجـزع. كنـت تـرصّ الكتـب والمجـلّات عـلى الأرض وتضـع حشـيّة نومـك عليهـا خوفـا مـن الفـئران الـتي يأتيـك حفيـف أقدامهـا كلّ ليلـة وهـي تـذرع فضـاء الغرفـة جيئـة وذهابـا، فـلا يـزورك النّعـاس إلّا بعـد لأي.

ذات يـوم، زارك الشـيخ يحـيى الـذي أهمّـه أمـرك. قدّمـت لـه عـلى اسـتحياء كوبـا مـن الشـاي، مقرونـا ببعـض قطـع الكعـك والحلـوى

اللبنانية، وكان كل ما تملك في غرفتك البائسة من طعام. وشق عليك حالك، وأشفقت على نفسك التي أزرى بها الدّهر.. وأنت الكريم ابن الكرام. كان جود يدك، وكرم ضيافتك مضرب الأمثال أينما حللت.. فطفقت تعتذر لضيفك عن تواضع ما قدمت إليه، لضيق ذات اليد، الذي يعلمه دون حاجة منك لشرح.

زفرت متأوها:

- آه يا شيخنا، لقد ضاقت الدنيا في عيني وكأنها ثقب إبرة.

ثم رغبت في تلطيف ذاك الجوّ الحزين، فقلت ممازحا:

- هل أنشدك شعرا؟ فأنا أحفظ الكثير.. هل تطرب للشعر يا شيخ؟

قال الشيخ مبتسما، ولم يكن جاهلا بهوايتك تلك:

- هات ما عندك!

أدخلت أصابع يديك كلتيهما -كعادتك- في خصلات شعرك، تخللها لتأتي بها للخلف، والتمع بريق في عينيك، وتلك عادة لازمتك حين تتحمّس لفعل أمر تهواه نفسك، وتمثلت أبياتا لأبي فراس الحمداني قالها في الأسر، وهو مكروب محزون، في ذلّة القيد، وهو الفارس الأمير:

سَيَذْكُرُني قَوْمي إذا جَدّ جِدّهُمْ   وفي الليلة الظلماءِ يفتقدُ البدرُ

ولوْ سدّ غيري ما سددتُ اكتفوا به   ما كانَ يغلو التّبرُ لو نفق الصفرُ

وَنَحْنُ أُنَاسٌ، لا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا   لَنَا الصّدرُ دُونَ العالَمينَ أو القَبرُ

وَإنْ مُتّ فالإنْسَانُ لا بُدّ مَيّتٌ   وإنْ طَالَتِ الأيّامُ وَانْفَسَحَ العُمرُ

ضحك الشيخ في هدوء وعلم ما يجيش بفؤادك.. ثمّ قال مترفّقا:

- أعلم يا مالك أنّ هذا وضع ليس لمثلك.. لقد طالت فترة

إقامتك هنا دون هدف. وقد صار من الضّروري لك أن تتعلّم صنعة تقتات منها وتعيل نفسك بدل التنقّل المستمرّ من مأوى مؤقت إلى آخر.

ولم يكن بوسعك إلّا أن توافقه الرّأي. كنت قد مللت الانتظار والترحال بلا فائدة ترجى. وكان لدى الشّيخ يحيي مرّة أخرى خطّة مناسبة من أجلك. كنت تتحرّج كلّما سدّت الأبواب في وجهك من طلب مساعدته، لكنّه لم يكن يعدم التدبير، فيخرج من «جراب الحاوي» كلّ مرّة حلّا جاهزا لأزماتك المتكرّرة. تنقّلت بين المخيّمات والمساكن التي تتفاوت مستويات تجهيزها والرّفاهية فيها، لكنّك بفضل الشيخ لم تعان الوحدة والتشرّد. من أجل كلّ ذلك، أومأت في استسلام، وباشرت من الغد عملك الجديد.

كان قد وجد لك مكانا في ورشة كهربائيّ، تتعلّم عنده تلفيف المحرّكات. لم تبارح مسكنك في مسجد جامعة بيروت، وبدأت التردّد على المحلّ من الثامنة صباحا وحتّى الخامسة مساء. بعد ستّة أشهر -وقد صبرت كثيرا إكراما للشيخ يحيي- أيقنت أنّك لا تتقدّم في تعلّم الحرفة. كان صاحب الورشة شديدا في المعاملة، ولم يكن يهتمّ بما تتقنه طالما كان المحرّك يعمل! فوجدت نفسك تتعلّم بتقليب محرّكات الحرفاء، تفتحها وتجرّب كلّ شيء لعلّها تعمل! نعم هذا ما كنت تفعله. وقد حالفك الحظّ -أو لعلّه تفكيرك المنطقيّ السّليم- فأصلحت معظم المحرّكات التي عهدت إليك، دون أن تقرأ مرجعا واحدا في الهندسة الكهربائيّة أو تتلقى تدريبا من أيّ نوع. كان بوسعك أن تصبح كهربائيّا، مثل معظم الكهربائيّين في سوق المهنة، تخاطر لتصلح الأجهزة وتتهوّر أحيانا، وتعتذر في برود إذا ما أفسدتها. لكنّ ساعات انكبابك على المحرّكات طيلة الشّهور السّتة المنصرمة، غذّت في صدرك حلمك القديم. أنت تريد أن تكون طبيبا، وستفعل

مهما تَعِبَك ذلك.

كانت وضعيّتك القانونية في بيروت غير قابلة للتّسوية. أما والأمر كذلك، فلا مفرّ من هجرة جديدة. كانت باريس تناديك، يملء صوتها، كلّ ليلة في منامك، وكلّ صباح في صحوتك وأنت تزاول عملك في الورشة.

في الأثناء، كنت توهم عائلتك بأنّك قد وصلت إلى باريس بالفعل. كان تواجد الحركة الإسلاميّة قد غدا كثيفا في المهجر بشكل عام، وفي باريس بشكل خاص. وكان الشيخ يحيي قد يسّر لك توصيل الرّسائل عن طريق ملتقّة تمرّ بالأردن ثم فرنسا، حيث يقطن قريب له يعيد إرسال الظّروف بختم فرنسي. لم تكن اتّصالاتك بهم كثيفة في تلك الفترة، بل لعلّه كان خيارا استراتيجيّا منك، فلا تعلمهم بأنّك في بلاد حرب فتقلقهم عليك، ولا تعلمهم بموقعك المحدّد فتؤكّد تواطؤهم في تهريبك. لم تكن تصلك منهم ردود إطلاقا. أنت بلا عنوان بالنّسبة إليهم. ورسائلك لم تكن سوى إشارات طمأنة مقتضبة، حتّى يدركوا أنّك حيّ ترزق. لم ترفع سمّاعة الهاتف لتتّصل مرّة واحدة. كنت تؤجّل ذلك حتّى تسوّي وضعك، تستقرّ وتباشر الدّراسة من جديد. لكنّ التّأجيل استمرّ ثلاث سنوات كاملة، هي عمر رحلة العبور عبر قارات ثلاث.

لم تكن المغادرة من مطار بيروت متاحة، حتّى لا تتعرّض إلى سين وجيم من النظام الأمنيّ، لكنّها ممكنة عبر طرابلس لبنان. انتقلت إذن إلى طرابلس، حيث توفّر قارب صيد مستعدّ للمجازفة. ودّعت الشّيخ يحيي ورفاق المخيّم بحرارة وحسرة، وسالت عبرات الإخوة سخيّة وأنت تشاركهم الأحضان والعناق. لقد كانت مرحلة لبنان «مؤقّتة» منذ اليوم الأوّل، لكنّها طبعت في فؤادك لما صاحبها من أحداث مثيرة ومواقف مؤثّرة وصداقات صادقة.

كان هناك أخوان لبنانيان يرافقانك، أحدهما يقصد السّعوديّة، والثّاني يروم بعض السّياحة في قبرص. هل خامر تفكيرك حينها أن تحذو حذو الأوّل وتصاحبه في رحلته إلى الرّياض؟ لا شكّ أنّك فعلت، ولو لوهلة بسيطة. لكنّ تركيزك عاد لينصبّ على الهدف الواضح الذي تريده: كلّيّة الطبّ في باريس.

أفضى الرّبّان إلى ثلاثتكم بما يتكهّنه من خطر محدق بالرّحلة. كان من الوارد أن تعترض سبيلكم دوريّة بحريّة إسرائيليّة، فيلقى القبض على أربعتكم. لكن من لطف الله بك -مرّة أخرى- وبرفاق رحلتك، أبحر القارب في سلام، ولم يلح أيّ تهديد في الأفق. وفي تلك الأوقات كنت تتساءل عمّا يخفيه قدرك بعد، من مراوحة بين اللّطف والابتلاء. كانت فترات عصيبة تعتصرك، ثمّ يسبغ الله رحمته.. لعلّه يبتليك أتشكر أم تكفر؟ وقد كنت تتقلّب بين الاثنين، تمرّ بك ساعات تكون فيها شاكرا حامدا متقبّلا لاختيارك الدّنيويّ القاسي.. وساعات أخرى تنقم فيها على حياتك البائسة التي لا تساوي جناح بعوضة!

وصلتم إلى شواطئ جزيرة نائية غير بعيد عن سواحل اليونان. تطوّع صاحب المركب رغم الأجر الزّهيد الذي نقدتموه لتدبير وثائق دخولكم إلى البوّابة الأوروبيّة. تركتم طيلة النّهار وقضى يومه في السّمسرة والاتّصالات يمينا وشمالا حتّى وفّر تأشيرات دخول إلى التّراب اليونانيّ لك وللشّابّ اللّبنانيّ الثّاني! حصلت على وثيقة سفر قانونيّة من نقطة عبور جنوب البلاد. قضيت ليلتين في فندق رخيص قريب من البحر، وفي اليوم الثّالث كانت هناك رحلة باتّجاه باريس عبر الخطوط الألمانيّة.

بعد أن تجاوزت شبّاك الجمارك بوثيقتك اليونانيّة، اتّجهت إلى أقرب جهاز هاتف عموميّ. كوّنت الرّقم في لهفة تصارعك منذ ثلاث سنوات، وهمست بصوت مزيّف الاتّزان، مثقل بالعاطفة، ما إن

وصلك الردّ من الجانب الآخر:

- أمّي.. كيف حالك؟

الفصل الرّابع

- لقاء -

-٤-

كانت هناك تجربة النّضال السّياسي، والسّجن المتكرّر، ومحاولة الانتحار، ثمّ الهرب برًا وجوّا وبحرا، والجهاد في سبيل الله، والشّتات التّام عن نفسك ومحيطك، قبل أن تجد نفسك مجدّدا على مقاعد الدّراسة! كان من اليسير عليك بعد كلّ ذلك اجتياز اختبار التأهيل لدخول كلّية الطبّ بباريس «ديديرو» دون المرور بمقاعد المدرسة التحضيريّة. ما تحتاج أن تعرفه كنت قد خزّنته في ذاكرتك منذ زمن بعيد، حين جلست على مقاعد نظيرتها في تونس العاصمة.

رافقتك الوحدة في سنوات دراستك الباريسيّة الأولى. كانت صداقاتك قليلة على الدّوام، تنتقي بدقّة من تخالط ومن تصاحب، وكان عددهم أقلّ في الغربة. شلّة أربعة أنت خامسهم، لكنّك لا تراهم إلّا فيما ندر -لظروف دراستك وعمل كلّ منهم- أيّوب وغالب وحاتم ومحسن.

أيّوب طبيب مثلك، تعرّفت إليه في كلّيّة الطبّ في تونس أيّام دراستك هناك. لحق بك إلى باريس منذ سنوات قليلة من أجل التخصّص. لم يعرف السّجن وليست لديه سوابق عدليّة ولا انتماء سياسي. يفضّل أن يكون على الحياد، جانحا إلى السّلم بعيدا عن الاستهتار، وإن كان انتماؤه الإسلاميّ الوسطيّ نقطة مشتركة بينكما.

أمّا غالب، فهو «رفيق كفاح»، تقاطعت طرقكما في سجن «٩ أفريل» حيث كان يقضي فترة محكومية تبلغ أضعاف فترتك الأولى.. لذلك التقيتما مجدّدا في اعتقالك الثاني والثالث! كان لا يزال هناك، يراوح مكانه، بينما تخرج وتدخل. أطلق سراحه أخيرا بعد

أن تعرّض لعاهة مستديمة في عينه اليسرى، وطالبت عائلته بترحيله للعلاج خارج البلاد. بعد شدّ وجذب استمرّا لسنتين مضنيتين فقد خلالهما غالب الرؤية بعينه المصابة بشكل كامل، جاءت الموافقة على هجرته. لم يرجع إلى تونس منذ ذلك الوقت. تعلّم الشّباكة مع معلّم جزائري، ثمّ أصبح يدير محلّه الخاصّ. لم يفكّر أبدا في استئناف دراسته للهندسة المعماريّة.

حاتم، رفيق صباك، أقرب الأصدقاء إلى قلبك. ارتدتما نفس المدارس في الرّياض. كان شاهدا على نجاحاتك في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانويّة.. ومن العسير عليك أن يشهد أفول نجمك الذي ظنّ الجميع أنّه سيسطع عاليا، أعلى من الجميع. حين رجعت أنت إلى تونس لاستكمال دراستك الجامعيّة، حطّ هو في باريس مباشرة لدراسة العلوم السّياسيّة. كان سلفيّ المنهج والسّمت، وأكثر الرّفاق حرصا على السّواك والقميص الأبيض المكويّ بعناية يوم الجمعة، كأنّه لم يغادر المملكة السّعوديّة يوما. اهتمامه بعلوم السّياسة كان على الدّوام مصدر استغراب لكلّ من عرفه، وهو خرّيج المدارس السّلفيّة المحافظة. شكله وعقله يشكّلان مفارقة يعجز الجميع عن حلّ لغزها.

آخرهم محسن، وهو الوحيد الذي لم يجمعك به تاريخ قديم. التقيت به في باريس، حيث كان والده من استقبلك أوّل وصولك بتوصية من والدك. عاش معظم حياته هنا، حيث هاجرت عائلته في وقت مبكّر. مثل والده درس الحقوق، وتخصّص في قضايا حقوق الإنسان. لديه سجلّ حافل رغم صغر سنّه مع حالات اللّجوء والنّفي.. ويشارك باستمرار في اجتماعات سياسيّة مع ممثّلين لتيّارات معارضة مختلفة، هدفها الحصول على تسوية مع الحكومة التونسيّة والسّماح للمنفيّين بالعودة إلى الوطن.

هـذا النّسـيج غـير المتجانـس مـن الأشـخاص، كنـت أنـت همـزة الوصـل بينهـم. عـن طريقـك، تعـرّف بعضهـم إلى البعـض الآخـر، وامتـدّت عرى المـودّة بينهـم حـتّى تخالهـم عرفـوا بعضهـم منـذ أمـد بعيـد. لـو أنّـك اختفيـت، فلـن يؤثّـر ذلـك في صداقتهـم. وقـد تصيبـك الغيرة مـن حـين إلى آخـر، خاصّـة مـن العلاقـة الوطيـدة الـتي أصبحـت تجمـع أيّـوب بمحسـن. كلّمـا بلغـك لقاؤهمـا في مـكان مـا، وإن كان صدفـة، «مـن وراء ظهـرك»، أحسسـت بوخـزة في صـدرك. أنـت الـذي عرّفـت أحدهمـا بالآخـر، لذلـك «يجـب» أن يكـون لديـك مـكان دائـم في أيّ جلسـة تجمعهمـا!

جميعهـم متزوّجـون، وهـو أمـر منطقـيّ لمـن جـاوز الثلاثـين مثلـك، حـتّى غالـب، رغـم عاهتـه، ورغـم جروحـه العميقـة وتجربتـه الدّاميّـة، فقـد تـزوّج مـن ابنـة معلّمـه الجزائـريّ بعـد فـترة وجيـزة مـن وصولـه إلى باريـس! وكانـوا يمازحونـك في جلسـاتهم، ويحثّونـك عـلى الاسـتقرار وإيجـاد شريكـة الحيـاة المناسـبة.. بـل كثـيرا مـا يعـرض عليـك أحدهـم أن يعرّفـك إلى شـقيقة زوجتـه أو إحـدى صديقاتهـا. لكنّـك كنـت تبتسـم، وتشـيح بوجهـك، وتتمثّـل وجـه سـارة الدائـريّ الصغـير وابتسـامتها الهادئـة. لـم تكـن تريـد غيرهـا.

كانـت معايـيرك قـد اختلفـت في مرحلـة مـا، لسـت تدركهـا. مباشرة بعـد وصولـك إلى تونـس، كان الجمـال الصّاخـب هـو مـا يشـدّك ويحرّكك، تتبّـع قامـات الحسـناوات وشـعورهنّ المتهدّلـة، وتبحـث عـن جمـال شـكليّ زائـل. بعـد تجاربـك القاسـية، تغـيّرت نظرتـك للجمـال وغـدت أكـثر نضجـا. لـم تعـد الفـتى الغـرّ الـذي تذيبـه ابتسـامة متغنّجـة. وأنـت في منتصـف الثلاثينـيات، صـار همّـك أن تجـد شـاطئا آمنـا ترسـو عليـه سـفينتك، وأن ترتبـط بمـن تعينـك عـلى نوائـب الدّنيـا، تقوّيـك وتشـدّ أزرك.

في الجامعة، كنت وحيدا شريدا. كان فارق السنّ يدفعك إلى الانزواء عن الشباب الغرّ الذي تحاذيه في قاعات المحاضرات ومخابر التجارب وأروقة المستشفى الجامعي. وحدها سارة شدّت انتباهك، ووحدها تجرّأت على اقتحام عزلتك. تساءلت حينها، هل تراها ملّت من تفاهة الشبّان الذين يماثلونها سنّا ورغبت في مقاربة رجل ناضج، فحطّ اختيارها عليك؟ أم تراه الفضول تجاه قصّتك الشخصيّة الغامضة ما دفعها إلى الاقتراب منك؟ ولعلّها تلك الألفة الحتميّة بين مسلمَيْن مغتربَيْن ما حطّم حواجز السنّ وطوى المسافات التي تفصلكما دون وعي منها؟ مهما كانت دوافعها، فأنت ممتنّ. فمنذ اللحظة التي خاطبتك فيها، تحوّل قفار روحك عمارا، وجَرَدُ قلبك ينْعا.

كانت العلاقة بينكما جادّة ورسميّة، مثل أيّ زميلين في الجامعة. وكنت قد توقّفت زهاء السنة أشهر عن مراسلتها واكتفيت بحضورها أمامك مثل فراشة رقيقة، تمرّ أمام عينيك بخفقات أجنحتها المتسارعة، فتراقبها عن بعد، مكتفيا بكلمات وجيزة تجود بها من حين لآخر. ظننت أوّلا أنّ الغياب يُسهّل عليك المهمّة ويجنّبك حرج مواجهتها.. لكن تبيّن لك إبّان إجازة منتصف السنة أنّ الغياب يؤجّج الشوق، فتعوّضك الكتابة إليها عن مشاهدتها رأي العين! كتبت إليها مرّة أخرى، أثناء الإجازة التي من المفترض أن تنهمك خلالها في مراجعة جادّة، تأتي بعدها اختبارات حاسمة. لم يكن هناك الكثير ليقال، بعد أن سردت مشوار حياتك في رسائلك السابقة.

أن تناجي محبوبا، ولا يأتيك جواب سوى رجع الصدى، فتلك تجربة محبطة! شعرت تلك الليلة أنّ معينك قد نضب، وأنّك لا ترغب أن تذكر لها المزيد من أحداث حياتك المؤلمة. كفى المسكينة ما ابتليتها بمعرفته.. وما عليها من كل هذا الشقاء؟

لكن معين الشعر لا ينضب.. وأنت فارس هذا الميدان دون منازع! اعتصرت ذاكرتك الشعرية، تنتقي من شعر الغزل العفيف أرقّه وترصف الأبيات التي تحقّق مرادك وترتّبها لتصنع مقطعا جديدا، وراحت أناملك تراقص على لوحة المفاتيح، كأنها تعزف على البيانو:

مُعَذِّبَتي لولاكِ ما كنتُ هائما ... أبيتُ سَخينَ العينِ حَرّانَ باكيا

أَعُدُّ اللَيالي لَيلَةً بَعدَ لَيلَةٍ ... وَقَد عِشتُ دَهرا لا أَعُدُّ اللَياليا

وَأَخرُجُ مِن بَينِ البُيوتِ لَعَلَّني ... أُحَدِّثُ عَنكِ النَفسَ بِاللَيلِ خالِيا

خَليلانِ لا نَرجو اللِقاءَ وَلا نَرى ... خَليلَينِ إِلّا يَرجُوانِ تَلاقِيا

وَإِنّي لَأَستَغشي وَما بِيَ نَعسَةٌ ... لَعَلَّ خَيالا مِنكِ يَلقى خَيالِيا

مثل المرّة الأولى، لم يكن لديك أدنى أمل بأن يأتيك ردّها.. وكيف لها أن تردّ على أبياتك الجامحة الجريئة وهي التي تجاهلت كلّ هذا الوقت اعترافاتك المخلصة؟ لكنّك دأبت على تفقّد بريدك الوارد مثل العادة، حتّى هبطت المفاجأة الصاعقة على أمّ رأسك بعد يومين: وردت رسالة منها!

تذكر ردّة فعلك حين وقعت عينك على عنوانها في صندوق بريدك؟ فقد هببت واقفا كالملدوغ، وسقط الكرسيّ خلفك من عنف الحركة، ورمشت عيناك بعصبيّة، قبل أن تجرؤ على فتح الرسالة. وسبّابتك تعبر المسافة تجاه لوحة المفاتيح، انتقلت تعبيراتك بسرعة بالغة من الاحتفاء إلى الوجل. ماذا لو كان فحوى رسالتها سيلا من الشّتائم؟ قلت في نفسك: لا بأس! لا ضير في ذلك طالما خرجت من ظلال التّجاهل إلى نور التّواصل! لماذا كلّ هذا القلق والارتباك أمام رسالة مغلقة؟ مهما كان ما تحمله، فهو خير من عدمها. نقرت على العنوان، والتهمت السّطور التي ظهرت أمامك في ثوان، ثمّ عدت لقراءتها من جديد على مهل:

«متى فكّرت في الانتحار آخر مرّة؟

هل تشغل وقتك بأنشطة طبيعيّة؛ عمل أو دراسة؟

هل تعاني من اضطرابات النّوم؟

هل تعاني من نقص الشّهيّة؟

هل لديك علاقات اجتماعيّة، صداقات؟

هل تمارس هواية ما؟

هل تعاني من الخمول وعزوف عن الحياة الاجتماعيّة؟

هل تجلد ذاتك بعبارات متشائمة؟

كيف هو تقديرك لذاتك؟».

وقفت مشدوها أمام مجموعة الأسئلة التحقيقيّة التي فاجأتك بها، دون تحيّة أو مقدّمات، وقبل أن تتجرّع إلى الاحتفاء باهتمامها غير المتوقّع، تذكّرت واجب درس «علم النّفس السّلوكي» الأخير! فما لبثت أن انفجرت ضاحكا، وأنت لا تصدّق مدى دهاء تلك الصّغيرة! هل تحاول أن تستغلّك كعيّنة لدراستها الاستقصائيّة حول «السّلوك الانتحاريّ»؟ أعدت تلاوة الأسئلة في ذهول.. لا شكّ لديك في أنّها تفعل!

فكّرت كثيرا بعد ذلك. نازعتك رغبة نزقة في مشاغبتها وردّ الصّاع صاعين. اعتصرت دماغك ليومين، تستنبط دعابة تليق بتحقيقها الجري»، تكتب ثمّ تمسح. ثمّ أصابك فتور مفاجئ. ما كنت فيه كان منتهى العبث، وقد آن للهوك أن ينتهي.

لم تردّ على رسالتها تلك أبدا. ولم تعد إلى مراسلتها بعد ذلك إطلاقا. أيقنت بعد برهة قصيرة بأنّ مشاعرك قد وصلت إلى مرحلة اللّاعودة، وقد بات محتما عليك أن تعترف. كلّ ذلك اللّفّ والدّوران

كان بلا فائدة. كنت قد دخلت دائرة معارفها الآن، وقد صار التّواصل المباشر معها متاحا، فماذا تنتظر؟

كان عليك أن تتخذ خطوة حاسمة، وتعبر الجسر حتّى بابها.

تذكر يوم جلستما في ركن المكتبة لتتحدّثا مطوّلا. مطرقا كنت، بينما تتدفّق الكلمات من شفتيك بصوت جادّ وقور. كنت تبثّها اعترافات سبق أن وصلتها على البريد الإلكتروني، باستفاضة ودون تمبق. تعرّي سوأتك أمام عينيها وتكشف ماضيك الحافل بالنّكسات والكُربات. تعيد على مسمعها الرجاء نفسه.. هل تداوين جراحي؟ تذكر صمتها الطّويل، دهشتها، وهي تكتشف متأخّرة هويّة مراسلها الغامض، اختناقها بعبرة لا تدرك لها سببا، ثمّ كلماتها الهادئة التي انسابت فجأة وقد كاد يصيبك اليأس:

«لا تحزن إنّ الله معنا».

كلّ شيء، تلا ذلك اللّقاء، كان مثل حلم جميل. كيف عرّضت بالارتباط، فألفيتها تطرق في خفر وتفرّ من أمامك حياء. وكيف دخلت منزل والديها، مرتبكا بلا ثقة، فدافعت عنك بضراوة وتحمّلت عنك الاعتراضات والمساءلات. هل كان تهوّر شباب منها؟ أم عاطفة صادقة لا تقبل المساومة؟ مهما كان ما يحرّكها، فقد استغللته بلا تردّد. وهل يسعك أن ترفض عطاياها وأنت الفقير إلى كلمة منها؟

في علاقتكما، كانت هي الآخذة بزمام المبادرة. ولم تشعر على امتداد السّنوات الثلاث التي عرفتها خلالها، أنّها أنثى ضعيفة، تحتاج إلى رجل يجبر كسرها، ويكمّل نقصها. كانت حييّة، قليلة الثرثرة، زاهدة في الزّينة، معرضة عن اللّغو، ولم تكن تبتزّ عواطفك بإفراط في الدّمع أو استجداء الاهتمام، كما تفعل غالبيّة البنات في سنّها مع خاطب ودّهنّ. وقد يصادف أن تتجاهلك لأيّام، فتحسبها تتعمّد

الإعراض لغضبها من أمر تجهله. فإذا ما قصدتها تسأل عن أسباب إعراضها، فاجأتك بدهشتها، فهي لم تقصد شيئا ممّا فهمت، بل هي منشغلة لاهية عنك وعن ظنونك!

كانت الفترة الأولى لعلاقتكما عسيرة عليك، حتّى تعوّدت على طبعها وعرفت مفاتيحها. كنت تعتمد في البداية على تجاربك السّابقة في تقييم سلوكها، أو بالأحرى عمّا تسمعه من الشّباب في مثل سنّك عن خطيباتهم. لكنّك ألفيت سارة في غاية الاختلاف. لم تطلب منك أن توقظها برنّة على هاتفها لصلاة الفجر، ولا أن تقوما اللّيل «معا» كلّ منكما في غرفته، فيذكر أحدكما الآخر في دعائه، ولا أن يكون لكما ورد ذكر وتلاوة مشترك.. لم تكن «رومانسيّات» الشّباب الملتزم تلك تعني لها شيئا، ولم تحاول أن تشدّك إليها عمدا بأيّ نشاط يجمعكما، فتجد مسوّغا لمزيد من النّظرات واللّفتات «البريئة». في الحقيقة، لم يختلف شيء في سلوكها قبل الخطبة وبعدها. بقيت تتصرّف على سجيّتها، تروح وتجيء في دروب كلّيّة الطّبّ مع رفيقتها المعتادة، وإذا التقت خطواتكما حيّتك كغريب، أو سألتك ما أرادت بكلّ عفويّة، كما تفعل منذ البداية!

ولشدّ ما حيّرتك، وأرقك التفكير في مغزى سلوكها. هل هي باردة بطبعها؟ ألم تحرّك فؤادها كما ألهبت عواطفك؟ هل أنت بحاجتها وهي مستغنية عنك؟ لماذا تبدو ملهوفا متحرّقا للقياها ومرآها ومبادلتها أطراف الحديث، في حين تغالي هي في التمنّع وكأنّ شأنك لا يعنيها؟ تقف كلّ صباح عند مدخل الجامعة، تراقب الوافدين في قلق محموم، لا يهدأ لك بال حتّى تلمحها قادمة من طرف الشّارع، فتتشاغل بأيّ شيء، متظاهرا بعدم الاهتمام، حتّى تلقي هي عليك التحيّة! وآه ممّا يحلّ بك إذا هي يوما تأخّرت أو تغيّبت! كيف كانت تلعب بك الظّنون وتأخذك إلى دهاليز لا تنتهي، وتتوه من نفسك

كأنما أخذت روحك معها!

وغدا وقتك كلّه، بين بهجة أن تكون إلى جوارها، أو لهفة الانتظار كي تكون معها مرّة أخرى.

هل تعيش أنت مراهقة متأخرة؟ أم هي التي نضجت سريعا قبل الأوان؟

عذّبتك طويلا تبعيّتك العاطفيّة. ولم يردعك عن مطاردتها بالرّسائل والاتّصالات إلّا خوفك من شكّها في رجولتك ونضجك! وأيّ شيء قد يكون شدّها إليك غير تلك الرّجولة الكاملة التي توحي بها مغامرات شبابك، ونضجك العميق الذي تفرضه سنّك؟ ولولا حفاوتها بك حين تزورها في منزل والديها، وإصغاؤها الجميل لكلّ ما ترغب، وإقبالها على مناقشتك في شتّى اهتماماتك، ومصارحتها لك بما تحبّ وتكره، لشككت في رغبتها في إتمام الخطبة. وفي حين أنّها تقتضب كلماتها في فضاء الجامعة، فإنّها تسهب دون حرج، حين يكون أحد والديها شريك الجلسة. ثمّ إنّ لهفتك قد هدأت بعد شهور الخطبة الأولى، واستراح بالك من الشّكوك المضنية حين أدركت كم تراقب الله فيك!

وهل كان ذلك إلّا ليزيدك لها حبّا وبها تعلّقا؟ كانت الملاك الطّاهر الذي لطالما حلمت بأن يؤنس وحشتك ويداوي جراحك. ولم يكن يثقلك إلّا طول الانتظار، حتّى تنهي دراسة الطبّ.

في يناير ٢٠٠٢، كنت قد أنهيت اختبارات المرحلة الأخيرة، ولبثت مترقّبا النتيجة. نجاحك في اختتام سنوات الطبّ الخارجيّ شبه مضمون، لكنّ الترتيب يعني الكثير. كلّ مرحلة من مراحل كليّة الطبّ تنتهي بسباق.. من يصل أوّلا يملك حقّ الاختيار. كان سباق السّنة الأولى قد غدا مجرّد ذكرى الآن. لكنّ تصدّرك الترتيب ضمن العشرة

الأوائل من أصل ألف وخمسمائة طالب خاضوا الاختبار كان مدعاة فخرك لوقت طويل بعدها. كنت قد أحرزت أسبقيّة لا شكّ فيها بحكم سنوات انخراطك السّابقة في كليّة الطبّ بتونس العاصمة. أمّا الآن، فلا أسبقيّة ولا هم يحزنون! أنت وسارة ومائتا طالب وطالبة على قدم المساواة في وجه الاختبار النهائي. من يصل أوّلا يملك حقّ اختيار التخصّص الذي يرضيه.

قبل أسبوعين من النتيجة، اتّصل والدك من الرّياض مستبقا التّهنئة.

لوّح أمام الكاميرا بسلسلة مفاتيح. شخشخت مفاتيحه هناك في المملكة بإغراء لا يقاوم، وهو يحدّثك عن العيادة التي في انتظارك. يومها نازعتك نفسك وحاجتك. آن أوان العودة والاستقرار. هناك عيادة جاهزة، وأنت قد شارفت على السّابعة والثلاثين. هل ما زلت تأمل التخصّص؟ وتصبر سنوات طويلة أخرى؟ ماذا عن فتاتك؟ لعلّها لا تستعجل الزّواج مثلك، فكيف تقبل أن تغادر باريس مخلّفة أحلام الصّبا وراءها؟

منذ وصولك إلى باريس، تفانيت في كسب قوتك من كدّ يمينك. حين صرت طبيبا داخليا، انتهت مأساة غسيل الصّحون، بفضل الرّاتب المرضي الذي كفلته الوزارة لأمثالك. ألف وأربعمائة يورو راتب مناسب لإيجار شقتك الصّغيرة ومصاريف حياة العزوبيّة.. لكنّها لا تفتح بيتا. الوقت أكثر من مواتٍ للاحتفال بزفافكما، لكنّ إمكاناتك الماديّة الحاليّة تجعلك تتردّد. عائلتك الموسرة بوسعها تحمل مصاريفك وعروسك، لكنك لا تريد. وما يضيرك لو تنازلت هذه المرّة وهيأت لسارة ما تأمله من دعة ورفاهية؟ قدّرت أن حديث الزّواج آتٍ لا محالة. أنت أيها السّائر في خطوات حثيثة نحو الأربعين، أتظنّ والدتك ستغفل عنك لوقت طويل؟ عرفت أنّ سمفونيّة الضغوطات

ستبدأ عرفها مباشرة بعد ظهور النتيجة الرّسميّة. تعرفان بعضكما بعضا منذ ثلاث سنوات، ومخطوبان رسميًا منذ سنة واحدة. ربّما كانت سارة ذات السنوات الأربع والعشرين تعتبر صغيرة السنّ بعد، لكنّ العائلات المسلمة المحافظة في المهجر غالبا ما تزوّج بناتها في سنّ مبكّرة.

في وقت لاحق من تلك الأمسية، كنت ضيفا عند عائلة فتاتك. مال حموك تجاهك، وقال مستفسرا بجدّية:

- ها، ما العمل الآن؟

لم يكن قرارك ليرضي كلتا العائلتين بأيّ حال. فكّرت أنّه لن يُسرّ إن أنت لوّحت بدورك بمفاتيح وهميّة للعيادة المترقّبة وصولك. طمأنت باله حين قلت في هدوء:

- أرغب في التخصّص.

- وأنا كذلك!

تقاطع سارة حديثكما الثّنائي وهي تدخل بطبق المشروبات، فينتقل اهتمامك إلى مشروعها المهنيّ الخاصّ. حتّى تلك اللّحظة، لم تكن قد ناقشتها في مستقبلها الوظيفي. لقد جرّبتما معا في السّنوات الماضية حياة الطبيب المقيم، وعرفتما معا مدى الصّعوبات الّتي تواجهه في التّوفيق بين حياته الأسريّة والخاصّة، وبين متطلّبات الوظيفة المجحفة. هل يمكنك أن تتخيّل زوجتك في قادم الأيّام، تقضي الليلة في مناوبة الطّوارئ، مهملة رضيعا أو طفلا في سنواته الأولى؟ هل يمكنك أن تتقبّل غياب زوجتك نصف ليالي الأسبوع لأنّ جدولها يتطلّب ذلك، وتتقبّل سفرها وحيدة لحضور دورات وتدريبات ومحاضرات؟ كنت تأمل أن تقتنع سارة وحدها بعد أن جرّبت ما جرّبت بأنّ مسار الطبّ المعقّد لا يناسبها! كنت ترجو، وهي بطبعها

الأنثـويّ الحسّـاس الـذي تعرفـه، أن تقـرّر مـن تلقـاء نفسـها ألّا داعـي لاسـتمرارها في سـباق التخصّـص، لأنّ طموحهـا سـيميل كفّـة التّـوازن الأسريّ ويعكّـر صفـوه!

لكنّها فاجأتـك باعترافها المباغـت، وفاجـأك حموك وهـو يربّـت على ذراعها مبتسـما ويسـألها:

- وما التخصّص الذي ترغبين فيه؟

- طبيبة أطفال!

- جميل.. يسّر الله أمرك يا ابنتي.

ليـس جميـلا أبـدا، في نظـرك! ألا تـدرك خطيبتـك المصـون أنّـك قـد تجـاوزت مرحلـة الشّـباب وتتشـوّق للاسـتقرار قريبـا؟ ألا تعـرف كـم تشتاق إلى أطفال يملـؤون فـراغ وحدتـك ويجمعـون شـعث قلبـك.. إلى زوجـة تشـاركك همومـك وتخفّـف ضيقـك بعـد سـاعات عمـل مضنيـة، ولا تزيـدك همّـا عـلى هـمّ بمواعيـد عمـل غير مواتيـة وغيابـات متكـرّرة؟ تطـرق في ضيـق وقـد أهمّـك تفكـير لا تملـك الإفصـاح عنـه؛ فتكـدّر مضيّفـك وابنتـه. لكنّـه لاحـظ صمتـك، فسـأل، ويـا ليتـه لـم يفعـل، ينفجـر مـا بصـدرك دفعـة واحـدة.

تسـمع تنهيدتـه المتعبـة، وتـرى العـبرات عـلى أعتـاب مقلتـي سـارة، وتطفـو ذرّات الهـواء المشـحونة في فضـاء الغرفـة. تحـاول تلطيـف الجـوّ، تضـع الحـقّ عـلى والديـك اللذيـن تغرّبـت عنهمـا مراهقـا، ولـم يجتمـع شـملكم منـذ ذلـك الحـين. إنّهمـا يتلهّفـان للفرحـة، ويضغطـان عليـك لتعجيـل الـزّواج والإنجـاب! وقـد تربّيـت وعـوّداك منـذ نعومـة أظفـارك عـلى أنّ مـآل المـرأة إلى بيـت زوجهـا، وأولويّتهـا الأطفـال وشـؤون مملكتهـا الخاصّـة.

يحتـدّ النّقـاش، وترفـع سـارة صوتهـا فـوق صوتـك للمـرّة الأولى منـذ

عرفتها:

- وما الذي كنت تتوقّعه حين تقدّمت لخطبة طالبة طبّ؟ هذه مهنة لها متطلّباتها، وليست في متناول أيّ كان. وقد كانت المسلمات في السّلف يمتهنّ الطبّ، وليس هذا مستجدًا في عصرنا، فأيّ ذنب أقترف وأيّ عرف أخالف؟ ثمّ هي سنوات قليلة قبل أن تصبح لي عيادة خاصّة، فتنتظم مواعيد العمل نهارا.

تدرك التّناقض في تفكيرك. أوليس ذاك هو المعتاد من الرّجل الشرقيّ الذي تسري دماؤه في عروقك؟ أن تريدها قويّة الشخصيّة وطموحة، ولكنّها في ذات الوقت مستعدّة للتّنازل عن مسيرتها المهنيّة بعد الزّواج؟ كأنّما أنت تختارها لسبب، ثمّ تريد لها أن تكون نقيضه! لكنّ ذلك لم يمنعك من الامتعاض، لأنّها لم تتنازل عن طموحها لترضيك، فغادرت منزلها وعلى شفتيك التّوصية التقليديّة بأن «تفكّر جيّدا بما فيه مصلحتها».

-٢-

كان ذلك أوّل عهدك بالخلافات بينك وبين سارة. سارة حلوة الرّوح والمعشر، طيّبة الحديث حسنة المضحك، رأيتها غاضبة للمرّة الأولى. واستمرّ غضبها منك دهرا. خلّفك جفاؤها في ضيق شديد، ولم يكن الصّفاء ممكنا إلّا بتنازل أحدكما للآخر. هل كنت تتوقّع أنّ غضب حسنائك قد يجلب على رأسك وبالا؟ لو كنت تدري ما ينتظرك، هل كنت لتراضيها وتنصاع لطلبها؟ أم أنّه كان مقدّرا لك أن تغضبها وتتركها، وتخوض غمار تجربتك الأليمة تلك؟

حين لوّح أيّوب بفكرة الانضمام إلى بعثة طبيّة متطوّعة تابعة لهيئة الإغاثة العالميّة، هلّلت لها ورحّبت. كانت فرصة فرار مواتية، وتأجيلا للمواجهة. إذن وجدت لك مكانا ضمن القافلة التي انطلقت في اتّجاه فلسطين المحتلّة، بعد الانتفاضة الشعبيّة الثانية. ستعود ومعك القرار الذي تأخّرت في اتّخاذه. لم تكن تدرك ساعتها أنّك ستعود بأكثر من ذلك.. أو لعلّه أقلّ!

لم يكن عدد المسلمين في قافلة الأطبّاء بالكثرة التي حسبتها. كان هناك الكثير من «السّافرات» و«المتبرّجات»، بشعورهنّ الشقراء المتهدّلة وأذرعهنّ العارية وصدورهنّ النّافرة، والكثير من «الكفّار» على غير ملّة الإسلام الذين لم يمنعهم كفرهم من إبداء علائم الرّحمة. جميعهم كانوا قد تركوا عائلاتهم ووظائفهم ونعيمهم الدّنيويّ وساروا لمواجهة معتد غاشم سلب إخوانهم في الإنسانيّة الحريّة وأبسط أسباب الحياة الكريمة. طيلة الأيّام التي جمعتك بهم على متن الباخرة، وهناك في الضفّة الغربيّة، رأيت آيات في الأخلاق

والاحترام. تلك المشاهد التي تعوّدت أن تراها بين «الإخوة» في أحضان الحركة الإسلاميّة، كانت هي هي، تتكرّر أمام عينيك، لكن بلاعبين من نوع آخر.. من أولئك الذين يحكم الشيوخ بكفرهم وعذاب مقيم في نار جهنّم يترصّدهم!

كانت رحلتكم من الميناء إلى نقاط مباشرتكم العمل طويلة ومضنية. تجربة المعابر المتكرّرة كانت تحمل في كلّ مرّة نفس القدر من الرّهبة والتوتّر. في كلّ مرّة، يمرّ رفاقكم الأجانب بسلام، بينما يتلكّأ الحرس أمام جوازي سفرك أنت وأيّوب. كنتما تحملان وثائق سفر فرنسيّة، لكنّ الأسماء والملامح توحي بغير ذلك. بعد دقائق طويلة من المماطلة، يسمح لكما بالعبور. كان الأمر مختلفا بالنّسبة إلى الفلسطينيّين. قد ينتظر أحدهم السّاعات الطّوال حتّى يسمح له بالوصول إلى مقصده!

على المعابر، كنت شاهدا على أطفال الفلسطينيّين، يرمون الجنود المتربّصين بعدّتهم وعتادهم بالحجارة. يناوشونهم ويستفزّونهم، بأجسادهم النّحيلة وقبضاتهم العارية.. فتردّ عليهم الرّشّاشات والقنابل المسيلة للدّموع. وعلى جدران البيوت القائمة على جانبي الطريق، لم تخطئ عينك آثار الرّصاص والدّمار الذي خلّفته القنابل.

في زيارة لمركز أبو ريّة لإعادة تأهيل مصابي جرحى الانتفاضة في رام الله، تأكّد حدسك وأنت تمرّ عبر المعبر، وأنت تعاين أجساد الأطفال والمراهقين الذين كانوا بالأمس ولا بدّ يقذفون الحجارة عند نقاط التفتيش وفي مواجهة الدبّابات.. ثمّ يولّونها الأدبار فرارا من القذائف والرّشّاشات، فلا عجب أن تكون معظم الإصابات على مستوى الظّهر!

طوال شهرين أقمتهما في الضّفّة الغربيّة، لم تكن حاضرا على

أعمال عنف تذكر. لكنّ ما رأيته في ظلّ سكون الحرب المؤقّت كان أقسى من أيّ عنف. الجدار العازل الذي شرع الكيان الصّهيوني في إقامته كان يحوّل حياة الفلسطينيين إلى جحيم مقيم. حائط يمتدّ على مسافة تفوق السبعمائة كلم، وارتفاعه يناهز الأمتار الثّمانية، مثل معتقل ذي سماء مفتوحة! من وجهة نظر طبيّة، كان الحاجز يمنع وصول الرّعاية الصحيّة إلى أكثر من مليون شخص محاصر، ويعطّل تنقّل الأطبّاء والإمدادات الطبيّة وسيّارات الإسعاف. وقد كانت المراكز الصحيّة بالضّفة تفتقر إلى المرافق التي تعدّ أوّليّة في فرنسا، ولا يمكن مقارنتها بما يتوفّر في مستشفيات الكيان المحتلّ. أمّا الجدار، فقد جعل المناطق الرّيفيّة المتباعدة شبه معزولة صحيّا، فبات الاعتماد الأوّل على نشاط المنظّمات الإنسانيّة. لكنّ الحاجة إلى تصاريح مرور عبر أكثر من خمسمائة نقطة تفتيش متناثرة في أراضي الضفّة، زادت الأمر تعقيدا.. ناهيك عن التصاريح الخاصّة للوصول إلى مستشفيات الاحتلال إذا ما استدعت الحاجة.

توزّع المتطوّعون على فرق مختلفة، لتغطي كلّ منها منطقة معيّنة من المساحة المحاصرة. اخترت وأيّوب الانضمام إلى عيادة متنقّلة. وقد كانت عيادتك تقدّم رعاية أوّليّة ومجانيّة في المناطق الرّيفيّة والأكثر انعزالا، حيث تنعدم المرافق الصحيّة كليّا. تلك المناطق تكون في الغالب ذات أعلى مستويات جهل، نظرا لمغادرة الشباب مقاعد الدّراسة باكرا لامتهان الفلاحة والتّجارة، ومحاطة بالمستوطنات من كل جانب. عرفت من خلال تعاملك مع أهالي المنطقة، أنّ العوز وقلّة ذات اليد مأساة دخيلة عليهم. لم يكن الوضع بذاك السوء قبل الانتفاضة. بل لعلّ أهل القرى أفضل حالا وسط زيتونهم وحقولهم من أولئك داخل المخيّمات.. لكنّ الحصار المفروض والعزل الإجباريّ جعل الحال العامّة تبدو مزريّة أكثر ممّا

هي عليه حقيقة.

وكان التنقّل من مكان إلى آخر يمثّل المعضلة الأكبر بالنسبة إلى وحدتك. المسافة التي لا تحتاج أكثر من خمس دقائق في باريس، كانت تستغرق منك نصف ساعة أو أكثر، بالاعتماد على عدد الحواجز ونقاط التفتيش التي تجتازها. كانت وحدتك مكوّنة من تسعة أشخاص أنت عاشرهم.. ستّة أطباء، ممرّضة، تقنيّ مختبر، صيدليّ وسائق. بالإضافة إليك وإلى أيّوب، كان معكم عند انطلاق القافلة طبيبان فلسطينيّان، وآخران ألمانيّ ونمساويّ، فيما كان بقيّة أفراد الوحدة فلسطينيّين أيضا. كانت قافلتكم تسافر عبر الضفة في حافلة صغيرة بين القرى المتناثرة حسب جدول مدروس، ويتغيّر عدد أفرادها من فترة إلى أخرى، حسب التزامات كلّ منكم، فمن المعتاد في قوافل المتطوّعين أن يقدم طبيب ويغادر آخر.

قبل رحيلك بأسبوعين، قدم الزّوجان البريطانيّان راشيل ودانيال. دانيال الذي كان جار مقعدك في الحافلة، عرض عليك مع أوّل نظرة ودّ فنجان شاي دافئ من وعاء حافظ للحرارة حضّرته زوجته الشّابة. حاولت الاعتذار، لكنّ راشيل سارعت بإضافة طبق بسكويت الزّبدة، فلم تترك لك مجالا للتهرّب. قبلت الدّعوة اللطيفة، وشاركتهما إفطارهما الإنجليزيّ ودردشتهما الخفيفة، بتحفّظ. لم تكن قد تعوّدت التعاطي مع الأجانب بتلك الرّوح المنفتحة. تجاربك الماضية يطغى عليها البرود والمجاملات.

تحدّثت راشيل فيما بعد عن تجربتها في فلسطين. كان الزّوجان يزوران الأراضي الفلسطينية للسّنة الرّابعة على التّوالي، يقضيان إجازتهما السّنوية كمتطوّعين. قالت راشيل مع ابتسامة:

- بالمناسبة، أنا يهوديّة! جدّتي لأمّي نجت من الهولوكوست

وهاجـرت إلى الولايـات المتّحـدة.. ثـمّ اسـتقرّت والـدتي في شـبابها في بريطانيـا، وهنـاك ولـدت وعشـت حيـاتي كلّهـا. جـدّتي لـم تكـن يومـا مسـاندة لسياسـة الاحتـلال! مـن عـرف ويـلات التعذيـب والتهجـير، كيـف لـه أن يقبـل تطبيـق نفـس الممارسـات عـلى الآخريـن؟!

أثنـاء عيادتهـا، لـم تكـن راشـيل تـتردّد في توضيـح هويّتهـا اليهوديّـة. وكانـت تؤكّـد عـلى رفضهـا وعائلتهـا لمـا يحصـل عـلى الأراضي الفلسـطينيّة.. وتطوّعهـا مـا هـو إلّا أقـلّ مـا يمكنهـا فعلـه للاعتـذار عمّـا يصـدر عـن بنـي جلدتهـا. وكان الفلسـطينيّون يتقبّلونهـا.. يهـزّون رؤوسـهم في تفهّـم، ويصافحونهـا في حـرارة. يكفـي أنّهـا كانـت هنـاك.

رأيتهمـا كثـيرا فيمـا بعـد، وكانـت الابتسـامة الـتي يسـتقبلانك بهـا في كلّ مـرّة تباغتـك بحفـاوة لـم تعهدهـا. لعـلّ القضيّـة الـتي جمعتكـم تربـة مواتيـة لنمـوّ علاقـات إنسـانيّة مـن نـوع آخـر، غـير تلـك الـتي اعتدتهـا منـذ وطئـت قدمـاك أرض باريـس؟ كنـت تـلازم أيّـوب معظـم الوقـت، لكـن خـلال الأسـبوعين اللذيـن تقاطعـت خلالهمـا طريقـك بطريـق الزّوجـين، توطّـدت علاقتـك بدانيـال. لكنّـك سـتتذكر ابتسـامة راشـيل الدّافئـة أكـثر مـن أيّ شيء آخـر.. ولسـنوات كثـيرة لاحقـة. هـل كنـت لتفعـل لـولا الفاجعـة الـتي شـهدت تفاصيلهـا في الأيّـام الـتي تلـت؟ ولـولا ارتبـاط ذكراهـا في وعيـك بشريكتهـا في الاسـم، راشيل الأخـرى أمريكيّـة الجنسـيّة؟

كانـت المعاينـات تتـمّ غالبـا في مبـاني المـدارس بالقـرى الـتي تزورونهـا، وكثـيرا مـا يضطـرّ الطبيـب منكـم إلى معاينـة مـرضى لا يشـملهم اختصاصـه، في غيـاب المتخصّصـين. وكثـيرا مـا تمـرّ بـك حـالات حرجـة، ولا يكـون بيـد أحدكـم حيلـة أمامهـا! أطفـال مصابـون بمـرض كلى مزمـن، ورجـال انتـشر السّرطـان في أجسـادهم إلى مراحـل متقدّمـة، وأمراض أخـرى تحتـاج عنايـة فائقـة وجراحـة لا قبـل لكـم بهـا. مـا الـذي يمكنكـم صنعـه بقائمـة الأدويـة المختـصرة الـتي تطالهـا أيديكـم؟ وكـم

غلبتكم المرارة وأنتم تضطرّون إلى تقسيم كميّة الإنسولين الشحيحة على الأعداد الهائلة لمرضى السّكّر! عرفت تحدّيًا آخر تلك الأيّام، أن تفعل ما بوسعك باعتبار الموجود.. وتغالب دمع العجز والقهر في نهاية نهار مشبع بالألم.

العمل ضمن عيادة متنقلة في فلسطين كان شرفا لك، وتجربة عميقة عزّزت خبرتك الميدانيّة وشحنتك عاطفيّا بكثير من التّضامن والحماس وفي أحيان أخرى بالتمرّد والإحباط. الصّراع القائم والعنف الممارس يوميّا على الفلسطينيّين وإحساسهم المتواصل بعدم أمنهم على أرواحهم وممتلكاتهم كان قد جعل حياة أكثرهم ضغطا متّصلا. وكنتم تتعرّفون مباشرة على حالات الانهيار النّفسيّ، رغم أنّ أحدهم لا يتحدّث عن معاناته النّفسيّة. يشتكي الكبار عامة من ضعف عامّ والألم في الرّأس واختلال في نبضات القلب.. في حين يعاني الأطفال من اضطرابات في النّوم والتّبوّل اللاإرادي والكوابيس الليليّة. وفي حالات متقدّمة، يصل الأمر إلى آلام الأمعاء والصّداع والتهاب المعدة.

من العادات المسلّية الّتي اكتسبتها خلال الرّحلة، إدمانٌ حديثٌ على القهوة العربيّة. القهوة لا تغيب في فلسطين عن أيّ مجلس. هي قانون الضّيافة الأوّل، والبند الأساسيّ في كلّ اتفاقيّة تعقد. تقدّم القهوة أثناء العيادات من قبل المرضى الممتنّين كعلامة شكر، وهي اللّبنة الأولى لمدّ جسور التّواصل وتوطيد العلاقات. وفيما كنت تجاذب مرضاك الحديث بطلاقة وسلاسة، فإنّ راشيل ودانيال كانا يجتهدان لالتقاط الكلمات المتكرّرة وتسجيلها في مذكّرات من أجل محادثات قادمة! وبعد أربع سنوات من ممارسة تلك الهواية، صار دفترهما يضمّ مئات الكلمات. وكثيرا ما ضحكت على نطقهما المعوج لعربيّة هما حديثا عهد بأبجديّتها. لكنّهما ينجحان، وخاصّة راشيل، في كسب ثقة المراجعين، باجتهاد ومثابرة ملحوظين. كانت

تسعى بإصرار للاستغناء عن مترجم وسيط بينها وبين مرضاها، تقول بابتسامة:

- النجاح في المهمّة الطبيّة يبدأ بالضرورة بفهم حقيقي ومباشر لكلمات المريض الخام غير خاضعة لترجمة وتأويل!

في ذلك اليوم، دخلت راشيل مقرّ الوحدة الصّحيّة مهتاجة متوعّدة:

- الأوغاد! المجرمون! سأنتقم منهم يوما! سينالون عقابا يستحقّونه! سيأتي يومهم قريبا!

كانت قد فقدت مريضة للتوّ. عادت سيّارة الإسعاف التي غادرت منذ ساعة تقريبا باتّجاه المشفى أدراجها بعد أن مُنع مرورها عبر معبر رام الله الشّمالي، حيث الطريق الوحيدة الموصلة إلى بير الزّيت. مريضة مصابة بذبحة صدريّة وتحتاج إلى إنعاش عاجل، يصدّها جنود الاحتلال! كانت تصرخ في هيستيريا:

- ليسوا بشرا.. لا إنسانيّة لديهم! جنود المعبر أولئك.. إنّهم وحوش!

لكنّ الصّدمة ألجمتها، وهي تخطو داخل مقرّ الوحدة، لتجد العيون مركّزة على شاشة التلفاز.

لاحقا، سيتكرّر المشهد أمام عينيك كثيرا في نشرات الأخبار العالميّة والمحليّة التي تناقلت في هوس محموم صور المناضلة الأمريكيّة «الشهيدة». رأيتها، راشيل كوري، وهي تقف في طريق الجرّافة، تصنع من جسدها سدّا يحول بين البيوت والهدم. كانت تعوّل على إنسانيّة موهومة في شخص السّائق المندفع في اتّجاهها. لكنّها لم تدرك وهمها إلا حين تخطّتها الجرّافة بعد أن دهست جسدها الهشّ مرّتين.

ستدرك الفاجعة في دموع راشيل البريطانيّة التي لم تتوقّف عن البكاء ليومين، تنعي شقيقتها في الإنسانيّة. سيخيّم الوجوم على المركز الطبيّ بعد ذلك لأيّام، وسيصيب عقلك شلل عن التفكير لزمن أطول. كيف يمكن لأولئك الذين صفّقوا لتفجيرات مترو الأنفاق بباريس ١٩٩٥ وأحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ أن يقدّروا شخص راشيل، وتضحية راشيل، وأفكار راشيل؟

الفصل الخامس

- شكّ -

-١٠-

كنت تحسب نفسك منذ الصّبا «باحثا عن الحقيقة».

ألـم تنكـبّ في شـبابك عـلى دراسـة الحـركات الإسـلاميّة في نهـم شـديد؟ ألـم تعكـف عـلى قـراءة إصـدارات فلاسـفة الثـورة الإسـلاميّة في إيران والمقاومة الشّـعبيّة في الجزائر وحركـة الإخـوان المسـلمين في مصر؟ ألـم تبحـر في مؤلفـات فلاسـفة الأنـوار في أتـون الثـورة الفرنسـيّة؟ ألـم تلمّ بمعظـم تصنيفـات الثـورة البلشـفيّة في روسـيا وثـورة الصّـين ضـدّ مـاو تسـي تونـغ؟

لم يكن هدفك سوى الوصول إلى الحقيقة.

كنـت تؤمـن بعقيـدة أهـل السـنة والجماعـة في القضـاء والقـدر.. أنّ الله يعلـم مـا كان ومـا سـيكون ومـا لـم يكـن لـو كان كيـف يكـون. وأنّـه يحقّـق الرّبوبيّـة المطلقـة بالمعيّـة العامّـة للـبرّ والفاجـر، وأنّـه محيـط بهـم، محـصٍ لأعمالهـم. وأنّـه خلـق الخلـق بـلا حاجـة إليهـم. وقـدّر مقاديرهـم قبـل أن يخلقهـم، وكتـب مـا يصـيرون إليـه مـن سـعادة وشـقاء. وأنّـه جعـل الخلائـق فريقـين، فريقـا في الجنـة وفريقـا في السّـعير. ولـو شـاء لجعلهـم أمّـة واحـدة.

ولكن.. (لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا).

وأنّه يُضـل مـن يشـاء، ويهـدي مـن يشـاء. وأنّ للعبـاد مشـيئة وقـدرة، ولكنهـم لا يشـاؤون إلا أن يشـاء الله. وأنّـه لا يصيـب المـرء إلا مـا كتبـه ربـه، ولـو حـاول الخلـق أن يغـيّروا ذلـك مـا قـدروا.. (رُفِعَـتِ الأَقْـلامُ وَجَفَّـتِ الصُّحُـفُ).

لكـن منـذ دخولـك الجامعـة، بـدأ شـغفك بالفلسـفة يـزداد، فقـد

صادفت هوى لديك، كونها تعتمد على المنطق، ممّا يقربها من علوم الرياضيات، فهي تراكيب تؤدي إلى نتائج.. وكأنها معادلات. أصبح عندك استعداد نفسيّ أن تحلل حتّى مسائل العقيدة!

وحين خضت تلك التّجربة التي هزّتك من الأعماق، اعتبرتها تكليفا، وقلت لنفسك: لماذا تتردّد؟ إبراهيم عليه السّلام قال: (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي). أولست أولى من إبراهيم بالشك؟ أوليس قلبك أحوج من قلب خليل الله إلى الطمأنينة؟

كنت تثق أنّ بحثك سيزيدك إيمانا. ولو أنّك استقبلت من أمرك ما استدبرت، لما خضت المهالك في هذا البحث.. ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا!

لبثت تتفكّر في قوله تعالى: (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ).

نشأ السّؤال صادقا بريئا في ذهنك. كيف يكون مصير راشيل ومن شابهها النار؟ أليس فيهم من الخير ما يزاحم خيريّة شيوخك الرّافلين في النّعمة والمنظّرين للتكافل الاجتماعيّ دون خطوة عمليّة واحدة؟ ألا يشفع لهم الصّدق الذي تشعّ به قسماتهم؟ أنت مهما عملت، فأنت تطمع في ثواب أو تهرب من عقاب.. أمّا هم! فلا رادع لهم إلا ضمائرهم، ولا محفّز لهم إلا السّعادة التي يرسمونها على وجوه من يحسنون إليهم! من بينكم أرق نيّة وأدعى إلى الإكبار؟!

تملكتك الحيرة، وشغلك التفكير. أيعقل أن ينطبق مبدأ الخيريّة في المفاضلة بين كافر أخلاقه عالية، ومسلم شديد الأذى؟ كيف يكون الثاني أثقل ميزانا بين يدي الله؟ هل هو «الإيمان» وكفى؟ كيف تكونون «خير أمّة أخرجت للنّاس»، وتتشدّقون بخيريّتكم، كما قال

اليهود من قبل «نحن أبناء الله وأحباؤه»؟ كيف تكونون خيرا منهم إذن وأنتم تتبعون مبدأهم وتماثلونهم فعلا؟!

ولمّا فاض بك الكيل، قرّرت أن تصارح حاتم بما يعتمل في نفسك. كنت تحسبه أكثر رفاقك علما شرعيّا، وهو الذي ترقّ منذ نعومة أظفاره بين يدي شيوخ السّلفيّة في المملكة السعودية، وتخرّج في كليّة شرعيّة بالإضافة إلى تخصّصه في العلوم السّياسيّة. وقفتما عند موقعكما المفضّل على ضفاف السّين، قرب «جسر الفنون»، تراقبان أفواج الحمام المتزاحمة على الحبّ الذي تنثره أيدي السيّاح. قال حاتم بلهجة قاطعة:

- هم كفّار قولا واحدا، بلا جدال.. فقد قامت عليهم الحجّة ببلوغ البعثة النّبويّة إليهم.. وليس هناك من يجهل اليوم بخبر النّبيّ الخاتم!

قلت في عناد:

- (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).. أليس هذا نصّا قرآنيّا صريحا؟

- ذاك حكم اليهود والنّصارى والصّابئين قبل زمن بعثة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم! أمّا المعاصرون له ومن جاؤوا بعدهم، فلا ينفعهم عملهم ما لم يؤمنوا به ويصدّقوه!

اكتأبْتَ، وتألّمت في صمت. تتأمّل كلّ يوم في أفعال المحيطين بك. تتفكّر في الحديث النبويّ (اليد العليا خير من اليد السّفلى)، وتتساءل، كيف تكون خيرا ومصيرها النّار؟! هل ذنب هؤلاء أنّهم ولدوا لآباء غير مسلمين، وتربّوا على غير الإسلام، فلمّا شبّوا عن الطّوق عرفوا صورة غير مشرّفة عن الإسلام، إرهاب ودكتاتوريّة

وتخلف، فلم يجدوا ما يشجعهم على الاقتراب؟

ثمّ ما ذنب من ولد غير ناطق بالعربيّة -وهم مليارات البشر- إن هم لم يتأثروا على الإطلاق إذا تلي عليهم القرآن أو طالعوا آياته؟ أوليست معجزة الرسول (صلى الله عليه وسلم) هي القرآن، بما فيه من تحدٍّ بلاغيّ ولغويّ؟ فكيف لمن لا يفهم العربيّة أن يدرك ذلك، أو يكون معنيًا بالتحدّي الإلهيّ.. (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ)؟

بل لعلّ معظم النّاطقين بالعربيّة غافلون عن مدى إعجاز لفظ القرآن.. فلا يدركون منه إلّا ما تدركه أنت من بلاغة شعراء اللّغة الصينيّة! بل لعلّ أحدهم لا يفرّق بين آيات القرآن وما درج على ألسنة العوام. أولم تطرق أذنيك كثيرا في سابق الأيّام عبارات يتداولها الجاهلون عدوانا على أنّها قرآن منزّل، فيصدّقهم آخرون دون تردّد؟ فما بالنا بشأن غير النّاطقين بالعربيّة من شعوب أوروبا وأعماق إفريقيا وشرق آسيا والأمريكتين؟ من يقرأ منهم القرآن سيقرأه مترجما إلى لغته، وأنت تدرك أنّ كلّ نصّ يترجم يفقد جزءا من روحه مهما كانت براعة المترجم. فمن سيقرأ هنا لن يقرأ كلمات الله في الحقيقة بل كلمات المترجم!

فكّرت حينها، لو أن القرآن تنزّل على الرسول (صلّى الله عليه وسلّم) معجزا بكل لغات العالم، ليصبح فعلا حجة على الناس، كل الناس، في كل زمان ومكان! لو.. ولو تفتح عمل الشيطان.

ثمّ هالتك النتيجة التي وصلت إليها.. كم عدد الذين يتحوّلون من معتقد إلى آخر، مقارنة بأولئك الذين يرثون معتقداتهم، مع هويّاتهم الإثنيّة وثقافاتهم وجيناتهم؟ عدد ضئيل لا يكاد يذكر! لو أنّك أنت يا مالك، كنت قد ولدت لأبوين مسيحيين في أوروبا، لكنت نشأت وكبرت مسيحيّا مؤمنا، لا تشوب إيمانك شائبة! ولو أنّك نشأت

في الهند لأبوين هندوسيين، أو في الصين لأبوين بوذيين، لكنت راضيا تمام الرّضا عن دينك، مستقيما في عبادتك! مهما كان الدّين الذي نشأت عليه، كنت لتؤمن به إيمانا خالصا، وتعتقد أنّك على صواب، وبقيّة البشر كفّار ضالّون! كنت لترى آثار دعائك إلهك ومعجزاته، ولتتحدّث عن الاختبارات والابتلاءات التي خضتها وحصّنت عقيدتك وملأتك قوّة. بل إنّك لو كنت ولدت في بيت ملحد، لبقيت ملحدا قفرا من الإيمان، أيّا كان نوعه!

أدركت في لحظة فاصلة، أنّ دينك وراثة، وعبادتك تقليد وإيمانك وهم.

حين عودتك من الرّحلة، كنت في حال نفسيّة متردّية. ما أملت تحقيقه من صفاء ذهنيّ لتكوين رؤية مستقبليّة لمشاريعك الشّخصية غدا هباء منثورا. عدت بخفّي حنين.. أو أقلّ؟ وكانت الفكرة الوحيدة التي تملأ رأسك هي أن تجد تفسيرا منطقيّا لعدالة قدرك وقدر غيرك. إن كان قدرك أن تولد مسلما، فتنعم بالجنّة.. وقدر غيرك أن يولد كافرا فيعذّب في جهنّم ، فلا شكّ أنّ وراء ذلك حكمة ما تغاضى الشّيوخ عن تلقينك إيّاها.

انكببت إذن على مبحث القضاء والقدر، متجاهلا التحذير النّبويّ (وإذا ذكر القدر فأمسكوا). أقدمت على الخوض في وهدة الشّكوك بلا مهابة. كانت ثقتك بعقلك لا تضاهى. كنت قد حصّلت من العلوم الشّرعيّة والدنيويّة ما خلته يؤهّلك إلى مراكز الأساتذة والواعظين، وحزت من الثقافة وسعة الاطّلاع ما تدّعي أنّ قلّة ممّن يناظرونك في العمر قد حازوه.. هل كان الغرور ينازعك؟ أم أنّك قدّرت نفسك حقّ قدرها فقرّرت أن تزن كلّ شيء بميزان عقلك وحده؟ أم أنّ الشّكّ الذي وضع أطنابه بين جنباتك كان مثل فراش من المسامير، لا يهنأ لك النّوم ما لم تجد له حلّا؟!

بعـد أيـام طويلـة مـن البحـث، تناثـرت الحجـيرات الأولى، منـذرة بانهيـار جبـليّ مزلـزل. كنـت تخـوض في متاهـات لا نهايـة لهـا، تقـرأ تفسـيرات العلمـاء واجتهـادات المجتهديـن لمعضلـة الإنسـان المخـيّر والمسـيّر، ولا تجـد مـا تقـرّ بـه عينـك. رفضـت أن تسـلّم بـأنّ العقـل البـشريّ -أيّ عقـل- لا يسـتوعب «الغيبيّـات». كنـت تؤمـن بـأنّ الإسـلام هـو ديـن العقـل. ديـن يخاطـب العقـل ولا يعتمـد عـلى الخرافـات. لذلـك تُعمـل عقلـك حـدّ الإنهـاك في كلّ شيء. القـرآن ذاتـه يسـتحث العقـل، ويعـزز التفكـير الفـردانيّ، أو النقاشـات الثنائيـة فقـط، ليكـون أدعـى للتأمـل والتعمـق والجديـة.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾.

لـم تعتـبر مـن تجـارب السّـابقين مـن العلمـاء والمفكّريـن والفلاسـفة، أولئـك الذيـن فقـدوا إيمانهـم بعـد خـوض في هـذا المبحـث ذاتـه.. كنـت تعـرف قصّـة الفخـر الـرّازي، العلاّمـة المسـلم الـذي ألّـف مصنّفـات في القضـاء والقـدر هـي عـين الإلحـاد! لـمّ تـاب عنهـا في نهايـة عمـره واستسـلم لإيمـان العـوام، حـتّى قـال مقولتـه الشـهيرة: اللهـم إيمانـا كإيمـان العجائـز!

هل حسبت نفسك أكبر من ذلك؟ لعلّك فعلت!

أقبلـت عـلى المؤلّفـات الفقهيّـة وكتـب الـتّراث الإسـلامي لفـرق متعـدّدة كالمعتزلـة والأشـاعرة والماتريديـة وغيرهـم، ممـن لـم تكـن تـولي مصنفاتهـم سـابقا اهتمامـك بمصنفـات أهـل الحديـث المتحفظـة، تتفحّصهـا بعـين النّاقـد. تمتعـض أمـام الآراء الـتي تراهـا متزمّتـة متحجّـرة، وتتبّـع الشـاذ منهـا، بمـا يوافـق هـواك. فـإذا وجـدت رأيـا يرضيـك ويصـبّ فيمـا تـراه، احتفيـت بصاحبـه وعكفـت عـلى مؤلّفاتـه كلّهـا تفكّكهـا وتسـبر أغوارهـا.. حـتّى إذا وجـدت منـه رأيـا لا يرضيـك، رميـت

بكلّ ما صدر عنه عرض الحائط. لم تعد تستحي من انتقاد أفكار شيخ أو آخر، وإطلاق الأحكام بالتخلف والرّجعيّة على العلماء الذين طالما اعتبرت لحومهم مسمومة. كانت هيبة العلماء قد تبخّرت من وعيك، وقد هان عليك أن تفنّد رؤاهم ومواقفهم الشرعيّة وتنعتهم بشتّى الأوصاف المهينة. وطالت ثورتك صحيحي البخاري ومسلم، فسمحت لنفسك بتفحّص الأحاديث بعين العقل، فما قبله منها فهو صحيح، وما لفظه فهو مدسوس!

وقد سعدت في تلك الفترة حين عثرت على محاضرات مصوّرة لشيوخ عصريّين، يتكلّمون لغة العلم.. أولباحثين من المسلمين ذوي الأصول الأجنبية، مثل البروفيسور «جيفري لانج»، أستاذ الرياضيات الأمريكي. قرأت كتابه الشهير «حتّى الملائكة تسأل» مرارا، ورحت تروّج له بحماس منقطع النظير.. وأعجبت أشدّ الإعجاب بمحاضرته التي يروي فيها قصّة إسلامه (الغرض من الحياة). كنت تتماهى مع هذا التيّار من المفكرين، ممن اعتبرتهم يشاركونك هجومك الشرس على القدماء. وإن كان لا بدّ لكل غُلّهم من عرّاب، فقد كان جيفري عرّابك بلا نزاع.

كنت حتّى تلك اللحظة، تهتمّ بأن تجد لآرائك الشاذّة خلفيّة شرعيّة. طالما كان هناك من يدعم موقفك، فأنت على حقّ! واستمرّ الأمر لأسابيع، تستمع بشكل يوميّ لما يناهز السّاعات العشر من المحاضرات، وتستمتع بما اعتبرته تجديدا للدّين الإسلاميّ ومعالجة علميّة للغيبيّات، بنظريّات ومعادلات.. حتّى وجدت لجوادك الجديد كبوة، حين اختلفت مع شيخك المفضّل، انتابتك ثورة عارمة. من يقترف خطأ بتلك الفظاعة، كيف يمكنك أن تأخذ منه شيئا؟!

انتهيت إلى إقصاء مؤلّفات البشر كلّها.. وحده القرآن جدير باهتمامك. لكنّك كنت قد وصلت إلى مرحلة متقدّمة من تطوّر

الحسّ النقدي. حتّى أنّك كنت تتلو آيات القرآن، ثمّ تتوقّف، وتقول في نفسك: أليس جرس الآيات المكية، وسبك لغتها، أظهر كثيرا من القرآن المدني؟ ألم يكن من الأجدر أن تكون تلك الآية بهذا الشكل؟ أو ما جدوى تكرار المعنى الفلاني في آيات متعاقبة؟ بل ما ضرورة سور بأكملها؟ هل الصّراع الشخصي مع أبي لهب وزوجه يرتفع إلى مقام كلام إلهي؟ كان الكبر في داخلك قد تضخّم، وهيبة الدّين وقدسيّته في عينيك تتضاءل وتتصاغر. حتّى لم يعد للمقدّسات معنى!

أخذت كرة الخيط تتدحرج وتتدحرج وتترك خلفها أميالا من الأسئلة المبهمة. يتلوّى الخيط في ذهنك ويلفّه، وتسكن عقلك حيرة تتحوّل إلى غضب واستعلاء. تجرأت على كل ما كان يقشعر له بدنك فيما سبق. هتكت جلال العبودية، ومزقت الغلالة الرقيقة من هالة القداسة للسبّوح، ربّ الملائكة والرّوح!

أين أنت من (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)؟

كنت تشعل الحرائق دون وجل، وتوليها ظهرك! كنت تحتج بأنّ الملائكة سألت ربّ العزة، وطرحت الأعذار والحجج العقلية.. وفاتك (وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)!

إبليس كذلك طرح الحجج العقلية والمعاذير تبريرا لموقفه!

كنت تدرك أنّ من هم مثلك نادرو الوجود، ليس غرورا، ولكنّك تعلم قيمة ما كنت عليه. فقد بذلت وبذل من ربّوك وقاموا على تنشئتك خمسة وثلاثين عاما من الجهد لبناء القامة الفكريّة التي أصبحتها، وترسيخ جذورها عميقا. وفجأة جاءت ريح عاصف أتت على هذا الصّرح الشّامخ من القواعد! فكيف بمن حصيلتهم أقلّ، وبضاعتهم مزجاة؟ هل يصمدون أمام زلزال مماثل؟ هل ستكون لأحدهم فرصة النّجاة من البركان الثائر الذي يحصد الأخضر

واليابس؟ أم تراه إصرارك على تمحيص المسألة حتّى أصولها ما أهلكك؟ غيرك كان ليسلّم بجهله ويهزّ كتفيه ويمضي. ولكنّك أنت الفخور بحصيلتك والمعتدّ بعقلك وزادك، لم ترفع راية الاستسلام حتّى انهار كلّ شيء فوق رأسك!

تداعى إيمانك وتصدّع، وفقدت ثقتك في كلّ مسلماتك دفعة واحدة. بقيت أسئلتك فاغرة فاها تنتظر أن تلقمها جوابا. لكنّ دارات عقلك كانت تحترق من الدّاخل دون أن تفرز إجابة منطقيّة واحدة. دكّ الجبل في داخلك دكّا. كان عقلك الألمعيّ عاجزا عن فكّ شيفرة هذه المعضلة!

في لحظة فاصلة، أيقنت أنّ مسلّماتك قابلة للمساءلة.

وحقائقك قابلة للتشكيك.

وثقتك المزعومة غصين هشّ في مهبّ ريح عاصف!

-٢-

مضت عليك فترة من الزّمن قبل أن تدرك حقيقة الأمر.

استمررت لأسابيع تمارس حياتك بشكل طبيعيّ ظاهريًا، وبكثير من الفتور داخليًا. جاءت القرارات دون عناء. اعتذرت من والدك وشكرت عرضه السخيّ. لم يكن واردا أن ترجع إلى أحضان العائلة في حالتك النّفسيّة تلك. وتنازلت دون نقاش كثير لرغبة سارة بالتخصّص في طبّ الأطفال، فيما استقبلت بفرح حقيقيّ نتيجتك اللاّمعة التي مكّنتك من التخصّص في جراحة العظام. لكنّها فرحة مشوبة بوخزات لا تفتر. أين رسالتك وتجديد نيّتك؟ لم تستطع أن تكتب أيّا منها بإخلاص، كما تعوّدت أن تفعل كلّما هممت بخوض مرحلة جديدة.

هل كانت البعثة سببا كافيا لينهار توازنك؟ ربّما نعم.. وربّما لا. الإيمان يذهب ويجيء، والقلب يتحوّل بأقلّ من ذلك. لكنّك فوق كلّ شيء، وفيّ لعادتك، لا تقبل استسلاما ولا أنصاف حلول. تمضي في الطّريق إلى نهايتها، مهما كانت شاقّة وشائكة.. وتتبع الدّليل إلى حيث يقودك. لا يهمّ إلى أين يقودك، فأنت ستتبعه وحسب! حتّى لو كانت الطّريق مسدودة، فإنّك ستحفر خندقا تحت الأرض وتستمرّ! ذلك هو أنت.

بدأت مرحلة التخصّص مترنّحا. وإن كان توتّر فترة التأقلم الأولى قد أهداك أعذارا جاهزة تقدّمها لكلّ من يتساءل عمّا غيّرك وشغلك. عدت إلى الوحدة التي تمقتها، وقد اخترتها على المواجهات التي لا قبل لك بها. كنت ترسم بسمة مصطنعة، وتطلق ضحكة مقتضبة، حين تجمعك الجلسة بالأصحاب. تداري عنهم وجع قلبك وقلاقل

روحك، وتستمرّ في جرّ قدميك نحو المحطّات المعتادة: المستشفى، الكلّية، المسجد، المكتبة والشقّة. تتوضأ في حركة روتينية خاوية، وتدخل المسجد تسجد وتركع، دون حرارة. تصافح الإخوة وتردّد العبارات الاعتياديّة، ثمّ تنزوي في المكتبة حيث ركنك الأثير الهادئ. تقرأ وتقتل المسألة التي حيّرتك بحثا، فما يزيدك البحث إلّا حيرة وضياعا.

حينها فقط وعيت أنّ الإيمان هو ما يعطي للكيان البشري أصالته. ما تؤمن به هو أنت. لو غيّرت لغتك ولون بشرتك وتشرّبت عادات قوم غير قومك، لبقيت في نهاية المطاف نفسك، في جوهرك. لكنّ تغيّر قناعاتك يجعلك شخصا آخر. هل كنت لتدرك ذلك لولا نظرتها إليك؟ في عينيها قرأت ذاتك الجديدة، فولّيتها ظهرك.

بكلّ قسوة الدّنيا، أقفلت الأبواب دونها.

لشدّ ما طرقت، وألحّت لترفع عن نفسك الحصار.. أو لتفكّ حصارها هي. فقد كنت معتزلا إيّاها دون الجميع. قاطعتها دون سبب، فما من سبب بحوزتك يمكن الإعلان عنه! لكنّك لم تعد تحتمل رؤيتها. كانت النسخة المؤنّثة لما كنت عليه. لكنّ رفاقك كانوا كذلك على شاكلتك، رجال علم ودين وإصلاح ودعوة، فلماذا نبذتها دونا عنهم؟ كانوا أندادا لك، خطاكم تسير بشكل متوازٍ، وإن كانوا قد سبقوك في خوض سوق العمل، فقد كنت وما زلت مرجعهم العلميّ بامتياز. والأهمّ من كلّ شيء هو أنّ أحدهم لا يتوقّع منك شيئا ولا يُلزمك بشيء تجاهه. أمّا سارة، فهي تتوقّع منك الكثير! نظرتها إليك تثقلك بالالتزامات والمسؤوليّات التي ما عدت أهلا لها. كيف تخبرها أنّك لم تعد الزّوج المثاليّ «الذي سيأخذ بيدها إلى الجنّة»؟ كيف تُفهمها أنّك على مشارف الانهيار، أنّك أنقاض من الدّاخل، وهذا الخارج الذي لم يتغيّر إلّا قليلا ما هو إلّا واجهة

زائفة تداري بها حقيقتك الملتبسة؟

كنت خائفا. كأنها بنظرة واحدة ستطلّع على سوأتك. تباعدت اتّصالاتك بداية، وجفّت لهجتك واقتضبت ردودك. كنت قد تعوّدت منذ الخطبة أن تزور منزل خطيبتك مرّة في الأسبوع وأحيانا كلّ أسبوعين. لكنّك منقطع عنها منذ أكثر من شهر. ممّا جعل والدها يتّصل بنفسه لدعوتك. تكرّرت الاعتذارات بشكل مثير للرّيبة. أنت متعب تارة، ومشغول تارة أخرى. لا وقت للقاء هذا الأسبوع.. ولا الأسبوع الذي تلاه. ثم حصلت القطيعة الكاملة. توقّفت مكالماتك جملة واحدة. ثمّ لم تعد تردّ على مكالماتها الواردة.

طاردتك عبر البريد الالكتروني، كأنثى مكلومة، تريد أن تفهم لصدودك سببا. إن كنت لم تعد تريدها، فتحلّ بالشجاعة وأعلنها صراحة، بدل الإمعان في الفرار الجبان! رأيت عبراتها من خلال الكلمات. كانت تبكي وهي تكتب رسالتها تلك. ترددت بين خيارين. ردّ جاف وقاسٍ دون الكشف عن حقيقة وضعك. انتهت الرّحلة. ليس هناك نصيب. من الأفضل لك أن تبتعدي عني يا بنت الحلال. أو مكاشفة بما آل إليه حال قلبك، دون مواربة. كنت تعتقد في داخلك أنّ ما أصابك خلل مؤقّت، ما تلبث أن تقف على علّته، ثمّ ترجع كما كنت. لذلك فإنّ العزلة والمسافة خيار مناسب حتّى يستقرّ وضعك. لم يكن يجدر بك التفريط في سارة وقد عانيت كثيرا حتّى حظيت بودّها.

وددت لو استطعت أن تردّ عليها بأبيات شاعرك المفضل الآن، ذاك أبو العلاء الفيلسوف، الذي كنت تستعيذ بالله من كلماته! أدمنت شعره ورحت تردد بينك وبين نفسك:

خُذي رَأيي وَحَسبُكِ ذاكَ مِنّي   عَلى ما فِيَّ مِن عِوَجٍ وَأَمتِ

وماذا يبتغي الجُلَساءُ عِندي أرادوا مَنطِقي وأردْتُ صَمتي

أنت تحتاج بعض الوقت لا أكثر.

لكنّ «بعض الوقت» غدا «الكثير من الوقت».

كانت الأيام تمضي، وأنت لا تزداد إلّا تخبّطا. حين طال أمد الجفوة، وخفت الأمل بالرّجعة التي تمنيّتها، صار من المحتّم أن تكون أكثر وضوحا تجاهها. لم تعد المسألة ابتعادا مؤقّتا، تعود بعده المياه إلى مجاريها. اكتشفت بعد شهرين من التباعد، أنّك صرت تنفر منها. لا، ليس نفورا حسيّا بين ذكر وأنثى، بل هو أشبه بقوّة طرد مغناطيسيّة: صرت تمقت فيها كلّ ما كنت عليه ولم تعده. مجرّد التفكير فيها يعيد إليك ذكريات قريبة لم تعد ترغب في استرجاعها.

بدأ الأمر حين لم تعد تستطيع الاستيقاظ لصلاة الفجر. أصبح نومك ثقيلا فجأة، أشبه بالغيبوبة التي لا تنفع معها منبّهات ولا نداءات. ثمّ تثاقلت خطاك تجاه المسجد حتّى انقطعت. ثمّ أفقت يوما وأنت تشعر بألّا قيمة لصلاتك الخاوية، فلم تصلّ. خرجت لأوّل مرّة في حياتك من الشقّة دون أن تصلّي الصّبح. سرت في اتّجاه محطّة المترو وإحساس غريب لا تفسير له يضجّ في صدرك. أنت لم تصلّ اليوم! منذ التزمت بالصّلاة قبل بلوغك السّابعة، لم تفرّط في فرض واحد، فضلا عن السّنن التي واظبت عليها حتّى وراء القضبان. أنت لم تنس ولم تنشغل، ولكنّك اخترت ألّا تصلّي.

هل هذه هي الحريّة التي يتحدّثون عنها؟ هل هذا هو التمرّد؟

ماذا لو رأتك سارة اليوم، وقرأت على وجهك أنّك لم تصلّ؟ ماذا لو اتّصل بك أيّوب، فأخبرته عمدا أو عرضا بأنّك لم تصلّ؟ كانت مسألة إعراضك عن الصّلاة تملؤك إثارة غريبة. أخيرا أقدمت

على خطوة حقيقيّة تترجم ما وصلت إليه في قرارة نفسك خلال رحلة البحث والتقصّي. «العهد الذي بيننا وبينهم الصّلاة»، هذا حديث تعرفه.. وأنت اليوم قد نقضت العهد.

ذلك الصّباح، اتّخذت قرارا بالمواجهة. سارة لم تعد تقع لك، فلتنظر إلى حقيقة الأمر. سارة نفسها ستحتقرك لو أنّها عرفت بقرارك ترك الصّلاة. أنتما منفصلان الآن فكريّا وعقائديّا، بقي أن تنفصلا وجدانيّا. كنت قد هيّأت نفسك لهذا خلال الأسابيع الماضية، حتّى حسبت عاطفتك تجاهها قد ماتت. لكن حين أمسكت الهاتف وأخذت تنقر حروف رسالتك، شعرت بيد باردة تعتصر قلبك.

«لم أعد أومن. الشكوك تملؤني. أحتاج إلى العزلة والابتعاد عن كلّ المؤثرات، حتّى أجد توازني من جديد».

هل تخيّلت أنّها ستقدّر وتستسلم، وتقبع جانبا تنتظر ما تصير عليه بعد أن تسترجع توازنك؟ تعلم أنّها لم تكن لتفعل! لكنّك تدرك أنّها كانت تريدك أنت بالذات، من أجل إيمانك. تريد ذاتك الأخرى التي لم تعد. حين سقط الإيمان من قلبك، لم تعد العلاقة بينكما ممكنة. لكنّها لم تيأس منك. رغم يأسك من نفسك! بالأحرى، أنت لم تعد ترى الأمور من المنظور نفسه. كنت تعيش لحظة انسحاب لقواتك الخاصّة وراء خطّ الصفر. تقف الآن في منطقة محايدة، وتحاول معاينة الخسائر من زاوية أخرى. أمّا هي فقد أرادت لك أن تعود أدراجك. أن تقف بشجاعة على أرض المعركة وتحارب الشكوك حتّى تهزمها وتبيدها كافة! أن تنقّب عن الإيمان في أعماقك حتّى تعثر على المنبع المطمور فتزيح عنه ما تراكم من لبس. لكنّك أبيت. لم تكن ترغب. أوصدت أبوابك وحكمت باللّاعودة. وكيف يمكنك أن تحكم بغيرها وأنت لا تؤمن؟ لم يكن إيمانا باليا، متضعضعا أو متذبذبا يحتاج أن تنفض عنه التراب أو تقوّي دعائمه. كنت قد

وصلـت إلى مرحلـة اللّاإيمـان. لـم تعـد لديـك ثوابـت.. فقـط متغـيّرات لا تـدري عـلى أيّ وضـع سيسـتقرّ حالهـا، وإن كانـت ستسـتقرّ!

بقيت تتلقّى رسائلها الغزيرة في صمت.

وهي كانت تستميت في محاولة إقناعك.

-٣-

٢٠٠٢/٠٣/٢٠

الشك، كان دوما طريقا إلى اليقين.

الشكّ ليس عيبا، ليس جرما، ليس ذنبا.

إن لم تشكّ ولم تتساءل ولم تعاين إيمانك بنظرات ثاقبة، فأنت مؤمن بالوراثة، لأنّك ولدت مسلما، لأبوين مسلمين، في محيط مسلم. أمّا أن تشكّ وتعبر رحلة الإيمان من بدايتها، فذلك عين الشّجاعة. أن تشكّ وتبحث فتهتدي، فتصير أقوى، وإيمانك أقوم وأبهى!

لا تخجل من شكّك ولا تستسلم له. تعامل معه مثل محطّة ضروريّة. أنت تأخذ استراحة، تتراجع إلى خانة البداية، وتراجع قناعاتك. تتأمّل في الخلق وتستدلّ على وجود الخالق، وترجع إلى ربّك على بصيرة.

لا تغلق قلبك على الشكّ وحده. اطرح الأسئلة وابحث عن الإجابات. حاورني إن شئت، ودعنا نفتّش معا عن إجابات شافية. وإن لم نجد سننقب أكثر، نعود إلى المصادر، ونسأل من هو أعلم منّا. وسننهي الرّحلة ونحن أكثر اطمئنانا.

***

٢٠٠٢/٠٣/٢١

هل تعلم من عرف الشكّ أيضا؟ نبيّ الله موسى!

ألم يقل الله تعالى في سورة الأعراف: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا

وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)

(أرني أنظر إليك).. لقد احتاج نبي الله أن يرى الله بأم عينه ليدركه اليقين! فأراه الله دليلا على قدرته -سبحانه- وضعفه -عليه السلام- حين تجلّى للجبل. فكيف لنا نحن البشر العاديّين الذين لا تصلنا بالله صلة مباشرة ألا نصاب بفتور وضعف وضيق؟ تلك محطّات متوقّعة، فيرتفع مستوى الإيمان أو ينخفض، وثباته على معدّل واحد غير ممكن.

أجبني بالله عليك. أفض إليّ بشكوكك، ودعنا ننظر فيها سويّة.

***

٢٠٠٢/٠٣/٢٢

أنت لا تريد التحدّث إليّ، ولكنّي لن أتخلّى عنك. أتدري لماذا؟!

لأنني أومن بالآية الكريمة: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ).

إيمانك لن يضيع بسهولة، لكن عليك أن تقاوم من أجله. ليكون الرّضا والطمأنينة هديّتك المنتظرة. إيمانك محفوظ عند الله، لأنّك كنت صادقا فيه، متفانيا من كلّ قلبك. وسيعود إليك إن أنت سعيت إليه بصدق.

لا تستسلم الآن. لا تترك نفسك عرضة للوساوس تبعثر عزمك. استرجع تركيزك وانتبه إلى نداء قلبك. ستسمع صوته في أعماقك. «لا تضيّعني. أنا في انتظارك».

أجب على الهاتف أرجوك!

***

٢٠٠٣/٠٥/٢٣

إن كنت لا تريد أن تسألني، فاسأل الله.

توجّه إليه بكلّك، في عتمة الليل، واسأله بانكسار وتذلّل أن يهديك وينير بصيرتك، ويرفع عن قلبك الغشاوة، فهو أقرب إليك من حبل الوريد.

الله أمر بالدعاء، ووصف نفسه بالقرب، ووعد بالإجابة.

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ).

اسأله الرحمة من هذه الحيرة القاتلة.

-٤٠-

الله لن يضيع إيمانك؟ ولكنّك ضيّعته بالفعل!

تساءلت، هل يمكن أن يكون إيمانك محفوظا في مكان ما فوق السماوات كما تقول سارة؟ كنت أوهن من أن تبحث في الأمر وتفكّر. كنت تقرأ رسائلها بفتور لامبالٍ، وقلبك أصمّ عن ندائها. أملها فيك يثير سخرية لاذعة في داخلك. هل تدّعي أنّها تعرفك أكثر من نفسك؟! وهل كلّ ما يهمّها من أمرك أن تعود إلى القالب الذي وضعتك فيه في رأسها؟ لن تكون إنسانا محترما إن لم تكن كما تريدك أن تكون؟!

انتابتك ثورة مفاجئة. سخط وتمرّد.

ستكون شيئا مختلفا، وإن لم تقبلك كما أنت فليست جديرة بك!

وبما أنّك تدرك بشكل مسبق أنّها لن ترضى بذاتك الجديدة، فقد قرّرت أن تمحوها من تفكيرك أوّلا. رسائلها المتواترة أصبحت تثير غيظك. حوّلت بريدها على «الرّسائل غير المرغوبة». لكنّك بقيت تتفقد تلك الزاوية التي لم تكن تهتمّ لها سابقا، تختبر خلسة طول نفسها، رغم لامبالاتك المزعومة. لكنّك كنت أسرع منها في الانهيار. كثرة التفكير أجهدت دماغك واستنزفت روحك. عادت إليك حالة الاكتئاب القديمة بشكل أكثر حدّة.

أغلقت هاتفك، وانقطعت عن جلسة الأصحاب والمكتبة. ثمّ الكلّية.. وأخيرا المستشفى. لأيّام طويلة، لم تغادر غرفتك. لم تفتح كتابا. لم تحدّث إلى بشر. ولم تسجد لله سجدة واحدة. يستلمك

النعاس ثمّ يلفظك وأنت مسجّى لا تبرح مكانك إلا لحاجة ملحّة من حاجات البدن الأساسيّة. استسلمت لإنهاك شامل أرداك طريح الفراش، لا تقوى على الحركة ولا يردّد عقلك صدى فكرة واحدة.

أيّ فكرة.

ابتلعك ثقب أسود.

حتّى جاء ذاك اليوم الذي قرعتْ فيه جرسك.

قمت متثاقلا، ساخطا، مثل جذع خاوٍ يترنّح. فتحتَ الباب لتوقف رنين الجرس الملحّ المزعج، فألفيتها عنده.. ترمق هالات عينيك وشعرك المنكوش وهيئتك الفوضويّة في جزع ولوعة.

- ما الذي حلّ بك؟

كان صوتها مبحوحا مختنقا، ولم تكن لديك إجابات جاهزة. كان يمكنك أن تواجه أيّ أحد، إلّاها. كنت تهمّ بطردها والاعتذار بالمرض، بالتعب، بأيّ حجّة تجعلها تتركك في حالك. لست مستعدًا لنقاش ما ألمّ بك. خاصّة معها. لكنّك بدلا من ذلك، تحرّكت إلى الوراء، وأوسعت لها مدخلا لتدلف إلى الشقّة. أيّ شيطان استيقظ في تلك اللحظة وألهمك مخطّطك المتهوّر؟ رأيت التردّد في عينيها. تردّد قصير لم يدم، جعل شيطانك المتراقص يبتسم ساخرا، وهي تخطو في اتّجاه الفخّ الفاغر فاه. لم يكن في الشقّة غير سرير واحد ومنضدة ومقعد. رائحة نفس كريه تملأ الهواء وتجعل التنفّس عسيرا على المسكينة. لكنّها تواجهك في جلد، وتهتف بصوتها المتهدّج بينما تنتفض قسماتها:

- أين هاتفك؟ لماذا أغلقته؟ منذ متى لم تغادر الشقّة؟

تتوالى أسئلتها المستنكرة والمستجوبة، في حين لا تملأ فراغ عقلك إلا فكرة واحدة. فكرة شيطانيّة دنيئة. لكنّها حاضرة بشدّة،

ومسحوذة. كلّ فتاة تسعى بقدميها إلى شقة رجل بالتأكيد تدرك ما ينتظرها. كلّهن. لم يشفع لها أنّها تقف على بابك خوفا عليك «أنت»، وتمضي وراءك قلقا عليك «أنت»، تدفعها ثقة فيك «أنت»، لأنّها تعرف ما جُبلت عليه «أنت» من شهامة وخُلق.

فاتها أنك لم تعد «أنت»!

تتنقلّ نظراتك بين دقّة الباب التي انسابت بهدوء حتّى استقرّت على الوضع المغلق، وبين السّرير غير المرتّب الذي تقف هي على مبعدة خطوتين منه. تجسّد السيناريو في ذهنك بسيطا ويسيرا. لن تقدر على مقاومة عضلات ساعديك. أنت تفوقها طولا وعرضا وسطوة. حتّى بمعدة خاوية، كانت الرّغبة وحدها لتمدّك بما يكفي من الطّاقة.

هل رأت الشرارة في عينيك؟ لعلّها فعلت، وأدركت ما أحاق بها من خطر، بما تعرفه عنها من حدس لخوالج نفسك بالعين المجرّدة. فقد تراجعت، تبتعد عنك خطوة، وتقترب من السّرير، حيث تريدها، خطوة. ولقد هممت بها وما همّت بك. هممت بها تريد الفتك بعفّتها، وراحت هي تدفع وتصرخ.

لولا أن رأيت برهان ربّك!

لقد شددت حجابها بيمناك حتّى انتزعته من رأسها، لتكشف خصلاتها السوداء المتهدّلة حتّى كتفيها، ودفعتها بعنفوان لتسقط على السّرير تشهق وتصرخ من هول صدمتها. لقد ثبّت بيسراك ذراعيها النحيلتين المذعورتين فوق رأسها، والتهمت عيناك بياض نحرها فيما رحت تحاول بعصبيّة فكّ أزرار قميصها. بينما أنت غارق في فورة جنونك، وقع بصرك على الإطار المعلق فوق المنضدة، فسرت في عمودك الفقري شحنة كهربائيّة عطّلت حركتك دفعة واحدة

وانتبهت إلى سكون عميق. كانت إجازتك في القرآن الكريم، تستقرّ في إطارها المذهّب، فخورة تتصدّر الجدار. تلقيّتها كصفعة صمّاء، وكأنّك تنتبه إلى وجودها في الغرفة للمرّة الأولى. أفلتّ الفتاة الراقدة على سريرك، وتهاويت على الأرض، لا حول لك. ينساب إلى سمعك نحيبها المتقطّع وقد انكمشت على نفسها، لا تقوى على الفرار. استمرّ النشيج المرّ لدقائق يملأ أذنيك، يعذّبك، بينما يتردّد لهاث متعب في صدرك.

الويل لك! ما كنت تصنع؟

هل إذا فقدت إيمانك، فقدت أخلاقك؟!

تلك نظريّة أخرى تثبت هشاشتها خلال فترة وجيزة. أنّ أخلاق الرّجل أصيلة في ذاته، لا تتعلّق بحلال وحرام، خوفاً من العقاب وطمعاً في الجزاء! تقول أنّ الأخلاق التي تصنعها المحظورات الدينيّة هي أخلاق وهميّة! أنّك لو بقيت وحدك في جزيرة مهجورة، مثل حيّ بن يقظان، لتشكّلت ذاتك بنفس الشكّل واستوت مبادئك كما عرفتها فيك منذ نعومة أظفارك! أيّ هراء هذا؟!

تسللت إلى ذاكرتك قبسات من حواراتك السابقة مع رفقاء جلستك. كنت تردّد أمامهم سؤال سقراط ليوثيفرو -والذي يسمى «المعضلة الأخلاقيّة»- عن مصدر الأخلاق.. ما هي حقيقة الخير ومعاييره؟ وما هو مصدر الصّلاح والعدل؟ هل الأخلاق حسنة لأنّ الله يريدها.. أم أنّ الله أرادها لأنّها حسنة؟ هل الخير خير لأنّ الله أراده وأحبّه.. أم أنّ الله أحبّه وأمر به لأنّه صواب وخير؟ هل أمرنا الله بالصّلاح لأنّه صواب في ذاته.. أم أنّ الصلاح اكتسب الخيريّة لأنّ الله أمرنا به؟ وهل يعدل الله لأنّ العدل خير في ذاته بمعزل عن إرادة الله.. أم أنّ فعل الله هو الذي جعل العدل عدلا؟

ها أنّك قد رفعت الغطاء عن سوأتك وأبصرتها في وضح النّهار.. فألفيت معدنك ترابا.

- اخرجي.

تمتمت مختنقا، تدفن رأسك بين ركبتيك. لا تريد أن تلمحها وهي تلملم نفسها وخيبتها وتجرّ قدميها كسيرة، وهي الّتي رأتك كبيرا، فصغّرت نفسك في عينيها حتّى تقازمت إلى ما لانهاية. ستتلاشى الآن من قاموسها، كأنّك لم تكن.

لبثت منكس الجبين ردحا من الزّمن بعد أن اختفى وقع خطواتها في الممرّ. نظراتك تتّجه إلى داخلك، تسبر أغوارك. هل مزّق الحيوان الغشاء السّاتر وظهر للعلن؟ حيوانك المتوحّش الّذي أمضيت عمرا تهذّبه بالقرآن، أفلت من عقاله ما أن أتيحت له الفرصة! تنكمش أكثر، مجلّلا بعارك. حيوان!

بعد برهة قصيرة، كنت تفكّر في الاتّصال بها والاعتذار.

كان يمكنك أن تؤلف قصّة. جرعة زائدة من دواء الأعصاب. مخدّر قويّ جعلك لا تتحكّم في أفعالك! لولا أنّ الاعتذار والصّفح لا معنى لهما الآن! ماذا لو صدّقت كذبتك وصفحت؟ لن يمكنك العودة حينئذ إلى قوقعتك، إلى ثقبك الأسود الّذي ابتلعك في الأيام الماضية! سيكون عليك أن تخرج وتردّ على الاتّصالات، وتقبل أن تناقشك في شكوكك. وأنت لا تريد. لا تقدر.

إنّها النّهاية إذن؟ ستفقدها إلى الأبد؟

ستعتذر. لكن فيما بعد. بعد أن تدرك ماهية ما تعيشه من ضباب.

لكن حين رنّ جرسك في الغد، هرعت إلى الباب في لهفة الظمآن إلى منبع الماء، وقد حسبتها عادت. وكيف تعود بعد الاستقبال الّذي

لفيتها به؟ كان أربعتهم عند الباب، فرساتك الأربعة. ما أن ظهرت أمامهم حتّى اقتحموا المكان دون استئذان. فتح حاتم النافذة على مصراعيها ليجدّد هواء رئتيك العفن، وتأبّط محسن وغالب ذراعيك وساقاك في اتّجاه الحمّام، حيث وضعا رأسك تحت الصّنبور غير عابئين بصراخك، في حين أخذ أيّوب يستجوبك في حزم:

- هل شربت شيئا؟ هل أنت سكران؟!

بدا أنّ أصداء فعلة الأمس قد بلغتهم بشكل ما. الآن، يقف أمامك أربعتهم وقد تآمروا عليك. يصرخ أيّوب:

- ما الذي حلّ بك؟ انطق!

خرجت برفقتهم إلى الشّارع، قالوا لنتمشى. لم تكن قد نطقت بعد. يحرّك غالب ومحسن، يمسكان بتلابيبك ولا يفلتانك. تودّ أن تقول: حسن هذا يكفي يا رفاق! لكنّك لا تملك أن تشرح شيئا بعد. حين وصلتم إلى ضفاف النّيل، أطلقا سراحك. اتّكأت على السّور الحجريّ وشردت نظراتك في الماء، بينما يتبادلون نظرات قلقة. ماذا بعد؟ لوهلة، شغلتك فكرة القفز. كم سيكون عمق الماء في هذه البقعة؟ وكيف هي برودته؟

- سارة كانت عندك أمس، أليس كذلك؟

يكسر أيّوب الصّمت مرّة أخرى. إذن فقد ذهبت تشكوك إليه! كنت قد عرّفتها على أيّوب ذات مرّة، بصفته من قدماء الكلّيّة. جلس ثلاثتكم في مطعم قريب من الجامعة، وشرح لكما مختلف التخصّصات وكيفيّة احتساب المجموع في سباق التخصّص. كان ذلك منذ سنتين على الأقلّ. ثمّ رافقك وزوجته إلى منزل والديها لخطبتها. في تلك المناسبة، تبادلت أرقام الهاتف مع سميّة، زوجة أيّوب، وأصبحت بينهما علاقة وديّة وزيارات متواترة.

تساءلت: ما الذي قد تكون قد قالته عن لقاء الأمس؟ جاءك الردّ بسرعة:

- لقد أرعبت البنت! قالت إنّك فقدت عقلك! ما الذي حصل بالضبط؟ أخبرني!

إذن لم تقل الكثير. فتاة عاقلة. لن تكون الفضيحة في مصلحتها أو مصلحتك.

- سأكون بخير.. أحتاج بعض الرّاحة، فقط.

تكلّمت أخيرا، فجاء صوتك عميقا مبحوحا، قادما من بئر سحيقة.

- ما الذي يقلقك؟ تخصّصك ممتازا! ووظيفتك في المستشفى يتمنّاها الكثيرون! وقد كنّا معا منذ شهور قليلة في رحلة، فهل تعبت بهذه السّرعة؟

آه، تلك الرّحلة.. إنّها بيت القصيد! لو أنّك لم ترافق أيّوب!

تركك الرّفاق بعد أن وعدت بتدارك أمرك والانتظام في العمل مجدّدا. كنت الوحيد من بينهم الذي لم يتزوّج بعد، لذلك اتّفقوا على أن تحضر لتناول العشاء عند واحد منهم كلّ ليلة من الآن فصاعدا، حتّى تستقرّ حالتك النّفسيّة. لكنّك عارضت وتمنّعت، ليس هناك من داعٍ ليتحمّلوا مسؤوليتك. أنت راشد وبإمكانك تدبّر أمرك. أمام إصرارك العنيد، قرّر أيّوب أنّه سيحضر لك طبقا من طعام عشائه كلّ ليلة، وقرّر الباقون نفس الشيء. تركتهم يتّفقون فيما بينهم على دوريّات مراقبتك وإطعامك وسرحت مجدّدا عبر الماء. سيكون من الجيّد أن تنهي كلّ شيء هنا، ستنعم بعدها براحة بال أبديّة.

حقّا؟ هل هناك راحة بال أبديّة ممكنة؟

أعادوك إلى الشّقّة، وتركوك محمّلا بكثير من التّوصيات. فهززت

رأسـك باسـتمرار في تسـليم لتتخلّـص مـن حضورهـم الثقيـل. هكـذا أصبح حضـور الرّفقة بالنّسبة إليك. ثقيلا. كأنّ الخفّة تكمن في خلوتك بنفسـك؟ الوحـدة أثقل. لكنّـك تعـوّدت على التعامـل معهـا. جـزء منـك كان يصرخ في ألـم، لا تتركوني وحـدي! وجـزء آخـر كان يزمجـر في غضـب، ارحلـوا واتركـوني وشـأني!

طالعـت نفسـك في مرآة الحمّام حـين صرت وحيـدا، فقابلتـك نظرتك القاتمة البائسـة. لقـد خـرج الحيـوان المكبّـل داخلـك. سرت في جسـدك قشـعريرة بـاردة. تلـك هـي الحقيقـة المخيفـة الـتي تدركهـا وحـدك.. وسـارة. مـزّق القيـد وحطّـم القفـص. لـم تعـد لـك عليـه سـيطرة. ما الـذي سـتفعله حيـال ذلـك؟ بـدل أن تفكّـر في حـلّ للمـأزق الـذي أنـت فيـه، أخـذت تتأمّـل شـعيرات لحيتـك في ضيـق. ثـمّ وبعـزم لا تـدري مصـدره، تناولـت آلـة الحلاقـة وأخـذت تحلقهـا.. حـتّى آخـر شـعرة. تنظر الآن إلى وجـه لا يشـبهك. وجـه أملـس حليـق. كأنـك أردت أن تؤكّـد لنفسـك بأنّـك غـدوت شـخصا آخـر غير مـا كنـت عليـه.. ولـن تراجـع.

بعد ذلك، ارتديت بدلة أنيقة، تعطّرت، وغادرت الشقّة.

كان هنـاك إصرار غريـب لا تـدرك كنهـه. رغبـة عميقـة تحـرّرت في أعماقـك وأصبحـت تسـيّر حركتـك. مشـيت في الشّـارع، تتلفّـت. أنـت تعرف وجهتك. سبق أن لمحـت اللافتـة الـتي تريـد. على بعـد مائة متر مـن بنايتـك، كان المحـلّ. فـوق الواجهـة الزجاجيّـة البرّاقـة، كانـت لافتـة مضيئـة تناديـك: حانـة الزّمـن الجميـل!

أحطـت الواجهـة بنظـرة شـاملة، ثـمّ أخـذت نفسـا.. وخطـوت إلى الدّاخـل.

الفصل السّادس

- ضياع -

-١-

رحلتك نحو العالم السفليّ، بدأت مع الخمر.

أولست تعرّفها طيلة حياتك باسم «أمّ الخبائث»؟

دخلت الحانة بخطوات مرتجفة. هذا مكان غريب عنك وأنت غريب عنه. ومهما بلغت جرأتك الفكريّة، فإنّ جرأتك العمليّة تلخّصت حتى تلك اللّحظة في التّرك. تركت المسجد ثمّ تركت الصّلاة والقرآن والذّكر ومجالس العلم وصحبة الإخوة. أما وقد واتتك الشّجاعة، فعليك أن تجرّب أشياء جديدة تملأ بها الخواء الرّوحيّ الذي خلّفته عاداتك السّابقة.

أخذت مجلسا عند المشرب، وتلفّت حولك متفقّدا. كان هناك شابان يجلسان على مقربة، يتجرّعان من كؤوس طويلة العنق مترعة، ويتجاذبان الحديث. مددت ذراعك لتلامس كتف أحدهما في خجل، فلمّا استدار، قلت مرتبكا:

- معذرة، أنا جديد هنا.. بم يمكنني أن أبدأ؟

تبادلا نظرات دهشة ثمّ انفجرا ضاحكين، قبل أن يجزلا لك النّصيحة. عدّدا الأنواع الخفيفة التي يمكنك أن تستهلّ بها مغامرة السّكر. سجّلت في اهتمام ملاحظاتهما ثمّ التفتّ إلى السّاقي تذكر طلبك، كأنّما أنت في مهمّة رسميّة. رصفت الكؤوس الثلاث التي عبّأها من أجلك، تأمّلتها لبرهة تخمّن بأيّها تبدأ، ثمّ تلفّظت بالبسملة دون وعي منك!

توقّفت فجأة وارتجف قلبك في صدرك. بسم الله؟! تسارعت أنفاسك، وهممت بالمغادرة. لكنّك توقّفت. ألم تتجاوز تلك

المرحلة؟ ألم تترك الصّلاة، لماذا تنتابك الرّهبة فجأة لمجرّد ذكرك الله على حين غرّة؟ ما هي إلّا عادة ستتخلّص منها قريبا. تزدرد ريقك في توتّر، ثمّ تتنفس بعمق لتطرد عنك التردّد. في اللحظة التالية، كنت ترفع الكؤوس واحدة تلو الأخرى، تفرغ محتوياتها في جوفك دفعة واحدة حتّى لا تراودك نفسك مجدّدا بالنّكوص على عقبيك.

أمضيت بقيّة اللّيل تستفرغ ما بجوفك، وتتلوّى من ألم معدتك.

لا عليك، تلك ضريبة التّجربة الأولى. ستتعوّد.

ستشهد الأيّام التالية تحوّلات جذريّة في ذاتك وشخصيّتك. أنت الذي كنت في بداية شبابك تشبّه من قبل الرّفاق بالملاك الطاهر، لبراءتك ونقائك وتقواك وورعك، أنت الذي كنت ترى اللّمم كبائر والسّنن فرائض، ستجد طريقك نحو الخطايا والشّهوات، لتنغمس في مستنقعها تعبّ منها عبّا حتّى الثّمالة. هل كنت تنتقم من طهارتك عمدا، فتلوّثها بكلّ ما استطعت إليه سبيلا؟

حين دخلت المستشفى ذلك الأسبوع، توقّفت أمامك زميلة تشيكيّة، إيرينا، شقراء شاهقة تماثلك سنّا، وهتفت مصدومة:

- مالك؟ أهذا أنت؟

كان شكلك قد تغيّر بقدر ملحوظ بعد أن حلقت اللّحية. تفرّست الشّابة في وجهك متمعّنة، ثمّ قالت وهي تضغط على ذراعك في غنج:

- لم أكن أعلم أنّ كتلة الشعر الكثيفة كانت تخفي عينين عسليّتين جذّابتين!

لم تدرك على الفور العلاقة بين اللّحية والعينين. لكنّ حركتها جعلتك تستوعب. لم تكن لتعرف لون عينيك من قبل، وأنت تطرق كلّما مررت بها وتخفض بصرك! لكنّك اليوم ترفع رأسك وتواجه النّظرة بالنّظرة. لو أنّك بقيت نفسك، أولم تكن لتجذب ذراعك،

وتنفر من لمستها؟ لكنّك اليوم لا تستنكر الوقوف قبالتها، وكفّها البيضاء تستقرّ على ذراعك. لم يكن من العسير على أيّ كان أن يلحظ تغيّرك. ليس شكلا فحسب، بل سلوكا أيضا.

احتفالا بالتّغيير الذي طرأ عليك، انضممت إلى الزّملاء في سهرة صاخبة في علبة ليليّة! هكذا، كنت تخطو بخطوات لاهثة في عالمك الجديد. لو كنت في سابق عهدك، لما وجدت خيرا من الآيات القرآنية لتوصيف ما أنت عليه.. ألست ذاك الذي انسلخ عن آيات الله، واتّبع طريق الشّيطان.. (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث)؟

كانت إيرينا صاحبة الدّعوة. لم يكن أحدهم ليجرؤ من قبل، وأنت بمظهرك المتزمّت وفكرك المعقّد! لكنّ بوادر الانفتاح التي ظهرت عليك ذلك الصّباح جرّأتها على المحاولة. لم تتردّد كثيرا في الرّدّ. لم لا؟ هذا تغيير لا بدّ منه، لتمحو من أذهان المحيطين بك صورتك السّابقة. أنت شخص مختلف الآن، ولا ضير من تجربة كلّ المحظورات التي أملتها عليك تعاليم دينيّة لم تعد تعنيك.

وصلت قبل الموعد بربع ساعة، ووقفت قلقا متوتّرا أمام واجهة المبنى، يداعبك نسيم ربيعيّ فاتر. حين وصلت إيرينا، اقتربت منك على غير العادة، وتطاولت على كعبها العالي لتطبع على وجنتيك الباردتين قبلتين صغيرتين وتبتسم عن صفّ من اللؤلؤ، ثمّ تأبّطت ذراعك وشدّتك باتّجاه المدخل:

- هيّا بنا!!

كانت جرأتها مغرية.. ومخيفة. شعرت لوهلة بارتباك طفل غرّ أمام مدرّسة محنّكة. سرت إلى جوارها تتأمّل في ذهول تقاطيعها الحادّة وبشرتها الشّاحبة شديدة النّقاء. لأوّل مرّة تملأ عينيك من

جمالها عن قرب، دون حياء أو خجل. بالأمس، كنت تعتذر عن مصافحتها. بالأمس، كنت تضع نصب عينيك قول عائشة (رضي الله عنها): «لا -والله- ما مسّت يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يد امرأة قط إلا امرأة يملكها» لكن اليوم، كيف أصبحت اليوم؟ رغم يقينك بأنّ القبلات العابرة أمر معتاد في التحيّة بين الذكر والأنثى في «المجتمعات المتحضّرة»، إلّا أنّ موضع قبلتيها بقي ملتهبا طيلة السهرة، كأنّما هما جمرتان حطّتا على خدّيك.

صخب السهرة لم يفلح في تحويل انتباهك عن البركان الذي يستيقظ داخلك، بركان شهواتك المكبوحة طويلا. تتمايل أمامك شقراء فاتنة، ترقص منطلقة، وتغازلك بنظرات وإيماءات فاضحة، وأنت منساق، لا مزيد من الحرمان، لا مزيد من الكبت. أنت حرّ طليق، حيوانك يستأثر بالحضور ويشبع جوعا دام دهرا. ترقص بدورك في حركات خرقاء، وتستسلم لقيادة شقرائك التي تقود خطواتك على الحلبة المزدحمة. لم يسبق لك الرّقص قطّ. وهل كان رقصك في زفاف شقيقتك يشبه الرّقص؟ خطوات رزينة وقورة وأنت تتأبّط ذراع أبيك من هنا وذراع شقيقك الأكبر من هناك.. هل تعتبر رقصا في عرف الرّاقصين؟ أنت السلفيّ الجادّ الذي لا يرتفع صوته حتّى ضاحكا، تقهقه في مجون وتترنّح بمفعول الشّراب الذي استسغت طعمه.

اليوم تنتصر على عقدك القديمة. لا تتوقّف مقارنا بين انتصار الآن وانتصاراتك الشخصيّة السّابقة: إجازتك في القرآن الكريم، حفظك لمتون آلاف الأحاديث، تحمّلك عذابات السّجن ورحلة الهجرة، تخصّصك في جراحة العظام. فليس هناك مجال للمقارنة. أنت تكتب في صفحة جديدة، تدشّن سجلا جديدا، معاييرك فيه جديدة تماما. لا تقارن.

في الصّباح، استيقظت نشطا على غير العادة. ملمس الشّفتين النّاعمتين على وجنتيك لا يزال هناك. سيظلّ هناك لزمن طويل. كانت قد طرأت عليك عادة جديدة، فلم يعد فنجان قهوتك التركية هو أول ما تستقبل به صباحاتك.. فقد استبدلت به كأسا من ذاك الشراب الاسكتلندي المعتق، ذهبي اللون! جلست إلى مائدتك، مواجها النافذة. مددت ساقيك، ووضعت قدميك على الإطار المعدنيّ تراقب قطرات المطر وهي تتساقط بانتظام على زجاجها محكم الإغلاق وتصغي إلى نقراتها المتتابعة في صوت رتيب.

لطالما أثار المطر شجونك، وهيّج فيك الذكريات.. لكن ما أبعد اليوم عن الأمس! تطلعت إلى الكأس في يدك، ورفعتها إلى شفتيك، وارتشفت جرعة في متعة ونفسك تحدّثك في عربدة: أين كنت غافلا عن هذا النعيم؟

قصدت المستشفى منتشيا من أثر كأسك الصباحية المترعة، وقد بيّتّ نيّة سوء. عاهدت الشيطان على أن تبادرها أنت بمجرّد وصولها، وتطبع على خدّيها قبلتين بنفسك. وقفت في البهو، ترقّب مقدم إيرينا، شقراتك التي فتحت عينيك على عوالم جديدة. تضرب نبضات قلبك على جدار صدرك. ثمّ تظهر فاتنتك، تسير بثقة مستفزّة، مزهوّة بجمالها الأخّاذ وقوامها الرّشيق. وصلت عندك، ومدّت كفّها ذات الأصابع النّحيلة، لتلامس أطراف أصابعك، في تمنّع مصطنع. فاقتربت أنت، انحنيت حتّى لامست وجنتيها، وقبّلتها كما سبق أن عزمت.

حين تراجعت عنها مقطوع الأنفاس، هزّتك النّظرة التي قرأتها في عينيها. لمحت الابتسامة التي ارتسمت عند زاوية شفتيها، فيها لمحة مكر لا تخطئها العين. وقرأت كلمات تكاد تميّزها حروفا مكتوبة على صفحة وجهها. تقول.. ها قد علمتك أيها الهمجيّ شيئا من

-٢٠-

بعد اندفاع جنونيّ تجاه الشّهوات المكبوتة، كبحت جماحك.

أمامك العمر كلّه لتتذوّق من الأطايب كلّها، فلمَ التّهافت؟ أخذت نفسا عميقا وقرّرت أن تعيد إلى حياتك توازنها. انتظمت في مواعيد العمل بالمستشفى في الأيّام الّتي تلت، ثمّ كان ظهورك الأوّل في الكلّيّة والمكتبة بعد أسبوعين. يغمرك إحساس بالإثارة وأنت تخطو عبر الممرّات، ترقب ما حولك بنظرات متلصّصة، تبحث عن أمارات الدّهشة في العيون المحدقة بك، لكنّك لا تلقى إلا تجاهلا ولامبالاة. لماذا على الآخرين أن يهتمّوا بما يحصل داخلك أنت؟ هذا أمر يخصّك وحدك!

لكنّ اتّصال أيّوب أعلمك أنّك مخطئ في تقديرك. لن يهتمّ بما حلّ بك إلّا من يهتمّ بأمرك من الأساس.

لم تكن قد تواصلت مع الرّفاق بعد لقائكم المشحون بالتوتّر عند نهر السّين. كان كلّ منهم قد وفى بوعده، وحرص على مشاركتك عشاءه، متداولين على خدمتك. لكنّك لم تكن في شقّتك في معظم المساءات. وحين تكون هناك، لا تفتح الباب لأحد. كانوا يتركون علب الطّعام عند الباب، فتأخذها في وقت لاحق. احترموا في اتّفاق صامت رغبتك في الوحدة.. إلى حين.

أيّوب زميلك في مهنة الطّبّ، ومعارفكما المشتركون في الكلّيّة والمستشفى لا يسعك حصرهم. ليس لديك شكّ في أنّ بعض العيون قد حدّثت بما رأت من تغيّر حالك. ولم تكن تنوي الإخفاء في مطلق الأحوال. طوال الأسابيع الاستكشافية الأولى، جهّزت نفسك للمواجهة.

لقد تقبلت ما أصبحت عليه، وعلى المحيطين بك تقبله كذلك.

كان عليك أوّلا أن تجد مسمّى لما أنت عليه.

لم تعد مؤمنا. فما أنت؟

بحثت على شبكة الانترنت عن أناس يشبهونك.. فقدوا إيمانهم، أو لم يسبق لهم الإيمان، وتعرّفت إلى فروع شجرة الملحدين المختلفة. كان هناك العدميّون والدّهريّون، والرّبوبيّون واللّادينيّون، والمادّيون.. لكنّك وجدت نفسك في سلّة «اللّاأدريّين».. لم تكن تدري بعد أيّ موقف ستتّخذ من الألوهيّة والفلسفة الكونيّة. كنت في بداية طريق بحثك، وسرّك أن تجد تصنيفا واضحا لما أنت عليه. أنت لست وحدك!

حين وجدت أيّوب يترصّدك عند مدخل الجامعة، كان جوابك جاهزا. قلت ما تعرف جيّدا أنّه سيفحمه ويجعله يبتعد عن طريقك بعض الوقت:

- لا أدري.. أنا فقط لا أدري.. هل كنتُ على ضلال أم على هدى؟ أحتاج أن أبحث أكثر.. هذه معركتي الخاصّة، ولا ينفع أن أخوضها إلّا منفردا.

كان يدرك أنّك أغزر الرّفاق حصيلة وأكثرهم علما، ولن يعلّمك شيئا لا تعلمه إن هو جادلك. لذلك فقد سلّم لك. سيسمح لك ببعض المسافة. ستخوض معركتك وترجع منتصرا.. يشدّ بقبضة قاسية على كفّك وتلتمع عبرات حسرة وعتاب في مقلتيه. ستعود كما أنت.. يكرّر على مسامعك كلمات سارة.. الله لن يضيّع إيمانك. بينما تهزّ أنت رأسك في فتور، وتعده خيرا، قبل أن تنفصلا.. لشهور.

وأنت تسير بلا وجهة في شوارع باريس القديمة، وقعت عيناك الشاردتان دون قصد على لافتة مضيئة تومض بعبارة غريبة:

«دافيدوف». اقتربت فضولا من الواجهة الزجاجية، فلاحت من ورائها عشرات الغليونات المصقولة، بتصميمات متنوعة بديعة، ومن حولها علب أنيقة لشتى أنواع التبغ الفاخر. حدّقت فيها طويلا، بانبهار وانجذاب غريبين. ثمّ، دون تردد، اقتحمت المتجر. أخذت تسأل البائعة بشغف مبتدئ غرّ، عن كيفية استعمال الغليون وطريقة تدخين تبغه. كنت تشعر أنك تحقق غرضا دفينا في لاوعيك من التمرّد على كل ما ألفته في حياتك السابقة.

خرجت من المتجر وبيدك كيس ورقي، بداخله غليون خلابا الشكل، وعدد من علب التبغ جذابة الرائحة. كنت في تلك اللّحظات قد اخترت رفيقا جديدا لخلواتك. ستجلس بعد ذلك كثيرا، مغرقا في التفكير في قضاياك العقلية، وأنت تتأمل سحب دخان التبغ التي تنفثها. استحضرت المشهد المستقبليّ في خيالك، فارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيك. سخرية من نفسك ومن أيوب وسارة! وما دخل سارة؟ بل سارة هي بيت القصيد! حدّثتك حينها نفسك الأمارة في فجور: (الغليون سيكون من الآن بديلا لك عن «سارة». سيكون الحبيب الصامت. لن يزعجك بالأسئلة، ويطاردك بالاتهامات.. والأهم، سيقبلك على ما أنت عليه، بل سيروح عنك ويمنحك متعة وفيرة). أطلقت ضحكة مسموعة. وأنت تتحسس محتويات كيس مشترواتك، ومضيت في سبيلك راضيا.

حين وصلت إلى شقّتك، أعددت جلستك بحماس. الغليون والتبغ، جهاز الحاسب الآليّ، وقهوة مركّزة، استعدادا لسهرة طويلة.

بعد أن تتلمذت طويلا على أيدي الشيوخ والتهمت كتب العلم الشرعيّ، كان أوان الاطّلاع على فكر الفصيل المناوئ قد حان. مررت بفترة أخرى من التخبط، ارتبك خلالها نظام حياتك. كان لا بدّ لك أن تحسم أمرك لتعرف من تكون في هذا الكون. كلّ قراءة تفتح في

ذهنك أبواب أسئلة جديدة ولا تسدّ شيئا ممّا سبق.. لماذا ومتى وأين وكيف؟! تملأ عقلك علامات الاستفهام والتعجّب والإنكار.

لم تكن لتقتنع بشيء ممّا يقع بين يديك. لا أنت إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. ولم تقدر أن تسلّم بكونك «لا تدري». هل تبقى من اللاأدريّين إلى الأبد؟ وما هذا العقل الألمعيّ الذي في رأسك إذن؟ إن لم يكن عليه أن يصوغ إجابات تفتّت حيرتك، فما دوره؟

كنت تقوم ليلك في صومعتك -غرفتك- متعبّدا في محراب الإلحاد. لا تنام إلا لماما. تدخّن في شراهة -وتلك عادة دخيلة عليك- لا يكاد الغليون يفارق شفتيك إلّا لتملأه بعناية من التبغ الفاخر، ذي الرائحة المعطرة بنكهة البرتقال. وتحتسي أقداح القهوة والشّاي واحدا تلو الآخر، لتحتفظ بيقظتك ما أمكنك. يغلبك النّوم قليلا، فتغفو على المكتب أو على الأرض، قد تنام ساعة أو نحوها، ثمّ تفيق مفزوعا، كأنّما قد فاتك أمر ذو بال، فتنكبّ من جديد على مهمّتك. وحين تتوسّط شمس النّهار كبد السّماء، تنتزع نفسك مكرها من بين دفاترك وأوراقك، وتقصد المستشفى الذي ما عاد يلهمك ويحمّسك، وهالات سوداء قبيحة تحفر وجنتيك وتغوص داخلها عينان ذاويتان.

بعد أربعة أشهر من العزلة الفكريّة، قرّرت أن تخطو خطوة أخرى. المناظرة.

تعبت من المناظرات الوهميّة التي تمور داخل عقلك وحده، تقدّم الحجّة وتدحضها بنفسك، وتستسلم لمتناقضات، تلفظك واحدة فتتلقّفك أخرى. ولعلّك مللت محاولات محسن اللّجوجة، فأردت أن تُبصر ما هو فاعله إن أنت فتحت أمامه باب المحاججة.

ضربت له موعدا، في شقّتك، وتجهّزت للقاء. لم يكن من الوارد أن تلقاه بهندام مهمل ولحية مشعثة، فتثبت صدق تخمينه وجواز

شفقته. حلقت وتعطّرت ولبست حلّة مكويّة بعناية، ثمّ نزلت إلى المركز التّجاريّ واقتنيت الفواكه والعصائر والمقبّلات الباردة ممّا يليق بأمسيتك الثقافية. استقبلته بحفاوة، مثل صديقين حميمين افترقا لفترة ثمّ عنّ لهما أن يستعيدا ذكريات الأمس الجميلة، واستمتعت بالدّهشة المطلّة من عينيه.

أجلسته على الكرسيّ الوحيد بالشقّة، وفضّلت أن تظلّ واقفا، مهيمنا على فضاء الغرفة بقامتك الفارعة. لم تمهله حتّى ينهي كوب العصير، وبدأت مرافعتك بحماسة. خلال ثلاث ساعات، استمرّ الجدال، حاميا في البداية، ثمّ متدرّجا نحو الفتور من طرف صديقك، بينما حافظت على اتّقاد جذوتك حتّى النهاية، حريصا على أن تكون الكلمة الأخيرة لك.

غادرك محسن مهموما، عاجزا. واحتفلت أنت بنصرك في الجولة الأولى. لكنّ مقدار الحزن داخلك يتعاظم. كانت تنبثق منك طاقة هدم هائلة. تهدم ثوابتك ومسلّماتك وتعبث بمسلّمات غيرك، دون أن تكون قادرا على بناء أفكار أخرى تحلّ محلّها وتقيم دعامات روحك المتهاوية.

ظننت أن محسن ينسى منك، لكنّه فاجأك. كلّهم فاجؤوك بأخوّتهم الصّادقة. فقد ظهر أربعتهم عند بابك بعد يومين لا غير. لعلّ محسن اجتمع بهم وأفضى إليهم بما دار بينكما من نزال غير متكافئ، فقرّروا أن يضمّوا قواهم كلّها بعضها إلى بعض، لعلّهم يعدلون الكفّة الرّاجحة! دخلوا عليك مثل المرّة السّابقة، ولكن بنيّة مختلفة. تربّعوا على السّجّاد في حلقة، وأصغوا إليك منتبهين.

لأنك تفرّغت لشهور طويلة، منكبّا على القراءة والمشاهدة والاستماع، فقد تجاوزت بمراحل قدراتهم في الجدل الفلسفي. صرت

تلتقيهم يوميا، حسب ما يسمح به وقتهم، أحيانا مع واحد أو أكثر، وفي نهاية الأسبوع يكتمل العقد.. وتكون أنت بالطبع «واسطة العقد». فتجلس منتفشا على الكرسي، والغليون بين شفتيك.. وتروح تعبث بالمسلّمات في عقولهم. تغمرك المتعة وأنت تنكبّ على تفتيت قوالب الدّين الموروثة لديهم بحجج عقلية لا يمكن لأحدهم دحضها. كنت ملك الجلسة بلا منازع، بتفوّقك اللّغوي، وذاكرتك الفذّة وإلمامك بشتّى الأحكام الشرعيّة.. بالإضافة إلى حصيلة هائلة لآلاف الساعات، قضيتها في التهام لكل ما وقع تحت يدك من مناظرات وكتب ومحاضرات أساطين الملحدين العرب والأجانب.

وفي نهاية كل جلسة، مهما كان الموضوع المثار، وبعد جدل تعلو فيه أصواتهم مدافعين باستماتة عمّا تقدّسه عقولهم وقلوبهم، كنت ترى الأعين قد راغت، والأصوات قد هدأت، وتبدأ الرؤوس في الإيماء بالموافقة على ما تقول.. وقد طفت علامات العجز والألم على ملامحهم، وقد سلّموا بالهزيمة القاسية. فتغمرك مشاعر انتصار لا توصف!

كثيرا ما كانت الجلسات تستمرّ إلى وقت متأخر جدّا من الليل، وقد بدأت حول الثامنة أو التاسعة مساءً، ويحتدم النقاش، وتسوق الحجج العقلية المدمّرة الساحقة. وفي نهاية الجلسة يغادرك ضيوفك شبه مقتنعين بأن الأديان كلها وهم، وأنت تقول في زهو: ها قد حققت شيئا.. وللسّخرية المرّة، تجتمع بهم في الجلسة التالية مباشرة، فتجدهم كما هم تماما! بتديّنهم الفطريّ أو الموروث، وأفكارهم الثابتة كالطّود، وكأنّك لم تقل حرفا واحدا على مدى جلسات كثيرة خلت!

كان غالب أشدهم ضجرا من هذا الحوار العبثي، فقال يوما يغيظك:

- ما عهدناك بخيلا يا مالك ألا تطلب لنا عشاء؟

قلت في غضب مصطنع:

- لا أراكم تستحقون ضيافة أكثر من الماء، ومن الصّنبور فحسب!

فضحك الجميع، بينما رحت تبحث في هاتفك عن أرقام المطاعم القريبة. ارتفعت الأصوات بالاقتراحات، إلى أن استقر الرأي على البيتزا، واختار كل منكم مراده. ثمّ أخذتم وقتا مستقطعا، في انتظار وصول الطلب.

قلت بضيق وغضب:

- أنتم مثل البدو الذين زارهم قسيس، قضى ليلة كاملة يبشر بالمسيحية، ويقنعهم بأنّ عيسى هو الإله، ويحضر لهم ما لذّ وطاب من طعام وشراب.. وهم يهزّون رؤوسهم، وكأنهم مقتنعون. وآخر الليل قال أحدهم للباقين: (وحدوووه!) فقال الجميع بصوت عال: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله!).

هتفت في غضب مكتوم ومزاح مفتعل:

- حرام فيكم ما أطعمه بطونكم كلّ ليلة!

فانفجروا ضاحكين وقال غالب ممازحا:

- صدّعت رؤوسنا يا شيخ.. لعن الله الفلسفة ومن اخترعها، لو كان الأمر بيدي لأصدرت قانونا يجرم الكلام فيها.. كالنازية تماما!

ضحك الرّفاق، وابتسمت أنت. هممت بالرّد لكنّك وقفت حين رنّ جرس الباب. استلمت علب البيتزا ثمّ رجعت إلى وسط الغرفة، وقلت في حسم:

- وكيف لجاهل أن يدرك قيمة ما لم يعلم؟ هي ليست لأمثالك يا غالب!

- إيـــــــه.. تركناهـا لـك أيهـا الفيلســوف العبقـري! اسـتمتع بهـا وحـدك.. هنيئـا مريئـا.. ودع لي البيـتزا!

سحب منـك غالـب العلـب الكرتونيّـة وسـط ضحـكات الرّفـاق، حـين أنهيتـم طعامكـم، التفـت إلى الجميـع وقـال وكأنـه سـيذيع سرّا:

- دعـوني أيهـا الإخـوان أقـص عليكـم حادثـة، تخـرج بهـا مـن ترهـات مالـك، وضـلالات عقلـه، التي صدّعـت رؤوسـنا لسـاعات!

ضحكـت بصفـاء قلـب من غلظـة غالـب وفظاظـة ألفاظـه، رغـم أنـه أطيبكـم سريـرة، وقلـت ممازحـا:

- سـتظل فلاحـا يـا غالـب، لـم تهذبـك باريـس، ولـم تعلمـك الإتيكيـت!

- اسـمعوا إذن.. كنـت آنـذاك في السـنة الثانيـة مـن كليـة الهندسـة المعماريـة، وكان نشـاطنا في الكليـة والحيّ كذلـك عـلى أشـدّه، وكان اسـمي مطلوبـا لـدى المباحـث لتحقيـق معـي بشـأن تهمـة توزيـع منشـورات كنـت قـد قمـت بإلصاقهـا بتكليـف مـن الحركـة الإسـلاميّة عـلى جـدران منـازل الحيّ في وقـت متأخـر مـن الليـل، ورصـدني أحـد المخبريـن، وكان يعرفـني بالاسـم، فـوشى بي، وخرجـت دوريّـة في اليـوم التـالي للقبـض عليّ مـن منـزل أهـلي، ولحسـن حظـي لـم أكـن متواجـدا في المـنزل.. وحـين عـدت وعلمـت بذلـك، أعـددت حقيبـتي عـلى عجـل وغـادرت مسرعـا، وأقمـت في شـقة أحـد الزمـلاء مـن دفعـتي، وكان مـن الطـلاب المغتربيـن، ولـم تكـن حولـه شـبهة، فليـس لـه نشـاط، فرجحـت أن شـقته آمنـة لـن يطالهـا تفتيـش.. مكثـت أسـبوعا، إلى أن داهمـوا أخـيرا الشـقة، واقتـادوني إلى مبـنى المباحـث.. أنـت تعرفـه جيـدا يـا مالـك، هـل مـا زلـت تذكـره؟

قلت في أسى:

- لا أعادها الله من أيام يا غالب.. أكمل قصتك!

- وهنـاك مكثـت يومـي الأول في الزنزانـة بصحبـة بعـض الإخـوة المعتقلين، وفي الليـل تـم اقتيـادي إلى غرفـة التحقيـق، وبعـد عدة أسئلة من الضابـط المحقـق لـم يجـد مـني إجابـة مرضيـة، فأمـر أعوانـه بإحضار «الفلقـة».. وعلّقـوا قدمـي فيهـا وأنـا ممـدّد عـلى الأرض، وحملهـا اثنـان من مساعديه، وما أن أمسـك أحدهـم العصـا ورأيتهـا في يـده تهـتز كأنّها جـان، وهـمّ بالـضرب.. شرعـت في الـصّراخ دون وعـي مـني!

انفجرتـم ضاحكـين وأنتـم تتخيّلـون المشـهد، بينمـا تابـع غالـب بمنتهـى الجديّـة:

- أتصدّقـون.. لقـد قهقـه الضّابـط المحقّـق كـما فعلتـم تمامـا، وقـال لي: تـصرخ مبكـرا قبـل الـضرب؟ فهـل سـتلزم الصّمـت ونحـن نـضرب؟ وشـاء الله أن يجعـل الظلـوم الكـذوب صادقـا في جملتـه.. أتصدّقـون يـا إخـوان، بعـد العصـا السـابعة أو الثامنـة فقـدت الإحسـاس بقدمـي تمامـا، وكأنّهـما تخدرتـا مـن شـدّة الألـم، وتوقفـت تمامـا عـن الـصّراخ، ولـم تصـدر عـني آهـة واحـدة، والـضرب مسـتمرّ، والمحقـق يواصـل العـدّ، إلى أن فوجئـت بـه يخاطـب مسـاعده: (كفـى أوقـف الـضرب.. خـذوه وارمـوه في زنزانتـه!) وتعجبـت مـن هـذه الزيـارة القصـيرة الخفيفـة، هـل تراهـم شـبعوا مـن الأنـس بي مبكـرا؟ ثـمّ تبـين لي السّـبب، فقـد كانـت إحـدى قدمـي قـد جرحـت مـن شـدّة الـضّرب، وأخـذت تـنزف! أعطـاني الأعـوان مناديـل ورقيـة ضمّـدت بهـا الجـرح، وكنـت عاجـزا تمامـا عن الوقـوف عـلى قدمـي.. فضـلا عـن السّـير إلى الزنزانـة، فاحتملـني اثنـان منهـم، أحدهـما مـن تحـت ركبتـي، والآخـر مـن أعـلى ظهـري، وسـارا بي عـلى أكتافهـما ببسـاطة نظـرا لخفـة وزني آنـذاك.

اهـتزّت رؤوسـكم أسى وألمـا، لهـدر كرامـة الرجـال، في وطـن الرجـال، وتابـع غالـب:

- المهم يا إخواني، وجدت نفسي محمولا على أكتافهما، وعيناي تتطلعان لسقف الممرّ، وشعرت ببعض الرّاحة، فاستمتعت بالإحساس للحظات، وكأني أركب مركبة.. ونسيت أين نحن، وغلبتني عادتي في عدم ترك ذكر من الأذكار في كل أعمال اليوم والليلة، فردّدت بصوت مسموع ودون قصد مني: (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون). ولم أدرك هول الكارثة التي وقعت فيها، إلا حين رأيت نفسي أطير في الهواء، وأسقط على الأرض، وصرخ في أحدهما بغضب كالمجنون: أنت تقول دعاء ركوب الدّابة يابن الـ.... ازحف على بطنك إذن إلى الزنزانة، عقابا لك حتى تتعلم الأدب وتكون عبرة لأمثالك!

انفجرتم ضاحكين -بما فيكم غالب صاحب القصة- وساد جوّ من البهجة وأنتم تعلقون، على براءته، وطيبة قلبه. بينما قلت في تعجب:

- صدق القائل: لكل امرئ من دهره ما تعوّدا!

وكانوا لا ينفكّون يعودون إليك، لا ييأسون من أمرك، رغم عنادك الواضح، وعجزهم الجليّ. صارت تلك الجلسة في غرفتك موعدهم الدّائم، لا يكادون يتخلّفون عنه إلّا لمانع قاهر. وقد كنت تعجب من حرصهم على التّواجد حولك، رغم تشبّثك بموقفك وقلّة حيلتهم أمام صلفك. ولم تكن السّهرة تحافظ على جدّيّة مسارها إلّا بقدر ما تتفانى في هجماتك الشّرسة على مسلّماتهم وعقائدهم. فما أن ترخي قبضتك وتملّ احتكار الكلمة المطوّل، حتّى تتحوّل الأجواء إلى حكايات ونكات! وقد كان حضورهم يسرّي عنك رغم كلّ شيء، ويطرد جزءًا من وحشة قلبك. ولعلّ الأوقات الوحيدة التي تنتعش خلالها روحك هي تلك التي ترخي أثناءها دفاعاتك وتستمتع بصحبتهم، وتستسلم لأنسك بالرّفقة القديمة، بدون إعمال عقل كثير.

وذات ليلة، حاولت أن تثبت لهم أن إبليس لم يكن يوما على خطأ، بل هو كائن نقي، لم يتلوّث بنفاق المنافقين ومداهنة المداهنين! بيّنت كم هو متصالح مع أفكاره ومعتقداته. قلت وأنت تحدّق في عيونهم مباشرة، تبثّهم سمومك، تريدها أن تنفذ إلى سويداء قلوبهم:

- هل تعلمون أنّ إبليس هو أول من محّص التّوحيد؟ لأنّ رفضه للسّجود لآدم كان من باب رفض عقله أن يسجد لغير الله، إجلالا وتعظيما للإله، فهل يلام على ذلك؟

ثمّ واصلت خطبتك العصماء، متطرّقا إلى قضيّة عصيانه للأمر الإلهي. ألم تكن خطيئته قدرا إلهيا وقضاء محتوما على هذا الكائن المسكين؟ أليس إبليس منفذا لإرادة إلهية بالعصيان؟ هل كان لإبليس التمرّد على المقدر ومخالفة المكتوب، ثم السّجود لآدم كما أمره الله؟

كانوا مرهقين، من طول المقارعة بالحجج، مقطوعي الأنفاس من اللّهاث خلفك وأنت تقفز برشاقة من شبهة إلى شبهة. كنت أطولهم نفسا وفخورا بذلك. تجعلهم يرفعون أذرعهم في استسلام في كلّ مرّة.. لا اقتناعا بما تقول، بل يأسا من إمكانيّة ردّك إلى الطّريق التي يرونها أقوم. فجأة قال أيّوب بمسحة حزن بعد أن تأمّلك طويلا:

- يهيّأ إليّ وأنا أستمع إليك أنّني أرى الشيطان نفسه يقف خلفك، يربّت على كتفيك تأييدا.. بل أتمثّله وقد تلبّسك وصار يطلّ من عينيك! فلم يسبق لي أن قابلت من يدافع عنه مثلما تفعل!

ضحكت حينها. ضحكت دون مرح. كم كان أيّوب صادقا في زعمه!

لم تنجح طوال سنة كاملة في تغيير قناعاتهم، وإن كنت قد نجحت في جعلهم يشكّون فيها أحيانا كثيرة.. مجرّد شكّ عابر يطرق

قلب المؤمن المطمئن فيمحّصه ويخلّفه أكثر اقتناعا واطمئنانا. وكنت تتساءل في مرارة.. لماذا لم يكن إيمانك مثلهم؟ لماذا لم يمرّ بك الشكّ كضيف خفيف الظلّ، بل استقرّ وطاب له المقام؟

-٣٠-

كنت تعرف الكثير من الملحدين في محيطك، لكن لم يبد على أحدهم همّ مثل الذي يثقل كاهلك. شأنهم شأن المؤمنين الذين عرفتهم في حياتك السابقة، مطمئنو البال إلى إلحادهم، لا يتساءلون ولا يعذّبهم التفكير! لماذا تنشغل وحدك بـ«منطقة» الحياة والموت، والخير والشرّ؟ هؤلاء إلحادهم فطريّ، مثل إيمانك الموروث.. أو خمول فكريّ وعزوف عن التأمّل في حقيقة الحياة، أو إنكار لسلطة الأديان التي فشلت مؤسّساتها البشريّة عبر التاريخ في إقناع معارضيها بعدالة قضيّتها! لم تكن تريد أن تنتمي إلى هؤلاء الملحدين السلبيّين.. إن كان من نصيبك أن تكون ملحدا، فستكون ملحدا عن قناعة.

تعرّفت إلى «أصدقائك الجدد»، ريتشارد داوكينز وستيفن هاوكينغ. أحدهما عالم بيولوجيا والثاني فيزيائيّ، يضعان العلم في مركز اهتماماتهما -مثلك تماما- ومقتنعان بأنّ العقل يملك إجابات على كلّ شيء! قرأت جلّ إنتاجهما الفكريّ، بداية من «الجين الأناني» و«صانع الساعات الأعمى» وصولا إلى «التصميم الكبير» و«وهم الإله».. فأبهرتك النتائج وأشبعت نهمك. هل اقتنعت حقًّا بتلك النظريات العلميّة التي تفسّر كلّ شيء منذ بداية الكون؟ أم أنّها عملت عمل المسكّن الذي دوّخ أسئلتك إلى حين؟ فقد كنت تحتاج إلى تهدئة عاصفة شكوكك حتّى تواصل مسارك.

لكنّك تقف متحيّرا أمام كلمات داروين، صاحب نظريّة التطوّر، وهو يتساءل عن نجاعة العقل وجدوى الثّقة فيما يفرزه من أفكار، وهو وليد الصّدفة والانتقائيّة العشوائيّة! لم تكن تقبل ذلك بأيّ حال من الأحوال. كيف يكون عقلك المتميّز بقدراته الفائقة مجرّد

عضو مادّيّ تشويه عيوب صناعة وأخطاء تكوين؟

وصلتك إنذارات متفرّقة، بلهجة تصاعديّة، من المستشفى والكلّيّة. جراحة العظام ليست ترفًا يمكنك التخلّي عنه بسهولة. عليك أن تكون على قدر المسؤوليّة حتّى لا تُفصل من البرنامج. تزامن قرار التزامك تجاه مهنة الطبّ مع استقرار عاصفتك الدّاخليّة وتسليمك للمعتقد العلميّ. أغمضت عينيك على حيرتك القديمة وركنت جانبًا نقاط الاستفهام العالقة. ستركّز الآن على: كيف تكون ملحدا مثاليّا.

في وقت ما من مرحلة دراستك الجامعيّة، كنت تردّ على الملحدين وتتحدّاهم في مناظرات علنيّة أو في لقاءات خاصّة مع قلّة من الحضور. تتذكّر الآن كيف كنت تقف شامخا، في عينيك نظرة شفقة واستصغار.. هؤلاء الخرفان الشّاردة عن القطيع، ستعيدهم إلى مكانهم في حظيرة الرّبّ الآمنة. كانت فكرتك عن الشخص الملحد أنّه ضائع وتائه، أنانيّ، وأخلاقه ناقصة أو منعدمة. والآن تريد أن تثبت لذاتك القديمة أنّك لن تكون على تلك الشاكلة المذمومة.. ستثبت -ولو متأخّرا- أنّك ستكون ملحدا صالحا كما كنت مؤمنا صالحا!

لم تنقطع عن صحبة إيرينا طيلة شهور بحثك، وإن كانت لقاءاتكما قد غدت متباعدة. لكن كلّما قابلتك في بهو المستشفى، أخذت بذراعك وانتحت بك جانبا، تغدق عليك من حضورها الممتع وحديثها المسلّي. كانت سارة قد غدت ماضيا سحيقا لا يخطر لك على بال في تلك الفترة. دفنتها في ثنايا عميقة من ذاكرتك، وأهلت عليها تراب النّسيان. وإيرينا كانت تشغل فراغها بجدارة وحرفيّة. إنّها قطعة من السّكر تنسي أيّ رجل حماقاته الماضية مع غيرها من النّساء. كانت كذلك، قبل أن تملّها، أو تدرك أنّك تسليتها المؤقّتة!

إيرينا تسبقك بسنوات ضوئيّة من حيث التجربة والمهارات الاجتماعيّة. أنت قد عشت تجاربك الخاصّة التي لا تخطر على قلب

إيرينا قط -السجن والنضال الشبابي والهجرة السرّيّة والجهاد- لكن تنقصك الخبرة الحياتيّة الكافية لتندمج في عالمك الجديد. لذلك استسلمت لخطواتها تقودك، في حلبة الرّقص، وفي المحافل الاجتماعيّة والشّهوات الجامحة. تعلم أنّها في مهمّة معك، ترضي غريزة أمومة ما، تأخذ بيدك إلى عالمها وتعلّمك أبجديات الحياة الحرّة المنفتحة. كانت تكتفي بدورها الإرشاديّ، ويكفيها فخرا أن تكون «مرّتك الأولى» لأيّ شيء على يديها. وما أكثر ما علّمتك إيّاه! الرّقص، القمار والعلاقات الجسديّة!

لم يكن انجرافك وراء الشهوات إلّا اندفاعا مؤقتا.. مثل مراهق يكتشف العالم للمرّة الأولى. ثمّ ما لبثت أن سيطرت على قاربك ووجدت توازنك على جانب الوادي، حتّى لا يأخذك التيّار بعيدا، إلى حيث الشلالات الهادرة والهاوية السّحيقة. قرّرت أن تترك التّدخين الذي أدمنته في ليالي سهرك باحثا عن الحقيقة، فأنت طبيب في نهاية المطاف، والصحّة شاغلك الأساسيّ. إنّها مسألة منطق ليس إلّا. أمّا الكحول، فقليل منه من حين إلى آخر لا يضرّ. ستحرص على ألّا تثمل ويغيب عقلك وتخدّر حواسّك، حتّى يكون سلوكك قويما متّزنا، مثل أيّ مواطن صالح.

تكرّر لنفسك في إصرار: الدّين لا علاقة له بأخلاقك! ستحتفظ بأخلاقك رغم غياب القناعة الدينيّة. كأنّما تحاول أن تقنع نفسك أوّلا.. تثبت نظريّة سبق أن أعلنت فشلها في بداية تعرّفك على ذاتك الجديدة.

بعد سنة أولى من التذبذب والتردّد والاكتشاف والبحث، بدأت حياتك تستقرّ. أصبحت واثقا ممّا تريده. أمّا عائلتك، فقد أبقيت كلّ شيء سرّا عنهم، إلى حين. ما عدا أمر انفصالك عن سارة. انقطع عنك محسن وغالب وحاتم، بعد أن يئسوا من إمكان رجعتك إليهم كما عرفوك. وحده أيّوب، طاله نصيب من اسمه، فصبر معك صبر

أيوب. كان يتردّد عليك من حين إلى آخر في المستشفى، فتحرص على أن تلقاه بترحاب، وتبالغ في إظهار سعادتك وارتياحك لما آل إليه أمرك. ورغم اجتهادك لتثبت أنّ كلّ شيء على ما يرام، فقد كانت تغيظك نظرة الأسف والشّفقة في عينيه.

نفس النّظرة التي كنت تلقيها على الملحدين الذين تناظرهم.

خراف الرّبّ الشّاردة!

وذات مرّة، قال وهو يودّعك عند باب مكتبك:

- من تراه الخاسر بيننا؟

حدّقت فيه في استغراب. عن أيّ خسارة يتحدّث؟

- هل فكّرت لبرهة.. ما الذي تجنيه من إلحادك؟ ما الذي يضيفه نسف المعتقدات الدّينيّة لوجودك؟ هل يستحقّ منك كلّ هذا التّفاني؟ في المقابل.. ما الذي تخسره، لو تبيّن أنّ الإله حقّ، والجنّة والنّار حقّ؟ من منّا أعظم ندما يوم لا ينفع ندم؟

هززت كتفيك حينها في ضيق وقلت:

- ألا يجب أن أقتنع بوجود تلك الأشياء أوّلا لأخشى النّدم لاحقا؟

لكنّك لم تكن بتلك الثّقة في جوابك، وأنت الضّليع بمسائل الإحصاء والاحتمالات. لم يغب عن ذهنك «رهان باسكال».. «أن تؤمن بالله ويكون موجودا، فستخلد في الجنّة، وهذا ربح غير محدود.. فإذا لم يكن موجودا فلن تجزى شيئا وتلك خسارة محدودة. أمّا ألا تؤمن بالله ويكون موجودا، فستخلد في جهنّم وتلك خسارة غير محدودة، فإن لم يكن موجودا فلن تعاقب، لكنّك تكون قد عشت حياتك كما تشاء، وذلك ربح محدود»! بتحليل رياضي بحت، يبدو الإيمان بالله الخيار الأمن.. يجلب الرّبح ولا خسارة فيه. لكنك لم ترد أن تمعن التّفكير في خسارتك المرجّحة. ليس وأنت لم ترسم صورة مكتملة الأركان بعد عمّا تريد أن تكون عليه.

الفصل السابع

- نكران -

"Remove Watermark Now"

-١-

حين رأيت ريم، فاجأك إحساس شبيه بما عرفته حين رأيت سارة أوّل مرّة.

إحساس عجيب بالألفة، بين غريبين متشابهين. كانت تشبهك كما شابهت سارة ذاتك القديمة. راودك ذات الاحتياج العميق للفارق المتعلّق بقشّة. كما انتشلتك سارة في وقت سابق من إحباطك المزمن وفراغك العاطفيّ، فقد امتدّت كفّ ريم لتخرجك من بوتقة البحث التي تصهرك وتعجنك بقسوة. حين التقيتها، قرّرت أنّك تريد أن تستريح لبعض الوقت، وتستمتع فقط برفقتها.

كان لإيرينا الفضل في لقائكما الأوّل. في المطعم الصّاخب الذي اجتمعت فيه شلّة الشّهر رأيتها. كانت شلّة إيرينا تتغيّر كلّ مرّة صاحبتها فيها، كأنّ معارفها وأصدقاءها لا حصر لهم ولا عدد. تختلف الوجوه في كلّ مرّة، ويبقى الجوّ المبهج المشتعل عنصرا قائما. جلست في تلك الأمسية عند طرف المائدة، تصغي في صمت لثرثرة جيرانك، وتلوك لقيمات «الستيك» المشويّ ببطء. على الطّرف الآخر جلست حسناء ذات ملامح شرقيّة، هادئة هي الأخرى، تبتسم من حين لآخر وتهزّ رأسها مجاملة. بدت لك مألوفة من أوّل نظرة، بخصلاتها الثائرة التي تلتفّ حول عنقها وتحيط وجهها الصّغير النّاعم بهالة كستنائية محبّبة، وعينيها الواسعتين الجريئتين، وبشرتها القمحيّة الصّافية. فلبثت تحدّق فيها لبرهة، وحين انتبهت لنظراتك خفضت عينيك حرجا وتظاهرت بالانهماك. يستحضر عقلك مشهدا مشابها، مشهد نظرتك الأولى لسارة في مدرّج الجامعة. لكنّ ريم من

طينة أخرى، تنسيك الذكريات البعيدة وهي تقترب منك على منصّة الرّقص، وتبادرك في مرح:

- أعرف أنّك لا تغازلني بنظراتك. أبدو وجها مألوفا، أليس كذلك؟ لست شخصيّة عامّة ولكنّي أظهر على التلفاز من حين لآخر!

ريم مراسلة صحفيّة لقناة «سي نيوز»، تتمتّع بحضور قويّ وشخصيّة مرحة. تشي بسرعة وقار سارة الزّائد عن الحدّ، بينما ريم تدور أمامك حول نفسها منسجمة مع نسق الموسيقى. تحدّثتما كثيرا تلك الليلة، لا شيء شخصيّ، مجرّد عموميّات لبقة بين غريبين متآلفين. سألتك بدون اهتمام:

- هل أنت صديق إيرينا؟

نفيت التّهمة بسرعة. لست صديق أحد. تعلن أنّك متاح وغير مرتبط. لكنّها ضحكت من ردّة فعلك، وتاهت عنك بين الرّاقصين. لم تعرف تلك الليلة متى انصرفت وبرفقة من، لكنّها اختفت ولم تظهر بقيّة السّهرة، مثل سندريلا لم تخلّف خفّا زجاجيّا ولا من أيّ نوع آخر. ظللت تلوم نفسك طويلا لأنّك لم تطلب رقم هاتفها! لم تجرؤ على طلبه من إيرينا، لكنّك عدت مرّات كثيرة إلى المطعم ذاته وحيدا في الأيّام التي تلت، علّك تلقاها صدفة.. دون فائدة.

شرعت منذ ذلك الحين في مشاهدة محطّة عملها، «سي نيوز»، التي لم يسبق لك الاهتمام بما تقدّم. وبحثت في جنون عن صفحتها الشخصيّة، معتمدا على اسمها الأوّل وحده.. وسقطت في متاهة لأيّام طويلة، حتّى أصابك اليأس. فتجرّأت، وسألت إيرينا عنها. تذكر النّظرات التي طالعتك بها، صمتها المتعمّد، كأنّها تحاول التذكّر، بينما تكاد تجزم أنّها تتّخذ قرارها، هل عليها إخبارك أم التكتّم، ثمّ لهجتها الباردة وهي تشيح بوجهها في عدم اهتمام:

- لا أذكر! لا أظنّني أعرفها.. الأصدقاء يحضرون أصدقاءهم أيضا.. لا أعرف معظم الحاضرين!

انصرفت عنها في خيبة. هل ضايق إيرينا اهتمامك المفاجئ بأنثى غيرها؟ تعلم جيّدا أنّك لم تكن محلّ اهتمام إيرينا ذاتها، ولم يكن هناك من داع لغيرتها الغريبة، لكنّها حسبتك لفترة لعبتها، ولم ترد التنازل عنك لغيرها. بقيت متردّدا لفترة.. هل تبتعد عن إيرينا التي أصبحت تتصرّف بغرابة، أم تواظب على مرافقتها علّك تلقى ريم مجدّدا بواسطتها؟

لكنّ الصّدفة كانت حليفك غير المتوقّع هذه المرّة!

كنت مناوب الطّوارئ نهاية ذلك الأسبوع، ولم يكن أحد غيرك في قسم جراحة العظام. رأيتها تدخل عليك فجأة، بعيون منتفخة دمعا، مستندة إلى الممرّضة التي تلقّفتها عند المدخل وهي تنزل من سيّارة الأجرة. كيف تعرّفت من نظرة واحدة إلى الحسناء ذات العيون المرسومة بدقّة بقلم الكحل والشّفتين اللّامعتين تحت إضاءة المطعم الخافتة، في الفتاة الباكية ذات الوجه الخالي من الأصباغ التي دخلت عليك جناح الطوارئ ذلك الصّباح؟ هرولت نحوها في لهفة وأنت لا تصدّق أنّها هي هي! ورغم الشكّ الذي راودك بأن تكون مخطئا، فإنّك اخترت أن تصدّق قلبك، وتحتضن الأمل الجميل الذي طرق بابك.

لم يكن الظّرف ملائما لعتاب أو استرجاع ذكريات، أو حتّى مجرّد التّثبّت من هويّتها! كشفت بسرعة على ساقها، ثمّ تنهّدت. كان مجرّد شرخ يحتاج جبيرة ولا يستدعي الجراحة، فطمأنتها وقمت باللّازم.

حين انتهيت من عملك، كانت قد هدأت وبدت أكثر توازنا. تحدّثت بتلقائيّة عن حادثة سقوطها على درج العمارة بينما كانت

تخرج لحصّة الرّكض اليوميّة. كانت ترتدي بدلة رياضيّة وتربط شعرها الشّبط في شكل ذيل حصان، والحديث يتدفّق من شفتيها ناعما ومريحا. خلال دقائق، تأكّد إليك أنّك قد عثرت على سندريلا الخاصّة بك. ثمّ رأيتها تتوقّف فجأة وتحدّق فيك غير مصدّقة.

- أنت مالك! صديق إيرينا!

ابتسمتْ وقد تعرّفتْ إليك أخيرا. لقد تطلّب الأمر بعض الوقت من طرفها، ونظرة واحدة من طرفك. لكنّك لا تلومها، فهي لاهية عنك بألم ساقها. واصلتْ هي في حماس:

- أنت طبيب إذن! هذا مدهش!

وددت لو تخبرها كم افتقدتها، وكم بحثت عنها.. لكنّك لم ترد إحراجها أو إظهار تهافتك. لكنّ الدردشة استمرّت بينكما طويلا، ووجدت نفسك تتعمّد التلكّؤ لتطيل عمر الجلسة. وكأنّما انتبهت إلى ما تفعله، فقد قالت بنفس العفويّة التي أسرتك وهي تخرج هاتفها:

- هات رقمك، من الأفضل أن نواصل الحديث خارج أوقات عملك!

ضحكت من جرأتها ووافقتها الرّأي دون تردّد. لوّحت لك وهي تغادر حجرة الفحص، متحاملة على رجل واحدة وقالت:

- انتظر اتّصالي!

وجاء اتّصالها مساء اليوم ذاته كما وعدت.

عرّفتك على نفسها أكثر، فرنسيّة من أصل مغربيّ، في التاسعة والعشرين من عمرها.. بينما تحتفل أنت بسنتك التاسعة والثلاثين خلال شهور قليلة! لماذا تنجذب باستمرار إلى فتيات يصغرنك بعقد أو أكثر؟ ما الخطأ في إيرينا؟ ألم تكن أقرب إليك سنّا وتجربة في الحياة؟ ربّما كنت ترى نفسك غرّا ساذجا أمامها، في حين تجدك

سارة وريم رجلًا ناضجًا؟ لكنّ ريم تكبر سارة بثلاث سنوات كاملة. وهي المقتربة الآن من عتبة الثلاثين لا شكّ في كونها أكثر مسؤوليّة وخبرة من الفتاة ذات الواحد والعشرين ربيعًا التي كانتها سارة حين تعرّفت إليها.. وإن كنت لا تشكّ في نضج سارة المبكّر!

بعد حوالي شهر من الاتّصالات المتفرّقة، أخبرتك باستئنافها العمل في المحطّة. ستحرص منذ ذلك الحين على متابعة فقراتها على القناة الإخباريّة، وقد أصبحت عالمًا بمواعيدها الدّقيقة. كانت تبدو جدّيّة ورسميّة إلى حدّ بعيد وهي تمسك المصدح وتسرد نشريّتها بكلمات فصيحة منتقاة وتهزّ رأسها في وقار بعد كلّ تعقيب من مقدّم الفقرة. لكنّك تلمح في طرف عينها شقاوة لا تقاوم، تشدّك إليها كلّ يوم أكثر.

كانت ريم هديّة غير متوقّعة في وقت كنت فيه في أمسّ الحاجة إلى رفيق.

بعد فترة، تحدّثتما عن ميولكما الفكريّة وقناعاتكما الدينيّة، فاكتشفت بارتياح كبير أنّها هي الأخرى قد تركت دينها الموروث وآمنت أنّ العلم يقدّم كلّ الإجابات على حقائق الكون. لم تبحر في نقاشك معها إلى المناطق الملغومة التي سبق أن ابتلعتك ولم تجد لها حلًّا بعد، لكنّها دعتك إلى مشاركتها هواية مشاهدة الأشرطة الوثائقيّة. ستكون أوّل زيارة لشقّتها، بعد شهرين من لقائكما الأوّل، لمتابعة عرض عن «نظرية الأوتار الفائقة والأكوان المتعددة»!

كنت تدهش كلّ يوم أكثر، وأنت تغوص في عالمها أعمق. ريم لا تشرب ولا تدخّن. ليس لقناعة ما، ولكن لأنّها تهتمّ لصحّتها. ريم تمارس رياضة الجري واليوغا بانتظام، وتتناول وجبات خفيفة وصحّيّة معظم الوقت. وجباتها محضّرة منزليًّا غالبًا أو من مطاعم

موثوقة حين يستدعي الأمر. ريم مثقفة ثقافة غزيرة وعالية، مهتمّة بأنواع المعارف كلّها دون تمييز، تصنع فكرتها وموقفها الخاصّين من كل شيء تقريبا.. الفلك وعلم الأحياء والجيولوجيا والفيزياء والتاريخ والرّياضيّات والأدب! كنت تعيد اكتشاف نفسك من خلالها وتسترجع شغفك القديم الذي سرقتك منه دراسة الطبّ. وأعدت بفضلها هيكلة عالمك الخاصّ ورمّمت نظام حياتك الذي تبعثر في فترات انقطاعك عن محيطك ولم تعد ترتيبه منذ ذلك الحين.

متى عبرتما حدود الصّداقة البريئة وخطوتما في منطقة الحبّ؟ ربّما كان الأمر جليّا بالنّسبة إليك منذ النّظرة الأولى. فلطالما سقطت في الهوى من نظرة! لكنّها أخذت الوقت الكافي لتختبر مشاعرها، وأنت لم تستعجلها. حتّى قالت ذات يوم بأسلوبها العفويّ المعهود:

- عليّ أن أعترف.. لقد أدمنت أحاديثنا على الهاتف ولقاءنا الأسبوعيّ! أنت لا تنوي تركي في القريب، أليس كذلك؟ وليست لديك زوجة وأطفال تخفيهما عنّي؟

ضحكت كثيرا، كما تضحك دائما أمام تصريحاتها الجادّة التي ترسلها في قالب نكتة! ثمّ طمأنتها إلى أنك لن تتركها أبدا، وألّا تاريخ خفيّا لديك تحجبه عنها. ستتخذ بعد ذلك لقاءاتكما طابعا أكثر حميميّة وانفتاحا. كان كلّ منكما منشغلا بعمله طيلة الأسبوع، فتتحادثان على الهاتف لساعة أو نحوها خلال السّهرة، وتمضيان معا كامل عطلة نهاية الأسبوع. تتسكّعان أمسية السّبت في أحياء باريس الصّاخبة وتنجرفان مع تيّار مدينة الأنوار سريع النّسق، ثمّ تسترخيان نهار الأحد، تتمدّدان على العشب النّديّ في إحدى الحدائق وتستقبلان أشعّة الشّمس بحفاوة، أو تحتسيان الشوكلاتة السّاخنة والفشار أمام شاشتها العملاقة، إن توارت الخيوط الذهبيّة وراء السّحب.

كان الوقت مع ريم يتسرّب دون أن تشعر، وكان إحساسك بها يتعمّق كلّ يوم أكثر. تستعذب قربها، واهتمامها. سارة لم تكن يوما بذلك القرب! كانت حواجز الدّين والعرف تباعد بينكما وتخلق العراقيل. تراقب كلماتك وحركاتك ونظراتك، حتّى لا تقترف ما لا يجوز للخاطب! لقد تحرّرت من كلّ ذلك الآن. كم كانت مريحة حياة الحريّة!

كنتما تجلسان معا على الأريكة الوثيرة في شقّتها، حين سألتها باهتمام:

- ما هو حلم البنت الصغيرة السّاكنة فيك؟

هتفت دون تفكير:

- أن أسافر حول العالم!

- أيّ جزء من العالم بالضبط؟

بحثت على مكتبها عن خريطة قديمة، فردتها على الطاولة المنخفضة أمامكما وانحنت تعلّم بالقلم:

- زرت معظم بلدان أوروبا وأمريكا، وكانت لي رحلات عمل إلى الخليج والشرق الأوسط.. كذلك شمال إفريقيا.. أمّا الشرق البعيد فلا أعرف عنه شيئا!

قلت في حماس وأنت تأخذ منها القلم:

- من أين نبدأ؟

بادلتك نظرة طويلة مستفسرة. هل تتحدّثان الآن عن مشروع سفر مشترك؟ أم هو مجرّد عبث طفولي؟ أغرتها نظرتك الجادّة فسرت الحماسة إليها. أشارت بإصبعها على نقاط متتالية:

- الهند.. إندونيسيا.. الصين.. تركيا!

- لماذا هذه البلدان بالذّات؟

سألتها وأنت ترسم دوائر على النقاط التي أشارت إليها.

- الهند، لأنّني أحبّ رقصهم الحيويّ في جماعات، وملابس «الساري» الملوّنة المبهجة، وطعامهم الحارّ المليء بالبهارات.. الصّين، بلد مثل قارّة، يقال أنّ أكثر المشاهد الطبيعيّة خلبا للألباب تقبع هناك بين جباله وأنهاره.. إندونيسيا، الشّواطئ السّاحرة وركوب الفيلة، والغوص مع الأسماك الملوّنة، وتنوّع ثقافيّ لأكثر من ثمانية عشر ألف جزيرة، ذلك كاف لجعلها أكثر بلدان العالم إثارة.. وأخيرا تركيا، البلد الواقع بين آسيا وأوروبا، الجامع بين الثقافتين المتناقضتين والمتكاملتين.. أشعر أنّ رحلة على امتداد شهرين تشمل هذه المحطّات الأربع ستكون تجربة حياتيّة مميّزة!

تأمّلت الخريطة لبرهة، ثمّ رفعت عينيك إليها وقلت بمرح:

- أعتقد أنّه بإمكاني أن آخذ إجازة من المستشفى لشهري يونيو ويوليو.. هل يبدو هذا مناسبا؟

- هل أنت جادّ؟

قفزت لتعانقك في حماس ثمّ أخذت تصفّق في جذل طفلة. أمامكما أربعة أشهر لتحضّرا لتلك الرّحلة. كنت مستعدّا لعمل أيّ شيء يدخل السّرور إلى قلبها، وهي التي أهدتك سعادة صافية خالية من المنغّصات. كنتما متوافقين عقليّا، منسجمين فكريّا وروحيّا، وتجمعكما عاطفة جيّاشة متكافئة ومعطاءة تجزم أنّ معينها لن ينضب. كنت تعيش على قمّة منحنى السّعادة في تلك الفترة، ولم تكن تدرك أنّ المنحدر قريب.. قريب جدّا.

-٢٠-

مثلما كانت سارة الشّمس الّتي تدور في فلكها، أصبحت ريم المجرّة كلها! بل الكون بأسره! بل الأكوان المتعدّدة برمّتها!

لكنّك تعلّمت من تجربتك مع سارة ألا تثقل كاهل رفيقتك بتبعيّتك العاطفيّة. ستقاوم باستماتة وسوستك القهريّة حين يضطرّها عملها إلى السّفر في مهمّة صحفيّة ما. وستدفع عنك الهلاوس كلّما رنّ هاتفها طويلا على الجانب الآخر دون ردّ. فكّرت في تلك الآونة أنّه من الحكيم أن تقصد طبيبا نفسيّا ليساعدك على الخلاص من ارتباطك المرضيّ بمن تحبّ. لكنّك لم تقدم على الخطوة. بدل ذلك، اطّلعت على مراجع علميّة في مكتبة الكليّة وقرّرت اتّباع خطوات علاجك الخاصّ.

لكنّك لم تدرك أنّ كلّ شيء سينهار في تلك اللّيلة.

كانت ليلة سبت أخرى، قضّيتها مع ريم تتسكّعان على ضفاف نهر السّين. كنت نشطا ومستيقظا، لم تشرب كأسا واحدة منذ عرفت ريم وانقطعت عن رفقة إيرينا. كانت ريم تحدّثك عن الرّحلة الّتي تنويان القيام بها معا.. منذ تلك الأمسية أمام خريطة مكتبها وهي تعكف على التّخطيط! قالت لك حينها: اترك التّفاصيل لي! وقد فعلت. كانت قد حدّدت مسار الرّحلة والفترة اللازمة لاستكشاف كلّ بلد ومدينة ومحطّة.. وهي في تواصل مستمرّ مع شركات الطّيران ووكالات الأسفار ومكاتب الحجز. لكنّها تحتفظ بالمفاجأة لنفسها.

- هات هاتفك وأغمض عينيك!

ضحكت، ثمّ أخرجت هاتفك وتركتها تفعل ما تشاء. مغمض

العينين، استمعت إلى نقرات أصابعها النّحيلة على لوحة مفاتيحك، وتخيّلت ابتسامتها الشقيّة وهي منكبّة على ترتيب مقلب ما لا تدرك كنهه بعد. في الخلفيّة، تصلك ضوضاء الشّارع وأبواق السيّارات ونشاز من الألحان الصّادرة عن محلّات عدّة.

- هاك.. أصبح كلّ شيء جاهزا!

فتحت عينيك، أخذت منها الهاتف وتطلّعت إلى شاشته في حيرة.

- مفاجأة! انتظر حتّى...

كانت تلك آخر كلمات ريم، قبل أن تختفي فجأة من أمامك!

هل نبت لها جناحان فطارت؟ هل انطلقت بفعل محرّك ما إلى الأعلى مثل مكّوك فضائيّ؟ لا تدري! ريم اختفت، حلّقت في الهواء ثمّ هبطت بعيدا في الظّلام، وأنت تجمّدت مكانك لا تعي شيئا من هول الصّدمة. لم يتنبه أحدكما إلى السيّارة المسرعة التي أقبلت دون إنذار لتطوي الرّصيف وتقتلع البلاط وعمود الإنارة، وتحصد في طريقها ريم والحاجز المعدنيّ، وتنتهي في قعر السّين! حلّقت ريم، وحلّقت السيّارة، ثمّ ارتطمت كلتاهما بصفحة المياه بلطخة عنيفة، وأنت تقف مكانك، بكفّك هاتفك الذي كان معها منذ ثوان، وعلى وجهك تعبير أبله.

هل تنتهي الحياة هكذا فجأة؟ هل تتبخّر السّعادة كأنّما لم تكن يوما؟ ريم التي كانت طوق نجاتك من نفسك، تتوسّل طوق نجاة لتعيش، ولا مجيب! تقترب من الحاجز المحطّم مع المقتربين والفضوليّين، ويعلو صراخك هلعا ورعبا وجنونا. هل يجدي أن تلقي بنفسك وراءها؟ ألم تكن قد وقفت هذا الموقف منذ سنة ونصف، وتساءلت كيف يكون السّقوط من هذا العلوّ الشّاهق.. هل تلقى حتفك أم تنجو؟ ريم ستخبرك الآن، ستحدّثك عن تجربة كيف يكون

القفز إلى النّهر، مدفوعا بقوّة سيّارة عجلى! ليتها تعود وتخبرك، بأنّها تجربة قاسية، لكنّك ستعيش بعدها. ليتها تفعل!

تميل باتّجاه النهر وتصرخ ملء رئتيك باسمها: ريـــــمـ! تبحث عيناك عنها في ظلمات ثلاث، ظلمة الليل وظلمة الماء وظلمة الموت! تبصرها، أو تظنّ أنك تفعل. تنبثق رأس من العتمة لتشقّ سطح النهر، تقاوم يد الموت التي تحاول ابتلاعها. تتعكّر صفحة الماء للحظات، وتلوّح كفّ ترجو النجدة. تصرخ من جديد:

- إنّها هناك! هناك! هل من حبل؟ طوق نجاة؟ أيّ شيء؟

تتلفّت حولك في تشوّش، تبحث عن شيء.. أيّ شيء بوسعه مساعدتها، فتقابلك وجوه متبلّدة وملامح عطّلتها الدّهشة والبلاهة. تعود إلى النّهر مرّة أخرى، تحاول ألّا تضيّع ريم التي يسحبها التّيار لتمضي مع مجرى النّهر. تركض متابعا حركتها، إنّها عند قاعدة الجسر، تحاول التعلّق بأعمدته المرتفعة.. لكنّ إرادتها تضعف ومقاومتها تنهار. تعرف أنّها سبّاحة ماهرة، لكنّ السقطة أفقدتها توازنها. تلوّح مرّة أخرى، كأنّما هي تودّعك.. وتودّع الدّنيا. ثمّ غاصت بعيدا. ضاعت منك ريم في العتمة، وضعت في نوبة هيستيريا.

وصلت فرقة الإنقاذ بعد دقائق حسبتها دهرا، وتمثّلت خلالها كلّ النّهايات الممكنة، أنت الطبيب المناوب في الطّوارئ لساعات لا تحصى، وقد مرّت أمام عينيك حالات شتّى، بنهايات مأساويّة أو معجزة! راقبت الغوّاصين يتجهّزون ويقفزون إلى الماء، فيبتلعهم عمق النّهر.. فابتهلت في صمت، يا ربّ، يا الله، أنقذها!

أيّ إله كنت تناجي وأنت الذي كفرت بالدّيانات كلّها؟ ألم تؤمن بدين العلم وحده؟ وعلمك يقول في تلك اللّحظة أنّ كلّ الظروف تنبئ بالكارثة المحقّقة. لم تكن حادثة سيّارة وحدها، بل سقوط

من علوّ، وربّما نزيف! الإحصاءات النّظريّة والاحتمالات العلميّة كلّها تقول أنّ أمل ريم بالنّجاة ضئيل! وكلّ ثانية تمرّ ترجّح كفّة النّهاية. كنت تحتاج إلى معجزة! مثل معجزات الأنبياء والصّالحين.. وأنت لم تكن نبيًا ولا قريبا من الصّلاح، ومع ذلك تدعو، تدعو بلسان لا يفتر ويتفتّت قلبك داخلك جزعا. حالك مثل الذين (دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ). لم تكن تدرك ما تقول ولا ما تفعل، تفجّرت الكلمات على شفتيك دون وعي، من مخزون قديم ظننت نفسك فقدته من الأدعية المأثورة والابتهالات.. وجدت لسانك يجري بها مسترسلا دون توقّف، بينما تتابع عيناك الجاحظتان الحركة الدؤوبة حول موقع الحادثة.

بعد انتظار كئيب، أخذ المنقذون يسحبون الأجساد واحدا إثر الآخر.. بنتان وولد في سنّ المراهقة، لا يتجاوز أكبرهم سنّ العشرين. أخرجوهم من السّيّارة الغارقة قبل أن تغمرها المياه تماما. بدا الشّاب في وعيه، بينما أغمي على البنتين. ثمّ ظهر جسد ريم محمولا على الأعناق! الغوّاصون يلفّون الحبل حول خصرها، ويبدأ رفعها إلى أعلى. تتابعهم بعينين جزعتين، رافضا التّسليم لقضاء الله وقدره. أيّ قضاء وأيّ قدر؟ يستنكر عقلك. هل يكون هذا عقاب الله لك، لجحودك وكفرك بنعمه؟ ينفجر صمّام القمقم الذي سبق لك أن أحكمت إيصاده على عفاريت الأسئلة، ويخرج المارد شامخا، مسيطرا على المكان. لا مهرب لك الآن!

روحك تنازع الموت.. ففي داخلك يقين بأنّ في موت ريم موتك.. وعقلك ينازع موتا آخر، وقد أغرقتك حساباتك القديمة التي أهملت تصفيتها !

يتناهى إليك صوت مراسلة تلفزيونية على قيد أمتار قليلة وراءك، تنقل تفاصيل الحادثة على الهواء مباشرة إلى محطّة ما. كان يجب

أن تكون ريم من تحصل على السّبق الصحفيّ! ألم تكن هي من عاشت الحادثة بنفسها؟ تنهمر العبرات من مقلتيك تباعا في زخّات سخيّة، وجثّتها المسترخية متدليّة الأطراف، مزرقّة البشرة، تقترب من السّطح، مستسلمة وضعيفة، لا حول لها ولا قوّة. تبتلع الغصّة، وتمدّ كفّك باتّجاهها، يداعبك أمل بأنّها لا تزال على قيد الحياة!

شعرت بالأذرع تبعدك، وتعليمات فرقة الإنقاذ الصّارمة تدعوك إلى فسح المجال. تراجعت خطوتين، بينما تلقّفتها محفّة الطواري، وهرول المنقذون بها إلى سيّارة الإسعاف التي صدحت صافرتها على الفور. حضرت نباهتك فجأة بعد شبه غياب عن الوعي، فاندفعت باتّجاه السيّارة صارخا:

- الضحيّة تهمّني!

كنت في حال يرق لها من التأثر، لذلك لم يطلب أحدهم التأكد من هويّتك وسمحوا لك بمرافقتها إلى المستشفى. راقبت من وراء ضباب دموعك الإسعافات الأوّليّة التي أجريت لريم.. التنفّس الاصطناعيّ، وتدليك الصّدر، ثمّ رأيتها تسعل وتلفظ الماء الذي ملأ رئتيها!

- حمدا لله!

- من هنا.. قناع الأكسجين!

يغمرك الحماس على حين غرّة. هل حصلت المعجزة؟

تركض مع المحفّة داخل أروقة جناح الطّواري في مستشفى «فندق الربّ» على «جزيرة المدينة» التي تتوسّط مجرى السّين وتقسمه إلى مسارين. وفي نهاية الممرّ، تختفي المحفّة وراء باب موصد ولا يسمح لك بالدّخول. تستظهر ببطاقتك المهنيّة.

- أنا طبيب!

بلا فائدة. ليست لديك أيّ صلاحيّات هنا.

في غرفة الانتظار، تكفنّ على نفسك، مثل المحتضر، ترقّب خروج ريم تمشي على قدميها! يتوافد أهالي بقيّة الضحايا دامعين. كان السّائق المتهوّر على قيد الحياة، في حين لم تستيقظ البنتان المرافقتان له. مراهق يحتفل بحصوله على رخصة القيادة منذ أسبوع واحد، أخذ سيّارة والده ودعا صديقتيه للاحتفال.. لتنتهي الحفلة في قعر الشّين. ما ذنب ريم في كلّ هذا؟ لماذا كانت تقف في مسار السيّارة، وليس أنت؟ وكيف وصلت السّيارة إليها وهي تقف على الرّصيف؟ كنتما يقظين، لمّا تحتسيا شرابا، وكذلك السّائق، لم يكن مخمورا. كنت مغمض العينين وهاتفك بين كفّيها، حاسّة السّمع لديك مركّزة، تستقرئ بها ما يدور حولك. لقد أصغيت إلى ضوضاء الشّارع، ولم تكن هناك فرملة ولا تنبيه لقرب حدوث مصيبة. لم يكن هناك من سبب منطقيّ للحادثة!

غير أنّه قضاء الله وقدره!

تصيبك الفكرة التي تعود إليك كلّ مرّة دون كلل بالجنون. تحاول أن تتجاهل ضجيج الأسئلة في رأسك.. لقد استيقظت ريم، وهذا يكفي! لكنّك تستحضر نظراتها الزّائغة وبشرتها المزرقّة فينقبض صدرك. ستكون بخير.. يجب أن تكون.

تقتلع نفسك من المقعد وتقاوم الشّرنقة التي تحيط بعقلك، تسرع في اتّجاه الطبيب الذي ظهر في آخر الممرّ. تندفع ضمن المندفعين من الأهالي السّائلين عن مصير ذويهم. يعلن بصوت واضح مصائر الفتيات الثلاث. إحداهنّ استيقظت، والثانية توفّيت متأثّرة بجراحها، بينما سقطت الثالثة في غيبوبة! تتسارع نبضاتك وتدقّ في رأسك، يا الله، أيّهنّ ريم؟

- المتوفاة اسمها جولي.. هناك سلسلة تحمل اسمها.

تنهار السّيّدة الواقفة إلى جوارك أرضا ويرتفع صراخها باسم ابنتها، وحيدتها، زهرة عمرها.. بينما تتشلها أذرع الأقارب المواسية. تختنق أنت بدموع الأمل.. لم يكن هناك من داع للقلق. أولم تفتح عينيها وتلفظ الماء؟

- يمكنكم المجيء لرؤية البنت الصّاحية، لقد فتحت عينيها.. لكنّها لا تزال تحت الصّدمة.

يندفع جمعكم عبر الممرّ.. أنت وعائلة الضحيّة الأخرى، وكلّ يمنّي نفسه بأن تكون من يهمّه أمرها هي النّاجية! وراء الحاجز الزّجاجيّ، تظهر أسرّة العناية المركّزة متوازية إلى نهاية الغرفة.

- السّرير الثاني من اليمين.. رجاء.

بينما تنشط عيناك بحثا، وقبل أن تستطلع حقيقة الأمر، يصلك هتاف السّيدة الثانية:

- صابرينا.. حمدا لله!

يقع الأبوان أحدهما في حضن الآخر في ارتياح. لقد نجت صابرينا! بينما تتعلّق عيناك أخيرا بالسّرير الرّابع الذي سجّيت فوقه ريم، شاحبة، مسبلة الجفون، وقد أحاطت بها الآلات من كلّ جانب. كيف يمكن أن يحصل ذلك؟ يا الله، لقد استيقظت منذ قليل، ألم تفعل؟

- تفضّل معي.. أرجوك.

تسحب نفسك في إعياء وذهول إلى آخر الممرّ.

- هل أنت من عائلتها؟

- صديقها.

- فهمت.. إنّها في غيبوبة الآن.

- لكنّها استيقظت، وسعلت! لقد رأيت ذلك بنفسي!

- نعم، لقد فعلت.. لكنّها مكثت طويلا تحت الماء وانقطاع الأكسجين عن الدّماغ قد تسبب في تلف بالغ في وظائفه. سنستمرّ في مراقبتها، لا أخفي عليك.. إنّها تتنفّس بمساعدة الأجهزة. إن لم تستيقظ خلال ثماني وأربعين ساعة.. فمن الأرجح أنّها لن تفعل أبدا.

- من الأرجح؟!

تصرخ في جنون. هل يتكلّم عن موت حبيبتك ريم بعبارات من قبيل «من الممكن» و«من الأرجح» و«نعتقد» أو «نظنّ»؟ من الأفضل له أن يكون واثقا قبل أن يعلن أحكاما مماثلة!

- أنا آسف.. ليس بإمكاننا عمل شيء لها بعد الآن. فقط ننتظر.. في الأثناء، أرجو الاتّصال بعائلتها.. نريد أن نعرف إن كانت مسجّلة كمتبرّعة بالأعضاء.

دون تفكير، هويت بقبضتك على فكّ الطّبيب، فتراجع مصطدما بالجدار في ذهول، وقد تورّم أنفه وشفته. طالعته في احتقار وتشفّ، بينما أخذ يصرخ مستنجدا:

- الأمن! من هنا رجاء!

نفضت كفّيك عنه وخرجت من تلقاء نفسك قبل وصول الأمن. حين وصلت إلى البوّابة الخارجيّة، انهرت على الأرض. أخذ النّشيج يهزّك بعنف متصاعد، والعبرات تسيل مختلطة بالمخاط. كيف يتحدّث عن التبرّع بالأعضاء، وكأنّ أمر ريم انتهى؟ كيف حصل ذلك؟ لا يمكنك تفسير مصيبتك. لقد كنت على بعد قوسين أو أدنى من المعجزة. لقد فتحت عينيها! سعلت وبصقت المياه الّتي سدّت مجرى تنفّسها.. لكنّها هربت منك من جديد، بعد أن أهدتك أملا بنجاتها! لماذا؟!

مررت بمرحلة الإنكار في السّاعات الأولى، لم تكن تصدّق بأنّ ما يحصل حقيقة. بدا مثل كابوس طويل يرفض الانتهاء. ثمّ ما لبث وعيك أن استوعب الكارثة. كنت تقضي السّاعات تتأمّل جسد ريم المسجى في غياب تامّ، تتّصل به أجهزة كثيرة، تبقيه متأرجحا بين الحياة والموت. ثمّ أصيب كلّ شيء في روحك بالشلل. لم تكن تفكّر أو تشعر أو ترغب في شيء، سوى أن تراقب ذاك الجسد الواهن الذي يفقد نضارته تدريجيًا، كأنّما يسكبها قطرة قطرة.

استحال عقلك قاعا صفصفا، ثمّ أخذ الصّبّار ينبت بأشواكه السّوداء، تشعر بمرارتها كالعلقم في حلقك. ينتابك سخط شديد. لماذا يحدث هذا لريم؟ ريم الوديعة المسالمة، صافية السّريرة رقيقة القلب؟ إنّها لا تؤذي أحداء، ووجودها ذاته مثل نسمة رائقة في يوم حرّ. لم تفعل الشرّ يوما لتجازى به.. فكيف يكون مصيرها بهذه القسوة والبشاعة؟ ما الذي اقترفته لتعاقب وتقطف زهرة شبابها مبكّرا؟

لم تعد العبارة المأثورة «لحكمة لا يعلمها إلّا الله» تكفيك وتشفي غليلك، ولا يرضيك التّفكير في «الابتلاءات التي تطهّر من الذنوب وترفع الدّرجات».

أنت لم تعد تؤمن بكلّ ذلك!

الفصل الثامن

- بحث -

-١٠-

تجلس الآن في الطائرة التي أخذت تحلّق فوق سماء باريس، ويمّمت وجهها تجاه المحيط الأطلسي. تستعيد أحداث أيامك الأخيرة، فينتابك إنهاك مباغت. أمضيت ليالي طويلة، تسهر خلف الحاجز الزّجاجي، تراقب ريم التي لا تفعل شيئا سوى التنفّس. اتّصلت بجهة عملها وأعلمتهم بالحادثة، فطار الخبر حتّى أفراد عائلتها.

رأيت والدتها تهرول عبر الممرّ بعد يومين. كانت سيّدة بسيطة ذات هيئة محتشمة، بجلباب ملوّن وغطاء رأس محكم، متماسكة أكثر ممّا توقّعت رغم الألم والحزن السّاكنين في حدقتيها. راقبتها في ذهول، لساعات طويلة، وهي تذرف الدّمع.. وتقرأ. لم يكن مصحفها يفارق كفّيها، تتلو منه بصوت خافت آناء الليل وأطراف النّهار، ثمّ تفلت منها آهة عميقة وترفع يدين مرتعشتين ليلهج لسانها بدعاء حارّ متضرّع. وفي ساعة السّحر، كانت تقوم راكعة ساجدة، تناجي الله في صلواتها.. كأنّما هي في اتّصال روحي مستمرّ بخالقها، لا ترجو منه انقطاعا حتّى تردّ إليها ابنتها!

تطالعها في شفقة ممزوجة بالسخرية.. هل تحسب دعاءها يجدي؟

كانت تلك المفجوعة بكارثة ابنتها، بفعلها ذاك، تجلد روحك دون وعي منها، بسياط خفيّة. آه لو علمت تلك الأم المكلومة بجوار ابنتها نصف الميتة ما يمور بخلدك من أفكار.. كانت لتبكيك مع ابنتها!

فقد كنت أنت أيضا نصف ميت.. بل لعلّك ميّت بحق. لم تعد لديك أدنى رغبة في هذه الحياة دون ريم. الحبل الذي يربطك بالسماء

كان قد انقطع. لقد حسبت روحك قد استيقظت، حين أجرى الله على لسانك ما أجرى من ابتهال ودعاء. لكنّ كلّ شيء انتهى بعد لحظات، وخلّفتك المأساة فارغا من كلّ شعور.. فتزداد كآبتك.

بعد ذلك، لم يعد من المريح وقوفك إلى جوار والدتها المؤمنة الدّامعة لساعات لا تنتهي. كانت أفكارك السّوداء تكفيك. لم يكن بوسعك أن تتحمّل وجع أمّ مكلومة فوقها. وريم لا تفتح عينيها ولا تستجيب.

انسحبت من ردهة المستشفى، لكنّ أفكارك ظلّت تحوم حول سرير ريم بلا هوادة. راجعت في تلك الأيّام معتقداتك السّابقة واللاّحقة عن الموت والحياة الآخرة والرّوح والمادّة، وعدت تقرأ بنهم أكبر بعد الوقت المستقطع الذي منحتك إيّاه ريم. لقد كانت هي المحطّة، ومنها تستأنف الرّحلة. كنت مجبرا على المضيّ في طريق البحث، بلا خيارات متاحة.

ريم.. ترى هل فارقتها الرّوح؟ وأين تكون إن فعلت؟ محلّقة في فضاء الغرفة؟ أم في البرزخ؟ أين تذهب بعد ذلك؟ ما مصير الرّوح إن فارقت صاحبها؟

يلفّ دماغك ويصيبك الدّوار. هل ظننت أنّك ستتجاهل نقاط استفهامك إلى الأبد؟ إن كنت قد عدلت عن التفكير في مصيرك بعد الموت، في الجنّة والنّار، في الثّواب والعقاب، فإنّك الآن تفكّر في مصير ريم.

هل انتهت ريم فعلا؟

لقد حسبت في زمن مضى أنّ روحك لم تترك واديا ولا فجّا إلّا وهامت خلاله. لقد عبرت كلّ تلك الدّهاليز المظلمة، وبقيت حبيسها، لم تخرج من المتاهة أبدا. وأنت الآن تعاود الكرّة، تستأنف هيمانك

النّعس، تسبح في ذات الظّلام وتترنّح في الفراغ، وتتساءل.. إلى أين ستقذف بك الأمواج هذه المرّة؟

تستيقظ من أفكارك، حين تسمع جارة سفرك تنادي ابنتها «سارة». تلتفت في فزع. ذلك الاسم القريب البعيد، أما زال ذا سطوة على فؤادك؟ ترقب بنظرة مرتبكة البنت الصّغيرة ذات الجدائل الكستنائيّة، وتستحضر في رأسك مبسم سارة. تلك الـ«سارة» التي خلّفتها دامعة في آخر لقاء لكما، منذ سنتين. تتنهّد. كم يبدو ذاك الزّمن ساحق البعد. سنتان تفصلانك عن عهد غريب، ملامحه مشوّشة في ذهنك. وحده المبسم العذب يلحّ على ذاكرتك، ويعذّبك.

كانت الصّدفة ما وضعك على متن تلك الطّائرة بالذّات. لو أنّك كنت في سالف أحوالك لسمّيتها «قدرا». لكنّها صدفة الآن. صدفة عجيبة ومحكمة، تكاد لا تحمل أدنى صفات العشوائيّة التي تحكم الصّدف. صدفة تأمر فيها على ضعفك وقلّة حيلتك، مؤتمر ومناظرة. رسالة إلكترونيّة، لا تقصدك بذاتك، من زميل سابق لم يواته الحظّ للتخصّص في جراحة العظام في باريس، فسافر إلى نيويورك، حيث هيّأت له علاقات عائليّة فرصة لا تفوّت. أرسل الدّعوة بالبريد الإلكترونيّ إلى كلّ معارفه السّابقين والعابرين، ممّن تهمّهم جراحة العظام من قريب أو بعيد. هناك مؤتمر طبيّ في المركز الذي يعمل به، والجامعة تموّل رحلتك العلميّة. ثمّ ومضة سريعة، على منتدى إلكترونيّ تزوره بشكل متقطّع، فتتابع نقاشات الملحدين وتهافت المؤمنين للردّ على ادّعاءاتهم المزعومة، بحجج واهية لا تقنع طفلا! هو إعلان سقط أمام عينيك سهوا، عن مناظرة علنيّة لأنتوني فلو، الـ«الملحد الأكثر تأثيرا في القرن العشرين»، في جامعة نيويورك أيضا!

كانت الرّحلة تناديك بكلّ إلحاح ممكن. ألم يكن السّفر وسيلتك إلى الهروب في كلّ أزمة مضت؟ هاجرت مرّات، ووجدت في الأرض مراغما

كثيرا وسعة. لكنّ هجرتك ما عادت في «سبيل الله» بل في «سبيل البحث عن الحقيقة». هربت إلى الجزائر ثمّ بيروت وباريس من الإقامة الجبريّة حين فشلت في الانتحار، وهربت من خلافك وسارّة إلى ضياع لم تنته منه ولم ينته منك! والآن، تهرب من مأساتك وريم، ولا تعرف هل ترجع وأنت كما أنت، أم يتحوّل يضرب بجذوره عميقا في السّويداء؟ يعتريك يقين صارخ. ما من مرّة سافرت وبقيت كما أنت! وسترجع هذه المرّة أيضا، بحال أخرى. لا تعلم إن كانت أفضل أم أسوأ.. لكنّها أخرى. وهذا كلّ ما بتّ تصبو إليه، أن تبدّل قشرتك. لا تعلم كيف سيكون حظّك، هل مثل فراشة تودّع شرنقة إلى الأبد.. أو مثل أفعى تغيّر جلدا بآخر مماثل، بلا جديد؟

تحضّرت للرّحلة كما يجب. انكببت خلال الأسابيع السّابقة على مؤلّفات فلو. كانت فلسفة الأديان خاصّته تعتبر مرجعا لكلّ ما تلاها من أطروحات في المجال، منذ خمسينيات القرن الماضي. مقالة «اللّاهوت والتزوير» كان أوّل مساهماته وأعظمها، وما زال إلى اليوم يمثّل نشرة بطوليّة عند الملحدين الملتزمين.

مبادئ فلسفته ترتكز على أعمدة ثلاثة: العالم أزليّ، الحياة عمليّة عشوائيّة، فكرة الإله مناقضة لنفسها فوجود الشرّ لا يتوافق مع وجود آلهة. وتلك الفكرة الأخيرة لمست داخلك نقطة حساسة، فما زال ألم حادثة السّين حيّا ينبض. «أنتوني فلو» يؤمن بالعلم وهو ملمّ بالكثير من النّظريات الحديثة. وهناك وجه شبه آخر بينك وبينه، لقد شبّ مؤمنا كاثوليكيا، ثمّ تمرّد على دينه الموروث في مراهقته! لا شكّ أنّ قناعته كانت عميقة، ليواجه في تلك السنّ الغضّة والده، المبشّر المسيحيّ، ويختار طريقه!

فاجأك أنّ اسمه لم يقع أمام عينيك في وقت سابق. قبل ريتشارد داوكينز وكريستوفر هيتشنز وسام هاريس ولورانس كراوس،

كان هناك أنتوني فلو. لكنّ الرّجل الذي بلغ من العمر أرذله، متخطيًا عتبة الثّمانين، قد اعتزل المنابر واستسلم لحياة وديعة رفقة زوجته في ضاحية «ريدينغ» الصغيرة، غرب لندن، ليستأثر جيل جديد من المبشّرين بالإلحاد بالأبواق الإعلاميّة. لقد كان على مبعدة ساعة ونصف من باريس، لكنّك تحلّق ثماني ساعات حتّى نيويورك لتستمع إليه! وقد كانت مناسبة نادرة، أن يخرج الفيلسوف المتقاعد من محراب صمته، ليواجه العالم بأفكاره من جديد. طيلة السّنوات التي تلت عزلته، لم يكن الرّجل يدرك كم أسالت تصريحاته المباشرة القليلة من حبر، وكم طوّعها الإنجيليّون والملحدون على حدّ سواء، لتوكيد معتقداتهم!

قبل السّفر، راسلت الرّجل على بريده الإلكتروني، تطلب منه اللّقاء بعد المحاضرة أو قبلها. كنت ترجو أن تحظى بوقت خاصّ مع الفيلسوف الرّمز. لكنّ الرّسالة ظلّت بلا ردّ لأسابيع كثيرة، حتّى حان موعد الرّحيل. ستمضي إلى نيويورك متطلّعًا إلى لقاء ثمين مع رجل تعتبره حبل نجاتك. لكنّك ستكون مجرّد وجه مجهول ضمن أمواج من الوجوه في قاعة غاصّة بالمريدين!

تغادر الطّائرة في مطار ج.ف. كينيدي، تعبر نقطة التفتيش ومكاتب الجمارك، ثم تحطّ الرّحال في فندقك المتواضع ذي النّجمات الثلاث، قبالة مبنى الجامعة. نومك قليل في الأيّام الأخيرة، وسهادك طويل. تحضر المؤتمر الطبيّ نهارًا، وتشغلك كلّ ليلة تساؤلات شتّى حول المناظرة وما ستجنيه منها، ويخاصم الكرى جفنيك.. ثمّ يغلبك النّعاس أخيرًا، فوق دفتر ملاحظاتك.

حتّى جاء اليوم المنشود.

قاعة المحاضرات ملأى عن آخرها، بوجوه شقراء وصفراء وسمراء،

توافدت من العالم بأسره، لتشهد عرسا فكريًا بهيجا! اتّخذت مجلسا، تراقب شاشة البثّ باتنباه، وهي تنقل صورة من قاعة التسجيل التلفزيّ بالجامعة، حتّى ظهر المتناظرون. كانوا ثلاثة رابعهم فلو، اثنان منهما من أشرس المدافعين عن الإيمان: الفيزيائيّ اليهوديّ الأرثوذكسيّ جيرالد شرودر والفيلسوف المسيحيّ جون هالدان.

لدقائق طويلة، استمعت إلى شرودر وهو يلقي محاضرة مكرّرة، عن استحالة أن يتوصّل عدد لا نهائيّ من القردة، يضربون بشكل عشوائيّ على لوحة مفاتيح، إلى إنتاج ما يشابه من قريب أو بعيد قصيدة لشكسبير! كان يردّ بشراسة على ادّعاء هاوكينغ في «موجز تاريخ الزمن»، أنّ الطبيعة بإمكانها، إذا ما أتيح لها وقت كاف، أن تؤدّي إلى مآثر عجيبة، ينسبها النّاس إلى الله.

ثمّ تكلّم هالدان، ليقرّ أنّ بعض القدرات الإنسانيّة، مثل الكلام والوعي والإدراك والمشاعر، لا يمكن تفسيرها إلّا بذكاء علويّ. ثمّ ظهرت على الشّاشة صور لألبرت أنشتاين وفيرنر هايزنبرغ، بينما يواصل الصّوت مؤكّدا أنّ كثيرا من العلماء الكبار كانوا يؤمنون أنّ قوانين الكون وتجلّياته تشير بوضوح إلى ذكاء لا محدود!

ثمّ جاء دور فلو أخيرا. تكلّم بهدوء وبساطة:

- عليّ أن أعترف، الانفجار العظيم الذي نؤمن به كعلماء يوافق ما ورد في سفر التكوين. كلّ تجلّيات الحياة المعقّدة والمكتوبة في البصمة الوراثيّة (DNA)، تشير إلى وجود مصمّم ذكيّ. الذّكاء لا شكّ كان له دور محوريّ في استخدام مواد شديدة التنوّع وجعلها تعمل معا بشكل فعّال، لا العشوائيّة.. لذلك أجدني مضطرا للاعتراف، بأنّ هناك إلها!

في تلك اللّحظة، عمّ الهرج القاعة. ارتفع تصفيق إعجاب

مختلط بصفير استهجان، وعلت أصوات الجمهور لتغطّي لدقائق على صوت البثّ الذي تستمر إذاعته. على الشّاشة، تلمح ابتسامة هالدان المحرجة، وقت تغلّب على خصمه الألدّ فجأة وبشكل غير متوقّع، بينما يواصل فلو اعترافاته المدهشة ناسفا عقودا من البحث والتّأليف والخطابة، كأنّ مشواره الفلسفيّ الحافل لم يكن!

حين هدأت الفوضى أخيرا، سمعت شرودر يسأل خصمه باستمتاع:

- هل تعتقد إذن أنّ أصل الحياة، يمكن اعتباره بشكل ما نوعا من الوحي؟

بدا على فلو التّفكير، ثمّ قال بلهجة جافّة:

- لا أرى في الوقت الحالي أيّ سبيل للاعتقاد بهذا...

كنت قد حضرت المؤتمر الطّبيّ منذ أيّام قليلة في ذات البناء، وتنقّلت بين القاعات والسّاحات، وبتّ تعرف كيف تصل من نقطة إلى أخرى. لذلك، حين انتهت المناظرة، قفزت من مكانك، شققت الطّريق بين الحضور المتدافع وهرولت تقطع ممرّات الجامعة، باتّجاه المخرج الذي حسبت أنّ المتناظرين سيغادرون منه. كنت تلهث، حين وصلت إلى ساحة الجامعة الخلفيّة، وكنت وحيدا. تلفتّ حولك في جزع. هل تكون وصلت متأخّرا؟

وقفت لبرهة في قلّة حيلة. ثمّ هممت بالرّجوع على عقبيك. لكنّ وقع أقدام تعبر الرّواق في تؤدة ترافقها جلبة حديث وقهقهات هادئة جعلت وجيب قلبك يرتفع. كان جمع المتناظرين يقترب، يرافقهم ثلّة من أساتذة جامعة نيويورك. كان حدث اليوم بالتّأكيد محطّ أنظار الكثيرين. من الجهة الأخرى من السّاحة، لمحت جموع الحضور الذين جاؤوا على إثرك ويكادون يلحقون بك. كنت تفقد أسبقيّتك وفرصتك الذّهبيّة في مخاطبة الرّجل. تنقل بصرك بين الرّواق

والسّاحة. ترى فلو وهالدان، يتصافحان، ويلتقط لهما آخرون صورا تذكارية.. بينما ترتفع ضوضاء أقدام تسارع إلى نفس وجهتك. كان عليك أن تتجاهل الآداب واللّباقة، لتقحم نفسك في الحلقة الضيّقة وتطرح السّؤال الذي بات يقضّ مضجعك قبل فوات الأوان:

- سير فلو، هل تؤمن بالحياة بعد الموت؟

التفتت إليك أعين كثيرة، وتوقّف اللّغط فجأة لمقاطعتك الفجّة. لكنّ العجوز الثمانينيّ ابتسم ولم يبد انزعاجا من وقاحتك، بل قال مداعبا:

- أرجو ألّا تكون هناك حياة بعد الموت!

ثمّ أردف موضّحا:

- إنّ الإله الذي أومن به، رغم أنه مطلق الحكمة والعلم، كلي الإرادة والقدرة، وقد صمّم هذا الكون في مرحلة ما، ضمن خطة فائقة القوّة، إلا أنه على خلاف إله اليهود والمسيحيّين وحتّى المسلمين -الإله الإبراهيمي بصفاته في الأديان الثلاثة- ليس مهتما بشأن المعتقدات البشريّة أو السّلوك البشريّ، فهو في النهاية ليس «إلها شخصيّا»!

كانت تلك الكلمات القليلة التي نجحت في اقتناصها، قبل أن تغمرك موجة المريدين المتدافعين الذين وصلوا أخيرا، فأحاطوا بالأساتذة وقد ارتفعت أصواتهم وتداخلت.. بعضهم يلقي أسئلة لا تميّزها أذن، والبعض الآخر يطلب صورة مع متناظر أو آخر.. ممّا حدا بالمنظمين إلى استدعاء أمن الجامعة لمرافقة الضّيوف إلى سيّاراتهم.

-٣٠-

عدت إلى غرفة الفندق، مرتبك الحواسّ.

ها أنّك قد جئت، وقابلت الرّجل. فهل انقشع الغمام أم ازداد تلبّده؟

جلست على حافّة السّرير، مذهولا، مهزوما. ولبثت دهرا، لا تعلم أين تكون. هذه ضربة أخرى تطيح بالبناء الذي لبثت تشيّده سنوات، ترمّم ذاتك وتصنع صرحا جديدا، للملحد المثاليّ الذي تريد أن تكونه. أمّا الآن، فأنت في ضياع من نوع آخر. هل تصدّق الرّجل الذي قطعت نصف الكرة الأرضيّة لتراه؟ أم تصدّق من يقولون بخرفه نهاية عمره وخوفه ممّا بعد الموت؟!

بينما تتردّد نظراتك التّائهة في فضاء الغرفة، وقعت عيناك على كتاب مهمل على المنضدة، بغلاف جلديّ أنيق ذي حروف ذهبيّة. كان نسخة من الإنجيل! لا تدري كيف امتدّت كفّك لتقبض على شيء كان موقفك منه طيلة حياتك الرّفض! كنت فيما مضى من أمرك تنفر من ذكر الإنجيل، والتّوراة لما ورد في الصّحيحين من نهي الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) عن الانتفاع بكتب أهل الكتاب التي طالها التّحريف والاكتفاء بالقرآن.. وحين كفرت بالإسلام، كفرت بالدّيانات كلّها، فما عادت بك حاجة للبحث في كتبها! لكنّ هذا قد صار ديدنك لا محالة، فقد غدا يستهويك أن تمعن في كلّ ما رفضته في حياتك السّابقة.

أمسكت الكتاب بين يديك، بلا إثارة ولا توقّعات. تشغل نفسك بالقراءة فقط لتسدّ فراغ روحك وتوقف عقلك اللّجوج عن اجترار

أفكار مدمّرة. أمضيت تلك الليلة، والليالي التي تلت من إقامتك في نيويورك، وأنت تقرأ، تلتهم السطور بدون اهتمام أو حسّ نقديّ، كأنّما تطالع رواية أو جريدة على سبيل التسلية. لم تكن تحاول أن تفهم أو تقتنع. حتّى وقفت أمام نصّ من إنجيل متّى، ورد ضمن «موعظة الجبل» للمسيح عليه السلام، كرّرت تلاوته مرّات، مستشعرا كلماته بشكل خاص:

«وَعِنْدَمَا تُصَلُّونَ، لاَ تَكُونُوا مِثْلَ الْمُرَائِينَ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ يُصَلُّوا وَاقِفِينَ فِي الْمَجَامِعِ وَفِي زَوَايَا الشَّوَارِعِ لِيَرَاهُمُ النَّاسُ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدْ نَالُوا مُكَافَأَتَهُمْ. أَمَّا أَنْتَ، فَعِنْدَمَا تُصَلِّي، فَادْخُلْ غُرْفَتَكَ، وَأَغْلِقِ الْبَابَ عَلَيْكَ، وَصَلِّ إِلَى أَبِيكَ الَّذِي فِي الْخَفَاءِ...».

توقّفت متأمّلا في الكلمات. تلك المعاني كانت مناقضة تماما لما تعوّدت عليه في الإسلام. الصّلاة جهرا جماعة في المساجد.. أمّا هذه فهي صلاة فرديّة في خلوة غرفة، مثل غرفة فندقك هذا! لعلّ طبيعة الصّلاة تختلف في التشريعين الإسلاميّ والمسيحيّ، لكنّك شعرت بشكل غريب بأنّ الكلمات تخاطبك. لقد صلّيت طيلة عقود مرائيا -ليس لأنّ صلاة الجماعة رياء مطلقا، بل لأنّ قلبك كان مفتونا- ووقفت تخطب معتزّا مباهيا، وعظت ونصحت ورفعت صوتك في النّاس، فما وجدت إلّا نظرات إعجاب تزيدك غرورا. ابتلعت غصّة، وواصلت القراءة:

«فَصَلُّوا أَنْتُمْ مِثْلَ هَذِهِ الصَّلاَةِ: أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ! لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ! لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ عَلَى الأَرْضِ كَمَا هِيَ فِي السَّمَاءِ! خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ! وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا! وَلاَ تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ، لَكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ...».

شرعت في البكاء فجأة.

كنت تقرأ ما عرفت فيما بعد أنّه الصّلاة «الرّبيّة»، الصلاة الأشهر

عند المسيحيّين، كونها معتمدة في كلّ كنائس العالم، الكاثوليكيّة والأرثوذوكسيّة والبروتستانتية. وقد أعجبت ببلاغة النصّ بشكل غريب. ليس أنّك لم تقرأ في بلاغته في القرآن، لكنّه فاجأك على حين غرّة، ودفاعاتك متضعضعة في أسوأ حالاتها. كنت وحيدا في غرفة الفندق، منقطعا عن العالم منذ أيّام، ورغبتك في مناجاة صادقة تنخر داخلك. تلك الرّغبة التي صددتها وقاومتها بمنتهى إرادتك منذ حادثة ريم، تتدفّق الآن بلا استئذان.. وهذا النصّ الذي بين يديك هو الصّلاة الوحيدة التي تقدر عليها، بعد أن هجرت القرآن والصّلاة منذ سنتين.

«ولا تدخلنا في تجربة لكن نجّنا من الشّرير».. تتأوّه وأنت تكرّر الكلمات. أنت تتصهر الآن في أتون التّجربة التي تأبى الانتهاء، وقد استسلمت تماما للشّرير! تسترجع كلمات أيّوب ذات ليلة جمعتكما في شقّتك، حين وقفت مدافعا تتكلّم على لسان الشّيطان! تنهار على الأرض تخنقك العبرة.

خلال الأيّام التّالية، تابعت القراءة في فصول تلك الموعظة البليغة، وقد رقّ قلبك بشكل لم تعهده منذ زمن بعيد. كنت تسمع صوتا في ثنايا عقلك يصرخ: (ألا تنبع تلك الكلمات والقرآن، من مشكاة واحدة؟). ثمّ قرأت كلمات اقتحمت أسوار مقاومتك:

«إِسْأَلُوا تُعْطَوْا. أُطْلُبُوا تَجِدُوا. إِقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ. لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَسْأَلُ يَأْخُذُ، وَمَنْ يَطْلُبُ يَجِدُ، وَمَنْ يَقْرَعْ يُفْتَحُ لَهُ. أَمْ أَيُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ إِذَا سَأَلَهُ ابْنُهُ خُبْزًا، يُعْطِيهِ حَجَرًا؟ وَإِنْ سَأَلَهُ سَمَكَةً، يُعْطِيهِ حَيَّةً؟ فَإِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ تَعْرِفُونَ أَنْ تُعْطُوا أَوْلاَدَكُمْ عَطَايَا جَيِّدَةً، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ أَبُوكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، يَهَبُ خَيْرَاتٍ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ».

في تلك الليلة، خررت راكعا على ركبتيك، ثمّ سجدت طويلا.

وخاطبت الله بحرارة -كما فعلت لاشعوريا يوم حادثة ريم- وسألته أن يهدي قلبك.

رجعت إلى باريس، بخفي حنين.. أو أقل؟ ما تنفك في كلّ سفرة تترك بعضك وراءك وتخفّف من حمل ذاتك. كيانك يتآكل ويتلاشى، وأنت لا تدري إلى أين المنتهى! ما الذي ستفقده بعد؟ كفرت بإيمانك، ثمّ شككت في إلحادك. ما تكون بعد هذا وأنت لا مؤمن ولا ملحد؟

كانت تأتيك، كلّ عام قبيل شهر رمضان، وثيقة «زيارة» من والديك، لتتقدّم بطلب التأشيرة لدى القنصلية السعودية وتقضي معهم جزءًا من الشهر الكريم. لكنّك كنت قد اعتذرت السّنة الماضية، بعد ما ألمّ بك من تغيّرات، فلم تقو على مواجهة نظرات والديك الفاحصة.

وصلت الدّعوة تلك المرّة قبل أوانها، في مطلع شهر يونيو. كانت أشهر أربعة تفصلك بعد عن شهر الصّيام، لكنّ عائلتك التي غبت عنها لسنة ونصف تتعجّل حضورك. راودتك نفسك بأن ترفض. التبدّل الذي تعيشه واضح للعيان. لهجتك وفحوى كلماتك لا ريب قد زرعت بذرة الشكّ، ووالدك يريد أن يعاين رؤية حقيقة أمرك. رفضك لن يزيد الطّين إلّا بلّة. قد تجده أمامك خلال أيّام؛ وقد وصل بتحرّي المسألة بنفسه.

ظللت تتقلّب على جمر التردّد لأيّام ولا تستقرّ على رأي، حتّى فوجئت بحاتم يترصّدك عند بوابة المستشفى ذات يوم. كان قد تلقّى اتّصالا من والدك، يحرّضه على إقناعك بالمجيء. كان حاتم يشعر بالحرج، وهو يحاول رتق ما تمزّق بينكما من نسيج الصّداقة. لم تكن قد قابلت أحدا من رفاق الماضي خلال الشّهور الستّة الأخيرة. ولم يكن أحدهم يعلم بما حلّ بريم. كلّهم يعرفون عن

علاقتك بها، بعد أن لمحك أيّوب مرّات برفقتها.. والخبر سيصل منه لا محالة إلى مجالسهم.

لقاؤك بحاتم جاء في وقت حرج، كنت خلاله في أضعف حالاتك. كانت نفسيّتك هشّة في الفترة الأخيرة. بعد عودتك من نيويورك، لبثت تزور ريم في غيبوتها بشكل يوميّ، تسكب الدّمع وتناجي جسدها المسجّى، الأبيض كالشّمع. رجعت إلى خلواتك الطّويلة وأفكارك السّوداويّة. كنت تحتاج كتفا تستند إليها، وحاتم كان كتفا محتملة في وقت مضى. لكنّه يقف أمامك الآن مثل غريب محرَج، محمَّل برسالة من الأهل، وراء البحار.

- يا أخي، افعل ما تشاء بنفسك.. لكن لا تقطع أهلك وتشغلهم بأمرك!

رمقته طويلا، بنظرة منكسرة. ثمّ هززت رأسك تجاريه.

- لماذا لا تذهب للعمرة؟ تتذكر أحوال الماضي.. ولعلّ الله يشرح صدرك مرّة أخرى، وتزول هذه الشّبهات؟

رمقته في إشفاق. هذا حاتم يحاول أن يسترجع مالكا الذي كان يرافقه فيما مضى في رحلة العمرة كلّ عام، في العشر الأواخر من رمضان! لخمسة أعوام متتالية، لم تفوّتا هذا الأمر. لكنّك تخلّفت السّنة الماضية، ولا تنوي أن تعدل عن قرارك هذه السّنة أيضا. سارة أيضا.. كانت ترافق عائلتها إلى العمرة كلّ عام.. في رمضان أحيانا، وفي مختلف أوقات السّنة. لكنّكما لم تعتمرا معا في الوقت ذاته أبدا. ما تفتأ تذكرها مؤخّرا، وكأنّ كلّ حديث يخصّها بشكل أو بآخر.

رغم حيرتك في أمرك وانهيار سدّ الإلحاد الذي كان يوقف مدّ تساؤلاتك الوجوديّة، فإنك لم تكن مستعدّا للتّراجع. نظرت إليه في تهكّم وقلت:

- ما جدوى أن يخصّص الله بيتا معيّنا في الأرض؟ ثمّ ما معنى الطّواف سبعا والسّعي سبعا؟ لماذا ليست خمسا؟ أو مرّة واحدة؟ ثمّ ألم يكن الحجّ موجودا منذ الجاهليّة، وطقوسه تمارس قبل الإسلام من قبل المشركين، وقد كان لبني عبد مناف السّقاية والرّفادة؟!

- ...

- أليست تلك الطقوس صناعة بشرية قديمة ألبست ثوب الدين، والغرض منها أصلا التربّح والتجارة؟

- ...

- ما معنى الطواف حول حجارة، وتقبيل حجر، ورمي حجر بحجارة؟

- ...

- ما هو المغزى من الذبح للهدي؟ ولماذا قد يحبّ الإله الخالق التقرّب إليه دوما بسفك دماء؟

- ...

- ألا ترى يا حاتم أنها طقوس وثنية صرفة أخذت طابع شعائر مقدسة؟

- ...

هزّ رأسه في قلّة حيلة ورفع كفيه في استسلام واستدار مبتعدا.

ظننت الأمر سينتهي عند ذلك الحدّ، لكنّك فوجئت به بعد يومين يقف في الموقع نفسه وبين يديه ظرف عليه علامة الخطوط الجويّة السّعودية. قال في تحدّ:

- هذه تذكرة باسمك إلى جدّة. إن شئت سافرت، وإن شئت رميتها إلى القمامة.

وضع الظّرف بين راحتيك ومضى، تاركا إيّاك مشدوها، لا تدري ما تصنع.

بعد تردّد ليومين آخرين، قصدت القنصليّة وتقدّمت بطلب التأشيرة. لم يكن بإمكانك الانتظار أكثر، وتاريخ التذكرة بعد عشرة أيّام فقط. أقنعت نفسك، لم تكن بحاجة إلى تلك السّفرة. لكنّها رحلة أخرى، ترجو أن ترجع منها بقناعة ما، بطمأنينة ما. ولعلّك استحييت من إهدار الثمن الذي دفعه حاتم لقاءها متطوّعا.

وأنت تعبر صالة الإقلاع، فوجئت بحاتم يقف قبالتك. لم تكن دهشته تقلّ عن دهشتك. كان قد حجز لنفسه على الطّائرة نفسها. ورغم كلّ شيء، لم يكن واثقا من مجيئك. كان مستعدّا لخسارة ثمن الرّحلة، في سبيل المحاولة. اكتفى بالتحيّة وتربيت حارّ على الكتف، ثمّ انتقل كلّ منكما إلى مقعده. كنت ممتعضا رغم انصياعك. اقتناؤه للتذاكر على حسابه الخاصّ، وإلحاح والدتك على الهاتف، شكّلا نوعا من الضغط لم تستطع مقاومته طويلا. وقد كان يغلب عليك التجهّم خلال الرّحلة كلّها.

حين أفضيتما إلى صالة الجمارك، فوجئت به يشدّ ذراعك ويقول في حماسة:

- اتّصلت بالأهل وأعلمتهم بتأخّرنا يومين إضافيين.. سنذهب إلى العمرة أوّلا!

لمْ تصدّق ما فعله، وتدخّله السّافر في شؤونك. لكنّك لم تملك إلّا الانقياد -مرّة أخرى- لتعليماته. إن كان قد أعلم والدك بذهابك للعمرة، فلا مبرّر لوصولك في اليوم نفسه دون إثارة تساؤلات واستفسارات أنت في غنى عنها. ما هي إلّا ليلتان، وهذا أمر مقدور عليه.

[illegible] كان قد ساورك الفضول لاستكشاف أحوال قلبك. هل تراه أصبح أصمّ، منيعا أمام العاطفة الدّينيّة؟ أم تراه يتأثّر ويستشعر رهبة لقدسيّة المكان؟ وما بكاؤك أثناء قراءة الصلاة الربيّة و«موعظة الجبل» في الإنجيل من ذاكرتك ببعيد.

ركبتما سيّارة الأجرة من مطار جدّة، لتصلا بعد ساعة ونصف أمام الفندق الواقع قبالة الحرم مباشرة. كان حاتم قد حجز غرفتين لكما، للمرّة الأولى. كنتما تتشاركان الغرفة في المرّات السّابقة، لكنّه قدّر حاجتك إلى بعض الخصوصيّة، وقد تباعدت بينكما المسافات خلال السّنة الماضية. كان حاتم قد أحرم استعدادا للعمرة.. لكنّك امتنعت. لن تفعل شيئا لست مقتنعا به. أنت هناك بناء على رغبته هو، لا رغبتك الخاصّة. لذلك لن تفعل شيئا سوى التأمّل والتفكّر.

مرّ عليك في موعد خروجه للشّروع في الشّعائر، فخرجت برفقته. راقبته وهو يرفع كفّيه بالدّعاء حين مرأى الكعبة، وهو يشير إلى الحجر الأسود، يندسّ في زحام الطائفين وشفتاه تتمتمان بما تيسّر من ذكر ودعاء وتلاوة.. أشياء كنت تشاركه في ممارستها قديما بالتّفاصيل ذاتها.. وراقبك هو خفية، يترصّد اختلاجات وجهك ويبحث في قسماتك عمّا يفضح مكنونات صدرك. لكنّك لبثت صخرا أصمّ لا يتأثّر.

بعد الفراغ من السّعي، عدتما للجلوس في صحن المسجد الحرام، تفصلكما عن الكعبة أمتار قليلة. والنّاس من حولكما بين ساجد وقائم، ومسبّح وتالٍ للقرآن. التفتّ إلى حاتم، وقد سرحت نظراته تجاه الكعبة، وقلت ببرود:

- حاتم.. ما رأيك في الصّلاة الرّبيّة؟

اتّسعت عيناه ذهولا، وهتف في حدّة:

- اسمع.. اترك هذيانك لما بعد.. نحن في الحرم!

ثمّ أشاح عنك في وجوم. لكنّك كنت مصرًا على إغاظته، بعد المقلب الذي عرّضك إليه بإحضارك إلى الحرم عنوة، فرفعت يديك كمن يهمّ بالدّعاء، وبدأت تتلو بصوت بين السرّ والجهر، من باب «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلا»:

- أبانا الذي في السّماوات.. ليتقدّس اسمك، ليأت ملكوتك...

تابعت الصلاة، وأنت تختلس النّظرات المتشفّية إلى وجهه الممتقع غضبا وحرجا.. فقد شرع النّاس القريبون من مجلسكم يلتفتون، وينصتون لما تقول، والبعض يتهامس ويشير في تساؤل وعجب. كان حاتم في أزمة حقيقيّة، وقد ساوره الشكّ بأنّك قد جننت قولا وفعلا. لم يحتمل أن يطول المشهد أكثر من ذلك. هبّ واقفا، وأحكم قبضتيه على كتفيك يهزّك بعنف، كأنّما يحاول إيقاظك من استغراقك، وقال بخوف حقيقي:

- إن لم تتوقّف، ستتسبّب في حبسنا، أيّها المجنون!

عندئذ أوقفت التّلاوة، ولم تمالك نفسك أن غرقت في نوبة ضحك متواصل. استسلمت لذراعيه وهو يجرّك ويهرول عبر أروقة الحرم، قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه. كان يمشي متلفّتا في ذعر، معرضا عن عيون المتفرّجين.

عدتما إلى الفندق، وحاتم يخاصمك ولا يخاطبك بكلمة. بينما لم تكن تخفي استمتاعك بمزحتك الثقيلة. كنت تضحك في هستيريا، وتغالب بالسّخرية الخيبة.

لم تجد في نفسك إلّا الخواء، ولا في روحك إلا الفراغ. لم يتحرّك فيك شيء.

أمضيت أسبوعا في الرّياض، إلى جوار أهلك، وكأنّك غريب بين غرباء. كان عليك أن تمثّل وتنافق. تطيل الاغتسال عند الفجر،

فتتأخر حتّى يخرج والدك. وتوهم والدتك الحريصة بأنّك صلّيت في غرفتك! وحين لا تجد مفرًّا، تخرج مع والدك إلى الصّلاة في المسجد القريب. تجلس بين المصلّين، وتحرّك شفتيك متمتما بكلمات لا معنى لها، أو محدّقا في ظهر الواقف أمامك. وحين ينصرف والدك متعجّلا لصلاة العشاء، تغادر متظاهرا باتّباعه، ثمّ تشرد إلى المقاهي البعيدة حيث لا يصادفك أحد من معارف الأهل!

كان سوء أحوال قلبك جليّا للعيان. لكنّك تنكر وتتعلّل بتأثير حادثة صديقتك الجديدة. فتعبس والدتك ولا تعلّق. لم تكن قطّ راضية عن انفصالك عن سارة، ولم تكن قد تقبّلت مواصفات ريم على الإطلاق. في حين يقول والدك بجدّيّة:

- هل فكّرت في العرض الذي اقترحته؟ يمكنك المجيء إلى الرّياض لإنهاء تخصّصك.. تحدّثت إلى عميد كلّيّة الطبّ في جامعة الملك سعود، وقد أكّد لي أنّ ملفّك الشخصيّ يهمّهم كثيرا...

تومئ مرّة وأخرى وتقول ما لا تعنيه:

- سأفكّر في الأمر، إن شاء الله.

الفصل التاسع

- رحيل -

-١٠-

لـو أنّ أحـدا مـا تنبّـأ لـك منـذ سـتّة أشهر أنّـك سـتعبر العالـم مـن شرقه إلى غربـه خـلال أربعة أشهر لا أكـثر، لما صدّقـت! لكـنّ الشّـفرات، التّلفائيّـة وتلـك المخطّـط لهـا منـذ أمـد، تتسـاقط عـلى رأسـك تباعـا، وتقـودك رغـم أنفـك إلى مـشروع «رحّالـة» معتمـد!

كـنـت قـد عـدت مـن رحلتـك إلى الرّيـاض، منهـكا، مـرّة أخـرى، وقـد غـدا الإنهـاك حالـك الطّبيعيـة الـتي لا تـكاد تفارقهـا. أنـت منهـك مـن سـاعات العمل والبحـث، ومنهـك من التّأمّـل الأسـود قبالـة سرير ريـم، ومنهـك مـن قلـق والدتـك المزمـن، وقـد تبـيّن مشروعـا ولهـا كلّ الحـقّ فيـه، بعـد أن رأت بعينيهـا مـا صرت عليـه مـن إنهـاك!

كـنـت قـد نسـيت أمـر إجازتـك، بعـد حادثـة ريـم، حـتّى وصلتـك رسـالة إلكترونيّـة ذات يـوم، من وكالـة أسـفار مـا، تحمـل اسـم «ماجـلان للأسـفار والرّحـلات».

«السّيد المحترم مالك الشّريف،

سـمحنا لأنفسـنا بالاتّصـال بـك كشريـك في الرّحلـة الـتي حجزتهـا السّـيدة ريـم مطـاوع، نظـرا لانقطـاع اتّصالاتهـا وعـدم تجاوبهـا مـع رسـائلنا.

نذكّركـم بأنّـه مـن الـضّروريّ تسـديد مـا تبقّى من كلفـة الرّحلـة قبـل أسـبوع من موعـد المغـادرة لتجنّـب الإلغـاء، كما نرجـو إحضـار جـوازات السّـفر في أقـرب أجـل إلى عنواننـا المذكـور أدنـاه مـن أجـل تجهـيز التّأشـيرات في الوقـت المناسـب».

دون تفكير، رقنت الرّدّ بشكل سريع:

«شكرا لتواصلكم. نرجو إلغاء الرّحلة».

حدّقت في الرّسالة لبرهة، ثمّ حفظتها في المسودّات وغادرت الشّقة.

صباح الغد، رنّ هاتفك بتنبيه سبقت برمجته من طرف ريم نفسها! وقفت تطالع شاشة الهاتف في صدمة، ثمّ أخذت تلتهم كلمات الرّسالة المصاحبة في لهفة.. لقد تركت لك شيئا منها! أتذكر حين أخذت هاتفك منك على رصيف الشّين.. لقد وضعت التّنبيه ذلك اليوم!

تستحضر أمام عينيك شفتيها تتلوان النّصّ بأسلوبها الحلو المترنّح بين الرّصانة والخفّة، بينما تسيل عبراتك على وجنتيك:

«عزيزي مالك، أنت تنتظر هذا اليوم، أليس كذلك؟

احزم أمتعتك وانتظرني في قاعة الرّحيل! موعدنا بعد أسبوع من الآن!

سأحتفظ لنفسي بمخطّط الرّحلة، وسأحتفظ لك بنكهة المفاجأة!

أسمعك تحتجّ؟ صدّقني، المتعة الأكبر ستكون من نصيبك! مع أنّني نلت نصيبي من المتعة مسبقا، فلا شيء أحلى في نظري من التّخطيط لرحلتنا المشتركة!

أراك قريبا!».

زرت ريم في الغد، ووقفت تناجيها في صمت. هل يمكنك الرّحيل دونها؟ تلك الرّحلة الّتي تكبّدت عناء التّحضير لها، تضع المخطّطات لتفاجئك، كانت في نظرها «أحلى» من أيّ شيء فعلتماه سويّا! تتأرجح أفكارك في تلك اللّحظة في تردّد، بين أن تخذلها وتخذلها! أن تخذلها فتتجاهل الجهد الّذي بذلته لتصنع شهرين من الدّهشة والسّعادة المشتركة.. وأن تخذلها فترحل دونها!

اقتربـت في تلـك اللّحظـة والدتهـا. كانـت سـبلكما تتقاطـع كثـيرا في ممـرّات المستشـفى، وعنـد سريـر الحسـناء النّائمـة. تتبـادلان كلمـات مواسـاة قليلـة، لا يجـد أحدكمـا فيهـا عـزاءً يذكـر. تجـاسرت السـيّدة الخمسـينيّة تلـك المـرّة ووقفـت إلى جـوارك. سـألتك فجـأة:

- هـل تعتقـد أنّ ريـم قـد تعـود إلينـا بعـد كلّ هـذا الوقـت الـذي مـضى؟

تلمـس الضّعـف والتيـه في كلماتهـا، وتجـد لهـا صـدى عميقـا داخلـك. أنـت طبيـب، لكنّـك تنـسى ذلـك حـين تواجـه سريـر ريـم! الطبيـب يقـول أنّ حالتهـا ميـؤوس منهـا، أنّهـا سـتبقى مسـجّاة بـلا حـراك، حـتّى تتّخـذ عائلتهـا قـرارا أليمـا بوقـف الآلات الـتي تمنحهـا نبضـا ونفسـا. قـد يسـتمرّ ذلـك شـهورا، أو سـنوات، اعتمـادا عـلى طـول أملهـم وإيمانهـم! لكـنّ مالـكا الصّديـق، مالـكا العاشـق، يسـتجدي أمـلا وإيمانـا خـلا منهمـا وجدانـه، ليترقّـب معجـزة ويعتقـد في حيـاة أخـرى ممكنـة!

- عليـك أن تعـود إلى حياتـك يـا ولـدي. لـو أنّ ريـم تسـتيقظ الآن، فلـن يؤلمهـا أكـثر مـن توقّـف حيـاة أحبابهـا مـن بعدهـا! الحيـاة يجـب أن تسـتمرّ.. فـإذا مـا فتحـت عينيهـا يومـا، كان لدينـا الكثـير لنحكيـه عمّـا فاتهـا!

في تلـك اللّحظـة، اتّخـذت قـرارك. سـوف تهـدي ريـم حيـاة أخـرى، مـن خـلال عينيـك. سـوف تكـون في جعبتـك حكايـات كثـيرة، عـن مفاجآتهـا الـتي لـم تضـع سـدى، وعـن ذكريـات مشـتركة، تخيّلتهـا هـي، وعشـتها أنـت!

حـين وصلـت إلى شـقّتك، فتحـت الحاسـب الآلي في تصميـم. مسـحت الرّسـالة السّـابقة وكتبـت أخـرى:

«أعتـذر عـن الـرّدّ المتأخّـر نظـرا لظـروف ريـم الصحيّـة. للأسـف

يتعذر عليها القيام بالرّحلة، لذلك سأكون المسافر الوحيد. أوافيكم في الغد لتسديد المبلغ المتبقي. أرجو ألا يكون الوقت قد تأخّر بالنّسبة إلى التّأشيرات».

-٢-

حين حطّت الطائرة في دلهي، كانت السّاعة تشير إلى الخامسة مساءً. تفقّدت مسار الرّحلة التي أعدّتها ريم. أغرا، دلهي، ثمّ كيرلا. تلك محطّاتك الهندية التي تسلّمتها من وكالة الأسفار نيابة عن ريم مع نسخة من حجوزات الفنادق ووسائل النّقل الدّاخلية. أمامك أسبوعان لتغطّي تلك البقاع الثلاث، وحيدا بدون ريم.

كانت رحلتك قد تأجّلت لثلاثة أيّام، للانتهاء من معاملات التأشيرات الخاصة بكلّ من الهند وجمهورية الصين الشّعبيّة. لم تكن في حاجة إلى تأشيرة لدخول كلّ من إندونيسيا وتركيا بجوازك الفرنسي.

بعد أن استلمت حقيبتك، خرجت إلى بهو المطار. تفحّصت اللّافتات المتزاحمة عند المدخل، تحمل أسماء الزّوّار المتوقّع وصولهم، حتّى قرأت اسمك واسم ريم على أحدها. اقتربت من الرّجل الأسمر المبتسم، حيّاك بحفاوة ثمّ تطلّع خلفك في اهتمام، ليطرح سؤالا سيتكرّر كثيرا على مسامعك على امتداد الرّحلة:

- ألم يكن من المفترض وصول شخصين؟

ستهزّ رأسك في كلّ مرّة وتشرح معتذرا تخلّف رفيقتك لـ«ظروف صحيّة»، وأنت تصارع وخزة شديدة في صدرك. لم تكن وكالة الأسفار قد عدّلت ملفّ الرّحلة بعد التغيير الطارئ في اللحظة الأخيرة، نظرا لضيق الوقت.

حين استقرّ بك الأمر في السّيّارة التي ستقلّك إلى أغرا، استدار السّائق وهو يقدّم إليك ظرفا عليه علامة وكالة الأسفار المحلّيّة، وأضاف بنفس الابتسامة التي لا تفتر:

- هذا برنامج الرّحلة التّفصيلي.

فتحت الظرف وتصفّحت الكتيّب المنسّق الذي يعرض محطّات السّفر. طالعت الصّور، والوصف المختصر لكلّ معلم أثريّ. تاج محل، قلعة أغرا، فاتحبور سكري، قطب مينار.. مررت على بقيّة الصّفحات بسرعة. لم تعد تقرأ. المزيد من القلاع والقصور والمتاحف والمساجد والمعابد. لديك أسبوع من الفرجة على المباني بين أغرا ودلهي! يا للهول! أصابك اختناق مفاجئ. ما هكذا حسبت إجازتك ستكون!

التفت السّائق ليلقي نظرة عابرة على الكتيّب بين يديك، وقال محاولا أن يجاذبك أطراف الحديث:

- رحلة إلى الهند لا تكتمل إلّا بزيارة تاج محل!

هززت رأسك ببطء، دون أن توافقه حقًّا. «رحلة إلى فرنسا لا تكتمل دون زيارة برج إيفل»، و«رحلة إلى مصر لا تكتمل دون زيارة الأهرامات».. تلك القوالب المتعارف عليها للسّفر، لا تغريك الآن على الإطلاق. لقد وقعت ريم في فخّ التّيار السّائد، وأغرقتك بالمباني والمزيد من المباني! لعلّ ذلك كان ليروي شغفها بالهندسة والمعمار.. ولعلّ شيئا من ذلك كان ليمتعك في وقت مضى. لكنّك الآن تبحث عن تجربة مختلفة. تفتّش عن ذاتك الضّائعة، وهذا لا يساعد.

جاء الجزء الثّاني من الرّحلة ليخفّف صدمتك. كيرلا مقاطعة خضراء، مطلّة على البحر. ستتنقّل خلال الأسبوع الثّاني بين الجبال والأنهار وحقول الشاي. هذا أفضل.

حين وصلت إلى أغرا، كانت السّماء مظلمة تماما. أربع ساعات هي مدّة السّفر بين دلهي ومدينة التّاج. ولم تكن الظّلمة من نصيب السّماء وحدها. الطريق كذلك حالكة والرّؤية شبه منعدمة.

كنت قد غفوت لساعتين، وأيقظتك مراوغات السّائق المفاجئة على مشارف المدينة. في ذلك الليل البهيم، كانت الأبقار الشّاردة تخرج من حيث لا تدري، لتعبر الشّوارع بمشيتها الوئيدة، ثمّ تتوقّف لتطالع السّائقين بنظرات بليدة متحدّية، قبل أن تستأنف مسارها إلى الضفّة المقابلة.

أمضيت أسوأ ساعة في عمر رحلاتك على الطّريق منذ عرفت آلة تسمّى سيّارة. كانت أسوأ من الطريق المتعرّجة عبر شعاب مكة بعد عشر ساعات من القيادة انطلاقا من الرياض، وأسوأ من الطريق الصّاعدة في اتجاه منتجعات الألب الثلجية المحفوفة بالمنحدرات الزلقة. حتّى وصلت أخيرا، سليما معافى، إلى فندقك. أذهلك برود سائقك وثباته، رغم المفاجآت المتكرّرة والمطبّات المفزعة. أبقار مقدّسة؟ يا للسخافة! لقد مررت بمراحل الكفر كافّتها، وعبثت في عقلك بكلّ مقدّس، لتأتي الأبقار وتعبث بحياتك؟

ابتسمت في سخرية، وموظّف الاستقبال يسألك مجاملا إن «كنت قد أمضيت رحلة جيّدة»! فكّرت، هل كان يمكن أن تكون أسوأ؟ رغم كلّ شيء، غرقت في نوم هادئ وعميق تلك اللّيلة. حين استيقظت صباحا، كنت قد أضمرت نيّة تمرّد. لن تمضي أسبوعا تتفرّج وحيدا على المباني! ربّما لو كانت ريم هنا، لفعلت. إكراما لها. لكنّك الآن وحيد ومرهق العقل، ولا طاقة لك لدروس التّاريخ والمعمار! فكّرت، حين تستيقظ من سباتها الطّويل، ستفاجئها بدورك، بذكريات صنعتها أنت وفاتها هي أن تتخيّلها!

تذكّرت محادثة في وقت سابق مع زميل عمل هنديّ الأصل. كنت آنذاك قد اتّفقت مع ريم على تنظيم رحلتكما، وجئت على ذكر زيارتك المرتقبة للهند أمام «راجو»، قال حينئذ بعفويّة:

إن فكّرت بزيارة فارانـاسي، يسـرّني المسـاعدة.. عائلـتي تقيـم هنـاك، ويمكنـني أن أنظّـم اسـتقبالك وزيارتك.

قاطعه آنذاك زميل آخر بامتعاض كان يصغي لمحادثتكما:

- مـع كلّ احترامـي لعائلتـك راجـو، مـا المغـري في زيـارة «مدينـة المـوت» تلـك؟ لا أظـنّ أنّ شـخصا سـويّا سـيفعل!

شكرته حينها واعتذرت. كانت رفيقتك الموكّلة بتنظيم الرّحلة.

مدينـة المـوت. كان ذلـك مناسـبا لمزاجـك الحـالي! تلـك الفكـرة الـتي بـدت مضحكـة وربّما مقرفـة منـذ شـهور، تروقـك بشـدّة الآن. قصـدت مكتـب الاسـتقبال واسـتفسرت عـن سـبل الوصـول إلى فارانـاسي. شرح الموظّـف الخيـارات المطروحـة: السـيّارة، القطـار، الطّائـرة. بـدا القطـار أفضـل الوسـائل المتاحـة، مـن حيـث الكلفـة والوقـت. هنـاك رحلـة مسـائيّة، وافقـت على الفـور، فليقتـن تذكـرة مـن أجلـك.

عـدت إلى الغرفـة وراسـلت راجـو: هـل مـا زال العـرض ساريا؟ تحتـاج دليـلا عنـد وصولـك إلى مدينتـه. مـاذا بعـد ذلـك؟ أمامـك يـوم لتقضيـه في أغـراء، وسـائق ينتظـرك في مواقـف الفنـدق. تـاج محـل؟ لا بـأس بذلـك.

ركبـت «التكتـك» -وهـي دراجـة ناريّـة ذات عجـلات ثـلاث، صمّـم فوقها صنـدوق مغطّى لاسـتضافة راكبـين أو أكثر بالإضافـة إلى السّـائق، تسـتعمل غالبا للتنقـل داخـل الفضـاءات الـتي لا تسـمح بمـرور السـيّارات العاديّـة- لتقطـع المسـافة الفاصلـة بـين الشّـارع الرّئيـسي ومدخـل الحديقـة الـتي تحيـط بالمعلـم، لتجـد دليلـك السّـياحيّ بانتظـارك عنـد المدخـل. خطـوت وراءه باتّجـاه الممشى العريـض الـذي يتربـع في نهايتـه «قـصر التّـاج». تجيـل بـصرك بـين الحديقـة الخلّابـة والبنـاء الرّخامـي الأبيـض، مستسـلما لشروحـات الدّليـل بإنجليزيّـة مهشّـمة.

«كان القـصر الـذي بنـاه الإمبراطـور المغـولي المسـلم شـاه جاهـان

يعتبر درّة الهندسة المغوليّة، في مزيج بديع بين الهندسة الإسلاميّة والإيرانيّة والعثمانيّة والهنديّة. وقد تمّ تشييده ليكون ضريح زوجته «ممتاز محل» التي توفّيت أثناء وضعها طفلهما الرّابع عشر...».

توقّفت عن الاستماع عند ذلك الحدّ. لقد كان ضريحاً! تتّسع عيناك في دهشة ويتعلّق بصرك بالبناء الفاره الذي تلتمع فسيفساؤه البديعة تحت أشعّة الشّمس، ثمّ تراقب في استمتاع أفواج الزّوار الذين يتزاحمون في الأروقة والممرّات. كلّ هذه الحياة.. حول قبر؟

تتتالى صور في ذاكرتك، لمشهد آخر، منذ أكثر من خمسة عشر عاماً. لقد عرفت ذلك النّوع من الدّهشة حين كنت تزور شقيقتك في مدينة المنستير في تونس، حيث تدرس الصّيدلة. خرجت وإيّاها تلك المرّة تمشيان عبر شوارع المدينة، فتوقّفت مع اقتراب أذان العصر، وقلت وأنت تشير إلى بناء جميل بنهاية ساحة واسعة:

- تعالي.. نرتاح قليلاً، ثمّ نصلّي العصر هنا.

انفجرت أختك ضاحكة حينها. لم تكن القبّة الذهبيّة والمآذن النّاصعة الباسقة جزءاً من مسجد ما، بل الضّريح المرتقب للزعيم الحبيب بورقيبة! لم يكن قد توفّاه الله بعد في ذلك الوقت. لكنّه عني بتجهيز «دار آخرته» في وقت مبكّر، وضمّ إليها رفات أفراد عائلته الذين سبقه الأجل إليهم. أتذكر انفعالك تلك المرّة، وخطبتك العصماء عن الطّغاة الظالمين وعمى بصيرتهم، واستخفافهم بالموت والحساب. يظنّون البناء سيعصمهم من الله؟ ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

الآن، تسيطر عليك فكرة واحدة. كم كان الإمبراطور شاه جاهان وفيّاً لزوجته، حتّى يكرمها بمثل هذا الصّرح العظيم! كيف خطر بباله، أن يجعل قبرها «جنّة» على الأرض؟ وتخطر ببالك ريم.. لو

إنها ترحل أخيرا، يوما ما، ما أنت فاعل؟ هل يسعك أن تكرّمها، بطريقة ما، تخلّد ذكراها بين العالمين؟ ينتابك مزيج من الكآبة والخوف، بينما يتناهى إليك صوت الدّليل وهو يواصل شرحه عن نظام التهوية والإضاءة الطّبيعيين داخل المبنى.

ستترك أغرا وتاج محل وقد ازداد انقباضك. لم تكن قد وصلت إلى مدينة الموت بعد، لكنّ ذكره يلاحقك منذ تلك الآونة. تركت سائقك ذاهلا على الرّصيف، بعد أن اتّصلت بوكالة السّفر وألغيت حجوزات بقيّة أيام الأسبوع. أجزلت له العطاء واعتذرت عن التغيير الطارئ. كنت راضيا وأنت تولّيه ظهرك وتمضي. لقد خسرت مبلغا لا بأس به، لكنّك لن تخسر أسبوعا من عطلتك!

تركب القطار، وتتخذ مجلسك في «عربة النوم». كانت الرّحلة مسائية تستمرّ أكثر من عشر ساعات، وقد كانت إمكانيّة النّوم في القطار مغرية. العربة عبارة عن ممرّ جانبي، على امتداده رصفت أسرّة قابلة للطيّ سفليّة وعلوية. تحسّست المرتبة متفقدا. كانت قاسية. لن تكون ليلة نوم مريحة إذن. تمدّدت على سريرك العلويّ وقد توسّدت حقيبة ظهرك، وناشدت النّعاس أن يتسلّل إلى جفونك.

استقبلتك فاراناسي، في ساعة مبكّرة من الصّباح، وقد عبق الهواء برائحة الموت!

تعرف رائحة الموت. تعرف رائحة البخور المحترق في سرادقات المآتم، ورائحة المسك التي تفوح من الصّالحين وقت الغسل والبسمة تزيّن ثغورهم البيضاء، ورائحة التّراب النديّ حين يهال على الجثمان حتّى يوارى إلى الأبد. وتعرف أيضا تلك الرّائحة النفّاذة لمادة «الفورمالين».. التي تسبح في فضاء قاعات التّشريح، تلتصق بأنفك وتلازمك أيّاما تأبى الانصراف، وتعبث بمعدتك وأمعائك! لكنّ

أيّـا منهـا لـم يكـن يشـبه شـيئا ممّـا تشـمّه في فارانـاسي، فقـط يلازمـك يقـين بـأنّ الرّائحـة الغريبـة الـتي استقبلتك وأنـت تخطـو عـلى رصيـف المحطّـة هـي رائحـة مـوت لا تعرفـه. مـوت عـلى طريقـة الهنـدوس.

وجـدت «أيـوش» شـقيق «راجـو» في انتظـارك. رغـم إعلامـه المتأخّـر بزيارتـك ووصولـك عنـد الفجـر، لـم يـتردّد في المجـيء. كنـت تسـتيقظ مـن سـاعات نـوم متقطّـع وغـير مريـح عـلى مرتبـة القطـار، ثيابـك مكرمشـة وعينـاك محمرّتـان وشـعرك مشـعّث، بينمـا يبـدو «أيـوش» في كامـل أناقتـه، بنظرتـه المتألّقـة وسـترته المكويّـة بعنايـة وشـعره الغـارق في الزيـوت. اسـتقبلك بحفـاوة، مثـل صديـق قديـم، وقـادك إلى المواقـف حيـث سـيّارته الصّغـيرة. أيـوش مهنـدس إلكترونيـات، ينتمـي إلى عائلـة مـوسرة وأفرادهـا ذوو ثقافـة عاليـة. اختـار البقـاء في فارانـاسي، في حـين حـطّ راجـو رحالـه في باريـس.

بينمـا تعـبر السـيّارة الشّـوارع الهادئـة، في تلـك الآونـة مـن اللّيـل، تتألّـق في البعيـد كتـل جمـر حمـراء ملتهبـة، يتصاعـد منهـا دخـان كثيـف. يـشرح أيـوش بإنجليزيـة ذات لكنـة هنديـة تجاهـد لتلتقـط مفرداتهـا:

- أنـت تعـرف بالتّأكيـد أنّ فارانـاسي هـي مدينـة مقدّسـة عنـد الهنـدوس. يتوافـد مئـات الأشـخاص كلّ يـوم.. محتضرون عـلى فـراش المـوت يرغبـون أن تكـون آخـر سـاعاتهم هنـا، أو جثـث وافتهـا المنيّـة، يـأتي بهـا ذووهـا لتحـرق عـلى ضفـاف نهـر الجانجـا. تلـك النّـار الـتي تراهـا في البعيـد، إنّهـا محـارق في الهـواء الطّلـق، تلتهـم مئـات الجثـث كلّ يـوم!

تـسرح نظراتـك عـبر الدّخـان وتـسري في بدنـك قشـعريرة بـاردة. لقـد جئـت لـترى المـوت بـأمّ عينـك. مـا الإجابـات الـتي تنشـدها مـن مشـهد السّـائرين إلى مثواهـم الأخـير؟

- أتفهّـم صدمتـك.. لا تقلـق، هـذا ليـس شـأنك وحـدك. حـتّى الهنـود

القادمون من باقي أنحاء البلاد يشعرون بالصّدمة التي تعيشها أنت كأجنبيّ في مدن الهند الأخرى، حين يأتون إلى فاراناسي!

تميّز عيناك فجأة في العتمة جسد رجل شبه عارٍ، إلّا مما يستر عورته وعمامة على رأسه، تتقد عيونه الحمراء في الظّلام مثل القطط، وهو يتربّع في سكينة على الرّصيف الخالي. تكاد تجزم في تلك اللّحظة بأنّه كان يوجّه بصره إليك، تحدّثك عيناه في صمت، بلغة لا تفقهها. انتبه أيوش إلى نظراتك الزّائغة فقال معقّبا:

- إنّه من «الأغوري»، أكلة لحوم البشر.. لا تحاول الاقتراب منهم!

نمت بضع ساعات حتّى الصّباح، في منزل عائلة أيوش. كانت فيلا أنيقة في الجانب العصريّ من المدينة، بعيدا عن نهر الجانج ومحارقه وروائحه الخانقة. وكانت الغرفة التي خصّصت لك أجمل من الغرف الفندقيّة. تحدّث أيوش كثيرا على مائدة الإفطار، عن تقاليد الموت عند الهندوس، وعن نشاط «السّياحة المظلمة» في السّنوات الأخيرة. لم تكن فاراناسي قبلة الهندوس الباحثين عن الارتقاء إلى السّماوات وحدهم. عشرات الآلاف من السيّاح البيض يتوافدون كلّ عام لمراقبة المحارق عن كثب. البلديّة أقامت فرنا كهربائيّا على ضفاف النهر، غير بعيد من المحارق التقليديّة، أقلّ كلفة وضررا للبيئة. لكنّ الإقبال عليه ضعيف جدّا. الاحتراق لم يكن بالنّسبة إلى الهندوس مجرّد وسيلة للخلاص من جثّة المتوفّى، بل طقسا مقدّسا، تنفق في سبيله آلاف الروبيات، ويهمّ بالأساس أن يتمّ بالطّريقة السّليمة، على يد أشخاص مؤهّلين. حين تكون الطّقوس صحيحة ودقيقة، تكون الطّريق إلى السّماء أسرع.. مثل خطّ عمودي مستقيم!

- تريد أن ترى بنفسك؟

وهل جئت لغير ذلك!

خرجتما قبيل العاشرة، تمشيان على ضفاف الجانجا. المشهد يبدو مشابها لما ستراه لاحقا في كلّ المدن الهنديّة. مدرّجات «الغات» الحجرية تنزل حتّى المياه، وعشرات الأشخاص يغتسلون أو يغسلون ثيابهم في النهر. النقطة الفارقة هي الماء نفسه. لقد كان أسود تماما. أقذر مياه يمكن أن تقع عليها عين على سطح البسيطة. وهي مياه مقدّسة!

يقترح عليك أيوش رحلة صغيرة في قارب. ذاك أكثر نشاط سياحيّ شعبيّة في المدينة. تلمح عشرات الزوارق الطويلة والضيّقة تتهادى على سطح النهر، في مقدّمتها هنديّ يجدّف، بينما «يستمتع» سيّاح أمريكيّون أو أستراليّون بتأمل عمليّة الحرق أو إغراق الرّفات في الماء من موقع مميّز.

- انظر.. هناك!

تحني لتحدّق في النقطة التي أشار إليها أيوش. على بعد أمتار قليلة، تطفو قطعة لحم متآكلة بيضاء. تميّز أصابع نحيلة في نهاية الطّرف. إنّها ذراع بشريّة لم تحترق تماما. تتقلّص ملامحك في اشمئزاز، بينما تلحظ صبيانا عند الضفّة المقابلة، يغربلون الماء بهمّة.

- ماذا يفعلون؟

- يبحثون عن قطع الحليّ أو الأسنان الذّهبية. العائلات الموسرة غالبا ما تحرق موتاها دون أن تنزع عنهم قطع المجوهرات.. هذا جزء من التقاليد.

يمرّ القارب قرب محرقة متّقدة. تلمح بوضوح الجسد المتواري تحت أعواد الحطب، في ثياب حريريّة زاهية، تحيط بعنقه وصدره قلائد الزهور الملوّنة، بينما تقف عائلة المتوفّى على بعد أمتار قليلة، ترقب عمليّة إيقاد اللّهب. عند الموقد، ينشط صبيّان رقيقا

العـود، يضرمـان النّـار ويتعهّدانهـا بالرّعايـة حتّى يتأجّج الجسـد ويأخـذ في الدّوبـان، مثـل قطعـة بلاسـتيك. تتعلّـق عينـاك بالمشـهد، مذهـولا. تنفـذ إلى أعماقـك في تلـك اللّحظـة الرّائحـة ذاتهـا، رائحـة المـوت الـتي اسـتقبلتك في المحطّـة.

- يستخدمون غالبا خشب المانجـو، رائحتـه الزكيّـة تلطّـف مـن رائحة الشّـواء البـشريّ. والأكـثر ثـراء يزفّـون فقيدهـم إلى العالـم العلـويّ، «النيرفانا»، عـلى سرير من الصّنـدل. عطـره هـو الأفضـل عـلى الإطـلاق.

تشـعر بالغثيـان. لقـد رأيـت أجسـادا كثـيرة مسـجّاة في السّـابق، عـلى طاولـة التّشريـح، لكنّـك لـم تـر عـلى الإطـلاق، مشـهدا أكـثر وحشـيّة من هـذا. يواصـل أيـوش شرحـه مثـل دليـل سـياحيّ:

- يتطلّـب الجسـد البـشريّ ثـلاث سـاعات حـتّى يحـترق تمامـا، ثـمّ يغـرق الرّفات في النهـر. أحيانـا لا يكـون الاحـتراق مكتمـلا، حين يسـتعجل القائـم عـلى الموقـد ليسـتقبل «زبونـا» جديـدا.. فتبقـى بعـض الأطـراف، كمـا رأينـا منـذ قليـل. وعندمـا يهبـط الظّـلام، يظهـر «الأغـوري». يصطـادون بقايـا الأجسـاد الغارقـة في النّهـر ويقتاتـون عليهـا.

يشتدّ بك المغص. أنت على وشك التقيّؤ.

– فلنعد.

تتمتم لمضيّفك راجيا.

كان مـن العسـير بعـد ذلـك أن تتنـاول وجبـة الغـداء. تـتراءى أمـام عينيـك مـع كلّ لقمـة صـورة الـذّراع البشريّـة الطّافيـة، وتتخيّـل الرّجـل العـاري عـلى الرّصيـف وهـو يغـرس أسـنانه في لحمهـا ويلوكهـا عـلى مهـل، بينمـا يراقبـك بعينيـه البرّاقتـين. عانيـت مـن آلام البطـن طيلـة الظّهـيرة.

-٣٠-

عند السّابعة صباحا، خرجت من منزل أيوش وحيدا. كان مضيّفك الذي سخّر يومه لقيادتك عبر شوارع المدينة بالأمس، قد غادر إلى عمله منذ دقائق. بعد ليلة نوم متقطّع تحقّها الكوابيس وتغمرها مشاهد أكلة لحوم بشر مروّعة، قرّرت أنّك تريد أن تعرف المزيد عن فاراناسي ولعنتها. ستواجه كابوسك وتنظر، كيف تكون النّتيجة. تبتسم في خفّة وأنت تحثّ الخطى نحو المدينة القديمة. ألم تأت إلى هنا لتعاين مخاوفك وآلامك من زاوية جديدة؟

كانت الشّمس تغمر بنايات المدينة الكالحة برداء من نور، في تلك السّاعة من النّهار وتهديها حلّة برّاقة متناقضة مع بشاعة ليلها ونهرها الأسود العظيم. على ضفاف الجانجا، كان حجّاج هندوسيّون يغمرون أجسادهم في المياه المقدّسة القذرة. رمقتهم بامتعاض وحثثت الخطى باتّجاه «الغات». كيف يمكن لملايين البشر أن يؤمنوا بمعتقد سخيف كهذا؟ لم يكن عقلك قادرا على استيعاب مقدار الغباء البشريّ المركّز المحيط بك.

كان رجال طائفة «الدوم» يسهرون على تأجيج النّار المعدّة لاستقبال أضحية جديدة. في نظر الهندوس، يعتبرون حرّاسا للشّعلة الأبديّة. في تلك المدينة الأكثر تقديسا في الهندوسيّة، يعملون بجدّ لتسيير عملية الإحراق على خير ما يرام. بدونهم، لن يتمّ تحرير الجسد من أعبائه الدّنيويّة على عتبة النيرفانا!

جلست تراقب الحركة حول الموقد في فضول على بعد أمتار قليلة، غير عابئ باللّهب المتطاير والحرارة الخانقة والدّخان الذي

تدمع له عيناك. بين جثّتين، تجاسرت على مخاطبة «ماترو» القائم على المحرقة، وابن عمّه «أنجو» الذي يهتمّ بالحسابات ويعطي الضوء الأخضر للشروع في الإحراق. وقفت إلى جانب هذا الأخير بينما انغمس في تدوين نشاط اليوم في «دفتر الموتى» ذي الأوراق المصفرّة، ثمّ أخذ يعدّ رزمة الأوراق الماليّة التي تزداد سمكا كلّ ساعة.

- هؤلاء أحفادي.. عشر سنوات، اثنتا عشرة سنة.

يشير إلى الصبيان أنصاف العرايا الذين يغمرهم الماء حتّى ركبهم، ويسحبون إلى القاع رماد اللّيلة الماضية. تلك المهمّة الأساسيّة تورّث أبا عن جدّ، وتبقى حكرا على طائفة الدوم وحدهم، مثل «ملوك» على مدينة الموت. وعلى بعد خطوات من الغات، ينتصب قصر «الدوم راجا» مسيطرا على المدينة القديمة، ملقيا بظلاله حتّى النّهر، يحرسه تمثالان لنمرين حجريين. ذاك هو المقرّ الرّسمي لملوك الدوم. يتداول أفراد العائلة على المحرقة، ومن يسترح منهم ذلك اليوم فهو بالتأكيد يتسكّع بالجوار، يرتشف الشّاي على ضفاف النّهر أو يطارد السيّاح ليقودهم في زيارة حول المدينة. حين سألته عن عمر مهنته، أجاب «ماترو» بابتسامة خبيثة:

- منذ الأزل!

كلاهما يجيد بعض الإنجليزية بحكم تعاملهما مع السيّاح المتوافدين بالآلاف لمعاينة نشاط المحرقة. لا أحد يمكنه الجزم متى استحوذت طائفة الدوم على القوامة على أعمال الحرق. منذ قرون بالتأكيد. حين يتعلّق الأمر بالرّوحانيات، لا تجد التواريخ والرّزنامات لها مكانا. كلّ شيء يحصل هنا «منذ القدم» وسيستمرّ «إلى الأبد».. أوليس ذلك شأن كلّ مقدّس؟ بعض الهندوس يؤمن حتى أنّ أولى دقات ساعة الزّمن شهدتها المدينة النائمة على ضفاف الجانجا.

- حين كنت طفلا، كانت تمرّ أيّام دون أن تحرق جثّة واحدة على الغانج! اليوم، تعدّ على ضفاف الغانجا مئات المحارق قبل غروب كلّ شمس.

سألك بشكل روتينيّ، كما سأل ربّما عشرات الزوّار الذين يتوقّفون يوميًا لالتقاط صورة له أثناء عمله أو لتبادل بضع كلمات معه:

- من أيّ بلد؟

- تونس.

تساءلت أمام صمته، هل يعرف «ماترو» أين تقع تونس؟ فأضفت موضّحا:

- شمال أفريقيا.

- آه، أفريقيا! أليسوا سود البشرة في أفريقيا؟

يشير إلى بشرتك البيضاء في دهشة. قلت بابتسامة صغيرة:

- ليس كلّهم.

يومئ «ماترو» بدون اهتمام، ثمّ يردف بشيء من الفلسفة:

- صحيح أنّني لم أغادر فاراناسي وقد لا أفعل أبدا.. لكنّني على ضفاف الغانج قد تعلّمت حكمة الحياة الأعمق: كلّنا إلى رماد! لذلك لا داعي للخوف.

«لا داعي للخوف». تردّد العبارة متفكّرا بينما تراقب عيناك في سهوم وهو يدفع بعصاه ذراعا بشريّة متآكلة لشيخ حرق للتوّ.

- لا أهمّية لكلّ هذا.. إنّه رجل عجوز، عاش حياته كما يجب.. والآن كلّ شيء انتهى. لقد رأيت في عينيه نظرة طمأنينة وهو يساق إلى مرقده الأخير ملفوفا في الحرير.. كلّنا نسير على خطاه، أليس كذلك؟

غير بعيد عن المحرقة، كان جمع من المهاجرين البنغال ينشطون

في تفريغ أطنان من الخشب على أكتافهم المتعبة، كنت تتابع من ركن مراقبتك طيلة فترة الصّباح عملهم الدّؤوب جيئة وذهابا بين الشاحنات المتدفّقة واحدة إثر الأخرى ورصيف الغابات. حين أصبحت الشّمس في كبد السّماء، انسحبوا إلى ظلّ شجرة وانهمكوا في تناول خبز «النان» المغموس في صلصة «كاري» حارّة.

حين تركك «ماترو» ليطعم نيرانه جسدا جديدا، اقتربت من الشّجرة، وحاولت أن تبدأ حوارا مع بعضهم.. لكنّهم أخذوا يتغامزون بشأنك ويتضاحكون. وقف شابّ في منتصف الثلاثينيات وقال بإنجليزية محترمة:

- إنّهم لا يفهمونك.. معظمهم لم يدخل المدارس أبدا.. مرحبا، اسمي «لكشان».

صافحت اليد المتعرّقة التي امتدّت تجاهك، وتجاذبتما أطراف الحديث لبرهة. «لكشان» مسلم بالوراثة، اعتنق الهندوسيّة منذ سنتين -منذ وصوله إلى فاراناسي- وهو سعيد اليوم بالمأوى القصديري الذي يتوفّر له لقاء عمله في المحرقة، بالإضافة إلى خمسمائة روبية في اليوم. سألته في فضول:

- ما الذي دفعك إلى تغيير دينك؟ ما الذي وجدته في الهندوسيّة؟

قال في ثقة، مردّدا عبارة حفظها عن آخرين لا شكّ:

- الهندوسيّة لا يمكن تعريفها.. يمكنك فقط اختبارها!

ثمّ اعترف لاحقا في نوع من الخجل بأنّه كان يجد واجبات الإسلام كثيرة وعسيرة. أمّا الهندوسيّة فهي لا تتبع نبيّا بعينه، ولا تعبد إلها واحدا، ولا تتبع نمطا موحّدا للشعائر الدّينيّة.. وليست لديها أيّ من المظاهر المتعارف عليها في الأديان عامّة. كان من اليسير أن تكون هندوسيا، بدون تبعات تذكر! ابتسمت في سخرية. هذا مؤمن آخر لا

يدرك لإيمانه معنى!

لكنك أدركت مدى خطئك بشأنه، حين سألك:

- هل تؤمن بتناسخ الأرواح؟

- لا!

قال في حماس:

- يجدر بك أن تفكّر في الأمر! حين فكّرت بأنّ حياتي الصّعبة هي بالتّأكيد جزاء عمل سيئ قمت به في حياة سابقة، شعرت بحمل يسقط عن كتفيّ.. أصبحت أكثر رضا وتقبّلا لمصيري.. وأنا واثق من أنّ صبري في هذه الحياة سيجازى بنعيم في حياة مقبلة!

ابتعدت عن المحارق متفكّرا في كلمات «لكشان»، تحفّك الكلاب الشّاردة والأبقار المتجوّلة.. بينما تتقافز القرود العدوانيّة على مقربة. لعلّ «لكشان» قد حاز الطّمأنينة بتفسير ساذج «لقدره»! رغم حياته الشّقيّة ومستقبله الحالك، كان يجد في إيمانه ملجأ وسلوى. آه.. ليتك تجد شيئا ممّا يجد!

بعد هيمانك ساعات في طرقات المدينة القديمة، جلست في مقهى شعبيّ مطلّ على النّهر. كان النّهار يزفر أنفاسه الأخيرة، بينما يجلس عدد من الشّباب العاطل على قارعة الطّريق، يحتسون الشّاي ويدخّنون لساعات طويلة. كنت تتأمّل في صمت بوادر الحياة النّاعسة في مدينة الموت، وترتشف الشّاي ببطء. يلازمك إحساس متبلّد بالكسل.. لم تكن تريد تفكيرا ساعتها، ولا تحليلا لفلسفة الهندوس الرّوحيّة، فقط وقتا مستقطعا من عقلك. لكنّ فاراناسي لا تتركك لتأمّلاتك وتلحّ عليك لتخطو في عالمها أكثر. لم تكن قد أنهيت كوبك حين اقترب منك شابّان نحيلان في بداية العشرينيات. كان شكلك الأجنبيّ جاذبا ولا شكّ.

- هل تريد القيام برحلة في مركب على النّهر؟

- لقد سبق وفعلت.. شكرا.

اعتذرت بابتسامة، وحاولت التخلّص منهما.

- تذكار إذن؟

وضع أحدهما أمامك حقيبة ظهر ملأى بالتّحف الرّخاميّة المنمنمة وحاملات المفاتيح واللّوحات المغناطيسية. لوّحت بكفك مرّة أخرى، لست مهتما. لكن بدا ألّا سبيل للخلاص منهما.

- رأيتك تتحدّث هذا الصّباح إلى القائم على المحرقة.. من الأفضل ألا تفعل مرّة أخرى.

بدا عليك الاهتمام هذه المرّة.

- لماذا؟!

- إنّهم منبوذون! لا أحد في المدينة يتعامل معهم.. لو أنني ألمس أحدهم ثم أرجع إلى أصحابي فإنّني سأصبح منبوذا مثلهم.. لن يخاطبني أحد.. سيحسبونني نذير شؤم أيضا! لا أحد يدعوهم إلى حفلات الزّفاف.. لأنهم يجلبون الشؤم!

تعرف كم أنّ الشّعب الهنديّ متطيّر ومؤمن بالخرافات. لم تكن الخرافة الأولى التي تصلك أصداؤها ذلك اليوم. يقولون أنّ من يقف على ضفاف الغات ساعة الغروب يتحوّل إلى شبح! ابتسمت وهززت رأسك، ثمّ راودك خاطر جريء.. تذكّرت كابوس الليلة الماضية والعيون الحمراء التي أبصرتها في الظّلام ليلة وصولك، فسألت الشابّ:

- هل تعرف أين يمكن أن أجد الأغوري؟

- هل جننت؟ إنّهم يأكلون لحوم البشر والكلاب النّافقة!

بدت على وجهه علامات التقزّز وهو يضغط على مخارج حروفه

في انفعال. ولم يزدك انفعاله إلا إثارة وتوقا لرؤية المشهد بأمّ عينك. لم يعد الأمر يثير فيك رغبة في الغثيان. لا تدري في أي لحظة بالضبط من يومك الطويل على الغات محاذيا المحرقة متشيعا برائحتها الخانقة كسرت حاجز الخوف ليتحول النفور والاشمئزاز إلى فضول وانجذاب.

تدخّل صوت غريب ذو لكنة فرنسيّة واضحة:

- هل تبحث عن الأغوري؟

كان كهلا في منتصف السّتينيات، يرتدي ثياب الرّهبان البرتقاليّة الفاقعة، ويضع على رأسه قبّعة خيزران رخيصة. جذب كرسيّا وجلس إلى طاولتك بدون استئذان، بينما انسحب الشّابان النحيلان خالي الوفاض. قال بلهجة الخبير:

- تلك الطائفة الهمجيّة تعبد إله الدّمار الهندوسيّ المسمّى شيفا.. يعتقدون أنّ تجاوز المحظورات الهندوسيّة التقليديّة يجعلهم أقرب إلى الآلهة!

سألته بالفرنسيّة:

- أنت راهب؟

ابتسم مرحّبا بشريكه في اللّغة، ثمّ واصل بالفرنسيّة:

- لا! أنا معلّم يوغا! ليست تلك اليوغا الغبيّة التي يمارسونها في الدّيار، بل اليوغا الحقيقيّة، أنت تعلم.

لم تكن تعلم، لكنّك هززت رأسك في اهتمام لتتابع. أيّا ما كان ما دفع ذلك الكهل الفرنسيّ ليترك حياته الوديعة في موطنه ويستقرّ في مدينة الموت كمعلّم يوغا، فهو يهمّك! تركته يثرثر طويلا، عن حياته السّابقة. كان جنرالا في الجيش الفرنسيّ، حارب في جبهات كثيرة، وسافر حول العالم.. تسلّق جبال الهيملايا وخيّم في الصحارى

الأفريقيّة، وشاهد مصارعات السومو وقتال الدّيكة -كانت تلك أسوأ تجاربه على الإطلاق- ثمّ قبيل تقاعده بفترة قصيرة أصيب بمرض الباركينسون.

- الباركينسون؟

سألت في دهشة وأنت تعاين كفّيه الثابتتين على الطاولة أمامه. هزّ رأسه مؤكّدا بابتسامة فخورة. ثمّ واصل حديثه. خلال فترة قصيرة، فقد زوجته التي كانت تعاني من مرض مزمن فتك بها، وسافر ولداه ليستقرّا في الولايات المتّحدة بحثا عن آفاق أوسع، فأدمن القمار والخمر، حتّى خسر مدّخراته كلّها! في سنّ الثانية والسّتين، كان عجوزا مفلسا، مدمنا وأطرافه لا تكفّ عن الارتجاف.

- ماذا فعلت بعد ذلك؟

- وقعت عيناي يوما على إعلان لمركز باريسي يقدّم حصص اليوغا لعلاج مرضى الباركينسون.. فقرّرت أن أشرب من المنبع! سحبت آخر ثلاثة آلاف يورو متبقية في حسابي ودفعتها لقاء دورة يوغا في الهند.. ثمّ اقترضت ثمن التذكرة، وتركت كلّ شيء ورائي وأتيت!

لم ينجح جيوفري في التخلّص من مرضه وحسب، لكنّه أصبح خلال ثلاث سنوات معلّما بدوره، يمارس اليوغا كمهنة وأسلوب حياة.

- اليوغا هي سبيل تحقيق الذّات.. يمكنك من خلالها التحكّم بالعقل والحواسّ قبل العثور على الذات العليا داخل القلب.

- وهل عثرت على ذاتك العليا؟

- ليس بعد.

يرقّ وهو يهزّ رأسه كناية عن طول الطريق التي تنتظره، ثمّ يعود بك إلى الموضوع الأصليّ. أعلمك أنّ مجموعة من الأغوري تتنقّل عبر الجبال في المنطقة الغربيّة، ويمكنه تدبّر أمر لقائك بأحدهم، مقابل

مبلغ بسيط، مائة يورو. بدا ذلك عادلا في نظرك. لو أنّه طلب عشرة أضعاف، كنت لتدفع دون تردّد. ضرب لك موعدا بعد يومين على رصيف الغات في الساعة الحادية عشرة مساءً، ودفعت نصف المبلغ مسبقا. ما من ضمانات. كان بإمكانه سرقة المال والاختفاء، لكنّك رضيت بالمجازفة عن طيب خاطر. مهما كانت حكاية الباركينسون واقعا أو خيالا يستخدمه لينسج شباكه لاصطياد ضحيّة جديدة، فالأمر يستحقّ المحاولة.

- لست الوحيد الذي طلب رؤية الأغوري.. دائما ما ألاقيهم في المقاهي، مثل اليوم.. أمريكيون، أستراليون، بريطانيّون.. بعضهم صحفيّون يكتبون مقالات عن الموضوع، والبعض الآخر يبحث عن الإثارة لا غير.

أمّا أنت فتبحث عن تجربة روحيّة جديدة. شيء يهزّ أعماقك ويحرّك الرّماد.

حين جاء وقت موعدك، كان الغانجا غارقا في الظلام بعد أن أطفئت نيران آخر أضحية تهدى للنهر العظيم. كان جيوفري عند كلمته. انتظرك أمام المقهى، وسرتما صامتين في ليلة دهماء لا يأتيكما إلّا وقع خطواتكما على الأسفلت، وعواء كلب منفرد.

شعرت بقشعريرة باردة تسري في جسدك حين ظهر ظلّ رجل الأغوري مقرفصا عند درجات الغات الأولى. تحت إنارة الشّارع الخافتة، ميّزت ملامحه الغليظة وشعره المنكوش ذا الضّفائر الشّميكة. كان منهمكا في تحضير خليط ما في علبة معدنيّة صدئة. سبقك الفرنسيّ إلى نزول الدّرجات وهو يهشّ الكلاب السّائبة التي تجمّعت عند قدمي الرّجل. انحنى ليهمس ببضع كلمات، كأنّما يتفاوض مع الأغوري ليقبل بالحديث إليك.

- إنّهـم لا يكونـون متيقّظـين لوقـت طويـل، لذلـك اسـتمر وقتـك بالشـكل المناسـب قبـل أن يغيـب الرّجـل في عالـم آخـر.

دون ثانية تفكير، سألت باندفاع:

- ماذا يوجد في العلبة؟

ترجم الفرنسيّ السّؤال، ثمّ الجواب:

- مزيـج مـن الكحـول والحشـيش ورمـاد المحرقـة وحبـوب هلوسـة وسـمّ كوبـرا!

- هل هذا شيء يشرب؟

ضحك الفرنسيّ ثمّ قال بلهجة فلسفيّة:

- ليـس لمـن هـم مثلـك ومثـلي! هـؤلاء بـشر مـن طينـة أخـرى.. المـشروب يحملـك إلى عوالـم قاتمـة، تغـادر جسـدك فعليّـا، صدّقـني! تغـادر نفسـك وتطالعهـا مـن عـلٍ لتبـصر عيوبهـا وزواياهـا المظلمـة.. لكـنّ الأشـخاص العاديّـين قـد يضيّعـون أنفسـهم في العتمـة.

كنـت ضائعـا بالفعـل، لذلـك لـم تكـن تمانـع تجربـة عتمـة مـن نـوع آخـر. لكـنّ رجـل الأغـوري ولّاكمـا ظهـره وأخـذ يحتـسي مشروبـه العجيـب، ويطلـق مـن حـين إلى آخـر عـواءً مثـل ذئـب منفـرد.

لـو أنّـك شربـت ذاك المـشروب المهلـك الـذي تجتمـع فيـه السـموم بشـتّى أنواعهـا، هـل تـراك كنـت لتدخـل عالـم الـرّوح؟ هـل كنـت لتلـج البـرزخ؟ هـل كانـت عينـاك تبـصران مـا خفـي عنهـا في عالـم الغيـب؟ وأيّ شيء سـيأخذك إلى هنـاك عـدا المـوت؟!

تذكّـرت ريـم وموتهـا السّريـري.. هـل كانـت تلـك التّجربـة لتجمعـك بهـا، بروحهـا المعلّقـة بـين السّـماء والأرض؟

لم تكن تدري.. والعتمة وحدها من نصيبك!

-٤-

أمضيت يوما آخر تتسكّع في شوارع فاراناسي وحيدا، وكانت رائحة خشب المانجو المحترق تطاردك أينما سرت. وكنت كثيرا ما تقف على ضفاف نهر الجانجا، فتستعيد صورة نهر آخر ومدينة أخرى. لقد كان الماء أسود، ذاك الماء الذي غرقت فيه ريم.. لكنّه سواد الليل لا غير. أمّا هذا الماثل أمام عينيك فهو حالك لا يعكس صورتك حتّى في وضح النّهار. سترى نهرا آخر في كيرلا، أخضر اللّون، وسيكون إحساسك مختلفا وأنت تعبره في منزل عائم.

ودّعت أيّوش وركبت قطارا، ثمّ آخر.. حتّى وصلت إلى «كونشي» عاصمة مقاطعة كيرلا. كنت قد أعلمت وكالة الأسفار بتغيير الخطّة. ستصل بيومين قبل الموعد المتفق عليه. لمّا توقّف القطار في محطّته النّهائية، لم تكن قد غادرت مقعدك حين لمحت البطاقة التي تحمل اسمك تلوح لك على الرّصيف.

صافحت سائقك الجديد «جوزيف» ورافقته إلى السيّارة. كان مسيحيّا أبا عن جدّ، كما يوحي بذلك اسمه. والمسيحيّون -كما المسلمين- أقلّية معتبرة في كيرلا، تناهز كلّ منهما خُمُس الكثافة السكّانية. غادرتما كونشي على الفور ومضت بكما العربة على الطريق الرّيفية سيئة التعبيد لمدّة خمس ساعات. مررتما بقرى عدّة، وأبصرت شلالات وحقول شاي وغابات ممتدّة. ورأيت معابد وكنائس ومساجد. على طول المسار الشاقّ والملتوي، تظهر البناءات واحدا إثر الآخر.. معبد ثمّ مسجد ثمّ كنيسة.. ثمّ مسجد وكنيسة ومعبد آخر! كان مشهدا بديعا للتسامح والتآلف -كما حسبتها- بين الدّيانات السّماوية

والوضعيّة لم تعهده من حيث أتيت! لا في المملكة السّعودية ولا في تونس ولا في فرنسا يمكن للعين أن تبصر مثل هذا المشهد المدهش!

وأنت تتأمّل مشاهد الطبيعة والعمران المتعاقبة والسّيّارة تصعّد في اتّجاه «مُنّار»، القرية الجبليّة، باغتتك رغبة ملحّة. أنت تريد ممارسة اليوغا هنا! ريم كانت تمارس اليوغا. تلك اليوغا «الغبيّة» كما وصفها جيوفري، في مركز رياضيّ باريسي، حيث تعتبر اليوغا موضة العصر. مزيج من الرّياضة والاسترخاء، بالتّناقض مع الموضة الأخرى التي تنافسها في الانتشار.. رقصة «الزومبا» الصّاخبة والحركيّة. لكن هنا، وأنت تطلّ من علٍ على الوادي السّحيق بين المرتفعات الجبليّة، ويصلك خرير المياه التي تتدفّق في جدول ما بين أشجار المطاط وجوز الهند والأكاسيا.. تبدو لك اليوغا أصيلة وحقيقيّة. أنت في المكان الصّحيح لممارسة التأمّل!

سألت سائقك على الفور عن أقرب مركز لتعليم اليوغا، فوعدك بأخذك إلى هناك صباح الغد. فأومأت في رضا. تلك هي التّجربة التي تحتاجها الآن.

وصلت إلى فندقك المعلّق فوق الجبل، على ارتفاع ألف وستمائة متر عن مستوى البحر. كانت شرفة غرفتك تهديك مشهدا خلّابا يعانق الضّباب والسّحاب ويحلّق فوق بيوت بعيدة متناهية الصّغر، وحقل شاي قريب بديع المنظر وشلال يلوح خلال الخضرة مثل خيوط فضيّة برّاقة حين تنعكس أشعة الشمس على صفحته. أمضيت ساعات جالسا في الشّرفة، تتأمّل السّماء والوادي. شعرت بالهواء النّقيّ يملأ رئتيك والسّلام يغمرك. وتمنّيت لو كانت ريم إلى جوارك.

كانت جرعة الانتعاش التي أحسست بها آنذاك تعدّ أضعاف

أضعاف ما قد يطال غيرك من روّاد المكان. الانتقال من «مدينة الموت» إلى «أرض الله المباركة» كان مثل عبور طريق مباشرة من الجحيم إلى الجنّة!

في الصّباح التالي، أخذك جوزيف في رحلة قصيرة لا تتجاوز نصف السّاعة إلى مركز تعليم اليوغا. كان البناء بسيطا ذا مدخل منخفض، عبرته في اتّجاه المكاتب التي تقع في الجزء الأماميّ من الفضاء. ابتسمت سيّدة ترتدي الساري الملوّن وتزيّن جبينها نقطة حمراء، فبادرتها:

- أريد التّسجيل في دورة يوغا، لأسبوع واحد.

هزّت رأسها في حركة مائلة يمينا ويسارا وهي تقول:

- عندنا برنامج مناسب للسيّاح، سبعة أيّام!

تناولت المطويّة التعريفيّة ورحت تقرأ باهتمام. البرنامج يبدأ على السّابعة صباحا كلّ يوم، حصّة تعريف بالهندوسيّة تتبعها حصّة يوغا للمبتدئين.. ثمّ أنشطة سياحيّة مختلفة، تدليك وتجوال.. وفي المساء حصّة تدريب ثانية في السّادسة مساءً ثمّ حصّة تأمّل لنصف ساعة. لويت شفتيك في امتعاض. هذا لا يبدو مختلفا عن اليوغا الغبيّة التي يمارسونها في باريس!

- لا أريد هذا.. أحتاج تمارين مكثّفة لنتائج فارقة!

أخرجت من درج مكتبها جملة من المطويات وفردتها أمام عينيك. كان هناك برنامج لشهر وآخر لثلاثة أسابيع وأخير لعشرة أيّام من «الهاثا يوغا» أو «يوغا الجهد».. تحت عنوان جذّاب ومغرٍ: اليوغا أسلوب حياة.

- إن كنت تريد نتائج حقيقيّة، أنصحك ببرنامج الشهر أو الواحد وعشرين يوما، مائتا ساعة من التّدريب المكثّف، بمعدّل ثمانية إلى

اثـني عـشرة سـاعة في اليـوم! أمّـا الأخـير، فهـو يمثّـل نصـف التدريـب لمائة سـاعة فقـط ويمكنـك العـودة في وقـت لاحـق لإتمـام المائـة سـاعة المتبقيـة.

تـردّدت. هـل ينفـع أن تلغـي رحلـة إندونيسـيا لتمـضي بقيّـة الشـهر هنا؟ هـل مـن الحكمـة أن تستسـلم لتلـك الرّغبـة الملحّـة في تعلّـم اليوغا وتضيّـع تجـارب أخـرى ممكنـة عـلى أرض أخـرى؟ يمكنـك أن تتعلّـم التّقنيـة في أسـبوع، ثـمّ تمارسـها بمفـردك في خلواتـك. أنـت أدرى بنفسـك وسرعـة تعلّمـك. ألححـت مـن جديـد:

- أسبوع واحد.

عادت لتضع البرنامج الذي سبق أن رفضته على الطاولة أمامك:

- هذا البرنامج المتوفر لأسبوع واحد!

أيقنت أنّ الإصرار لن يجدي، فاتخذت قرارك:

- عشرة أيّام.. سيكون ذلك جيّدا.

أومأت في رضا، ثمّ تناولت استمارة التّسجيل.

- هل سبق لك ممارسة اليوغا؟

- لا.. لكنّني مارست الرّياضات القتاليّة لسنوات.

لم يبد لها الأمر ذا أهمّية:

- مبتدئ إذن.. هناك برنامج يبدأ الأسبوع القادم.

- أنا مستعدّ للبدء اليوم!

- غير ممكن.. لقد بدأ البرنامج منذ يومين.

عضضـت عـلى شـفتك في غيـظ. كان عليـك أن تـسرع بـدل الوقـت الضائـع عـلى ضفـاف الجانجـا القاتمـة.

- لا يمكنني الانتظار حتّى الأسبوع المقبل.. سيكون عليّ الرّحيل!

حرّكت رأسها مرّة أخرى مثل أفعى كوبرا راقصة، ثمّ تناولت سمّاعة الهاتف. تحدّثت لدقائق بلغتها العجيبة بكلمات متسارعة، ثمّ عادت إليك بنفس الابتسامة:

- حسنا، يمكنك أن تبدأ الآن.

شكرتها في امتنان حقيقيّ ثمّ تبعتها إلى السّاحة، حيث كانت مجموعات من الأجانب والهنود القادمين من مختلف أنحاء البلاد يمارسون اليوغا.

اقتربت موظفة الاستقبال من معلّم إحدى المجموعات وهمست ببضع كلمات، ثمّ أشارت إليك بأن تنضمّ إلى الدّرس. فتح المعلّم عينيه ثانيتين ليلقي نظرة على القادم الجديد الذي قاطع حصّته المقدّسة، ثمّ عاد ليلقي تعليماته بصوت هادئ، متجاهلا وجودك. كنت قد ارتديت ثيابا رياضيّة خفيفة ذلك الصّباح استعدادا للبدء الفوري، وقد كان. سحبت بساطا مطاطيا واتّخذت مكانا في الصفّ الأخير، وشرعت في تقليد حركات المعلّم في تركيز. هكذا، وبكل بساطة، كنت تمارس اليوغا!

كانت حصّة الـ«أسانا» أو «وضعيّات الجلوس» -وهي اليوغا الأكثر انتشارا في الغرب- قد بدأت منذ نصف ساعة. خلال ساعة ونصف، ستتوالى الحركات بطيئة ورشيقة من المعلّم، وستكرّرها في صمت مع باقي المتدرّبين، جالسا ثمّ واقفا ثمّ ملتويا إلى الخلف أو منكفئا على ركبتيك. عشرات الوضعيّات التي تجبر الجسد على التمدّد ثمّ التقلّص وبلوغ حدود مرونته ودفعها أبعد المرّة إثر المرّة.

حين انتهت الحصّة، كنت تشعر برغبة ملحّة في الاستلقاء على سرير وثير! بالنّسبة إلى أعضاء البرنامج، كان وقت الإفطار قد حان. في ركن الاستراحة، كانت المائدة قد نصبت، فتوجّه الجميع إلى هناك

بشكل تلقائيّ. كانت أمامك ساعة ونصف قبل الحصّة الثّانية فقرّرت أن تستغلّها لتعود إلى فندقك وتجمع حاجياتك ومن ثمّ ترجع إلى مركز تعليم اليوغا في الوقت المناسب.

كان جوزيف في انتظارك طيلة ذلك الوقت خارج المبنى. قطعتما نصف ساعة عائدين أدراجكما، ثمّ قصدت مكتب استقبال الفندق وأعلمتهم بإلغاء الحجز! لم يعد ذلك يشعرك بالسّوء مثل المرّة السّابقة في أغراء، لكنّه يوحي بالتّأكيد بسوء التخطيط! كنت ما تفتأ تعدّل على المشروع المتّفق عليه بعد ليلة واحدة من الوصول، وتلك مفاجأة سيّئة -أخرى- بالنّسبة إلى وكالة الأسفار، والسّائق الّذي ستودّعه هو الآخر بعد أن يوصلك مرّة ثانية إلى مركز اليوغا.

لم تكن تتحسّر على شيء وأنت تنهي جمع متاعك في غرفة الفندق كما تتحسّر على المشهد البديع الّذي تطلّ عليه الشّرفة الشّاهقة! وقفت لدقائق أخيرة تملأ عينيك من الخضرة الوارفة وتودّع الجمال الّذي أسرك في «أرض الله»، ثمّ خرجت.

لم تكن الغرفة في مركز تعليم اليوغا واسعة أو مترفة، لكنّها على مقدار من النّظافة والبساطة. كانت تفي بالغرض، وهو ألّا تشغلك عن التعلّم، فلم يكن عليك أن تقضي فيها غير ساعات «الماونا» (الصمت) -أو النّوم!- من التّاسعة والنّصف مساءً حتّى السّادسة صباحًا.

وضعت حقيبتك وخرجت بسرعة لتنضمّ إلى حصّة «الفلسفة» الخاصّة بمبادئ اليوغا. كانت المحاضرة تقدّم في الهواء الطّلق، في منطقة ظليلة من السّاحة. يجلس المتدرّبون على الأرض في وضعيّة «البادماسانا» أو «اللوتس» الشهيرة، بظهر مستقيم وساقين متشابكتين قريبًا من الفخذين، ويستمعون إلى المحاضر لساعة ونصف.

ستتعلّم في كلّ محاضرة المزيد عن مبادئ اليوغا الخمسة وكيفيّة تطبيقها: الرياضة السّليمة (الأسانا)، التنفّس السّليم (باراناياما)، الاسترخاء السّليم (سارافاسانا)، النظام الغذائيّ السّليم (النباتي) والتفكير الإيجابيّ والتأمّل (الذيانا والفيدانتا).. ثمّ الصّفات الأخلاقيّة العشر: اللّاعنف، الصّدق، البرّ، الحكمة، البساطة، الصّلاة، التّضحية، الانضباط، القراءة والرّضا. وكان من المضحك أن يتوجّه إليكم المحاضر ليدعوكم إلى الصّلاة كلّ حسب ديانته التي يؤمن بها. تساءلت، هل يجب أن تكون مؤمنا لتمارس اليوغا؟ في الحقيقة، كنت تحسب اليوغا ستوصلك إلى معرفة ذاتك وبالتالي إيجاد الإيمان.. أيّ نوع من الإيمان، لأنّك فقدتها جميعا!

ثمّ في السّاعة الثانية ظهرا، تأتي حصّة التأمّل التي انتظرتها طويلا. تستلقي على ظهرك في وضعية «الشافاسانا»، فاردا ذراعيك وساقيك قريبا من جذعك، القدمان نحو الخارج والكفّان في اتّجاه السقف. تغلق عينيك وتركّز على حاسة السّمع وحدها. أنت مسترخ، وتحلم. لكن في «اليوغا نيدرا» أنت من يخلق الحلم. تأخذ الوقت الكافي لتصل إلى مرحلة الهدوء والثّبات. ثمّ تستنشق نفسا عميقا، وتزفره برفق. أنت خفيف كريشة، تحلّق في هواء الغرفة. تصغي إلى الأصوات البعيدة التي تصلك خافتة باهتة، حاسة السّمع تستيقظ مثل «رادار» يلتقط أدنى الهمسات والحركات ويتابعها لثوان قليلة قبل أن يلتقط غيرها، دون محاولة التعرّف إلى مصدرها. ثمّ تعود إلى الأصوات الأقرب، تمرّ من تلك التي تدور خارج الغرفة إلى ما يمور داخلها.. وحين يخفت وعيك بكلّ الأصوات، تصغي إلى الصّمت.

تستشعر بعد ذلك الأبعاد الماديّة للغرفة. تستحضر الجدران الأربعة، الأرضيّة، وجسدك المسجّى على البساط المطاطيّ. تستوعب وجودك الماديّ في المكان، جامدا بلا حراك. جسدك يستمرّ ممدّدا،

وأنت تشعر بنقاط تماسّه مع الأرض. تركّز بعد ذلك مع نسق التنفّس الطبيعيّ، تستشعر الهواء وهو يعبر فتحات أنفك وينساب برقّة داخل مجرى التنفّس. تدرك تفاصيل عمليّة التنفّس دون أن تحاول السّيطرة عليها.. أنت تتنفس، فقط.

يمرّ وعيك إلى مختلف أجزاء جسدك، ينتقل بسرعة من نقطة إلى أخرى مع ذكر اسمها في ذهنك. إبهام اليد اليمنى، سبابة، وسطى، ثمّ بقيّة الأصابع.. كفّ، معصم، ذراع، مرفق، إبط، خصر، فخذ أيمن، ركبة، ربلة ساق، كاحل، قدم، باطن القدم، أصابع القدم.. ثمّ تمرّ إلى الجهة اليسرى. ثمّ كتف، مؤخرة، عمود فقريّ وظهر.. قمّة الرّأس، جبين، حاجب أيمن فأيسر والمساحة بينهما.. عينان، أذنان، خدّان، أنف وأرنبته، شفة عليا وسفلى، ذقن.. ترقوة، صدر، سرّة، بطن.. ثمّ تستعيد الوعي الإجمالي بعد التفصيليّ.. رأس كامل، ساق، ساقان، جذع، جسد كامل.

ثمّ تبدأ مرحلة التخيّل. أنت في حديقة واسعة وهادئة، الشّمس قد أشرقت منذ حين وأخذت تغمر الفضاء بضيائها، ولا أحد سواك هناك. تصغي إلى العصافير ترقرق مستبشرة بيوم جديد، تملأ عينيك من الأزهار الملوّنة والخضرة الزّاهية.. وتسير متمهّلا في طريق ظليلة باتّجاه فرجة متوارية داخل الغابة.. وراء الأغصان المتشابكة، يظهر معبد. تقترب بخطوات هادئة. تدفع الباب وتدخل، لتجد المكان باردا ومظلما. على الجدار تمثل صورة لقدّيس ما.

تتوقّف عند ذلك الحدّ. في فترة اعتناقك الإسلام، آمنت بأنّه لا يجوز تجسيد الأنبياء ورسم أشكالهم، وأنّ التماثيل محرّمة والأصنام كفر.. ثمّ حين تركك الإيمان، لم يحلّ محلّ المقدّس في وجدانك أيّ كيان آخر، لا عالم ولا فنّان ولا مصلح اجتماعيّ! كان من المفترض في تلك المرحلة من التأمّل أن تصل إلى الطمأنينة، وإحساس بالسّلام

الدّاخلي، تنقطع معه الأصوات الخارجيّة وتنفذ إلى داخلك، وأنت تصلي في سكون داخل المعبد.. لكنّك تستهلك وقتك متفكّرا في هويّة القدّيس الذي يستحقّ أن تعلّق صورته على جدران معبدك! ثمّ ما يكون ذلك المعبد؟ وأيّ شعائر تقام فيه؟

خرجت من حصّة التأمّل متقلا بالإحباط.

إلى جوار غرفة التأمّل، كانت هناك غرفة صلاة. كان لديكم بعض الوقت الحرّ قبل حصّة الأسانا التالية، والمعلّم ينصحكم بتمضيته في الصّلاة! كلّ لحظة من فترة التّدريب يجب استغلالها بذكاء، والصّلاة واحدة من الصفات الأخلاقيّة العشر! دخلت الغرفة في اليوم الأوّل بدافع الفضول. كانت تحوي تماثيل وصورا لعدد هائل من الآلهة الهندوسيّة والبوذيّة والجانيّة المختلفة، بالإضافة إلى مجسّم للمسيح المصلوب! ألقيت نظرة عابرة على زملاء التّدريب وهو ينهمكون كلّ في صلاته، ثمّ خرجت.

آنذاك، تعرّفت إلى بيتر. كان شابا بريطانيا في بداية الثلاثينيات. وكان متخلّفا هو الآخر عن الصّلاة. تبادلتما ابتسامة متواطئة، ثمّ تقدّم ليصافحك ويعرّف بنفسه.

- هل وصلت اليوم؟

- نعم.. لم يكن تدريب اليوغا ضمن برنامجي الأصلي.. لذلك أشعر بأنّني لم أتجهّز للتجربة بشكل جيّد.

ضحك بيتر وقال:

- لا يهمّ كم تتجهّز قبل الوصول.. ستكون دوما غير جاهز! انظر إليّ مثلا.. أنا أمارس اليوغا منذ ثلاث سنوات في نادٍ لندني، وقد حجزت في برنامج المائتي ساعة لأنّني أريد أن أصبح مدرّب يوغا.. أنا هنا منذ أسبوعين، وما زلت لا أصدّق أنّني هنا، وأنّني أفعل هذا!

سألت في شك:

- هل ندمت؟

- ليس هذا.. لقد كان الأسبوع الأوّل صعبا جدّا.. لم أكن أستمتع أو أشعر بسموّ روحيّ. كنت مرهقا طوال الوقت، وأشعر بآلام شديدة في مفاصلي وعضلاتي.. ولقد بكيت. نعم بكيت، مرّات عدّة! أنا آكل لحوما في العادة! والطّعام النّباتي الإجباري كان بمثابة العقاب. بتّ خاوي البطن ليالي كثيرة، لم أكن أستسيغ الأصناف التي يعدّونها! عانيت من أعراض الانسحاب، فقد كنت مدمنا على اللّحم المشويّ!

ابتسمت. لن يشكل ذلك عائقا يذكر بالنسبة إليك. ألم تمرّ بمحنة طعام السّجن ذي الرّائحة الكريهة، ووجبات المشرّدين الباهتة خلال فرارك عبر الجزائر ولبنان؟ معدتك قد غدت ذات قابليّة لاستساغة كلّ ما يؤكل!

ضحك بيتر مرّة الأخرى قبل أن يتابع:

- أمّا التأمّل.. فذاك شأن آخر! لم أكن أستطيع إكمال الحصّة في الغالب. كنت أسرح في منتصف الطّريق، في خيالات بعيدة.. أو يغلبني النّعاس!

شاركته الضّحك، ثمّ قلت وقد سُرّي عنك:

- يبدو أنّ الأزمة لا تخصّني وحدي! هل تصدّق.. لم أستطع وضع وجه على لوحة القدّيس، ولذلك لم أتمكّن من مواصلة التأمّل! كأنّ تلك النّقطة جوهريّة ولا يمكنني تجاوزها!

- هل أسرّ إليك بحلّ سحريّ؟ لقد عانيت من المشكلة ذاتها كوني لا أعتنق دينا ما.. لذلك وجدت الحلّ بعد أسبوع من المحاولة، وصرت أتخيّل صورة زوجتي على جدار المعبد!

ارتفعت قهقهاتكما مرّة أخرى، ثمّ أشار بيتر بسبّابته على شفتيه

لتستعيدا هدوءكما. لقد كان وقت صلاة وخلوة، وأنتما لم تتخلّفا فقط عن الصّلاة بل تزعجان المستغرقين في ابتهالاتهم. سحبك إلى ركن الاستراحة حيث يمكنكما أن تتحدّثا بحريّة أكبر.

- تحدّث إلى المعلّم في مواعيد الاستشارة الفرديّة، قبل العشاء.. يمكنه المساعدة بالردّ على التساؤلات الخاصّة وتخفيف القلق.

أومأت شاكرا. ستتذكر أن تفعل، ثمّ سألت في اهتمام:

- وهل كان الأسبوع الثاني أفضل؟

- لا أدري، أشعر بأنّي أسير نحو الأسوأ! حسنا.. لقد فكّرت في التوقّف منذ يومين. تحدّثت إلى المعلّم بشأن ذلك، فطمأنني بأنّ تلك الرغبة عادية ومتوقّعة لدى الكثيرين.. وأنّني أمرّ بالمرحلة الفاصلة بين المقاومة الجسديّة والاستسلام الرّوحي، وقريبا سأعبر المضيق ليكون كلّ شيء على ما يرام!

أنهى كلماته الأخيرة مع هزّة من كتفيه. سترى ذلك. الأيّام القادمة ستثبت صحّة قوله من عدمها. صافحت بيتر مرّة أخرى، وافترقتما ليمضي كلّ منكما إلى حصّته الخاصّة. انتابك إحساس غامر بالنّدم. بدا لك أنّك تسرّعت بالانخراط في برنامج أسبوع واحد، قد لا يكون كافيا البتّة لتجربة يوغا فعّالة!

قرّرت أن تتحدّث إلى المعلّم قبل العشاء.

لكنّك لم تكن الوحيد الذي يحتاج مسارّة المعلّم قبل العشاء. كان هناك جمع من المتدرّبين خارج الغرفة، يجلس بعضهم على الأرض ويتكئ الآخر على الجدار مترقّبا دوره. وقفت في ضيق وأخذت تفكّر في تململ فترة الانتظار المتوقّعة. هل تكفي نصف ساعة ليتحدّث المعلّم إلى كلّ هؤلاء؟

- أنت القادم الجديد؟

التفت إلى السّيدة الخمسينيّة التي تقف جوارك وأومأت موافقا.

- لا شكّ أنّك تشعر بالقلق حيال تأخرك.. سيكون كلّ شيء على ما يرام.

شكرتها بابتسامة وهزّة من رأسك، بينما فتح الباب وخرج متدرّب ثمّ دخل آخر.

- هل جهّزت أسئلتك؟

رفعت حاجبيك في انتباه. أنت تعرف ما تريد السّؤال عنه، لكنّك لم تصغ الأسئلة بوضوح.

- وقت المعلّم ضيّق.. ثلاث دقائق لكلّ متدرّب. يجب أن تكون جاهزا حين يأتي دورك.

شكرتها ثانية، وانهمكت في التفكير. أنت تريد أن تستفسر عن جدوى اليوغا في أسبوع واحد، وعن صورة القدّيس والصّلاة التي لم تعد ضمن اهتماماتك، وعن التمرينات التي تخلّصك من القلق، وعن طريقة سريعة للوصول إلى الطمأنينة.

تتوالى حركة الباب فتحا وغلقا والأسئلة تتدافع في ذهنك مرتبكة ومشوّشة. تحاول دراسة أولويّاتك، فتبدأ بالأهمّ وتترك الأقل أهميّة للقاء آخر. حين خرجت رفيقتك الخمسينيّة مبتسمة أدركت بأنّ دورك قد حان، وأنت لم تحسم أمرك بعد. خطوت إلى داخل الغرفة خاليا من التركيز. كان فضاء ضيّقا قليل المفروشات بسيطها. نظرت في اتجاه المعلّم المتربّع على السّجاد، فابتسم وهو يكرّر العبارة التي سمعتها كثيرا ذلك اليوم:

- أنت القادم الجديد، أليس كذلك؟ اقترب.

جلست على ركبتيك قبالته. كانت المرّة الأولى التي تجد نفسك فيها بذلك القرب من المعلّم، فقد أمضيت يومك متواريا في صفوف

المتدرّبين الأخيرة. بدا وجهه الصغير أكثر تجعّدا ممّا هي إليك عن بعد، وشعره الخفيف الأشيب متباعدا وقليل الكثافة. تكّات السّاعة تدقّ في رأسك معلنة تسرّب وقتك ثانية إثر الأخرى وأنت تكتفي بتأمّل ملامح الرّجل المتربّع على السجاد. تكلّم المعلّم أمام صمتك:

- لا شكّ أنّك تشعر بالضغط لأنّك التحقت بالبرنامج التدريبي متأخرا.. الضغط ليس شيئا سيّئا، معظم الإنجازات الرّائعة لا تحصل إلّا في ظروف شديدة القسوة.. «البلوط ينمو قويّا أمام الرّياح المعاكسة، والماس يصنع تحت الضغط الشديد». هكذا هي صعوبات الحياة تصقلنا لنغدو أنضج وأقوى.. وهكذا هي تدريبات اليوغا، تجعلنا نتحدّى أنفسنا وندفع حدودنا أبعد. حين تعي ذلك، ستكون التدريبات اليوميّة أسهل وأكثر فائدة. تأكّد بأنّ كلّ دقيقة من التدريب تقرّبك من معرفة ذاتك، حتّى لو لم تكن ترى نتيجة واضحة! تماما مثل كلّ لقمة طعام ، إنّها تجعلك تنمو لكنّك لا تبصر أثرها على الفور.

أومأت مثل صبيّ مدرسة يتشرّب كلمات معلّمه في تقديس. كانت كلمات بسيطة، لكنّك كنت في حاجة إلى سماعها، بذلك الصوت العميق والحكيم ، لتدرك قيمتها.

- وتذكّر أن تضع خطّة. يجب أن تكون لديك خطّة لكلّ شيء! حين تسافر لأيّام قليلة، في غياب خطّة دقيقة فإنّ عطلتك قد تذهب هباءً.. لكنّها قد تسير بشكل جيّد بمصادفة بحتة، وهذا بنسبة ضئيلة. لكنّ الأرجح هو أنّك ستضيع وقتا ثمينا لأنّك لم تستعدّ بالقدر الكافي. ضع خطّة كل سنة، وكلّ شهر وكلّ يوم.. وقدّر قيمة كلّ ساعة تعيشها، وكلّ نفس تستنشقه. الحياة هبة ثمينة، علينا أن نعيشها بحكمة ولا نهدرها بسوء تخطيطنا.

كنت تصغي في صمت. جزء منك يقنعك في سخرية بأنّ المعلّم يتلو كلمات مكرّرة على مسامع كل زائر، وجزء آخر يحاول أن يؤمن بأنّ تلك الرّسالة تخصّك، وأنّها ستغيّر حياتك إلى الأبد. كنت تريد أن تصدّق أنّك على عتبة تجربة فارقة ومصيريّة!

- هل تريد أن تقول شيئا؟

- هل هناك تمارين خاصّة بمرض الباركينسيون؟

- عفوا؟

كان ذلك السّؤال الوحيد الذي حضر في ذهنك في تلك اللحظة. لقد جئت دون خطّة. لا شكّ في ذلك. والآن يطالعك المعلّم بعجب، لكنّه يردّ رغم ذلك:

- هناك طريقة لعلاج أيّ شيء باليوغا.. طالما كانت هناك عزيمة وإيمان.

-٥-

دخلت حصّة التأمّل في الغد وقد اتّخذت قرارك. إن كان هناك وجه يستحقّ أن يشغل لوحة القدّيس في معبدك الافتراضي، فهو بلا شكّ وجه ريم! ستتعبّد في محراب الحبّ إذن!

تستلقي على ظهرك وترخي أطرافك. تغمض عينيك وينتظم تنفّسك. تمرّ بالمراحل ذاتها بإيحاء من المعلّم، تعبر الحديقة الغنّاء بخطى خفيفة كأنّك تطير، ثمّ تفتح باب المعبد المتواري خلف الأجمة. ترفع عينيك لتلقي نظرة على اللوحة في صدر المعبد. يظهر داخل الإطار المذهّب وجه مألوف وابتسامة عذبة ومحبّبة إلى قلبك.. وجه سارة!

فتحت عينيك بغتة كالملدوغ، قبل أن تنتهي حصّة التأمّل، واستقمت جالسا. حدجك المعلّم بنظرة استياء، فاستلقيت مرّة أخرى، لكنّك لبثت مفتوح العينين، نبضاتك تتسابق في صدرك وأنفاسك لاهثة. ما كان ذلك؟ ألم يكن يفترض بك أن تجد صورة ريم في المعبد؟ كيف وصلت صورة سارة إلى هناك؟

شغلك ظهور سارة غير المتوقع في حلمك باقي النّهار. ما مغزى استحضارك لابتسامتها في الوقت الذي حسبتها فيه قد غدت نسيا منسيا؟ لماذا لم تظهر ملامح ريم؟ هل هي رسالة لاواعية، تذكرك بكلّ ما تفرّ منه؟

ثمّ تحاول أن تجد تفسيرا منطقيا لكلّ ذلك. أنت هنا في «أرض الله»، حيث التديّن في أبهى حلله. لا ينفكّ معلّم اليوغا يتحدّث عن الصّلاة وحاجتك إليها. قاعة الصّلاة الّتي تمتلئ عن آخرها ساعة

الظهيرة ولا يتخلّف عن طقوسها إلّا نزر يسير من مندرّي المركز.. كلّ ذلك يجبرك على تذكّر تديّنك القديم! أوليست سارة رمزا لحياتك السّابقة الّتي أهلت عليها التّراب حتّى وأدتها؟

أحسست بطمأنينة أكبر وأنت تدخل حصّة التأمّل التالية. مهما كانت مخاوفك فستواجهها. ألم يكن ذلك هدفك من الانضمام إلى دروس اليوغا؟ خطوت داخل معبدك الخيالي، وجلست قبالة صورة «القدّيسة سارة». رفعت رأسك إليها وأخذت تحدّثها:

«ها نحن ذا، بعد سنتين من الغياب. هل جئت تذكّرينني بما كنت عليه، أم بذنبي تجاهك؟ أمّا الذنب فقد ندمت! وأمّا العودة فلا أعود!

أرأيت، لقد فارقتك وأنا في أوج الشك. وددت ألا يصلك شرر النار التي ألهبت جوفي، فانحدرت إلى سفوح النّكران وحدي، وكفرت بكلّ شيء، وحسبت الطمأنينة تنتظرني على شاطئ الإلحاد. لكنّ عقلي لم يرحمني. رغم المحاولات المتكرّرة، لم أجد السّكينة الّتي نشدتها في العلم. كان لا بدّ أن أعبر غابة الشك مرة أخرى لأصل إلى شاطئ جديد..

ما الذي أنا عليه الآن؟

سأصدقك القول. حتّى وقت قريب كنت «لاأدري». لكنّني قابلت السير أنتوني فلو، ثمّ جئت إلى أرض الله المباركة. وكانت أمتع لحظاتي حين أملأ عينيّ من بهاء خلقه الذي يحيط بي من كلّ جانب.

لقد آمنت أنّ للكون خالقا مبدعا أحسن تصويره.

ولعلي أستعير كلمات السير فلو:

«لقد صرت أومن بإله واحد أحد.

واجب الوجود.

غير ماديّ، لا يطرأ عليه التغير.

مطلق القدرة، مطلق العلم.

كامل الخير».

لقد آمنت أنّ الحياة وقوانين الطبيعة والفيزياء وتوازن السّماء والأرض لا يمكن أن يكون محض صدفة.. مثلما لا يمكن لمجموعة من القردة تخبط عشوائيا على لوحة مفاتيح أن تكتب بمحض الصدفة مسرحية لشكسبير مهما تكرّرت محاولاتها، ولا يمكن لشخبطة عشوائية أن تنتج لوحة فنيّة باهرة.. أنا لا أتحدّث عن الفنّ المعاصر الذي يتّسم بالفوضى، بل عن إبداعات عصر النّهضة التي تكاد تنطق تفاصيلها وتنبض شخصيّاتها بالحياة! بنفس الشّكل، لا يمكن لكوننا هذا أن يكون وليد مصادفة ما، بانفجار عظيم أو بتطوّر بطيء.. لا بدّ من وجود مصمّم ذكي وراء كلّ هذه المعجزات المعقّدة! هذا الجمال السّاحر الذي تطلّ عليه قرية منار، إنّه بصنع خالق أزليّ لم يسبق وجوده شيء».

تعالي أشرح لك المبادئ التي أومن بها.

أولا: هناك شبه إجماع بين العلماء المتخصّصين على أنّ الكون انبثق من نقطة التفرّد منذ حوالي أربعة عشر بليون سنة، نتيجة الانفجار الأعظم. فمن أين أتى الانفجار العظيم، ومعه حزمة من قوانين الطبيعة الفيزيائية والكيميائية بالغة التعقيد والدّقة، لتحكم الكون كله في ترابط وشمول وتناغم معجز؟ علينا أن نسلّم بأنّ هذه القوانين إنما تفسر لنا الظواهر الكونية فقط، ولكنها بالتأكيد لم تستجلب الطاقة والمادة من العدم.. وإنما استجلبها عقل مطلق، وقدرة مطلقة، هو عقل الإله وقدرة الإله!

ثانيا: كيف نشأت الخلية الحيّة الأولى من عناصر هي في الأصل

غير حيّة؟ فضلا عن امتلاك تلك المادة الحيّة الأولى هذه القدرة شديدة التعقيد على إعادة نفسها جينيا بالانقسام والتكاثر وانتقال المورثات الجينية عبر مادة الـ(DNA)، إلا أن يكون وراءها ذكاء خارق، وتصميم فائق القدرة مسبقا.. من الإله!

ثالثا: نظرية التطور توضح ظهور الكائن البشري بعد مراحل من سلسلة تطور أحياني عبر مليارات السنين منذ نشأة الخلية الحية الأولى.. لكن كل علماء الأحياء لا يجيبون على سؤال مؤرق: كيف ظهر العقل والوعي والإدراك والكلام والمشاعر كطفرة جينية مصممة بدقة معجزة لهذا الكائن البشري؟ ولا إجابة عليه سوى أن ذلك التّصميم الخارق كان وراءه قدرة مطلقة وعلم كلي من الإله!

إنّ كل حجج الفلاسفة والعلماء الملحدين في مختلف التخصّصات بمحاولة الإجابة عن الأسئلة الثلاثة بنظرية الأكوان المتعددة، وأنه بين مليارات الأكوان، لا بدّ أن الصّدفة ستأتي بكون مجهز عشوائيا لاستضافة الحياة.. إنما هو هروب إلى الأمام، ونقل للمشكلة إلى مرتبة أعلى.. فمن الذي خلق الأكوان المتعددة؟

وإنّه من الجنون افتراض وجود مليارات الأكوان غير مرتبطة سببيا كمصادرة لتفسير معالم كون واحد هو الذي نعلمه ونحيا فيه.. في الوقت الذي يفي افتراض وجود خالق واحد مطلق العلم والقدرة بأداء المهمة، وهو الإله!

مفهوم «البرهان الكوني» يثبت أنّ بنية الكون وقوانينه تدلّ على وجود المصمّم الذكي (الإله الخالق)، ومفهوم «المبدأ البشري» يحيلنا إلى أنّ الكون قد تمّ بناؤه على هيئة تجعله ملائما تماما لنشأة الإنسان.

حسنا، لا تهللي وتكبّري بعد! لا زلت بعيدا عن الإيمان القديم

بالكتب والرّسل والملائكة والقدر واليوم الآخر.

ما زلت أجهل ماهية علاقة الإنسان بهذا الخالق، وما إن كان يجدر بنا أن نفعل شيئا محدّدا.. باستثناء الاستمتاع بما تقدّمه الحياة من فرص!

هل تعرفين أنّ لهذا الوضع اسما؟ أنا «ربوبيّ» الآن. أومن بوجود الرّبّ.. لكنّني لا أتبع أيّا من الدّيانات المعروفة.

هل يجعلني هذا مرتاحا؟ ليس بعد. أشعر بالقلق حيال المستقبل. التحوّلات التي مررت بها خلال السّنتين الماضيتين تنبئني بأنّ القصّة لن تنتهي عند هذا الحدّ. أريد أن أصل إلى الطمأنينة. أتمنى أن تحصل روحي على بعض السّكينة، ويتوقّف عقلي عن الغليان».

خرجت من حصّة التأمّل وأنت أكثر هدوءًا واسترخاءً. وتوالت حصص أخرى، تحدّثت فيها كثيرا في حلمك. ثرثرت كما لم تثرثر من قبل. كنت تصف بتفصيل وتحلّل بتعمّق وتسمّي الأشياء بمسمّياتها كأنّك تشرحها لشخص آخر لا يعرف شيئا عن تجربتك. لسارة. لم يكن من الشّيّق في نهاية الأمر أن تربّع سارة داخل إطار معبدك. كان الحديث إليها مريحا، كما كان قديما. وتمنّيت لو أنّها تردّ. لكنّها مجرّد صورة، في معبد متخيّل، في حصّة تأمّل، في معسكر يوغا، في قرية هندية نائية!!

حين غادرت مركز التدريب في نهاية الأسبوع، أدركت أنّك قد مررت بتجربة مميّزة. هل كان السّرّ في اليوغا ذاتها؟ أم في مصارحتك الطويلة يوميّا أمام خيال سارة؟ لا يهمّ. لقد كان أسبوعا مثمرا رغم آلام المفاصل وعضلاتك التي تئنّ مع كلّ حركة.

شددت كفّ المعلّم بشدّة وأنت تودّعه وهمست:

- سأتحمّل الضغط.. وسأضع خطّة محكمة!

-٦-

قضّيت يومك الأخير في الهند على متن منزل عائم. تلك القوارب تُستأجر مثل الفنادق تماما، على ظهرها غرفة نوم وقاعة طعام وشرفة عالية على السّطح للإطلال على مشهد النّهر من علٍ. تلك كانت هديّة ريم الأخيرة في رحلة الهند. وأنت تمخر عباب الماء لساعات طويلة، كنت تتابع بعينين ساهمتين مشاهد الحياة اليوميّة الّتي تتخذ ضفاف النّهر مسرحا لها. أولاد يغتسلون في الماء الأخضر، ونساء يغسلن الثّياب بهمّة، ورجال يملؤون القرب وينقلونها فوق أكتافهم، وشيوخ يتسامرون ويدخّنون.

حين شارفت الشّمس على المغيب، رسا القارب في ميناء مزدحم بقوارب مشابهة. بعد أسبوع من «الماونا»، أو الصّمت اللّيلي، كانت الشّهوة برفقة القائم على الخدمة على سطح القارب خروجا عن المألوف. تركته يتحدّث معظم الوقت وهززت رأسك كثيرا. فكّرت في سخريته في كميّة الكلام الّتي اعتدت سكبها في آذان مستمعيك قديما.. خطيبا ومنظّرا أيّام الجامعة ومحاورا ومجادلا في جلساتك إلى الأصحاب أيّام الإنكار والتمرّد! لقد كنت نجم كلّ ملتقى والمسيطر على كلّ محادثة، تحرص بتفانٍ على أن تكون لك الكلمة الأخيرة في النّقاش؛ لكنّ اعتيادك الصّمت حديثا جعلك تحجم عن الكلام. كان مخاطبك يثرثر بخصوص الصّراع الهندوسيّ الإسلاميّ الّذي عاشته المنطقة في القرن الماضي.

ابتسم وهو يقرّ باقتناع:

- السيّاح من الشرق الأوسط غالبا يهتمّون بالتّاريخ.

هززت رأسك دون أن تعارضه. لا يعنيك أن تصحّح أنك لست من الشرق الأوسط، فهذا لا يهمّ الرّجل بأيّ شكل.. لكنّك تهتمّ بالتّاريخ ولا تمانع الاستماع إلى محاضرته.

أنت تعرف أنّ الصّراع الدّيني بين الهندوس والمسلمين في الهند كان الأبشع والأعنف في التاريخ الحديث، لتخلّف مذابحه عشرات الآلاف من القتلى، وينتهي بانفصال شبه القارة الهنديّة إلى دولتين سنة ١٩٤٧، الهند ذات الأغلبيّة الهندوسيّة وباكستان المسلمة. وقد انبرى الرّجل يحدّثك عن مقتل أنديرا غاندي على يد السّيخ سنة ١٩٨٤ ثمّ مذابح جامو وكشمير بعدها.. ثمّ الحادثة الأشهر، حادثة مسجد البابري، نسبة إلى السلطان المغولي «بابر»، في مدينة أيوديا عام ١٩٩٢.

يزعم الهندوس أنّ إلههم «راما» ولد في معبد على هضبة راماكوت التي يقوم عليها المسجد حاليا، رغم أنّ علماء التاريخ الهنود يثبتون أنّ المسجد قد بني على أنقاض مسجد آخر، وتشهد بذلك النّقوش العربيّة والفارسيّة القديمة المنتشرة في أنحاء البناء.

- ألا ترى أنّ هذه القصّة تشبه إلى حدّ كبير قصّة المسجد الأقصى وصراع اليهود والمسلمين حوله؟ ألا يدّعون أنّ المسجد الأقصى بني على هيكل سليمان؟

فهمت حينئذ مغزى اهتمامه بالسّيّاح من الشرق الأوسط! هذه مساحة مشتركة يمكنكما الالتقاء حولها. ولعلّه يحتفظ في جعبته بحكايا مختلفة حسب نوع الزّائر؟ أم تراه يبحث عن متعاطفين مع قضيّته؟ لم ترد أن تصدمه بحقيقة كفرك بالأديان كافّة. ابتسمت في سخرية.. أليست تلك قصّة أخرى تؤيّد النّهج الذي اخترت اتّباعه؟ ألم يكن العالم ليكون أفضل بدون الأديان وأتباعها الأغبياء؟ هل

من المنطق أن يُقتل عشرات الآلاف لمجرّد فكرة سخيفة عن إله ولد على ظهر تلّة؟!

- الإنجليز هم أساس الخراب.. دائما!

يذكّرك محدّثك بـ«وعد بلفور» لليهود وهو يروي دور الإنجليز في الحادثة. كانوا يحاولون بثّ القلاقل في الإقليم ليبرّروا احتلالهم له، فشجعوا وضع كتب تاريخيّة تقول أنّ «بابر» هدم المعبد الهندوسيّ الذي كان قائما حيث سقط رأس الإله «راما» ثمّ أنشأ مكانه مسجدا، مؤيّدين زعم الهندوس.. فتهمس في داخلك وقد تأكدت قناعتك بعبارة كارل ماركس الشّهيرة: الدّين أفيون الشّعوب! وقد أحسن الإنجليز استغلاله لصالحهم. لكنّ محدّثك يفاجئك:

- العاطفة الدّينيّة هي أسمى المشاعر وأنقاها.. لدى البسطاء غالبا ما تكون صافية ومخلصة! والقوى الاستعماريّة تستغلّها لتحقيق أطماعها وتحريك البيادق على الرّقعة، فرّق تسد.. فتنسى أنّ المؤمنين إخوة، يجب أن يتّحدوا في وجه المادّيين والملحدين!

- عفوا؟

قاطعته في دهشة. عن أيّ مؤمنين يتحدّث؟

- ما الذي تؤمن به يا سيّدي؟

- أنا هندوسيّ، أومن بالآلهة بارافاتي.. الإلهة الأم. وبالإله الخالق، الذي يهب الحياة.. لكنّنا نعطيه أسماء وأشكالا مختلفة.

حدّقت فيه مبهوتا. تلك الفكرة لم تراودك من قبل. الإيمان، كلّ الإيمان.. في وجه الإلحاد؟

هتفت متحدّيا:

- حتّى لو كان المقدّس صنما؟ أو بقرة؟

- البقرة ليست إلهاً.. نحن لا نعبدها! لكنّها مقدّسة لرمزيّتها. إنّها تمثّل الأمّ والعطاء.. وحمايتها تعني حماية كلّ المخلوقات! والصّنم ليس إلهاً، لكنّه تجسيد للإله. نحن نرى الله في كلّ شيء حيّ، لأنّ الله هو الحياة!

- وهل تعتقد أنّ المسلمين مؤمنون أيضاً؟

- عندما كنت شاباً، منذ زمن طويل.. كنت أقرأ مع جدّي نسخاً قديمة للفيدا -كتب لاهوت هندوسيّة- وقد كانت فيها مقاطع تتحدّث عن نبيّ الإسلام.

ثمّ أخذ يتلو على مسامعك نتفاً ممّا يذكره من تلك المقاطع:

«في ذلك الوقت في قرية (شامبهل) [بمعنى البلد الأمين] عند رجل اسمه (وشنوياس) [عبد الله] صاحب قلب رقيق، يولد في بيته (كالكي) [مطهر من الذنوب والآثام].

يولد (كالكي) في بيت (وشنوياس) من زوجته (سومتي) [صاحبة السلامة والأمن، آمنة].

إنه يولد في الثاني عشر من ظهور القمر في شهر اسمه (مادوه) [تعني الشهر المحبب إلى النفوس، وهو شهر الربيع].

يركب على الحصان، ويخرج منه النور، ولا يضاهيه أحد في هيبته وجماله، ويكون مختوناً، ويعدم مئات الألوف من الظلمة والكفرة.

بمساعدة أربعة من أصحابه يهلك الشيطان، وتنزل الملائكة على الأرض لمساعدته في حروبه.

بعد ولادته يتوجه إلى الجبال ليتعلم من (برش رام) [تعني المعلم الأكبر] ثم يذهب إلى الشمال، ثم يعود إلى موطن مولده.

الناس يسحرون من عبقه الذي يخرج من جسمه، وإن عبق

جسمه الطاهر يختلط بالهواء، ويلطف الأرواح والنفوس.

سوف يأتي معلم روحاني مع رفقائه الكرام، ويشتهر بين الناس باسم (محامد)، ويستقبله الأمير قائلا: يا ساكن الصحراء، هازم الشيطان، صاحب المعجزات، بريئا من كل شر، قائما على الحق، خبيرا في معرفة الله، ومحبا له، سلام عليك، أنا عبدك، أعيش تحت قدميك!».

- تلك النبوءات موجودة في الكتب، منذ آلاف السنين.. بالإضافة إلى حكايات كثيرة عن أنبياء الديانات الأخرى.

حدّقت في الرّجل غير مصدّق. الهندوس لا يزعمون أنّ الوحي هبط على بعضهم، لكنّها ديانة موغلة في القدم، ولا شكّ أنّ رجال اللاهوت ضمّنوا كتبها أخبارا عن معاصريهم، بما في ذلك من يوصفون بالأنبياء. سألت مستغربا:

- ألم يجعلك ذلك تفكّر في دخول الإسلام؟

ردّ ببساطة:

- للمسلمين دينهم، ولنا ديننا.. لكننا إخوة في الإيمان.. غاندي يقول: من حسن حظ الديانة الهندوسية أنها تخلت عن كل عقيدة، ولكنها محيطة بجميع العقائد الرئيسيّة، والجواهر الأساسية للأديان الأخرى!

فكّرت للحظة. من منكما خير أمام الله؟ شخص بحث عن الله في كلّ شيء، فغرق في الخرافات وصدّق الخزعبلات، لكنّه آمن بالخالق مسبّب الحياة وعبده على طريقته، مهما كانت شاطحة.. أم شخص كفر بكلّ شيء، وتجاهل كلّ الدّيانات لأنّه لا يسلّم بغيبيّاتها التي لا يستوعبها عقله؟

فاجأتك الفكرة رغم بساطتها: إن كنت تؤمن الآن بوجود خالق

مصوِّر مسيطر على الكون، ألا يستحقّ منك العبادة والتّقديس؟

بتَّ تلك اللّيلة، بعد تحديق طويل في سقف القارب الخشبي، وقد قرّرت أنّك يجب أن تفعل شيئًا بخصوص إيمانك الجديد. هناك إله خلق العالم، وأوجدك أنت كبشر يا مالك. هو يراك من حيث لا تراه، ويسمع نجواك.. لأنّه كامل القدرة والعلم. ستخترع نوعًا من الصّلاة، صلة بينك وبين ربّك. ستتحدّث إليه في أوقات الخلوة والصّفاء. سيكون لمعبدك خلف الأجمة صفة وغاية. سيكون خاصًّا بتأمّلاتك ومناجاتك لخالق الكون!

تخطر ببالك كلمات ابن قيّم الجوزيّة: (إنّ في القلب شعثًا لا يلمّه إلا الإقبال على الله، وعليه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته...).

وقد كان في قلبك ذاك وأكثر.

-٧-

حطّت طائرتك في مطار «دنبسار» في جزيرة بالي الإندونيسية عند الواحدة ظهراً. وجدت ممثل وكالة الأسفار المحلية في انتظارك بالإضافة إلى سائق شاب. استقبلاك بابتسامة واسعة وقلادة أزهار زاهية. كنت على أبواب إجازة حقيقيّة، وأنت قد وطّنت العزم على الالتزام بالخطّة في هذه المرحلة. لقد وعدت المعلّم، وأنت في حاجة إلى عطلة استجمام لبضعة أيّام حتّى تتجاوز آلام المفاصل وتصلّب العضلات التي لم تفارقك بعد. أنت في حاجة إلى نقاهة من أسبوع اليوغا!

بعد ساعة ونصف، كنت في فندق صغير اختارته ريم بعناية على أطراف قرية «أوبود» وسط الجزيرة. تسلّمت مفاتيحك وتبعت عاملة النّزل إلى غرفتك. فاجأتك الأعمدة الخشبية العتيقة المحيطة بالسرير وستائر الشيفون الشفّافة التي ترفرف حوله، وغرفة الجلوس الوثيرة قبالة واجهة زجاجية عريضة. عبرت الصّالة وفتحت باب الشّرفة ليطالعك مشهد مدهش آخر لا يقلّ جمالا عن إطلالة فندق «منّاره».. مسبح فيروزيّ لامتناه، يطلّ مباشرة على الأدغال الكثيفة. كانت غرف الفندق عبارة عن شاليهات واسعة بحمّام مكشوف ومسبح خاصّ! فكّرت أنّ أيّ اختيار آخر لم يكن ليكون أكثر توافقا مع ما تعنيه كلمة «استجمام» في قاموسك.

أخذت دشّا منعشا، ثمّ تمدّدت على أريكتك المريحة قبالة المسبح وأنت ترتشف عصير الفواكه الاستوائية وتصغي إلى سمفونية طبيعية تعزفها مخلوقات الغابة على قيد خطوات من متّكئك. ها أنّ

الإجـازة الحقيقيّـة قـد بـدأت!

عنـد السّادسـة مسـاء، تعالـت طرقـات عـلى بـاب الغرفـة. حـين فتحـت، فوجئـت بفيـل ضخـم يتململ ويحـرّك أذنيـه، مـع سائسـه! قـال الرّجـل:

- سيّدي لقد حان موعد العشاء.

صعـدت على ظهر الفيـل بناء على التعليمات، واسـتقرّ بـك المقام عـلى المقعـد المعـدنيّ المثبّـت فوقـه. ثـمّ أخـذ الحيـوان الضخـم يتهـادى في مشـيته وهـو يتبـع السّـائس في اتّجـاه مطعـم الفنـدق. لـم يكـن الرّكـوب مريحـا. فكّـرت أنّـك كنـت في غـنى عـن تلـك التجربـة الـتي يتهافـت عليهـا الكثـيرون. كانـت مفاصلـك تـئن مـع كلّ خطـوة!

بينمـا يرفـع الفيـل قدمـا ويضـع أخـرى في خطـوات ثقيلـة تهـتزّ لهـا الأرض، كنـت تفكّـر في جـبروت الإنسـان واسـتغلاله لبـاقي المخلوقـات، مهمـا بلغـت قوّتهـا. الإنسـان عـرف بعقلـه وتدبـيره كيـف يكسر سـطوة الفيلـة الآسـيويّة العملاقـة ويطوّعهـا لحاجتـه منـذ القـدم، فتنقّـل عـلى ظهورهـا ويحمـل متاعـه ويسـخّرها في مشـاريع البنـاء الضخمـة.. قبـل أن يخـترع الآلات ذات المحـرّكات والعجـلات. والآن تبقـى الفيلـة وسـيلة نقـل معتمـدة في كثـير من بقـاع العالـم، وعامـل جـذب للسـيّاح ومصـدر دهشـتهم وافتتانهـم.

مـرّت بذهنـك الآيـة: (وَإِذْ قَـالَ رَبُّـكَ لِلْمَلَائِكَـةِ إِنِّي جَاعِـلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَـةً، قَالُـوا أَتَجْعَـلُ فِيهَـا مَـن يُفْسِـدُ فِيهَـا وَيَسْـفِكُ الدِّمَـاءَ وَنَحْـنُ نُسَبِّحُ بِحَمْـدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَـكَ، قَـالَ إِنِّي أَعْلَـمُ مَـا لَا تَعْلَمُـونَ).

لقـد عـرف الإنسـان كيـف يعمّـر الأرض ويسـتخرج خيراتهـا.. لكنّـه في سـبيل تحقيـق ذلـك دمّـر غابـاتٍ ولـوّث هـواءً وجفّـف ينابيـع وتسـبّب في انقـراض كائنـاتٍ، ناهيـك عمّـا أزهقـه مـن أرواح بـني جنسـه. لشـدّ مـا ألـحّ

عليك ذاك السّؤال منذ عهد بعيد: ما الذي يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة بشأن خلافة الإنسان في الأرض؟

كنت قد وصلت إلى المطعم، فترجّلت وجلست إلى مائدتك بعد أن انتقيت بعض الأصناف من قائمة الطّعام. في الشّرفة، كانت فرقة تقليديّة إندونيسيّة تعزف مقطوعة شعبيّة، بينما يتحرّك راقصان شابّان بثياب مزركشة ويدوران في انسجام.. وعلى بعد بضع عشرات من الأمتار، كانت مجموعة من الفيلة الصّغيرة المكوّرة تلهو في بركة طين وتتقاذف الوحل الأسود في مرح، بينما تنسحب الشمس إلى مغربها مخلّفة أثرا أحمر في وجه السّماء. كنت غارقا في تجربة إندونيسيّة خالصة وساحرة. لكنّك مشغول اللبّ، تراقب المشهد في سرحان. تتناول وجبتك دون أن تحسّ لها طعما، ويستمرّ السّؤال يلحّ عليك: إن كان هناك إله خلق الكون ووهب الإنسان العقل، ليدرك وجوده بتأمّله في معجزة الخلق، وجعله المتحكّم في الكائنات الأخرى بتفوّقه الأصيل.. فما هو الهدف من خلقه؟

تسترجع في شيء من الحنين أيّاما مضت، لكنّها تطفو على السّطح بسرعة حالما تستدعيها من ملفّات الذاكرة المخزّنة بعناية. لقد راودتك تلك الفكرة قديما، وأنت تتأمّل في الآيات ذاتها، وقلبك عامر بالإيمان. لقد أمر الله الملائكة بالسّجود لآدم، في ذلك المشهد المهيب، خارج الزّمان والمكان. لكنّ إبليس تمرّد مبرّرا ذلك بتفوّق عنصر خلقه وشرف جوهر مادّته.. النّار. فكان الطّرد وكانت اللّعنة. فأتى يوسوس لآدم، ويداعب أحلامه بالخلود!

(وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ).

وقد كان إبليس نفسه يرنو إلى تلك المرتبة أيضا -الخلود- وهي

مرتبة تعتقد أنها خاصة في صفوف الملائكة، تلك الكائنات المقربة من الذات الإلهية، لدرجة أنه يفصح لها قبل غيرها عن قراره بخلق كائن بشري، وتسمح مكانتها منه أن تجادله في مراده.. تلك الكائنات ليست بالتأكيد تلك التي حضرت التحدّي أمام آدم وأمرت بالسّجود، بل أخرى أعلى.. (العالون الخالدون).

(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ)؟

(العالون الخالدون)، كنت تؤمن بوجود تلك الفئة من الكائنات العلويّة! رغم بحثك الطّويل، لم تكن تجد تفاسير تدعم تأويلك. كلّ ما وقعت عليه يداك كان يدعم تفسير «العالين» بالكافرين! ومع ذلك، فقد بنيت أطروحتك المتكاملة لغاية خلق الإنسان مستندا إلى إشارات خفيّة في النصّ القرآني تحسب أنّها تخاطبك وحدك وتضع أسرارها بين يديك!

لعلّك كنت حينها تؤمن بأنّ ما وقر في قلبك من إيمان صادق صافٍ يستحقّ مكافأة أعلى من جنّة يتقاسمها ما لا يحصى عدّه من المؤمنين، لقد كنت في سباق مع الملائكة، ألا تذكر؟ ترجو التفوّق على الكائنات النّورانيّة، فطمحت إلى مرتبة متاحة للإنسان تعلو مرتبة الملائكة!

في تلك اللّحظة، وأنت تراقب الفيلة الصّغيرة وتستمع إلى نغمة ناعسة تداعب فؤادك، تتأرجح بين معتقداتك القديمة المتطرّفة في تعلّقها بالمقدّس.. وبين قناعتك القائمة بأنّ وجودك العابر في هذا العالم لا يعني أحدا غيرك من الكائنات!

كانت معتقداتك الدّينيّة في السّابق تقدّم إجابات وافية عن الجوانب الثلاثة التي تشغل الإنسان بشأن مساره: أصل وجوده،

رحلتـه علـى الأرض، مآلـه بعـد المـوت. أمّـا الاعتقـاد الرّبـوبيّ فهـو يـردّ مصـدر الإنسـان إلى الإلـه الخالـق، لكنّـه ينتهي إلى أنّـك تحيـا في كـون مغلـق ليـس للإلـه دور فيـه.. سـواء في حياتـك أو بعـد المـوت. وذلـك يعـني أنّ هدفـك الأسـمى مـن الحيـاة هـو تحقيـق السّـعادة الدّنيويـة، أمّا مصيرك بعـد المـوت فهـو العـدم! لكـن أيّ سـعادة قـد تكـون ممكنـة وأنـت تعلـم أنّ موتـك يأخـذك إلى العـدم؟ أنـت تعيـش مترقّبـا فنـاءك، مثـل حامـل كفنـه بـين يديـه، صـدر بحقّـه حكـم الإعـدام ولا شيء عـلى الجانـب الآخـر قـد يعزّيـه في مصيبتـه!

لكـنّ عقلـك يرفـض أن تخسـر كلّ شيء بالمـوت! هـل بعـد أن داعبتـك أحـلام الخلـود ورؤيـة الخالـق تقنـع بفنـاء تـامّ، كأنّ ذاتـك -الفريـدة والمتفوّقـة- لـم تكـن شـيئا، وتقلّبـك في مسـالك الشـكّ والإيمـان، مقتربـا تـارة ومتبعـدا أخـرى، مضيعـة وقـت وجهـد.. لأنّ كلّ شيء سـينتهي إلى العـدم؟ كانـت تلـك الفكـرة تخيفـك أكـثر مـن أيّ شيء آخـر.. أكـثر مـن فكـرة الثـواب والعقـاب. لـم يكـن المـوت كابوسـا في السّـابق. بـل لعلّـك تمنّيـت موتـا في سـبيل اللـه. بـل لعلّـك ذرفـت الدّمـع في خلواتـك شـوقا للقـاء رسـول اللـه! أمّـا هـذا المـوت الـذي ليـس بعـده شيء.. فهـو مرعـب، مرعـب جـدّا.

نجحـت رغـم كلّ شيء في إسـكات صـوت عقلـك، وتخلّصـت مـن كآبتـك لبضعـة أيّـام. خرجـت برفقـة سـائقك «بـودي» الهنـدوسيّ لتتنقّـل مـن شرق الجزيـرة إلى غربهـا ومـن شـمالها إلى جنوبهـا، وتـزور معالمهـا السّـياحيّة الشّـهيرة مثـل أيّ سـائح تقليـديّ. تفتـح قلبـك لموجـات الدّهشـة وتسـتقبل بترحـاب هبـات يومـك مـن شـلالات وقصـور قائمـة على المـاء، ومعابـد هندوسـيّة نائيـة ذات معمـار فريـد وشرفـات متدرّجـة عامـرة بـالأرز!

أمضيـت بقيّـة الأسـبوع عـلى الطّريـق، سـارحا في ملكـوت اللـه بديـع

الصنع، لاهيا عن التفكير فيه بالتأمل في خلقه!

كانت المعابد مختلفة في بالي عنها في الهند. تلك الجزيرة ذات الأغلبيّة الهندوسيّة في بلد إسلاميّ الدّيانة كانت تزخر بما يزيد على عشرة آلاف معبد! كنت تفاجأ بها في كلّ ركن وكلّ شارع، وتباغتك الآلهة الحجريّة السّوداء التي تحفّ الطّرقات وتستقبلك في مداخل المطاعم والمحلّات. وقد وقفت مسحورا أمام بناء معبد «أولون دانو» بأسقفه الأحد عشر، مثل «باغودا» يابانيّة بطراز مميّز، تزداد ضيقا كلّما ارتفعت في عنان السّماء. على ضفاف بحيرة «براتان»، جلست تتأمّل المعبد المشيّد لتمجيد آلهة الماء، والذي يمثّل في البطاقات البريديّة ومطويّات وكالات الأسفار رمز الجزيرة دون منازع.

وعند غروب الشّمس، وقفت على شاطئ المحيط الهنديّ غرب بالي، تطالع مشهد معبد «تانا لوت» القائم على صخرة غير بعيد عن الشاطئ الحجريّ وقد غمرت المياه الممرّ الوحيد الذي يربط المبنى باليابسة، بينما أخذت الأمواج الهائجة تضرب قاعدة الصّخرة بلطخات عنيفة! كان عليك أن ترجع في وقت آخر، حين يكون المدّ منخفضا حتّى تتمكّن من زيارة الموقع، لكنّ منظر الجزيرة الصّغيرة المنعزلة كان له وقعه البليغ في وجدانك. تمثّلت «معبدك» المتخيّل من تمرين اليوغا، حيث تتقوقع روحك المعذّبة، وقد عصفت به أمواج الشّك والحيرة وأحاطت به من كلّ جانب. لقد رأيت نفسك هناك. شعرت أنّك تراقب المشهد من الخارج.. مثل مراقب محايد يرصد الأوضاع.

وحين هدأ الموج، وانسحب الماء نحو الأفق في زيارتك الثّانية، تمكّنت من عبور الممرّ. وقفت أمام البناء، كأنّما تقف قبالة روحك العارية. مددت ذراعك وقلت في نفسك: هيّا بنا، سنخرج سويّا من هذه الأزمة.. وسنكون بخير!

أنهيت أسبوع «بالي» برحلة بحريّة مبكّرة. أبحر مركب الصّيد الصّغير عند السّادسة صباحا من شاطئ «لوفينا» شمالي الجزيرة، وحالما أصبحت في عرض البحر، بانت لك مراكب الصّيد المشابهة تشقّ العباب في اتّجاه هدف واحد. كانت عشرات المراكب الخشبيّة الطّويلة والضّيقة تحمل سيّاحا يشهدون شروق الشّمس من موقع مميّز، ويستعدّون لملاقاة واحد من أذكى الحيوانات على سطح البسيطة: الدّولفين!

تتهادى المراكب وتبطئ من تقدّمها، تسكت محرّكاتها متربّصة وتنتظر. فجأة تظهر إشارة ما من بعض الصّيادين: لقد شوهدت الدّلافين! فتنطلق المحرّكات مزمجرة من جديد وتتسابق حتّى تخالها ستتلاصق رغم سعة البحر وامتداده، وتندفع صوب وجهة محدّدة. ثمّ ما تلبث أن تغيّر مسارها مع إشارة جديدة، ويتحرّك الكلّ مثل جسد واحد.. حتّى تبصر الدّلافين عن قرب، هنا وهناك، وتلتقط لها صورا كثيرة، وتملأ عينيك من مشهدها الخلّاب وهي تتقافز في حركات بهلوانيّة أخّاذة.. وحين يشعر الصيّاد بأنّ السّائح قد نال كفايته من الدّهشة، بعد ساعتين من المطاردة المسعورة، يقفل راجعا إلى الشّاطئ.

لقد كان كلّ ما رأيته في «بالي» رائعا. لا تنكر أنّك أمضيت وقتا رائقا. لقد دافعت الجزيرة أمام عينيك النّاقدتين عن صيتها أيّما دفاع، واستحقّت في نظرك الشّهرة الّتي حقّقتها لدى المسافرين ووكالات الأسفار حول العالم! لكنّ شيئا ما كان يزعجك طوال الوقت ويفسد متعتك.. البشر! في كلّ معلم زرته، كان النّاس يتدافعون، يتزاحمون ويتكلّمون بصخب. وأنت تحبّ الوحدة والسّكون.

لذلك، حالما وصلت إلى «لمبوك»، الجارة المسلمة -بعد رحلة جويّة أمدها نصف ساعة- كان ببالك خاطر واحد: كيف تحقّق بعض

الوحدة؟ كان ذلك ممكنا في لمبوك، بما أنها أقلّ شعبيّة لدى السيّاح وبنيتها التحتيّة أكثر تواضعا. كانت الجزيرة ذات لمسة أصيلة، بشواطئها البريّة غير المهيّئة وغاباتها الكثيفة صعبة الاقتحام. أفضيت برغبتك إلى موظّفة الاستقبال الثرثارة في فندقك الشاطئي وأعربت عن ضيقك بالضوضاء والزّحام، فأضاء وجهها بابتسامة ظافرة وهي تقترح:

- يمكنك زيارة بعض الجزر المهجورة في الجوار.. هل أحجز قاربا من أجلك؟

كانت هناك جزر كثيرة مهجورة متناثرة في المحيط، غير بعيد عن الجزر المأهولة التي عمّرها البشر. فمن ضمن مجموع الجزر المكونة لأرخبيل إندونيسيا العظيم التي يفوق عددها ثلاثة عشر ألف جزيرة، يعتبر أكثر من نصفها مهجورا من السكّان، ولا اسم له. راقت لك فكرة قضاء نهارك وحيدا على شاطئ منعزل، مثل «حيّ بن يقظان» يعيد اكتشاف العالم ويكتب مبادئ الفلسفة الأولى من وحي التجربة!

في الأساس، لم يكن الفندق الذي نزلت به مكتظا بالزوّار، ولا يزيد عدد غرفه على العشرة، فاختيارات ريم للفنادق في معظمها صغيرة وبسيطة -باستثناء فندق أوبود المميّز ذاك- للضغط على ميزانية الرّحلة ما أمكنها. لكنّ صراخ جيرانك الصّغار أثناء وجبة الإفطار، وركضهم الصّاخب حول المسبح أشعراك برغبة ملحّة بالعزلة.. في أقرب وقت.

خرجت في يومك الأوّل لزيارة شلالات لمبوك الشّهيرة، على أن تحجز قاربا صباح الغد. كان لا بدّ لك من رؤية المزار الأوّل للجزيرة قبل أن تبتعد نحو مغامرة فرديّة مجهولة المعالم في جزيرة مهجورة. بعد رحلة دامت ثلاث ساعات على متن سيّارة رباعيّة الدّفع، وصلت

إلى سفح بركان «رنجاني» الخامد. تبعت الدّليل الذي كان في انتظارك نحو منطقة الشّلالات. كان عليك أن تنزل ثلاثمائة وستين درجة حجريّة متعرّجة لتصل إلى مصبّ الشّلال الأوّل، يقودك الصّوت الهادر لتدفّق الماء من العلياء. كان الجميع غفيرا على الطّريق، وفي حوض الشّلال أيضا. عشرات الإندونيسيّين، يستحمّون في مياه النّبع المباركة. أنت تعرف الآن عن علاقة شعب هذه البلاد بهبات الطّبيعة. المياه التي تنبع من الجبل مقدّسة. خضت في الماء حتّى ركبتيك، ثمّ وقفت تحت مسار الدفق المنهمر من أعلى، واستسلمت لدقائق لعذوبة المياه الباردة التي غمرتك. حين أشار دليلك، انسحبت لتمضي وراءه في اتّجاه الشّلال الثّاني.

مشيت زهاء السّاعة، متمهّلا، متأمّلا، لا يعنيك طول المسافة ولا تراكض الأطفال من حولك. سرت في شعاب كثيفة، قطعت نهرا وعبرت جسرا، ثمّ ظهر الشّلال الثّاني. «تيو كيليب» العظيم! كنت في الأسفل، وكان جدار من الخضرة يسدّ الطريق عند نهاية الجدول. كان الماء ينبع من مواضع مختلفة من الحاجز الصّخري المكسوّ بطبقة يانعة من الحشائش والنّباتات. تلتقي ذرّات الماء المتناثرة في الهواء بخيوط الشّمس المتألّقة في ذاك الوقت من الظّهيرة لترسم أقواسا ملوّنة في الفضاء، فتسحر عينيك وتتعلّق بها في انبهار مثل طفل ساذج! كان يمكنك -وأنت الذي يأسره الجمال ويخلب لبّه- أن تمضي سحابة يومك قابعا على صخرة ملساء على جانب الجدول، قبالة الشّلال تتأمّله بلا كلل ولا ملل. وهل في الحياة متع تضاهي متعة التوحّد مع معجزات الخلق الفاتنة؟

أيقنت في تلك اللّحظة أنّك قد أخذت تعيد اكتشاف نفسك عبر هذه الرّحلة. لقد شغلك التّفكير في كلّ ما هو قبيح من سوءات النّفس البشريّة عن هواك القديم بالتأمّل. أين أنت من أمسيات

شاطئ «المرسى»، وشرفة بيت جدّك في «تستور» ساعة السّحر؟ أين أنت من تهذيب روحك بالشّعر العربيّ الأصيل والابتهالات الصّوفيّة والذّكر؟ هل أصبحت كومة من شعث يلتهم بعضه بعضا؟

رسا القارب الصّغير السّريع على الشّاطئ بعد ساعة من الإبحار، فنزلت وأنت الرّاكب الوحيد لتخوض أمتار الماء القليلة التي تفصلك عن اليابسة، بينما يوصيك الربّان للمرّة العاشرة بأن تكون في نفس المكان على السّاعة الرّابعة مساء، ليقلّك إلى فندقك على شاطئ «كوتا» من جديد. لم تكن هناك من وسيلة للعودة إلّا مراعاة الدّقة في موعدك مع قاربك. لا إرسال هاتفيًا هنا ولا وسيلة للتواصل مع العالم المتحضّر. إن كنت تريد ألا تبيت في العراء، فيجب عليك ألّا تبتعد كثيرا، وأن تضع علامة تذكّرك بموقع نزولك فلا تتوه في تجوالك. أشار الربّان إلى شجرة جوز هند مائلة باتّجاه الشاطئ وقال: هذه هي العلامة.

ألقيت نظرة شاملة على جزيرتك الخاصّة، ثم هززت رأسك في استحسان. إنّها جزيرتك أنت وحدك اليوم. أمام عينيك مساحة شاسعة من الرّمال البيضاء، المختلطة بالشعب المرجانيّة الميتة التي لفظتها الأمواج، وغابة كثيفة من الحشائش وأشجار جوز الهند والموز والمانجو والبابايا، وبحر ممتدّ إلى الأفق. بحر صافٍ شفّاف، كما تحبّ أن يكون، مغرٍ بالسّباحة.. والتأمّل. وقد فضّلت الثانية.. ليس على طريقة اليوغا، بل على طريقتك القديمة. افترشت منشفتك، وجلست في وضعية مريحة، مستندا إلى حقيبتك الصغيرة التي حوت متاع اليوم: وجبة غداء حضّرتها مضيّفتك بتفانٍ، آلة تصوير، قارورتي ماء، قناع الغوص وقصبة التنفّس.

إنه لا يختلف كثيرا عن الشّاطئ على الضفّة الأخرى حيث خلّفت

صدفة، لكن لا بشر هنا ولا معمار. أغمضت عينيك، ومتّعت سمعك بصوت الهدوء.. هدير الأمواج التي تضرب الشاطئ عند قدميك ونعيق النّوارس. تمدّدت هناك زهاء السّاعة.. تصغي إلى ما تهمس به الطبيعة في أذنيك من أسرار. أنت الآن حيّ بن يقظان آخر. وحيد على جزيرة نائية، والعالم يفتح ذراعيه بترحاب، ينتظر أن تلقي ذاتك في أحضانه، تكتشف خفايا الحياة المتوارية وراء حجاب.

لبست القناع ووضعت قصبة التنفّس في فمك وغطست. استمتعت ساعة أخرى بالفرجة على الأسماك الملوّنة التي تسبح تحتك، تفرّ من زالحتك الآدميّة وتختبئ في جحورها، ثمّ تطلّ بعد قليل في توجّس وفضول. عالم عجيب وساحر عند أطراف أصابعك، وأنت وحدك.. وحدك تماما، لا أحد يشاركك متعتك، ولا أحد تحدّثه في نهاية النّهار عن بهجة يومك. انقبضت عند ذلك الخاطر، فعدت إلى الشّاطئ. جفّفت نفسك وقد هبطت معنويّاتك فجأة.

جمعت حاجاتك، ثم ربطت منشفتك إلى جذع شجرة جوز الهند، وابتعدت في اتّجاه الغابة.

مشيت طويلا، في طريق متعرّجة غير ممهّدة تشقّ الدّغل، محاولا أن تحافظ على الاتّجاه نفسه. كانت الغابة أكثر اتّساعا من توقّعاتك. قدّرت أنّك قد تقطع الجزيرة طولا من شاطئ إلى آخر خلال ساعة واحدة. لكنّك تائه الآن ولا تعلم كم من الوقت يفصلك عن الجانب الآخر. راقبت ساعتك، كانت ثلاث ساعات تفصلك عن موعدك مع الرّبّان. إذا رجعت الآن، ستكون أمامك ساعتان إضافيّتان، ومملّتان.. أمّا إذا تابعت المسير، فقد تكتشف شيئا مدهشا ما على الجانب الآخر؟ قدّرت أنّ بإمكانك المجازفة لنصف ساعة أخرى. إذا لم تصل إلى الشاطئ، ترجع.

بعد دقائق قليلة، جذبت انتباهك صخور ملساء مرصّفة بشكل غريب. توقّفت لتأمّل ثلاث صخرات متوازنة بعضها فوق بعض، على نقاط ارتكاز غير بديهيّة البتّة. لم يكن تماسّها على الجوانب المسطّحة، بل من جهة النتوءات الأكثر حدّة. أخرجت آلة التّصوير على عجل، والتقطت صورة لما حسبته أعجوبة من عجائب الطبيعة النّادرة. ثمّ مددت يدك بحذر لتلمس الصّخرة العليا، فانهار التوازن الهشّ عند قدميك! أطلقت صيحة حسرة وندم، بعدما أفسدت أعجوبتك المكتشفة.. ثمّ ما لبثت حسرتك أن انطفأت حين انتبهت إلى مجموعة صخور أخرى على بعد أمتار قليلة، أربعة هذه المرّة، متراكمة هي أخرى في توازن مذهل. مددت بصرك أبعد وأبعد.. ففاجأتك المجموعة الهائلة للأبراج الصخريّة المتوازنة، مختلفة الأحجام والارتفاعات! جلت حول الموقع في انبهار، والتقطت صورا من زوايا مختلفة، وأنت تفكّر في التفسيرات الممكنة. ربّما كان أحدها برجا طبيعيّا، قلّده زوّار الجزيرة العابرون واحدا تلو الآخر، حتّى امتلأت المساحة المجاورة بالأشكال الصّخريّة؟ فتّشت عن تواريخ أو أسماء محتملة سجّلها الزوّار على جانب الطّريق الترابية أو نحتوها على الصّخور.. دون جدوى. بحثت عن إشارات أو علامات تدلّ على سلّم زمنيّ ما، بلا فائدة. واصلت مشيك في الاتّجاه الذي تمتدّ عبره أبراج الصّخور، حتّى شممت رائحة دخان! خلف الحشائش المرتفعة، ظهر أمامك فجأة كوخ صغير من الخيزران!

- مرحبا بالزّائر!

قبل أن تدرك حقيقة الأمر، ظهر رجل قصير ستّينيّ أصلع الرّأس عند المدخل.

- هذا يوم جميل.. السّمك جاهز إن كنت جائعا.

كان يتكلّم إنجليزية طليقة بلكنة محليّة خفيفة. رددت التحيّة في دهشة، ولبثت واقفا عند العتبة في ارتباك. في الدّاخل، لم يكن هناك سوى حصير من الخيزران لشخص واحد، وموقد بدائي تشوى عليه سمكتان متوسّطتا الحجم، وصندوق -من الخيزران أيضا- ممتلئ بحبّات جوز هند ومانجو وأناناس وبابايا؛ الأشجار الوحيدة التي تنمو على الجزيرة. في الركن البعيد، كان هناك صندوقان كبيران مغلقان، لا شكّ أنّهما يمثّلان خزانة الرّجل وحافظة متاعه.

- شكرا.. معي غدائي.

تذكّرت وجبتك التي أحضرتها معك، والتي لم تكن قد تناولتها بعد. كنت تنتظر بلوغ الشاطئ الآخر لتأخذ قسطا من الرّاحة وتأكل. راودك فجأة إحساس بالشّفقة على الرّجل الذي يعرض عليك وجبته المتواضعة، وربّما يكون قد مضى عليه زمن طويل منذ تناول طعاما نظيفا آتيا من وراء البحر. أخرجت صندوقك على الفور، وقلت في لهجة ودودة:

- ربّما نتقاسم وجبتينا؟!

ألقى الرّجل نظرة فاحصة على شطيرة الدّجاج وقطع البطاطس المقليّة والسّلطة، ثمّ هزّ رأسه في ترحاب. أخذت سمكة من شوائه، وراقبته في فضول وهو يتناول أصابع البطاطس ويتذوّقها ببطء وتمهّل، تاركا مسافة بين القضمة والقضمة. كان يأكل بهدوء أشبه بالخشوع، دون لهفة أو تهافت. أنهى قطع البطاطس، ثمّ ردّ إليك الصّندوق شاكرا، فعلّقت في استغراب:

- لم تأكل الشيء الكثير!

- أخشى أنّ معدتي لم تعد تستسيغ أنواعا كثيرة من الطعام. لكنّني لم أجد من الأدب أن أردّ دعوتك.

في الأثناء، كنت قد أنهيت سمكتك.

- لا آكل عـادة أكثر مـن سـمكة واحـدة. لكنّني علمـت بقدومـك اليـوم.. فشـويت سـمكة إضافية.

- علمت بقدومي؟!

حسـبت لوهلـة أنّ الرّجـل اتّفـق مـع الربّـان أو ربّمـا تواصـل مـع صاحبة الفندق، لكنّ ظنّـك تبخّـر حين هـزّ العجوز رأسـه مؤكـدا وهـو يضيـف شـارحا.

- أنا في تواصـل مسـتمرّ مع الطبيعـة.. وهـي تخـبرني بمـا يسـتجدّ في الجزيـرة.

- الطبيعة أخبرتك؟

- نعـم، السّـمكة الـتي اصطدتهـا تنبّـأت عـن غطسـك قـرب الشـاطئ الجنـوبي.

- لكنّك اصطدتها قرب شاطئ الشمال، فكيف عرفت؟

- الأسـماك تتواصـل فيمـا بينهـا، ألا تعلـم؟ وقدومـك اليـوم هـو الحـدث الأهـمّ الـذي شـغل مجتمـع الأسـماك في الشّـعاب المحيطـة بالجزيـرة.

ضحكت باستخفاف، لكنّ مضيّفك بدا جادّا تماما.

- إذا بقيـت هنـا أكـثر.. فربّمـا أعلّمـك كيـف تتواصـل مـع الطّبيعـة بـدورك.

لـم تعلّـق. إنّمـا ألقيـت نظـرة سريعـة عـلى سـاعتك. كانـت تشـير إلى الثانيـة بعـد الظهـر. إذا انطلقـت الآن، فسـيكون بوسـعك اللّحـاق بموعـدك مـع الرّبّـان.

- لكنّ الوقت ينفد منك.. وها قد حان موعد رحيلك.. يا للخسارة!

كان العجوز يقول ذلك في أسف، وهو يجمع بقايا الطّعام ويتحرّك في أرجاء الكوخ مولّيا إيّاك ظهره. فكّرت، لا شكّ أنّها خسارة بالنّسبة إليه، أن ترحل بهذه السّرعة، وقد وجد أخيرا من يجاذبه أطراف الحديث بعد دهر من الصّمت. ربّما تكون أسراره مجرّد خدعة لاستبقائك؟ لكنّ ذلك لم يزعجك البتّة. هذا رجل يرغب في صحبتك، وأنت لا تمانع الجلوس إليه والاستماع إلى بعض التّخاريف المسلّية! ماذا هناك لتفعله في فندقك وقد يكون أكثر أهمّية من هذا؟

- سأعود في الغد!

لوّح بكفّه دون أن يلتفت، كأنّما لا يكترث لوعدك.

- ماذا تريد أن أحضر لك من الضّفّة الأخرى؟

- فقط ارحل!

رقّ قلبك للهجته الجافّة وجفائه المفاجئ.

- أراك غدا!!

هتفت وأنت تسرع مغادرا، وتركض في اتّجاه الشّاطئ الجنوبيّ.

مساء، وأنت تستلقي في سريرك بالفندق الصّغير، فكّرت بالجزيرة المهجورة الّتي لم تكن مهجورة فعلا، وفي ساكنها الوحيد الّذي يترقّب الزّوّار ويعدّ لهم الشّواء. كانت هناك أسئلة كثيرة تودّ أن تطرحها عليه حين تراه مجدّدا.. كيف انتهى به الأمر هناك وحيدا، ولماذا يبقى؟ ولماذا يصنع أبراج الصّخور وكيف؟ وما هي أسراره المزعومة وطرق تواصله مع الطّبيعة؟

في الصّباح، جمعت في حقيبتك بعض الأدوات الّتي توقّعت أن تسعد العجوز الإندونيسي المنعزل: قطعة صابون من الفندق، إبرة خياطة وبعض الخيوط، إناء بلاستيك صغير، قوارير مياه فارغة وبعض قطع الملابس الّتي قرّرت أنّ بإمكانك الاستغناء عنها. في

طريقك إلى الميناء حيث ينتظرك القارب نفسه، توقّفت في السّوق، وانتقيت بعض قطع الفاكهة التي توقّعت أنّها لا تنمو على الجزيرة المهجورة. أخذت أيضا بعض الحلوى، علبة ملح، منشفة، وبعض الحبال. حزمت هداياك الصّغيرة ومضيت مبتسما.

لم يكن من العسير الوصول إلى كوخ العجوز هذه المرّة. استقبلتك ابتسامته الواسعة عند المدخل وهو يقول في حماس:

- لقد أحسنت بالعودة. كنت لتفوّت على نفسك الشيء الكثير!

تفحّص الهدايا التي أحضرتها في اهتمام، ثمّ قال في تحفّظ رغم امتنانه الظاهر:

- لم يكن عليك أن تكلّف نفسك هذه المشقّة.

بعد أن جمعها وخبّأها بحرص في أحد صناديق الخيزران خاصّته، قال وهو ينفض كفّيه ويضيف بلهجة جادّة:

- تستحقّ مكافأة.. ما رأيك في استكشاف كنز الجزيرة الأوّل؟

كنز الجزيرة؟ تساءلت في نفسك ساخرا إن كانت هناك سفينة قديمة محمّلة بالذّهب قد غرقت قرب الجزيرة، أو مدينة أطلنتيس ما مخفيّة في أعماق الغابة منذ دهور؟

قال بعد أن انطلقتما على الطّريق:

- لعلّك زرت شلالات بالي ولمبوك؟

لا يزال مشهد شلال لمبوك الهادر حاضرا في وجدانك وقد شكّل متعة لا تضاهى منذ يومين.

- حسنا.. سآخذك إلى شلال يفوقها جمالا وهيبة!

هكذا إذن. هذا هو الكنز. لم تكن تتوقّع الكثير بأيّة حال. لكنّ حتّى هذا لا يبدو مقنعا. إن كانت الجزيرة تحوي شلالا بهذه

العظمة، فإنّ أحدهم كان ليكتشف الأمر بطريقة ما ويجعله قبلة سياحيّة تدرّ أموالا طائلة، كما هو الحال مع كلّ المزارات الطبيعيّة في المنطقة!

- ما اسم الشلال؟

- هذه جزيرة لا اسم لها.. وشلالها لا اسم له أيضا!

هززت رأسك متفهّما، فأضاف على الفور:

- يمكنك أن تلقي عليها الاسم الذي يناسبك. هذه الجزيرة جزيرتك. أنت كولومبس اليوم!

ضحكت في استمتاع وراقت لك الفكرة.

- إذن، فلتكن جزيرة مالك!

هزّ رأسه يؤمّن على قولك.

- مالك هو اسمي.

لم يبد عليه الاهتمام ولا الفضول. تساءلت حينها، كم مرّة تكرّر المشهد في حياة العجوز؟ كم سائحا ساذجا عاد إلى بلده وهو يعتقد أن جزيرة في أرخبيل إندونيسيا قد صارت تحمل اسمه؟ كم اسما تعاقب على الجزيرة خفية، لتظلّ مهجورة وبلا اسم في نظر كلّ زائر جديد؟ لكنّ الأمر لم يكن ذا أهميّة إطلاقا. وحدها اللحظة الرّاهنة تحمل أهميّتها. هذا العجوز الإندونيسي يبدو مثل دليل سياحيّ محليّ يقصّ سيرة المكان. لكنّه يترك لزوّاره نسج الحكاية، ليكونوا أبطالها رغم إدراكهم زيفها.

- ماذا عن الشلال؟ هل سنطلق عليه اسما؟

فلتجاره في لعبته. لا بأس. غمرتك موجة رومانسية مفاجئة، فقلت على الفور:

- فليكن شلال سارة!

توقّفت مصدوما. كنت تقصد ريم بالتأكيد. وكيف يمكن أن تقصد غيرها وهي كلّ ما يشغلك في صحوك ومنامك؟ لكنّها زلّة لسان لعينة. محوت الأفكار السّخيفة بسرعة، واستعدت صفاء ذهنك. تمثّلت ريم بابتساماتها المشرقة والتفاتاتها الخلاّبة. إن كانت الجزيرة مالكا، فكنزها هو ريم.

حثثتما السّير عبر الأدغال، تارة تعبران جدولا وأخرى تتسلّقان هضابا قليلة الارتفاع، حتّى تبيّن لك هدير المياه المتدفّقة قبل أن يتراءى الشلال المتواري خلف الأجمات الكثيفة، بعد نصف ساعة من السّير. توقّفت عاقدا حاجبيك أمام مجرى الماء، ورفعت رأسك إلى مهبط الشلال. لم يكن ارتفاعه يزيد على الأمتار العشرة. هل يقارن بشلال تيو كيليب؟ قطعا لا! لا من حيث الارتفاع ولا الشكل ولا الغزارة. غمرتك الخيبة، والتفتّ إلى العجوز في عتاب. لكنّه غمزك وهو يواصل المسير:

- اتبعني!

سار حتّى وقف تحت المياه الباردة المتدفّقة. فتح ذراعيه وأغمض عينيه واستسلم لسياط الماء العنيفة تضرب رأسه. سألت فجأة وكأنّما أدركت شيئا:

- هل هي مياه مقدّسة؟

كنت في مرحلة سابقة قد اكتشفت أنّ الإندونيسيّين يعتبرون معظم منابع المياه الطبيعيّة مقدّسة، الباردة منها والحارّة، فيتبرّكون بها ويقيمون الطّقوس الخاصّة. أجاب دون أن يفتح عينيه:

- هل هي كذلك؟ هذا شلالك، هل نسيت؟ أنت من سمّاه، وأنت أدرى بمزاياه!

كان يصرخ حتّى يصلك صوته المغمور بالهدير. خضت عبر البركة واقتربت من موضعه، فتحرّك حين شعر بوجودك، وقال بابتسامة:

- هذا الشلال مميّز.. لأنّه شلّالك أنت وحدك.. لا أحد يزاحمك فيه.. شكرا لأنّك سمحت لي هذه المرّة بالاستمتاع بمياهه العذبة!

ثمّ تنحّى جانبا وسار في اتّجاه الضفّة، لتبقى وحدك تحت خيوط الماء المنهمرة. فتحت ذراعيك، واستقبلت البرودة اللاذعة التي غمرتك، رفعت رأسك، مغمضا عينيك، شربت رشفات من الماء الذي بلل شفتيك. لقد سبق لك أن سبحت في مياه الشلالات الأخرى أيضا، لكنّ الإحساس لم يكن بذلك النّقاء وتلك القوّة. لقد كان العجوز محقّا. هنا لا أحد يزاحمك. ليس هذا مزارا سياحيّا يتدافع حوله النّاس، ليغطس كلّ منهم في الماء لثوانٍ أو ربّما دقائق قليلة. هذا كنز مدفون في عمق الطبيعة، ولا بشر يصل إلى هنا غيركما.

يختفي إحساسك بما حولك وأنت تنغمس أكثر في العذوبة والبرودة. جلست لتنغمس حتّى كتفيك، ويبقى رأسك يتلقّى الدّفقات. وفي لحظة لم تدرك مدى دقّة توقيتها، انقطع وتر ما كنت قد أحكمت شدّه، فانفجرت باكيا!

أنت تقعي تحت سيل مياه الشلال قارسة البرودة، وأنهار حارّة تجري على وجنتيك.

يخطر ببالك فجأة دعاء استفتاح الصّلاة الذي لطالما تلوته عن ظهر قلب، بوجدان غائب: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب.. اللهم نقّني من الخطايا كما يُنقّى الثوب الأبيض من الدّنس.. اللهم اغسل خطاياي بالماء والثّلج والبرد».. وتتخيّل خطاياك وهي تُغسل بماء الشّلال، تتساقط عنك لتذوب في الحوض وتنجرف مع المجرى. لو كان لك يوما أن ترسم

صورة بليغة لمعاني الدّعاء، لما كان لك أن تأتي بصورة أشدّ بلاغة من مشهد الشلال يجلدك ويغسل بدنك، حتّى تعود مثل الثوب الأبيض.

فتحت عينيك بعد أمد لا تدري مداه. كان رأسك قد غدا ثقيلا، بعد أن ضربته المياه المنحدرة من شاهق ما شاء لها أن تضرب. كان سكون الطبيعة يخيّم على المكان من حولك. اختفى العجوز الإندونيسيّ، وكأنّما يفي بوعده بأن يكون الشلال لك وحدك اليوم. سحبت نفسك من الماء بصعوبة، وخطوت في اتّجاه الضفّة، يتضادّ إحساسك القريب بالخفّة مع ثقل ثيابك المشبعة بالماء.

جفّفت نفسك، ثمّ سرت متثاقلا، وأنت تلتفت من حين لآخر، لتلقي نظرة إضافية على مشهد شلال «ريم» العظيم. خارج الأجمة، كان العجوز في انتظارك. لم يكن عليه أن يسأل ليدرك مدى تأثّرك بالتجربة. رمقك في شفقة وهمهم:

– يا بنيّ.. أنت في وضع سيّئ للغاية!

-٩-

عـدت في اليـوم الثالـث، عـلى القـارب نفسـه، وقـد غـدت الجزيـرة المهجـورة -غير المهجـورة حقيقـة- كلّ ما تفكّر فيه. لـم تكـن في حاجـة إلى الوحـدة بقـدر حاجتـك إلى الصّحبـة المناسـبة. والعجـوز البـوذيّ المنعـزل كان صاحـب المرحلـة.

– منذ متى وأنت هنا؟

– خمسـة عشر عاما! تنقص أو تزيـد.. فقـد فقـدت الاهتمـام بالتقويم الزّمـني منـذ فترة.

– ولماذا اخترت العزلة؟

– أنا أحبّ النّاس.. لكنّني أحبّ نفسي أكثر!

افترّ ثغره عن ابتسامة شقيّة تخالطها مرارة جليّة.

– كنـت معلّما للأطفـال، في زمن مـا، وقـد أحببـت مهنـتي. لكنّـي كنـت بوذيّا وسـط أغلبيّة مسـلمة. النّـاس هنـا لا يهتمّون بدينك طالمـا كنـت في شـأنك، لكنّهـم كانـوا يخشـون عـلى أطفالهـم منّي.

– هل كنت تعلّم الأطفال الفلسفة البوذيّة؟

– كنت أفتح عيونهم على أسرار الحياة وفلسفتها!

ثمّ أضاف وهو يقف في عزم:

– تعال.. سأعلّمك اليوم كيف تتواصل مع الطّبيعة!

كنـت تنتظـر أن يفعـل، منـذ وعـدك في زيارتـك الأولى. تبعتـه إلى الأجمـة الـتي اكتشـفتها منـذ يومـين، حيـث أبـراج الحجـارة المرصوفـة عـلى جانـب وادٍ قليـل العمـق.

[illegible] حجارتك!

خطوتما داخل الوادي، وجمعتما عددا من الحجارة الصّقيلة والخشنة مختلفة الأحجام، ثمّ جلست إلى الأرض مقلّدا إيّاه. وضع قطعة أولى أمامه، ثمّ أمسك بالقطعة الثّانية بين كفّيه بشكل مائل. أخذ نفسا عميقا، ثمّ قال:

- قوّتك كلّها في أطراف أصابعك.. تتحسّس الحجر، تقدّر مركز ثقله وتبحث عن نقطة الارتكاز المناسبة. لا تخطئ، أنت لا تتحدّى الجاذبيّة! أنت تتّحد مع الطبيعة، تصبح أنت وهي والحجارة في كفّك واحدا.. حين تصل إلى مرحلة التّوازن.

بعد دقائق قليلة، كان البرج مشيّدا. صخرة ضخمة مثل حبّة بطيخ ناضجة تقبع في توازن تامّ فوق أخرى صغيرة بحجم بيضة! بدا الأمر يسيرا وهو ينفّذه ببساطة.

- يمكنك أن تجرّب بدورك.

هززت رأسك، ثمّ استدعيت تركيزك وسحبت شهيقا وأنت تنغمس في المهمّة. وضعت حجر الأساس وتأكّدت من ثباته، ثمّ التقطت قطعة أخرى أصغر حجما. لن تتسرّع، ستتقدّم خطوة خطوة. أملت الحجر بزاوية معقولة، وقدّرت أنّك عثرت على مركز الثّقل. أفلتّ الحجر، فتدحرج عند قدميك. ابتسم الرّجل وقال وهو يقوم من مجلسه ثمّ يبتعد:

- سأتركك تحاول.

ستحاول. كثيرا. وسيتدحرج الحجر في كلّ مرّة. قد يثبت للحظات، يتأرجح ويتمايل، ثمّ ينهار. ستشعر بالعبثيّة والسّخف وأنت تجلس لوقت لا تدرك مداه على الأرض، تحاول إتقان فنّ لم يخلق من أجلك!

ها أنت مثل حيّ بن يقظان، تكتشف قانون الجاذبيّة، تنطلق من البديهيّات.. هذه الحجارة موجودة، لأنّك تمسك بها بين يديك، تشعر بملمسها الخشن بين أصابعك. إنّها تسقط لأنّك لم تعثر بعد على نقطة الارتكاز المناسبة لها. هذا سبب وتلك نتيجة. جميع قوانين العلم تبنى على العلاقة بين السّبب والنّتيجة. العلم يتعامل مع الأشياء والقوانين التي تحكمها.. مع ما يمكن ملاحظته وقياسه. لو أنّ بين يديك ورقة وقلما وبعض الأدوات ومراجع الفيزياء لأمكنك حساب مركز الثقل وإسقاطه على سطح الحجر السفليّ. العجوز البوذيّ عرف كيف يفعل ذلك بدون حساب، بل بالتّجربة. إنّه حيّ بن يقظان حقيقيّ! لكنّ العلم لا يقدر على التّعامل مع الغيب أو مع الإله، أو مع ما قبل الزّمان وما خارج المكان.. ومع ذلك، فالعقل الإنسانيّ -عقل حيّ بن يقظان- قادر على إدراك وجود الإله!

تشرد بأفكارك بعيدا.. بعيدا عن الحجارة والأبراج المتوازنة. يداك تعملان بلا توقّف وعقلك يسبح في وضع بين المنام واليقظة.

حيّ بن يقظان، كان شخصيّتك الفلسفيّة المفضّلة منذ صغرك. ذلك الطّفل الذي نشأ وحيدا في جزيرة منعزلة، تعلّم بالتّجربة والملاحظة، أنّ الحيوانات لديها خاصّية غير جسمانيّة تميّزها عن الجماد والنّبات، فإذا فارقتها جمدت وفقدت ما يحرّكها، وأنّ تلك الخاصيّة هي حقيقة الحيوان وجوهره.. ما تعرفه بالنفس. وأنّ للموجودات خالقا أوجدها، وأنّ هذا الخالق الأوّل لم يوجده أحد، فهو «واجب الوجود».. وقرّر أن يعتني بالجسد الذي وهب له، فيطعمه ويطهّره، وأن يتشبّه بالإله الذي خلقه فيكتسب صفة العلم، وأن يتأمّل في ما يحيط به من مخلوقات ويدرك تجليّات الخالق فيها، فيمجّده ويسبّح بحمده!

حيّ بن يقظان أدرك جوهر الوجود دون حاجة إلى وحي.. بل

بفعل الفطر الدّيني لازم الإنسان منذ القدم. لا توجد جماعة بشريّة مهما تكن بدائيّة ليست لديها أفكار عن موجودات أو كيانات تعلو فوق الطبيعة. الفراعنة حنّطوا موتاهم ودفنوا كنوزهم معهم استعدادا لحياة بعد الموت. لكنّ خيال الإنسان قد يشطح بعيدا في مواجهة ما لا يدركه عقله. ليس كلّ البشر حيّ بن يقظان! والدّليل على ذلك كلّ الأساطير القديمة التي تمثّل الآلهة على هيئة بشريّة وحتّى حيوانيّة. وحين أصبح العقل البشريّ أكثر نضجا، أدرك عبث تصوّراته الأسطوريّة، فتقدّم نحو الفلسفة. وحتّى الفلسفة، مع أنّها قدّمت تصوّرات معقولة مع فلاسفة كثر، فإنّها أغرقت الكثيرين في بحار من الحيرة والاغتراب، ولم تقدّم إجابات شافية عن تحديد هويّة الإنسان ومعنى الحياة والغاية من الخلق...

أنت تعلم أنّ الإنسان ليس في حاجة إلى دين لإدراك وجود الله! هناك رغبة فطريّة لدى الإنسان في اعتناق دين ما.. أمّا دور العقل، فهو تقييم صحّة المضامين الدّينيّة. وقد تعدّدت الديانات مع اختلاف الحضارات وتدرّج الوعي والنضج، مشتركة في إيمانها بالخالق، متنوّعة في تحديد مقدّساتها وشعائرها. وقد عبّر جورج برنارد شو عن علاقة الأديان ببعضها بقوله: يوجد دين واحد، وصل إلينا في أكثر من مائة إصدارا

هل يتواصل الإله مع البشر فيرسل إليهم من يخبرهم بوجوده، ويعلّمهم كيف يعبدونه؟ لو أنّه لا يفعل، فهل يهتدون إلى عبادته بفطرتهم وتأمّلهم، كما فعل حيّ بن يقظان؟ لكن ليس البشر جميعا حيّ بن يقظان! والخزعبلات الدّينيّة التي رأيتها في فاراناسي دليل قاطع على ذلك! وهناك قرابة مليار من البشر يؤمنون بالهندوسيّة! لو أنّ الإله يترك مخلوقاته على سجيّتها، فإنّ معظمها سيضلّ السّبيل لا محالة...

ثبت الحجر!

أخـذت تتأمّـل حجريـك اللذيـن يعلـو أحدهمـا الآخـر في تـوازن مدهـش. لقـد نجحـت!

ظهر العجوز فجأة كأنما كان يراقبك طيلة الوقت:

- هـذا رائع.. لقـد أمضيـت شهرا أتـدرّب ساعات طويلة كلّ يـوم حتى أنجزت برجي الأوّل! لا شـكّ أنّ بداخلـك طاقة روحيّة هائلـة!

ابتسـمت. بـل في داخلـك عاصفة فكريّة هوجـاء. كـم مضى عليك في تأمّلاتـك الوجوديّة المؤرقـة؟ لا تـدري! لكنّـك جدّفـت بعيـدا، وأسرفـت في التفكير.

أخرجـت آلـة التّصويـر، والتقطـت صـورة تذكاريّـة لحجـرك المتـوازن. هـذا إنجـاز يسـتحقّ التوثيـق. لكـنّ حجريـن فقـط لا يصنعـان برجـا مدهشـا. هـل تثبّـت حجـرا آخـر؟ التقطـت قطعـة ملسـاء لامعـة، وقرفصـت مجـدّدا. حرّكـت الحجـر بيـن يديـك بخفّـة خبيـر يقـدّر الكتلـة ويختبـر الحـوافّ أيّها أصلـح للارتـكاز، ثـمّ أخـذت نفسـا عميقـا ومـددت ذراعـك لتضيـف إلى الـبرج طابقـا. أبعـدت كفّيـك في حـذر.. الحجـر مستقرّ في مكانـه! بـدا أنّـك تمكّنـت بسرعـة مذهلـة مـن فـنّ حسـبته لا يناسـبك منـذ سـاعة!

فجأة، ترنّح برج الحجارة، ثمّ انهارت كلّها على الأرض!

ضحكـت، رغـم الخيبـة. يلزمـك كثيـر مـن التّدريـب. لا بـأس بمحاولتـك الأولى.

- لا تسـتعجل.. سـتروّض الحجـارة إن أنـت دأبـت عـلى المحاولـة.. والأهـمّ أنّـك سـتروّض الطّاقـة الـتي بداخلـك، سـتجد مسـارها الطّبيعي وتنسـاب عـبر أصابعـك حـين تلامـس الحجـر.

- هل تصلّي؟

- عفواً!

لماذا يسألك الهندوس والبوذيّون عن الصّلاة بلا توقّف؟

- رصف الحجارة صلاة بالنّسبة لي. أصل إلى أعلى درجات الخشوع وأتخلّص من المشاعر السّيئة، حين أستغرق في تأمّل قانون التّوازن العجيب.. أشعر أنّ الإله يحدّثني عن معجزة خلقه، ويضع في كفّي قبساً من مقدرته اللّامتناهية...

حين رجعت إلى غرفتك بالفندق ذلك المساء، كان سؤال صغير يلحّ عليك: لو أنّك كنت حيّ بن يقظان، في جزيرة نائية، هل كنت تتمنّى أن يهبط عليك الوحي؟ أن يخاطبك الإله، يطمئنك إلى وجوده بالقرب منك، أنّه يراك ويسمع نجواك، وأنّك ستلقاه قريباً؟ هل كنت لترجو أن يعلّمك صلاة تخاطبه من خلالها، بطريقة ترضيه، وتزيح عن كاهلك حملاً ثقيلاً من الطاقات السّلبيّة المكبوتة؟

-١٠-

تستقرّ على متن طائرة الخطوط «الصّين الجنوبيّة» المتّجهة إلى «غوانغزو» وتلقي نظرة يملؤها الحنين من النافذة الصّغيرة إلى جوارك. تظهر لك السّماء زرقاء صافية تتفرّق في صفحتها كتل قطنيّة خفيفة، ومن تحتها مشاهد طبيعيّة ضبابيّة، كنت تمرح عبرها لأسبوعين حافلين. تودّع إندونيسيا، شلالاتها وجزرها، سهولها وهضابها، بحرها وشواطئها، العجوز البوذيّ وحجارته، وتمضي إلى بلد آخر حلمت ريم يوما بزيارته.

- إندونيسيا بلد رائع!

التفتُّ إلى جار مقعدك. كان شابًا أشقر كثّ اللّحية والشارب، يبدو عائدا من رحلة استجمام طويلة بيشرته التي تركت عليها الشّمس آثارها البيّنة وقميصه المزركش مفتوح الياقة. أومأت موافقا، فأضاف وهو يصافحك:

- دانيال.

أحسست بوخزة خفيفة في صدرك حين سماعك للاسم. أنت تذكر بالتّأكيد دانيال وراشيل، الزّوجين البريطانيّين اللذين صاحباك في رحلة «التحوّل» في فلسطين المحتلّة! تلقّيت كفّه بجفاء غير مقصود، لكنّه كشف عن البرودة الدّاخلية التي اعترتك. تمالكت نفسك ما استطعت ورسمتَ ابتسامة مرحّبة.

كان دانيال الجديد يصغرك بسنوات قليلة، وبدت لكنته الكنديّة واضحة. أخبرك أنّه كان يعمل محاسبا في موطنه. افترقت عنه رفيقته منذ ستّة أشهر، فاكتأب طويلا، ثمّ أخذ إجازة مفتوحة من العمل، وانطلق بحقيبة ظهر في رحلة حول العالم. أمضى شهرين في جنوب

شرق آسيا.. ماليزيا، سنغفورة، تايلند وإندونيسيا.. والآن ينوي قضاء شهر ونصف في الصّين.

- هل تحبّ الكونغ فو؟

كنت قد مارست الكاراتيه لسنوات ستّ خلال إقامتك في الرّياض، وأخذت بعض دروس الكونغ فو أثناء دراستك للطبّ في تونس. الرّياضات القتاليّة جزء لا يتجزّأ من تكوينك الجسديّ والعقليّ، إيمانا منك وممّن ربّوك بأنّ (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير). ابتسمت وأنت تردّ:

- نعم.. لقد مارسته في وقت مضى، حين كنت أكثر شبابا.

ضحكتما، ثمّ سألك دانيال مجدّدا:

- هل ستمضي وقتا طويلا في الصّين؟

- أسبوعين.

- فكّر في زيارة أكاديميّة شاولين للكونغ فو، على جبل كونيو! أنا ذاهب إلى هناك. سأمضي شهرا أتدرّب.. الكلفة لا تزيد على ثمانمائة دولار لقاء التّدريب والإقامة والمعيشة والتّنقل...

ابتسمت وأنت تتذكر تجربتك الماضية مع اليوغا. يمكنك أن تفعلها مرّة أخرى، تترك برنامج الرّحلة وتغيّر وجهتك؟

- لعلّك تزور الأكاديميّة وتلقي نظرة؟ يمكنك أن تجرّب لبضعة أيّام ثمّ تقرّر إن كنت تودّ البقاء أطول.. فكّر في هذا.

وضع بين يديك بطاقة عليها عنوان الأكاديميّة وأرقام التّواصل، إلى جوار رسم لمحارب كونغ فو بزيّ برتقاليّ فاقع، يقف على رجل واحدة، ويرفع الأخرى عاليا بشكل عموديّ. هززت رأسك، ثمّ خبّأت البطاقة في حقيبتك وقد أضمرت قرارا حاسما. لن تفعل. ما من

فضول يدفعك إلى ترك مسارك والانضمام إلى معسكر التدريب ذاك. أنت تعرف جيّدا ما هو الكونغ فو. انتهى.

رغم استئناسك بصحبة دانيال الشّابّ طيلة ساعات الرّحلة الخمس، كانت الذّكرى التي طفت على السّطح تنكأ جراحا قديمة لم تندمل. كنت مستعجلا للمضيّ في طريقك، الانغماس في مغامرتك الصّينيّة ونسيان الخواطر المزعجة!

تفارقت ودانيال عند قاعة استلام الأمتعة. كان عليه أن يستقلّ طائرة أخرى إلى بيكين، ومن ثمّ ينتقل إلى أكاديميّته القتاليّة. أمّا أنت فتستكشف جنوب البلاد قبل عاصمتها. ستمضي أسبوعا تتجوّل في أنحاء مقاطعة «غيلين»، «أرض التنين».

أحسست بمزاجك يتحسّن بشكل واضح، منذ غادرت «مدينة الموت» وتوغّلت في «أرض الإله» جنوب الهند. ثمّ جاءت الجزيرة الإندونيسيّة المهجورة لتهبك تجربة روحانيّة صافية وفريدة. وها أنت تصل إلى قطعة أخرى من الجنّة لتواصل رحلة شفاء لجراح روحك.

أمضيت أسبوعك الأوّل في انسجام تامّ مع الطّبيعة الخلّابة. تستيقظ صباحا على هديل يمامة بيضاء وادعة بنت عشّها عند نافذتك، فتستحضر أبياتا شجيّة قالها «أبو فراس الحمداني» الأمير الشاعر، وهو أسير في زنزانة بقلعة في أرض الرّوم، إثر حرب خاضها.. وقد ناحت حمامة خارج قضبان نافذة زنزانته. فتأمل الفارس بين معاناته في الأسر، وهو لا يعبأ بآلامه ويتحمّلها دون نواح.. وبين حالها وهي طليقة تنوح:

أيا جارتا ما أنصف الدهرُ بيننا	تَعَالَيْ أُقَاسِمْكِ الهُمُومَ تَعَالِي
تَعَالَيْ تَرَيْ رُوحًا لَدَيَّ ضَعِيفَةً	تَرَدَّدُ فِي جِسْمٍ يُعَذَّبُ بَالِي

أيَضْحَكُ مأسُورٌ وَتَبكي طَلِيقَةٌ   ويسكتُ محزونٌ ويندبُ سالِ؟

ثمّ تتناول إفطارًا خفيفًا طازجًا من منتجات المزارع القريبة -بيض وعسل وحليب وفواكه- وتنطلق لتقود درّاجة هوائيّة عبر الرّيف الصّينيّ. تحاذي مجرى النّهر ثمّ تهبط الأودية، تمرّ بالحقول والغابات والهضاب والجسور والسّواقي، وتلقي نظرة مشرفة من علٍ على القرى المتناثرة عبر أمواج الخضرة المشرقة.

في منطقة «يانغشو»، ركبت طوفًا من الخيزران، أخذ يتهادى عبر مجرى نهر «لي» وينزلق فوق السّدود التسعة التي تتخلّل المسار، واحدًا إثر الآخر. بينما يجدّف البحّار المنتصب عند رأسك بعصاه الباسقة، ترفع عينيك المأخوذتين إلى مشهد القمم المدوّرة المكسوّة رداءً من عشب، على مدّ بصرك الحسير تتوالى قباب خضراء بهيّة، مثل قامات ماثلة تحدّ النّهر وتحدّد مساره. في كتبهم الشّعبيّة القديمة، يصف الصّينيّون ذلك المنظر المهيب للتلال الجيريّة الشّاهقة التي نحتتها يد الطّبيعة بتعاقب دورات الانحلال والتصلّب، بـ«لؤلؤة الصّين» أو «أجمل مشهد طبيعي تحت السّماء»!

ثمّ انطلقت باتّجاه الشّمال قليلًا، لتشاهد شرفات الأرز التي شيّدت في شكل «عمود فقريّ لتنين عملاق»! في منطقة «لونغ شانغ» سترى بعينيك مساحات شاسعة من حقول الأرز، تصعّد إلى قمم الجبال. تبصرها من الأسفل مثل درجات عريضة تمهّد التلّ وتصنع منه سلّمًا سهل الارتقاء، لتستقبل المنبسطات المتتالية مشاتل الأرز، وتحوّل الجبال الوعرة إلى حقول! وتبصرها من أعلى، فتبدو درجات السلّم المغمورة بماء السّقيا مثل مرايا صقيلة لامعة تعكس لون السّماء! لقد رأيت حقول الشاي على التّلال الهنديّة، وشرفات أرز أخرى في إندونيسيا.. لكنّك لم تر مشهدًا بروعة العمود الفقري لتنين صينيّ!

سيروي لك الدّليل السّياحي قصّة تلك الحقول المدهشة. في عصر أسرة «يوان» الحاكمة، كانت مجموعات من الأقلّيات العرقيّة لقوميّات «تشوانغ» و«ياو» مطاردة من السّلطة، فتحصّنت بتلك المنطقة الجبليّة النائية ولاذت بها. ثمّ كان عليها أن توفّر أقواتها وتضمن معيشتها، فشرع الفلاحون الشجعان في صقل الجبال وزراعتها. لم يخطر ببال الأجداد الذين صنعوا شرفات الأرز أن حكمتهم وقوّة إرادتهم وعملهم الشّاق ستنتج مشهدا ساحرا بهذا الشكل. ستمرّ مئات السّنوات قبل أن تنقلب تلك المنطقة المنعزلة إلى مزار سياحيّ يفخر به الصّينيون!

على قارعة الطّريق، رأيت نساء «الياو» بأزيائهنّ التقليديّة السّوداء والحمراء، يحملن سلال الفاكهة المعروضة للبيع، ويتباهين بشعورهنّ السّوداء شديدة الطّول، مثل «ذات الشعر الذّهبي»!

- هل أنت متزوّج؟

سألك الدّليل مداعبا. ثمّ أخبرك أنّ تلك النّساء يقصصن شعورهن مرّتين في حياتهن: مرّة عندما يبلغن الثامنة عشرة، ومرّة أخرى عندما يتزوّجن. ستميّز العزباوات بشعرهن الملفوف والمغطّى بمنديل أسود، بينما تقوم النّساء المتزوّجات بلفّه على شكل كعكة أعلى الرّأس.

غادرت غيلين محمّل الذّاكرة بمشاهد حالمة، واستعددت لأسبوع ثانٍ كاتم للأنفاس في ظلّ المدنيّة الحديثة! عدت إلى غوانغزو لتمتطي طائرة أخرى تأخذك إلى بيكين. حالما غادرت بهو المطار ووجدت نفسك في الشّارع، صدّق أنفك حدسك! كانت بيكين في ذلك الوقت تنافس المدن الصّناعيّة الكبرى على مركز الصّدارة من حيث مستوى تلوّث الهواء. السّماء الرّماديّة الكالحة وذرّات الغبار العالقة في فتحات

أنفك الحسّاسة كانت تنبئك بأنّك مقبل على أيّام سوداء خانقة!

حين وصلت إلى الفندق، تذكّرت دانيال -بشكل مريح هذه المرّة! شعرت بإحساس مألوف، وأنت تدرس ذاك الخاطر الملحّ، أن تغيّر مسارك مرّة أخرى وتختار المجهول أصبح هو المعتاد في رحلتك هذه. ولم تندم على قرارك بالابتعاد عن مخطّطات السّياحة التقليديّة في كلّ مرّة. لقد كانت الرّسائل الخفيّة في انتظارك بتقدير عجيب. وقد كنت تبتسم في نفسك وأنت تفكّر فيما قد تعيشه من مغامرات استثنائيّة، إذا ما استجبت إلى ذاك الصّوت الهامس في أذنك. كان بإمكانك التفرّج على معالم بيكين المميّزة خلال يومين حافلين، ثمّ تفرّغ بقيّة وقتك لزيارة صديقك الجديد في أكاديميّة الكونغ فو. بدا ذلك التّدبير مرضيا، ممّا مكّنك من ترتيب محطّاتك المرتقبة في العاصمة الصّينيّة دون تذمّر.

بحثت بجدّ عن البطاقة الّتي ألقيتها في حقيبتك بإهمال منذ أسبوع، حتّى عثرت عليها. تأمّلت رسم الرّاهب المقاتل مرّة أخرى، ثمّ اتّصلت بالرّقم المدوّن. أجريت مكالمة مقتضبة مع موظّفة ذات لكنة عسيرة الفهم، لكنّها تدرك ما أنت طالبه. تكرّر بشكل آليّ تعليمات محدّدة:

- غدًا.. غدًا. محطّة القطار المركزيّة. السّاعة الخامسة مساءً.

كان الفندق الذي نزلت به عبارة عن قصر سابق لمسؤول سامٍ في عصر أسرة «تشينغ» الحاكمة، تحوّل منذ عقود قليلة إلى نزل تستقبل غرفه، المؤثّثة على نحو تقليديّ أصيل، الزوّار من مختلف أنحاء العالم. يقبع البناء في نهاية زقاق ضيّق في حيّ قديم من مركز العاصمة، غير بعيد عن «المدينة المحرّمة»، وما يحيط بها من متاحف وحدائق. ديكوره الأحمر الدّاكن يعتمد أساسا على خشب

الصَّندل الذي صنعت منه كلّ قطع الأثاث والأبواب وأعمدة السَّقف البارزة واللّوحات الزّيتيّة الباهتة. وكانت رائحة نفّاذة لبخور غريب تعبق في فضاء غرفتك. فتحت النّافذة العتيقة، تنشد تغيير الهواء، ثمّ ما لبثت أن أغلقتها حين تذكّرت التلوّث بالخارج!

خرجت بعد الظّهر لزيارة «المدينة المحرّمة»، فهالك الزّحام الشّديد عند المداخل وفي السّاحات والممرّات. آلاف الصّينيين والأجانب يتدافعون لإلقاء نظرة على قاعات القصور وباحاتها، كأنّما يثأرون من نظام الإمبراطوريّة.. فقد كان دخولها فيما مضى محرّما على العامّة، وحكرا على العائلة الحاكمة وخدمها!

مررت بغرف كثيرة، تتسع أو تضيق حسب الاستعمالات المخصّصة لها في ذلك الزّمن الغابر، وحدّقت بلوحات عديدة، تربّع فيها أباطرة مختلفون، بملامحهم الجامدة وعيونهم الضيّقة، وملابسهم الباذخة. وقفت أمام لوحة جداريّة ضخمة، تمثّل إمبراطورا ما، بثوبه الفضفاض الأحمر وحزامه الذّهبيّ العريض، يقف على منصّة العرش، وأمامه صفوف من الرّعيّة، ساجدين!

انتبهت فجأة إلى أنّك مذ وطئت قدماك الصّين، لم تقف على مظاهر تديّن كما فعلت في الهند وإندونيسيا. لم تلمح في أيّ من المدن والقرى التي زرتها معابد أو كنائس أو مساجد! لا أيقونات ولا صلبان ولا تماثيل ترحّب بك على أبواب المطاعم والمتاجر، ولا صلوات تتلى في أيّ وقت من النّهار. عدت إلى التّحديق في اللّوحة، تبحث عن الجواب بين ثناياها. هل استبدل الصّينيّون عبادة الآلهة بعبادة الحاكم؟

تسرح وأنت تتأمّل المشهد. تلك الحركة التي تعلن الخضوع والتّسليم التّامّين، تجعلك تتساءل.. هل هناك بشر في العالم

يستحق أن تسجد له؟ ملك أو إمبراطور؟ عالم أو راهب؟ نفسك الأبيّة تأنف أن تدقّ بها إلى منزلة مماثلة! تلك الأيادي الممدودة إلى الأمام، والجباه الملاصقة للأرض، والظهور المحنيّة في انكسار وتذلّل.. تعيد إلى ذاكرتك مشاهد سجود أخرى. تتوالى الصّور في رأسك في سرعة خاطفة.. صلواتك التي لم تتوقّف عنها منذ تعلّمت كيف تصلّي في سنّ السّادسة، سريعة مرتبكة أحيانا، ومطمئنة خاشعة في أحيان أخرى، سجودك الطّويل في ليالي رمضان، مبتهلا وذارفا العبرات في الحرم المكيّ، تعلّقك بأعمدة المقام في مسجد عائلتك في تستور.. ثمّ تتوقّف عند مشهد خارج الزّمان والمكان، شغلك تفكيرا في عهد بعيد وآخر قريب.. الملائكة يسجدون لآدم! يمكنك في تلك اللحظة أن تستوعب عصيان إبليس ورفضه السّجود. بقليل من المنطق، ما الذي يدعو كائنا فخورا ومعتدّا بذاته إلى السّجود أمام مخلوق آخر، ضعيف وقليل الحيلة؟

أمر مباشر من كيان أقوى وأعظم وأعلى!

يقول للشيء: «كن».. فيكون!

تدوّي الإجابة في رأسك مثل الصّاعقة. أمر من الإله الأعظم يجعل الملائكة يسجدون لبشر من طين، وإبراهيم يهمّ بذبح ابنه، والطّير الممزّق إلى أشلاء يتجمّع من جديد ويطير إلى مناديه، والجبال تخشع وتتفتّت، والموتى يهبّون من مرقدهم أحياء...

أنت لم تعد تؤمن بكلّ ذلك. لقد سقطت قدسيّة الأديان في عينيك منذ أمد، ولم تستعد سلطتها على فؤادك بعد. لكنّك تسترجع كلّ تلك القصص التي تعتبرها الآن «تراثا ثقافيا» نشأت عليه. لقد تمرّدت على وصاية الشّيوخ والرّهبان والكهنة، واخترت أن تكون في تواصل مباشر مع الخالق دون وساطة. هكذا تقنع نفسك. لكن

أين أنت من العبادة الآن؟ هل تؤمن بالقرآن؟ هل تؤمن بالرّسل والوحي؟ وماذا عن اليوم الآخر.. والقدر خيره وشرّه؟

تنقبض عند ذكر المعضلة التي أفقدتك صوابك وقذفت بك في متاهة الأسئلة. توقن أنّ مارد القمقم قد أفلت من عقاله، منذ مصادفة لقائك بدانيال آخر على متن الطائرة! أنت تعرف في داخلك أنّك لن تستعيد طمأنينتك وثقتك بإيمانك حتّى تفكّ الشيفرة المستعصية. لأنك تؤمن الآن بقوّة، أنّ عدوّ الحقيقة ليست الأكاذيب.. بل القناعات! لكنّك غير مستعدّ بعد للغوص مجدّدا في محيط الشكوك ذاك.

أخذت كفايتك من اللّوحات والتماثيل والزّخارف الفنيّة، ثمّ خرجت. تمشّيت عبر الحدائق، وسرت على غير هدى عبر دهاليز المتاحف، ثمّ اتّجهت إلى الفندق.

دلفت إلى مصعد البناية المشيّد حديثا بالنسبة إلى عمر القصر. طالعت وجهك في المرآة الجانبيّة. كنت مجهدا، يبدو ذلك جليّا للعيان. لقد هرمت يا مالك! أيّامك يسحب بعضها بعضا في سعي حثيث إلى الأربعين. وخط الشيب فوديك وأطراف لحيتك مبكّرا. لولا أنّك أخذت تحلقها منذ سنتين لكنت انتبهت، لكنّ ظروف السّفر قادتك إلى إهمال شكلك، فنبتت الشّعيرات في ذقنك وتكاثفت. وهذه التّجاعيد الطّفيفة عند زاوية عينيك، إنّها شاهد على ليالي سهاد طويلة وأرق مزمن، من فرط يقظة عقلية مستمرة، تجعلك في توتّر مقيم. أنت تدرك جيّدا أنّ ثمن اليقظة هو التوتر، لكنّك من الحكمة بما يكفي لتدفع راضيا هذا الثمن. مرّرت أصابعك بين خصلاتك السّبطة، كما تفعل عادة حين تتحسّس وتهمّ بأمر تحبّه، وجرّبت أن تبتسم لنفسك. أنت تحتاج مزيدا من الحماس في حياتك.

ثمّ انتبهت إلى صورتك معكوسة على مرآة ثانية خلفك. مالك آخر يقف وراءك، وآخر خلفه، يليه آخر. وقفت متأمّلا في الانعكاس المتكرّر إلى ما لا نهاية حتّى شعرت بالدّوار. ترسل المرآة الأخرى صورة فتعكسها الثّانية، مثل كرة طاولة تتقاذفانها باستمرار، حتّى تصبح متناهية البعد. تحرّك ذراعك أمام المرآة، فتتحرّك انعكاساتك الكثيرة بشكل مربك. تستمرّ مذهولا مثل طفل يكتشف لعبة جديدة. يتوقّف المصعد ويتفتح مصراعاه، ثمّ يغلقان، ويستأنف مساره صعودا ونزولا. يجاورك نزلاء آخرون للفندق، يتوقّفون عند طوابقهم وينصرفون، وأنت تراوح مكانك، مستغرقا كلّيا في تجربتك الفريدة.

يستيقظ الفيزيائيّ الشّغوف في داخلك، وأنت تسترجع تفاصيل شاهدتها منذ شهور برفقة ريم، في وثائقيّ عن نظريّة الأوتار الفائقة والأكوان المتوازية.

تفترض نظرية «الكون المرآة» وجود كون مواز -أو أكثر- تكون جزيئاته متماثلة تقريبا مع الموجودة في كوننا.. لكنّها تتصرّف بشكل مختلف! لا يمكن لأيّ من هذه الجزيئات أن تنتقل من عالم إلى آخر، وهذا ما يفسّر عدم قدرتنا على إدراك هذا الكون المرآة. ومع ذلك، يُعتقد أن النيوترونات يمكن أن تعبر مؤقّتا الحدود الفاصلة بين الكونين، في شكل ذبذبات.. ممّا يفسّر بشكل أنيق معضلة «المادّة المظلمة» لدى الفيزيائيّين، أو «الكتلة النّاقصة»، فهذا يعني أنّها جزء من الكون الموازي!

إنّ نظرية النسبية العامة -قانون الجاذبيّة- تشرح القوانين التي تحكم الأبعاد متناهية الكبر.. وميكانيكا الكمّ تفسّر تلك التي تحكم الأبعاد متناهية الصّغر. يعمل هذان النموذجان بشكل مثالي ويتم التحقق منهما تجريبيًا بدقة لا تصدّق بشكل منعزل.. المشكلة هي أن النّظريتين غير متجانستين!

لا شيء يمكن أن يكون مؤكدًا وفقًا لفيزياء الكم. يمكننا فقط التنبؤ بمدى احتمال أن يتصرف نظام من الجسيمات بطريقة معيّنة. كان عدم اليقين هو ما اختلف أينشتاين معه.. لم يستطع قبول ذاك المستوى من العشوائية في الطبيعة، فأمضى نصف عمره يحاول إثبات ما لا يمكن إثباته. كان إيمانه العقديّ ما كبّله. وقد أبدى رأيه في جملة شهيرة: «أنا مقتنع بأنّ الله لا يلعب النّرد مع الكون»!

لكنّ غيره من العلماء، أدرك قصور النظريّات المتوفّرة وانكبّ على استنباط غيرها. وتعدّ نظرية الأوتار واحدة من أقدم المحاولات التفسيريّة لجعل فيزياء الكم والجاذبية متوافقتين. تصف النظرية المادّة على أنّها كيانات مهتزّة أحادية البعد. هذه القطع متناهية الصّغر تسمى أوتارا. الطريقة التي يهتز بها الوتر ستخلق بروتونا، أو إلكترونا، أو نيوترينوا.. المشكلة: هي أنّ نظرية الأوتار لا تعمل في أبعاد المكان والزمان المعتادة -ثلاثة أبعاد للفضاء والبعد الزمني- بل تحتاج إلى عشرة أبعاد!

ولإضافة مزيد من التعقيد، بناءً على مبدأ الوضع الاهتزازي، هناك (عدد عشرة مرفوعة قوة خمسمائة) طريقة لإضافة أبعاد إضافية، ما يعني أنّ هناك 10^{500} تنويعات محتملة لنظرية الأوتار! وبالتالي عدد لا حصر له من الاحتمالات لأكوان مختلفة!

انبثقت فكرة مجنونة في ذهنك وابتلعتك في غياهبها.

تحاول أن تتمثّل وأنت تطالع مرآتك كيف يمكن أن يمتلك كلّ كيان صورا لا نهاية لها في أكوان موازية، مثل انعكاساتك المتكرّرة على مرآتين متقابلتين. تسرح بخيالك.. هل هناك نسخ لانهائيّة منك أنت، مالك، في عوالم كثيرة؟ أحدها يعيش إيمانه بنفس العمق القديم والتسليم اللامشروط، وأحدها اختار الإلحاد عقيدة لا يرجع

عنها.. وآخر لم يسافر قطّ إلى فلسطين المحتلّة، لم يلتق دانيال وراشيل، وتزوّج سارة منذ زمن! تفكّر، هل يمكن أن يكون قدرك نسيج خياراتك وقراراتك، بينما تعيش نسخك الأخرى قدرها المتعلّق بخياراتها؟ هل تنبثق الأكوان المتوازية أحدها من الآخر وتتكاثر، مثل خلايا تنقسم، مع كلّ تشعّب للخيارات الحرّة؟

تشرق شموس ساطعة تبهرك بنورها، وتهتزّ بنشوة عميقة تغمرك. تشعر بحمل ثقيل ينزاح عن كاهلك، وأنت ترسم مفهوما للقضاء والقدر يرضيك ويشفي غليلك. إنّه العدل، منتهى العدل، أن تتحمّل نتائج قراراتك مهما كانت.. في حين تظهر للنور نسخة أخرى منك في عالم موازٍ اتّخذت قرارا معاكسا، وتتحمّل نتائجه!

بتّ تلك اللّيلة قرير العين وقد غمرك الارتياح، وعرفت النّوم العميق الّذي حرمت منه منذ زمن.

-١١-

سور الصّين العظيم كان وجهتك في يومك الثاني والأخير في بيكين. لا يمكنك أن تزور الصّين وتتجاهل إحدى عجائبها المعماريّة، ناهيك عن ترؤسه قائمة عجائب الدّنيا السّبع.. مع أنّ جبال غيلين كانت «الأعجوبة» الحقيقيّة التي سحرتك! استيقظت في وقت مبكّر، لتنضمّ إلى وفد سياحيّ مختلط، ساعدك موظّف الفندق على تدبّر أمره، وتمضي إلى الضّاحية الشماليّة للعاصمة.

كانت هناك مواقع عدّة من السّور مفتوحة للزّوار، أوّلها قريب من العاصمة، وهو الجزء الذي تفانت الدّولة في ترميمه واستصلاحه حتّى يستعيد متانة بنائه القديم ويكون السير عبره يسيرا ومريحا، ولذلك فهو قبلة السّيّاح المحلّيين. أمّا ثانيها فيقع على مبعدة ساعتين، وهو في حالة ممتازة أيضا لكنّه مناسب لبعض التسلّق لارتفاعه عبر الهضاب، ويستهوي السّيّاح الأجانب أكثر نظرا لقلّة الزّحام. وهناك أقسام عدّة أخرى ينبغي قطع ساعات للوصول إليها، وهي وعرة في معظمها، تهدّمت بعض جوانبها ولم تصلها يد الإصلاح بشكل كلّيّ. وهي المفضّلة لدى المغامرين وناشدي الإثارة. اختار وفدك الموقع الثّاني بالإجماع.

كنت تعتقد في داخلك أنّ سور الصّين سيكون مجرّد ظاهرة سياحيّة فارغة أخرى. لقد تعلّمت من محطّات رحلتك السّابقة أنّ كلّ ما يتهافت عليه الجمهور رخيص ومستهلك! لطالما نفرت نفسك من الجمهور. إنّه القطيع الذي ليس بيده سوى التكرار والمحاكاة. أليس ألدّ أعدائك ثقافة القطيع، وموروث القطيع، وأخلاق العبيد

لدى القطيع؟

لقد عرفت أروع الاندهاشات في بقاع قفرة لا يقربها بشر، ومججت الزّحام عند أيقونات الحضارات المتوّجة! لم تكن تعلم أنّ تجربتك مع جبال الصّين ستتواصل، حتّى وأنت تقصد منشأة معماريّة صنعتها يد الإنسان.

الجبال في الصّين مختلفة عنها في بلاد العالم الأخرى. ليست مثل جبال الألب الّتي تبدو قالبا صلبا تعلوه قمم بارزة مثل نتوءات حادّة، تكسوها الثّلوج على مدار السّنة.. وليست مثل شعاب مكّة الّتي يبدو الجبل منها كومة حجارة مفتّتة رغم شموخها. كنت كلّما مررت بها في طريقك إلى العمرة برّا، خطرت ببالك الآية الكريمة: (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ). فكأنّما تلك هي الجبال المعنيّة، تفتّتت وبقيت متماسكة مكانها!

أمّا جبال الصّين فهي فريدة من نوعها، ويختلف بعضها عن الآخر. لقد سحرت نظرك القمم الجيريّة المكوّرة المكلّلة بالعشب في «يانغشو» وأدهشتك شرفات الأرز المعلّقة على جوانب الأودية السّحيقة في «لونغ شانغ».. وها هي مرتفعات «موتيانيو» تخلب لبّك وأنت تركب عربة القطار الهوائيّ -التليفيريك- في اتّجاه الجزء العلويّ من السّور الشّاهق. هذا بحر آخر من القمم ذات الكساء النّباتي النّضر على مدّ البصر! كان حاجز الحجارة، الّذي شيّد منذ أكثر من ألفي عام على مسافة قدرها ألفان وأربعمائة كيلومتر، ليحمي عاصمة الإمبراطوريّة من اجتياحات الشّعوب الشّمالية من المغول والتّرك، يشقّ طريقه بين أمواج الغابات والأعشاب بسلاسة، حتّى أنّ العين لا تحسبه دخيلا على الصّورة الطّبيعيّة الرّائقة.

سرعان ما انفصلت عن مجموعتك حالما لمست قدماك حجارة

الممرّ العتيق أعلى السّور. حثثت الخطى نحو الجزء المرتفع الذي يواصل تسلّق التّلال ويتعرّج خلالها. سرت لدقائق، حتّى وصلت إلى أحد أبراج المراقبة الثّانية الموزّعة بكثافة على امتداد ذاك الجزء من السّور. ارتقيت الدّرجات حتّى شرفة المشاهدة العلويّة، وملأت عينيك من المشهد. من موقعك المميّز ذاك، كان بإمكانك أن تبصر امتداد المنشأة العسكريّة العظيمة مثل شريط أفعوانيّ ملتوٍ، يصعد التّلال وينزل الوديان، لكيلومترات وكيلومترات كثيرة لا يسعك حصرها!

نزلت من السّور في مزاج جيّد. لم يكن يومك الثّاني في بيكين مضيعة للوقت في نهاية الأمر! بل لعلّك قد استعدت الكثير من الحماس الذي افتقدته منذ حادثة ريم. وأنت تمنّي نفسك بجرعة مكثّفة منه في الأيّام المقبلة.

عدت إلى الفندق حيث تركت حقيبة سفرك، واستقللت سيّارة أجرة إلى المحطّة المركزيّة. ستصل قبل السّاعة الخامسة كما تقتضي التّعليمات. على رصيف المحطّة الخارجيّ، لمحت الرّاهب الذي كان بانتظارك بثيابه البرتقاليّة المميّزة، ولافتة كرتونيّة تحمل اسم «أكاديميّة شاولين للكونغ فو». كانت حافلة صغيرة متوقّفة في شارع جانبيّ، لتقلّك وبقيّة المتدرّبين إلى مقرّ الأكاديميّة.

غفوت بعد ركوب الحافلة بدقائق معدودة. حين فتحت عينيك، كانت المركبة قد غادرت منطقة بيكين العمرانيّة من مدخلها الجنوبيّ، وأخذت تهتزّ عبر الطّريق الرّيفيّة المتعرّجة في اتّجاه قمّة جبل «كونليو». تلفّتّ حولك، فرأيت الرّاهب الكهل يحتلّ المقعد الأماميّ، وهو الدّليل المكلّف بتوصيلك إلى مركز التّدريب، بالإضافة إلى ثلاثة متدرّبين آخرين، شابّان وكهل أشيب، قد غرق كلّ منهم في نوم عميق. بينما كانت بقيّة المقاعد شاغرة.

توقفت الحافلة فجأة، في نهاية الطّريق المهيّأة، وأعلن السّائق أنّ أوان النّزول قد حان. ترجّل الجميع، وحمل كلّ مسافر حقيبة ظهره العريضة وتبع الدّليل عبر مسار ترابيّ يصعّد خلال الجبل، في حين وقفت لبرهة تتأمّل حقيبة متاعك المجرورة التي لم تكن ملائمة للظّرف القائم!

تحوّل شغفك بالجبال فجأة إلى لعنة. كانت الشّمس قد مالت إلى المغيب، وأخذ لون السّماء يتحوّل إلى السّواد تدريجيًا. كنت تشعر بالحنق وأنت ترفع حقيبتك فوق رأسك تارة وتسحبها تارة أخرى، وتتقدّم بصعوبة خلال الأحراش الشّائكة، حتّى مبنى أكاديميّة الكونغ فو المتواري في عمق الغابة المظلمة. تآمرت عليك الطّبيعة بكلّ جوانبها. كان المطر قد هطل في اللّيلة الفارطة، وأصبحت التربة على الطّريق موحلة ولزجة. حين وصلت أخيرا عند مدخل الأكاديميّة، كان حذاؤك قد ازداد كتلة طينيّة ثقيلة ومؤذية.

كنت تقف في باحة المقرّ، في حيرة، لا تدري ما تفعل بشأن حذائك المتّسخ وحقيبتك الملطّخة بالوحل، حين رأيت المتدرّبين يغادرون قاعات الدّرس ويتفرّقون في انتظار موعد العشاء. كان الرّاهب الذي قادك حتّى المدخل قد اختفى على الفور مع مرافقيه الثّلاثة، بينما تلكّأت وأنت تعاين الأضرار التي لحقت متاعك.

– لقد جئت!

رغم الإضاءة الخافتة في السّاحة، ميّزك دانيال، وهرع إليك مرحّبا. استقبلك بذراعين مفتوحتين مثل صديق قديم تربطك به عرى مودّة عميقة. أضاءت قسماتك وأنت تبادله الحضن الدّافئ ثمّ ابتسمت وأنت تصحبه إلى الدّاخل، بعد أن مكّنك من نعال خفيفة تخصّه. قال وهو يقودك عبر ممرّ المهجع:

- لقد هطلت الأمطار بغزارة في اليومين الماضيين.. كانت الطّريق سالكة حين وصلت الأسبوع الماضي.. والآن يضطرّون إلى السّير عبر معبر مختصر يشقّ الغابة.

كان يتحدّث عن الشّاحنة التي تزوّد الأكاديميّة بالمؤونة من القرية المجاورة بشكل يوميّ. كان على المتدرّبين عبور الغابة جيئة وذهابا لتفريغ حمولتها بعد أن سدّت كتل الحجارة المتساقطة من القمّة الطّريق الرّئيسيّة. دلفتما إلى الحجرة. كانت ضيّقة وبسيطة، كما كانت حجرة نومك في مركز اليوغا، وقد كانت تحوي سريرين يعلو أحدهما الآخر، خزانة ومكتبا، بالإضافة إلى حمام ومغسلة.

- لقد رحل شريكي في الغرفة منذ يومين ولم يعوّضه أحد بعد. لقد جئت في الوقت المناسب.. يمكننا أن ننزل في الغرفة ذاتها.

استمرّ دانيال يتّخذ القرارات عنك، وكأنّ استجابتك لدعوته كانت صكّ توكيل شامل بشأن بقيّة عطلتك في الصّين. لكنّك لم تعترض ورضيت بالسّرير العلويّ الشّاغر. اغتسلت وغيّرت ثيابك التي طالها أثر السّفر، ثمّ استمعت إلى رفيقك وهو يشرح لك كلّ شيء فيما يتعلّق ببرنامج التّدريب اليوميّ.

خلال فترة التّدريب القصيرة -من أسبوع إلى شهر واحد- يمكنك تعلّم تاريخ ونظريات كونغ فو الشاولين، حركات اللّكم والرّكل الأساسيّة، شكلا أو اثنين من أشكال «قبضة شاولين» أو -حسب مستوى مهارة المتدرّب- كيفيّة استعمال سلاح أساسي واحد مثل العصا أو السّيف، مبادئ الملاكمة الصّينية من خلال سجال بين شخصين، أبجديّة الماندرين ومبادئها الأساسية، الفلسفة الطاوية، فنون الخطّ، الوخز بالإبر والتدليك! أمّا إذا استمرّ التّدريب شهرا أو أكثر، فسيصبح الطالب غالبا قادرا على تكسير قطعة آجر بيد عارية!

بدا البرنامج واعدا للغاية. سألت دانيال الذي كان قد شرع يتدرّب منذ عشرة أيام:

- كيف هو تقدّمك؟

قفز فجأة واتّخذ وضعيّة الدّفاع بشكل مباغت رافعا قبضتيه المكوّرتين أمام وجهه وهتف:

- هل تنازلني؟

لوّحت بكفّيك متضاحكا وأعلنت الاستسلام، فضحك بدوره ثمّ قال وهو يتثاءب:

- لقد خرجت للتوّ من حصّة الفلسفة، أنت تدري كم تكون مملّة! لقد جئت من أجل القتال، وأظنّني أبلي بلاء حسنًا.. لكنّ تقدّمي في اللّغة الصّينيّة وفنّ الخطّ ووخز الإبر، فلنقل... محدودا!

ضحكنا من جديد ثمّ بادرته وأنت تطالع مطويّة البرنامج:

- هل ستكون قادرا على كسر قطعة الآجر قبل رحيلك؟

- قد أفاجئك وأفعل قبل رحيلك أنت!

غمزك وابتسامة اعتداد ترتسم على شفتيه. بدا ذلك مبشّرا. فكّرت أنّ عليك تحديد هدف لأيّامك الخمسة في الأكاديميّة! تحطيم الآجر؟ لقد فعلت ذلك مرّات وأنت تستعدّ لاختبار الحزام الأسود للكاراتيه! لكنّ عقدين من الزّمن يفصلانك عن آخر عمليّة تكسير مارستها. فنّ الخطّ؟ هذا شيء تجيده وتتميّز فيه! لقد كانت كتابتك العاديّة تبدو على الدّوام مثل مخطوطة تاريخيّة متقنة، سواء كانت بالحروف العربيّة أو اللاّتينيّة! مرّة أخرى، لقد توقّفت عن الكتابة منذ دخلت حياتك وسائل الاتّصال والرّقن الإلكترونية. مع ذلك، أنت تريد تجربة شيء جديد، يحملك إلى مستوى أعلى من التحكّم في قدراتك الجسديّة والعقليّة. فكّرت في ثلاثة مشاريع تستهويك: تعلّم

اللّغـة الصّينيّـة، استعمال السّـيف، والوخـز بالإبـر!

كنـت قـد جرّبـت منـذ سـنوات حمـل السّـلاح الآليّ في رحلـة فـرارك عـبر لبنـان. تتذكّـر تلـك الأيّـام بابتسـامة حالمـة. لـم تكـن التّجربـة الأنجـح أو الأمثـل، لكنّها شحنتك بمشاعر كثيفة وحاشـدة. لقـد قرّرت حينها أنّـك لـم تخلـق لحمـل البندقيّـة الآليّـة، لكنّ السّيف قـد يكـون سـلاحك المناسـب. محاربـو الكونـغ فـو المهـرة يعتـبرون سـلاحهم امتدادا لأجسـادهم، لا يختلـف التّلويـح بـه في الهـواء عـن تحريـك الـذّراع بسلاسـة!

أمّا الوخـز بالإبـر، فهـو فـنّ قديـم ورهيـب، يقـع في مكـان مـا في أوّل خـطّ الزّمـن الـذي يمثّـل تاريـخ مهنـة الطـبّ الـتي تمارسـها. لا شـكّ أنّـك سـتصبح أكـثر مهـارة في جراحـة العظـام إذا أدركـت سرّ مسـارات الطّاقـة الدّاخليّة في الجسـم، وكيفيّـة التّحكّـم بهـا.

واللّغـة الصّينيّـة لطالمـا بـدت لـك آسرة برموزهـا الشّـبيهة برسـوم راقصـة وغامضـة! تعلّـم أبجديّتهـا المعقّـدة يبـدو تحدّيـا مسـليّا لقدراتـك الذّهنيّـة الفائقـة الـتي وجهتهـا بالكليـة منـذ سـنوات إلى مهمتـك المقدسـة: البحـث عـن الحقيقـة المطلقـة.

لكن هل تكفي أيّامك الخمسة لتنجز شيئا ممّا عزمت عليه؟

تركـت متاعـك في غرفـة دانيـال، ثـمّ مضيـت للقـاء مديـر الأكاديميّـة. كان عليـك إجـراء اختبـار روتيـنيّ يحـدّد مـدى مهارتـك في فنـون القتـال، ويفصـلُ بشـأن الفرقـة الـتي ينبغـي أن تنضـمّ إليهـا. كنـت قـد اسـتعدت قـدرا لا بـأس بـه مـن لياقتـك ومرونتـك بعـد أسـبوع اليوغـا، والسّـباحة الحـرّة عـلى شـواطئ بـالي، فكنـت جاهـزا لاسـتئناف الفنـون القتاليّـة.

رغـم الوقـت المتأخّـر، اسـتقبلك الرّاهـب العجـوز بابتسـامة دمثـة، ثـمّ أشـار إليـك بالجلـوس، وقـرع جرسـا داخليـا عـلى مكتبـه. مـرّت

لحظات من الصّمت المحرج، تأمّلت خلالها أثاث المكتب المتواضع ومضيّفك القصير برأسه الأصلع المكوّر ولحيته الرّماديّة الطّويلة الّتي يربطها أسفل ذقنه، وعينيه الخفيّتين مثل شقّين وسط وجهه، وشفتيه المعلّقتين في وضع الابتسام، قبل أن يدخل طرف ثالث: المترجم! على خلاف الهنود والإندونيسيين، لم يكن الصّينيّون في معظمهم يتقنون اللغات الأجنبيّة. وقد واجهتك صعوبات جمّة طيلة رحلتك في الرّيف الجنوبيّ لتبلّغ مخاطبيك مرادك بإنجليزيّة مصحوبة بلغة الإشارات، ورهبان الشاولين لا يختلفون في ذلك عن مواطنيهم!

وقف المترجم بالقرب من المدير، وقد كان شابًا في العشرينيات، يبدو أقرب إلى طالب جامعة خجول، وأخذ يترجم كلام الرّاهب:

- حين تطلع الشّمس، يمكنك أن تمارس تمارين «التاي تشي» مع الآخرين، وقبل تناول وجبة الفطور، سيعقد اختبار للمتدرّبين الجدد، بعدها سيتقرّر إلى أيّ مجموعة تنضمّ.

يبدأ يومك الأوّل في أكاديميّة شاولين مبكّرا -بشكل يذكّرك إلى مدى بعيد بأسبوع معسكر اليوغا الذي تفصلك عنه الآن ثلاثة أسابيع كاملة- مباشرة بعد الشروق. توافد المتدرّبون من المهاجع، وقد ظهرت علامات النّعاس على محيّا الكثيرين. التّدريب القاسي طيلة النّهار والاستيقاظ مع شعاع الشّمس الأوّل مرهق لا شكّ. اكتظّت السّاحة بنحو خمسين متدرّبا من مختلف الشّرائح العمريّة وشتّى الجنسيّات، بعض الإناث وأغلبيّة ساحقة من الذّكور. المشهد الصّباحيّ ذاته من معسكر اليوغا بعيد نفسه، مع اختلاف شكليّ: متدرّبو الكونغ فو ملتزمون بزيّ «الكيمونو» الموحّد. تبادلت إيماءات وابتسامات مع وجوه مختلفة ترحّب بقدومك في صمت، ثمّ انتظم الجميع في صفوف متباعدة استعدادا لحصّة «التاي تشي».

بعد قليل، ظهر مدير الأكاديميّة العجوز وتصدّر الجمع. وقف طويلا، مغمض العينين، جامعا قبضتيه عند وسطه ومباعدا بين قدميه في وضعيّة الاستعداد. تلفتّ حولك، فرأيت الآخرين يقلّدونه. لبثت منتبها، تترقّب ما سيلي. ثمّ شرع المعلّم في تنفيذ تمارين «التاي تشي». أخذ يفرد ذراعيه أوّلا كأنّه يتمطّى، ثمّ ضمّ كفّيه إلى صدره كأنّه يحتضن جسدا وهميّا، قبل أن تنزلق يداه المبسوطتان على جسده إلى الأسفل. تعاقبت الحركات بطيئة ورشيقة، لكنّها منضبطة ودقيقة، مثل راقص باليه في مهمّة قتاليّة! أخذت تتبعه، متحرّيا المزامنة مع حركاته وسكناته ومراعيا لتفاصيل كلّ وضعيّة والتفاتة، موازيا بين الاسترخاء والقوّة. بعد بضع دقائق، كنت قد انسجمت في «الرّقصة»، وأصبحت جزءًا من الجسد الجماعي الذي ينساب في تناغم، مثل تدفّق تيّار ماء رقراق، في فضاء السّاحة الذي غمرته أشعّة صباحيّة دافئة. يستمرّ التسلسل في حيويّة رغم النّعومة الظاهرة، تحرّك كفّيك دائريّا، ثمّ تتقدّم خطوة، وترجع إلى الوراء، تدفع حاجزا وهميّا، تزيح كتلة لا مرئيّة، وتجذب حبلا خياليّا...

سرعان ما أدركت ما أنت بصدده. كانت حصّة تأمّل عبر الحركة! بالتّناقض مع تأمّل اليوغا السّاكن والسّلبيّ، كان تأمّل التاي تشي مبنيّا على اجتماع الاسترخاء العقلي مع الحضور الجسديّ. تتواصل الإيماءات النّاعمة، سلسة ومحكمة.. وتغمرك سكينة داخليّة مريحة ومخدّرة. أنت تسبح في الهواء، رغم ثبات قدميك على الأرض. تحوم حول الجبل، وتحلّق.

حين انتهت حصّة التاي تشي، التي استمرّت حوالي ساعة، كنت تشعر بالارتياح يغمرك. أدركت على الفور أنّ بدء اليوم التدريبي الطويل بتلك الممارسة المنعشة أمر مدروس وحكيم!

بعد أن انصرف الجميع إلى قاعة الطّعام، لم يبق غيرك ورفاق

رحلة الأمس الوافدين من بيكين. كان مدير الأكاديميّة في انتظاركم برفقة مترجمه الشابّ.

– التاي تشي رياضة قتاليّة «داخليّة»، إنها تركّز على البعد العقليّ والروحيّ، على عكس فنون الدّفاع عن النفس الخارجية.. مثل الكاراتيه. الحركات التي نمارسها تمثّل لغة جسدية.. هدفها تحقيق الانسجام بين الجسد والرّوح، على غرار نظريّة الين -طاقة الأرض- واليانغ -طاقة الرّوح- أساس الفلسفة الصّينيّة.. يكون التركيز على التكامل واتّحاد الأضداد.. على الرغم من بطء الحركة، فإنّنا نكرّس القوّة والمرونة والحيوية، ولكن أيضًا الهدوء والاسترخاء...

كنت تهزّ رأسك في حماس مع كلّ كلمة، تكاد تقفز من مكانك لتشدّ على يد المعلّم وتحدّثه عمّا عشته منذ قليل، وعن المعاني التي أدركتها خلال تجربتك الوليدة مع «التاي تشي». كنت متيقّنا بأنّ ساعة البكور تلك ستصير موعدك اليوميّ المفضّل، تماما كما كانت ساعة انتظار الشّروق في شرفة منزل جدّك بتستور، في عهد ساحق البعد!

بعد خطاب المدير التعريفي لفنون الكونغ فو والثقافة التي تنضوي تحت مظلّتها، جاء موعد الاختبار. كانت مسألة بسيطة وسريعة. وقف مدرّب من مدرّبي الأكاديميّة، وطلب من كلّ وافد تنفيذ جملة من الحركات متفاوتة الصّعوبة. بعضها يعتمد على القوّة، وآخر على الخفّة والمرونة أو التّوازن. ابتسمت، وأنت تتابع المختبرين الذين سبقوك، يفقدون توازنهم أو يلقّون قبضاتهم بشكل خاطئ، يرفعون أرجلهم أقلّ من المطلوب أو يعتذرون عن تأدية الحركة. حين جاء دورك، وقفت في اعتداد، ثمّ نفّذت الحركات برشاقة وصلابة، وكأنّك تستعيد سنوات مجدك الغابرة وتحرّك جذوة قد خمدت داخلك بتعاقب سنين الخمول! كنت راضيا عن نفسك،

وكذلك كان المدرّب، فانضممت دون صعوبة إلى المستوى المتقدّم للمتدرّبين المحترفين.

لكنّ الأمر انقلب إلى الضدّ في الاختبارات الفنيّة! كنت ضمن المبتدئين في الماندارين والخطّ الصّيني. أمّا الوخز بالإبر، فهو درس موحّد لكلّ المستويات.

انضممت أخيرا إلى دانيال على مائدة الإفطار. التهمت لقيمات سريعة وأنت تنبّئه باقتضاب بشأن اختبارك، ثمّ انصرف كلّ منكما إلى تمرينه.

خلال الأيّام التي تلت، كنتما تلتقيان خلال أوقات الطّعام، وفي دروس اللغة والفنون، ومساءً حين تنطفئ الأنوار بالخارج، تتسامران حتّى يحين موعد النّوم الإجباريّ في الأكاديميّة: التاسعة والنّصف. كنتما تضحكان كثيرا، وترويان نوادر عن يوميكما الحافلين، وقد اكتشفت بشيء من الدّهشة أنّ الكنديّين يمكن أن يكونوا ظرفاء، وأصحاب نكتة! كان تقاربك ودانيال، بالإضافة إلى الزّخم الذي حققته ممارسة الرّياضة بشكل مكثّف، يصنعان بمزاجك الأعاجيب. مرّ دهر منذ اشتعلت حماسة بذلك القدر. كنت تنهي يومك منهكا، مليئا بالكدمات، لكنّ روحك متوثّبة ومنتعشة! تمنّيت لو تمتدّ الأيّام الخمسة لتصير شهرا، أو شهرين.. أو سنة كاملة. لم تكن لتمانع الانعزال على قمّة جبل صينيّ بقيّة عمرك، لو أنّك تضمن لنفسك السّكينة والطمأنينة!

- التاي تشي.. إنّ هذه الرّياضة مذهلة حقّا! إنّها لا تبدو كذلك ظاهريّا.. لكنّها تغيّرك من الدّاخل، مثل مجرى ماء ينحت مساره عبر الجدول بقوّة ناعمة!

كنت ممدّدا على سريرك العلويّ، وقد انطفأت الأنوار كافّة في

الأكاديميّة وخلد ساكنوها إلى النّوم. يستمع إليك دانيال بجفون مثقلة، وأنت تقارن ربّما للمرّة العاشرة بين تقنيات اليوغا والتاي تشي. كنت تفتخر بكونك جرّبت تقنيات التأمّل المختلفة وصرت نوعا ما خبيرا بما يناسب مزاجك منها وأوقات يومك.. السّكون مقابل الحركة. قال دانيال بصوت ناعس:

- أليست لديكم في الشّرق الأوسط ممارسات مشابهة؟ التأمّل عن طريق الدّوران؟

ضحكت، وأنت تسأل في دهشة:

- الدّوران؟!

- لقد رأيت ذلك مرّة في شريط وثائقي.. فرقة دينيّة تمارس التأمّل، يرتدي مريدوها فساتين بيضاء وعمامات، ويدورون حول أنفسهم مرافقين تراتيم دينيّة...

الصّوفيّة! زويت ما بين حاجبيك في تفكير. لقد سافرت إلى بقاع العالم البعيدة، لتكتشف تقنيات التأمّل لدى الشّعوب الأخرى. لكنّك فعلا لم تطّلع على ثقافة قومك بهذا الصّدد. كان دانيال محقًّا. حتّى تكتمل تجربتك، كان عليك أن تقترب من تلك الفرقة التي لطالما اعتبرتها ذاتك القديمة مهرطقة!

خلال تلك الأيام، تعلّمت مهارة القتال بالسّيف، ليس بإتقان منقطع النّظير، لكن بشكل يدعو إلى الفخر، استحققت عليه تبريكات المدرّبين والزّملاء. كانت تدريباتك بسيف خشبيّ خفيف وغير مؤذ، تمسك بإحكام بمقبضه وتلوّح به في حركات رشيقة ودقيقة. بدا كأنّك مارست المبارزة منذ زمن طويل، وأنّه السّلاح الذي خلق من أجلك! وأنت تخبّ على الحصير من طرف قاعة التدريب إلى طرفها الآخر، تخيّل نفسك فارسا مغوارا، يمزّق الأعداء ويلحق بهم الهزائم.

تستيقظ جوانب نائمة من كيانك، كأنّك تنفخ على رماد روحك فتحيي جمرة كادت تخمد إلى الأبد.

لم يكن النّجاح حليفك في تجربة الوخز بالإبر بنفس القدر، فقد كانت الحصص قليلة ونظريّة. لكنّك ألممت بالمبادئ الأساسيّة، وربّما تقرّر يوما تعلّم الفنّ على يد إخصّائيّ في باريس. أمّا الماندارين، فقد فشلت فيه فشلا ذريعا! كان وقتك ينفد، والرّموز تتراقص أمام عينيك متشابهة ومتداخلة، فقد كانت الحصّة مسائيّة بعد العشاء، في وقت تكون فيه طاقتك في أدنى مستوياتها! حتّى قرّرت الانسحاب، بعد يومين، وآثرت أن تشحن بطّاريّاتك بشيء من التأمّل في الوقت الذي ينصرف فيه الجميع إلى الدّرس، وتخلو السّاحات من الروّاد.

رغم محاولاته الحثيثة، لم يفلح دانيال في كسر قطعة الآجر الّتي غدت تلازمه في صحوه ويحتضنها حتّى أثناء نومه! إنّه مصرّ على أن تشهد بنفسك مجده يتحقّق، لكنّ الوقت ينفد منه بسرعة.

في ليلتك الأخيرة في الأكاديميّة، تربّعت وحيدا في الباحة الخلفيّة كعادتك. كان القمر قد أوشك أن يكون بدرًا. ربّما تكتمل استدارته بعد ليلة أو ليلتين.. لكنّك لن تكون هناك لتشهد اكتماله من قمّة جبل كونيو! ستكون على أرض أخرى، وتحت سماء أخرى.

مددت بصرك، تملأ عينيك من مشهد الجبال المظلمة التي ألقى عليها القمر شعاعا باهتا. لقد كانت رحلتك إلى الصّين تحت عنوان الجبال؛ وقد كانت الجبال ذات رمزيّة دينيّة منذ القدم. سفينة نوح رست على جبل «الجوديّ»، وهاجر سعت بين جبلي «الصّفا» و«المروة»، وبنو إسرائيل رُفع فوقهم جبل «الطّور»، ومحمّد بن عبد الله نزل عليه الوحي في غار حراء، في جبل «النور».. واحتمى من ملاحقيه القرشيّين في جبل «غار ثور»، إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إنّ

[illegible]

تستحضر فجأة وجه سارة، نظرتها الحانية وأنت تحدّثها بأمرك في مكتبة الكلّيّة، وهمسها الحازم المستحثّ: لا تحزن إن الله معنا!

ترفع عينيك مرّة أخرى إلى قمّة جبل كونيو المحاذية، تفرّ من الذّكرى. في أعلى منبسط من الجبل يمكن السّعي إليه بعد الأكاديميّة، يقبع بناء معبد بوذيّ عتيق، يطلّ على الباحة حيث تجلس من علٍ. تتذكّر المعابد الكثيرة التي رأيتها في رحلاتك الأخيرة، في أعالي الجبال، وعلى الصّخور الوعرة، كأنّ العبادة لا تصلح إلّا في البقاع النّائية! لقد ترك موسى قومه وجلس يناجي ربّه أربعين ليلة عند الجبل.

تضطرب أنفاسك، وتيمّم ببصرك شطر الجبال الشّامخة قبالتك. يجفّ لعابك وينعقد لسانك. كم مضى عليك من دهور مذ خاطبته آخر مرّة؟ لقد ظلّ قرارك الأخير بعبادة خالقك على طريقتك معلّقا. كم مرّت بك من ليالٍ عجاف لم تفلح فيها في مناجاته رغم محاولاتك؟ هل نسيت كيف تكون خلوة العبد بربّه؟ أم أنّك لا تعرف سبيلا غير الطّرق القديمة التي نفرتها؟

لقد كنت يوما حيّ بن يقظان على جزيرة مهجورة، فهل يسعك هذه اللّيلة أن تكون موسى؟ تهمس بصوت خافت لا يسمعه غيرك، رغم السّكون المخيّم حولك، لكنّك تدرك يقينا أنّه يحصي حركاتك وسكناتك، ولا يفوته شيء من خلجاتك. تخرج حروفك مرتبكة باهتة، مثل زفرة طويلة متعبة:

- يا ربّ، يا إلهي.. يا خالقي.. أيّا كان اسمك.. أرني أنظر إليك!

تقلّب نظرك في المشهد الرّاكد حولك. لا جبال تدكّ ولا أجساد تخرّ مصعوقة. هل لديك أمل بأن ترى ما لم يره أحد؟ سحبت رجليك إلى المهجع مرغما. كان عليك تجهيز حقيبتك. سترحل في أولى ساعات الصّباح، لتلحق بطائرة في بيكين تقلّك إلى إسطنبول.

-١٢-

وصلت إلى الأراضي التّركيّة بنيّة مبيّتة وواضحة. لقد سافرت إلى أراضي الهندوس والبوذيين وتعلّمت عنهم ممارساتهم الرّوحانيّة دون أحكام مسبقة، وقد آن الأوان لتفعل الشيء نفسه مع المسلمين! لن يضرك ذلك في شيء. أنت الآن منفتح على الثّقافات الكونيّة كافّة.. ستتبع الدّليل إلى حيث يقودك. لكنّ دليلك الآن ليس عقليا أبدا، بل هو صوت قلبك.

نزلت في فندق مميّز، ككلّ اختيارات ريم، في منطقة «سلطان أحمد» المركزيّة. كانت الواجهة الزّجاجيّة لغرفتك بالطّابق الخامس تطلّ على معالم المدينة الأشهر: المسجد الأزرق، ومتحف آياصوفيا. أمّا قاعة الطّعام في الطّابق السّادس والأخير، فتحوي شرفة خارجيّة تسمح برؤية بحر مرمرة القريب وأسقف الدّور الحمراء، والقباب الكثيرة المنتشرة بقدر انتشار المساجد!

كنت متعبا بعد رحلتك الجويّة الطّويلة من بيكين، فتناولت وجبة عشائك في غرفتك، ثمّ اتّصلت بموظّف الاستقبال. كنت تريد حجزا لعرض «الدّراويش الدّوارين»، الذي وجدت إعلانا له في كتيّب الإرشاد السّياحيّ. كانت هناك عروض يوميّة، في قاعة «هاجو باشا» على السّاعة السّابعة مساء. لكنّ الإقبال شديد على ذلك العرض التّركيّ التّقليديّ من قبل الأجانب والأتراك على حدّ سواء. لم تجد مقعدا شاغرا لعرض الغد، لكنّك على قائمة الانتظار لليوم التّالي. ستتّصل بك الموظّفة في الغد لتأكيد الحجز إذا ما ألغى أحدهم حجزه.

استيقظت وأنت لا تزال مرهقا في صباح اليوم التّالي. كانت

عضلاتك لتنْ، بعد أن حرمتها من جرعة التّمارين اليوميّة المكثّفة نهار أمس. أو لعلّها قد شرعت تتعافى من الإنهاك الشّديد الذي عرّضتها إليه خلال إقامتك في أكاديميّة الكونغ فو.. لم تكن واثقا. احتسيت فنجان قهوتك في شرفة المطعم، وأنت تتابع في شرود النّوارس التي تحلّق في سماء المدينة، وتستمتع بمداعبة الشّمس الدّافئة لبشرتك. ثمّ خرجت تتمشّى في أنحاء الحيّ القديم.

تجاهلت الجامع الأزرق على يمينك، واتّجهت يسارا، إلى آياصوفيا. شيء ما في داخلك ما زال يتمنّع، رغم قرارك بقبول ثقافة «الآخر» مهما كانت. لكنّ الأمر يختلف حين يكون «الآخر» هو أنت ذاتك! ستصل إلى تلك المرحلة قريبا، لكنّك ستسير على مهل. كانت الكنيسة القديمة، التي غدت مسجدا ثمّ متحفا، محطّتك التّاريخيّة الأولى. سرت في تؤدة على الأرضيّة الرّخاميّة العتيقة، تتأمّل القباب والأقواس والفوانيس الذّهبيّة المعلّقة. هنا تلتقي النّوافذ المرتفعة ذات الزّجاج الملوّن -المميّزة للكنائس- والنّقوش العربيّة -التي تعرف بها المساجد.

خلال بقيّة النّهار، زرت «الكاتدرائيّة الصّهريج»، وهي بناء تحت الأرض، استخدم كخزّان ماء ضخم في العصر البيزنطيّ. نزلت الدّرج الحجريّ وعبرت الأروقة المظلمة ذات الإضاءة الخافتة التي أقيمت فوق الخزّان، تستمع إلى وقع أقدامك على البلاط، وتتأمّل الخيالات المرتسمة على سطح الماء. ثمّ مشيت حتّى قصر «طوبكابي» المهيب. تفرّجت على قاعات الحرملك والسلملك، سقوفها الخشبيّة المزخرفة وجدرانها المكسوّة بالخزف الملوّن، وتجوّلت عبر السّاحات والحدائق المطلّة على مضيق البوسفور.

كانت الشّمس قد اقتربت من المغيب، حين رجعت أدراجك إلى منتزه «سلطان أحمد». جلست على مقعد خشبيّ، تتأمّل وفود

السيّاح الأجانب والأتراك، حول النافورة الموسيقيّة الملوّنة، وعلى الأرض المعشوشبة، ثمّ انتهت نظراتك عند القباب الزّرقاء الشّاهقة والصّومعات السّت للجامع الأزرق. وقفت بلا تردّد وتركت العنان لساقيك، تقودانك بلا إرادة منك إلى باحة الجامع. كانت الفكرة تلازمك طيلة النّهار، وقد صرت الآن مستعدًّا للمواجهة.

فكّرت في نفسك ساخرا، ما الذي سيتغيّر هذه المرّة؟ لقد وقفت منذ شهور أمام الكعبة! أمام بيت الله الذي يحجّ إليه مسلمو العالم.. ولم تشعر بشيء! فما بالك بجامع غريب لا قصّة تربطك به ولا علاقة؟

لكنّك أهملت جزئيّة صغيرة. أنت نفسك قد تغيّرت! مالك الذي غادر باريس منذ شهر ونصف غاضبا ثائرا، ليس هو مالكا الذي يعبر الممشى في هذه اللّحظة بخطوات رزينة ومطمئنّة.

دلفت عبر البوّابة الجانبيّة المفضية إلى الحديقة العامّة، ثمّ مشيت عبر الفناء الرّخاميّ. كانت آخر المجموعات السّياحيّة تغادر المبنى بإرشاد من حرّاس الجامع، بينما يتوافد أفراد متفرّقون وعائلات مسلمة مع أطفالها من البوّابات المختلفة. رفعت رأسك تحاول الإلمام بالصّرح الشّاهق بنظرة شاملة. من حيث تقف، يمكنك إبصار أربع من الصّوامع الضّيقة المرتفعة إلى عنان السّماء، بالإضافة إلى الجزء العلويّ من القبّة الرّئيسيّة الضّخمة بتناظرها التّامّ.

فجأة تعالى صوت أذان المغرب صادحا في الفضاء، بصوت عذب رخيم، وأنت تقف في الفناء. أحاط بك النّداء الشّجيّ من كلّ جانب، وردّدت الجدران الحجريّة صداه، لتردّه إليك بسخاء مكثّف، حتّى خلته يتخلّلك وينفذ إلى داخلك. كان هناك شيء ما مميّز بخصوص ذاك الجامع.. تضافر الصّوت السّاحر مع الإضاءة الذّهبيّة النّاعسة

لقتلك بمقاومتك. سرت في جسدك رجفة باردة، وأنت تسترجع ماضيا بعيدا ومهيّجا للدّمع. مرّ ببالك جامع المرسي، والإمام الشابّ الذي كنت تصلّي وراءه في سنوات الكلّية الخالية، سنوات القبض على الجمر! حبست دموعك، ومضيت إلى الدّاخل.

كانت الأبواب المخصّصة للسيّاح قد أغلقت مع انتهاء مواعيد الزّيارة، ولم تبق إلا البوّابة الرّئيسيّة الخاصّة بالمصلّين. لم تفكّر كثيرا، وانضممت إلى وفود المصلّين. خلعت حذاءك، ووقفت على السّجاد الأحمر، عند الصّفوف الأخيرة. في الخلف، تصلّي النّساء وراء ساتر خشبيّ، بينما يركض أولاد في صخب ومرح. رفعت بصرك تتأمّل الجدران، ونوافذها ذات الزّجاج الفينيسيّ الملوّن. كانت شديدة الشّبه بنوافذ الكنيسة المجاورة! يبدو الطّراز المعماريّ للبناء مثل مزيج بديع للنّمط البيزنطيّ المسيحيّ والفنّ العثمانيّ الإسلاميّ، ممّا يجعله واحدا من أكثر المنشآت تفرّدا في العالم. وفي الأركان الأربعة، تنتصب أعمدة سميكة دائريّة، مثل أرجل فيل عملاق، ترتكز إليها القبّة المهيمنة على قاعة الصّلاة. وعلى الوجه الدّاخليّ للقباب، ميّزت قطع الخزف الزّرقاء القادمة من «نيقية»، والتي وهبت للمسجد الذي بناه «السلطان أحمد الأول» اسم «الجامع الأزرق».

جلست في سكون، وأصغيت إلى تلاوة الإمام، دون أن تشارك في الصّلاة. كان يقرأ مطلع سورة الأنبياء بصوت جهوريّ، وقد أنصتّ بكلّ جوارحك في عجب ودهشة، كيف تستقيم تلاوة فصيحة ومتقنة على لسان أعجميّ؟! كانت قراءة مجوّدة ومؤثّرة، من أجود ما سمعت في حياتك، وأنت الذي تتلمذت على أيدي أشهر المشايخ والحفّاظ، وتردّدت كثيرا على مساجد الحرمين!

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ* مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ* لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ

وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ* قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾.

وجدت للكلمات جرسا خاصّا، كأنّك تسمعها للمرّة الأولى. شعرت برهبة شديدة وغبت في تأمّل عميق.. وكأنّه الشّعور الذي انتاب عمر بن الخطّاب حين تناول الصّحيفة من أخته وابن عمّه، وقرأ مطلع سورة طه لأوّل مرّة فهزّت روحه بعنف!

كان مطلعا قويا يهزّ الغافلين هزّا. الحساب يقترب وهم في غفلة. وكلما جاءهم من القرآن جديد قابلوه باللهو والاستهتار. إنّها صورة للنفوس الفارغة التي تلهو في أخطر المواقف.. وتهزل في مواطن الجدّ. وهؤلاء الذين تصفهم الآيات كانوا يواجهون ما ينزل من القرآن ليكون دستورا للحياة ومنهاجا للعمل وقانونا للتعامل.. باللّعب! ويواجهون اقتراب الحساب بالغفلة! لكنّهم على سوات قلوبهم، لا يملكون أن يمنعوا أنفسهم من التأثّر بالقرآن.. فيلجؤون إلى مقاومته بالتعلّات. فقالوا إنّه سحر، وإنّه أحلام مجنونة، وإنّه شعر، وإنّه افتراء! ثمّ يخلصون من الحرج بطلب معجزة من الخوارق التي جاء بها الأوّلون. ولقد جاءت المعجزات من قبل، فلم يؤمن بها سائر المكابرين، فحقّ عليهم الهلاك.

كنتُ لا تزال متحيّرا بشأن الوحي. كيف يختار الله عباده الذين يتوجّه إليهم بخطابه دون غيرهم، وكيف ترفض نسبة كبيرة من البشر ذاك التفضيل.. كأنّ كلّ فرد منهم يقول في نفسه، لماذا لم يأتني الوحي مباشرة؟ لماذا لم يخاطبني الإله بنفسه وأرسل الرّسل؟

لكنّك تدرك في قرارة نفسك أنّ هبوط الوحي على كلّ فرد سيؤدّي

إلى جنـون البـشر كافّـة! التّواصـل المبـاشر مـع الخالـق ليـس متاحـا للمخلوقـات. بنيتهـا النّفسـيّة والعقليّـة لا تسـمح لهـا بتحمّـل التجـلّي الإلهـيّ. كلّ القصـص المأثـورة عـن الاتّصـال الإلهي بالبـشر تؤكّـد ذلـك. أولـم يسـقط مـوسى مصعوقـا حـين تجـلّ ربّـه للجبـل؟ أولـم يرجـع محمّـد مرتعـد الأطـراف، يقـول: «زمّلـوني زمّلـوني.. دثّـروني دثّـروني»؟ مـع أنّ هبـوط الوحـي كان بوسـيط، فكيـف بالتّواصـل المبـاشر؟ لذلـك اختـار اللّـه لتلـك المهمّـة الشّـاقة رجـالا متفوّقـين عـن غيرهـم، وزادهـم بسـطة في العلـم والجسـم.

تـدرك أنّ البـشر متفاوتـون في القـدرات العقليّـة. بعضهـم أهـل للقيـادة، والبعـض الآخـر أصلـح للعلـم أو الحـرف أو الأدب.. وقليـل هـم مـن يمسـكون بزمـام الفنـون كلّهـا. أمّـا العامّـة فغالبـا مـا تشـغلهم أمـور معيشـتهم عـن التّأمّـل والتفكـير في معضـلات الوجـود والغيبيّـات. تستسـلم لتلـك الحقيقـة الصّارخـة. إنّهـم يحتاجـون إلى مـن يأخـذ بأيديهـم ويرشـدهم.. وذاك هـو دور الرّسـل. إنّ للّـه حكمـة بالغـة في إرسـالهم. يخـبرون العامّـة عـن الإلـه، ويعلّمونهـم كيفيّـة عبادتـه.

يـأتي كلّ رسـول قومـه، وهـم يعرفونـه ويدركـون صدقـه وسـلامة طويّتـه.. ولـو جاءهـم غريـب لأنكـروه ونبـذوه. وقـد اقتضـت حكمـة اللـه أن يكـون الرّسـل مـن البـشر -لا مـن الملائكـة- يتلقـون الوحـي فيدعـون بـه. ولـو كان الرّسـل مـن غـير البـشر لا يأكلـون الطعـام، ولا يمشـون في الأسـواق، ولا يعاشرون النسـاء، ولا تعتلـج في صدورهـم عواطـف البـشر وانفعالاتهـم لمـا كانـت هنـاك وشـيجة بينهـم وبـين النّـاس.

حـين انتبهـت مـن اسـتغراقك، كانـت الصّـلاة قـد قضيـت وانـصرف المصلّـون، فوقفـت تهـمّ بالخـروج بـدورك. لكـنّ رجـلا في منتصـف الأربعينيـات اقـترب منـك مبتسـما. حيّـاك بتحيّـة الإسـلام، ثـمّ خاطبـك بالانجليزيـة:

- رأيت أنك لم تصلّ.. ففكّرت أنّك ربّما تتعرّف على الإسلام وتفكّر في اعتناقه؟

ابتسمت وأنت تكتم سخريتك، رغم التأثّر الذي كنت فيه منذ وهلة، ثمّ قلت:

- شيء من هذا القبيل.

- هل تريد أن أعرّفك إلى بعض الشّيوخ، إن كانت لديك استفسارات يردّون عليها؟

- شكرا.. لست مستعدًا لذلك بعد.

- إذا غيّرت رأيك، تعال لزيارتنا في المدرسة. هناك دروس تقدّم للأجانب عن الصّوفية يومي الاثنين والخميس...

استثار الاقتراح فضولك حين تطرّق إلى الصّوفية. دوّنت العنوان باهتمام ووعدته بالتفكير في الأمر، ثمّ انصرفت راضيا. لقد صار أمرا مفروغا منه في نظرك، كلّ لقاء لك في تلك الرّحلة كان ضمن خطّة إلهيّة مسطّرة، وكان عليك أن تستقبل الفرص التي تتاح لك بالحفاوة التي تستحق.

صباح الغد، مررت على مكتب الاستقبال قبل خروجك للتّجوال الصّباحيّ. حيّتك الموظّفة بابتسامة دمثة، وأكّدت حجزك المسائيّ لعرض الدّراويش الدّوارين، فانصرفت مطمئن البال.

ركبت القطار الكهربائيّ حتّى محطّة «إمينونو». تمشّيت عبر ممرّات سوق التّوابل المسقوفة لبعض الوقت، مستنشقا الرّوائح النفّاذة للبهارات والأعشاب، ومتذوّقا الحلويّات التركيّة الأصيلة، ثمّ قطعت المسافة التي تفصلك عن جسر «غالاتا» مشيا. مررت على عدد من مطاعم الأسماك في الطابق السفليّ للجسر، قبل أن تنتقي أحدها من أجل وجبة غدائك. جلست في الجلبة التي لا تحبّها، في ركن داخليّ

للمطعم المطلّ على مضيق البوسفور، واخترت صنفا من السّمك المشوي. جلست متذمّرا، وأنهيت طعامك على مضض. لم يكن بإمكانك الاستمتاع بالجلسة، مع كمّ العابرين الذين يحجبون عنك مشهد النّهر.

عدت أدراجك إلى رصيف الميناء، بعد أن أتخمت بالأكلة الدّسمة، ووقفت تطالع جدول مواعيد الرّحلات البحريّة. ما زالت أمامك بضع ساعات قبل بدء العرض، يمكنك أن تقضيها في جولة عبر البوسفور، على متن سفينة مكشوفة السّطح. اقتنيت تذكرة ووقفت مع المنتظرين.

حين وصلت السّفينة، تدافع المسافرون للصّعود إلى سطحها. كان من العسير العثور على مقعد في الطابق الأعلى قريبا من الحاجز الخلفي بشكل يسمح بتأمّل الماء وضفاف النهر. المزيد من الهرج والزّحام كانا في الموعد. لبثت واقفا عند أحد الأعمدة، سارحا ببصرك عبر معالم المدينة التي تلوح لك هلاميّة تحت شعاع الشمس، بينما بدت صفحة النّهر لامعة برّاقة، وتنهّدت.

يحملك مشهد السّفينة فجأة إلى التّفكير في سفينة نوح. لتخيّل المركب الضّخم الذي أوى المخلوقات كلّها، من كلّ زوجين اثنين حتّى يحفظ استمرار النّسل بعد الطّوفان. يخطر ببالك ابن نوح الذي أوى إلى جبل ظنّ أنّه سيعصمه من الطّوفان. لقد كذّب نبوّة والده، وهو من ربّاه ونشّأه. في حين صدّق أبو بكر محمّدا دون تفكير، حتّى سمّي الصّدّيق!

وهل كان إنكار ابن نوح لنبوة أبيه، ودعواه للتوحيد عن كره وحقد لأبيه؟ قطعا لا.. كان يكن له الحب والودّ، وإلا لما نادى نوح ربه، شافعا لابنه (ربّ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق) وهو يعلم

أنه غرق كافرًا (يا بنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين).

كان إنكار ابن نوح لأنه لم يقبل مفهوم التّسليم بإيمان دونما قناعة.. فكّرت بأنّ الله يضع في البشر درجات متفاوتة من الاستعداد لتقبّل المفاهيم الدّينيّة.

ثم قفزت إلى عقلك جدلية أخرى.

ما دام الله هو العدل المطلق.. فلماذا لم نأخذ جميعا كبشر الفرصة التي أخذها إبليس في معرفة الله واليقين بوجوده وملكوته الأعلى؟ وكيف يتساوى مصير إبليس وعنصره من الشياطين مع من لا يؤمنون من البشر بالله والنبوات، رغم أن إبليس رأى وسمع بل وجادل الله بذاته، وعاش بين الملائكة ورأى الملكوت الأعلى؟ فهل فرصتنا ككائنات بشرية في الوصول للحقيقة وسط كل هذا الخليط من العقائد والأديان، تتساوى مع ما أتيح لإبليس من فرصة معايشة الحياة بالتواصل المباشر مع الله والملائكة؟ أليس الله يقول: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون). وها هو يساوي في العقاب بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون.. فكيف يستقيم مفهوم العدل الإلهي؟ أليس انخراط جميع البشر في سباق نحو الجنّة بمعطيات مختلفة وصفات عقليّة ونفسيّة متباينة فيه ظلم؟

وقفت فتاة صغيرة في العاشرة من عمرها، وقالت بابتسامة عذبة:

- مقعد من أجلك يا عمّ!

ابتسمت في مزيج من الحرج والامتنان والاستنكار. منذ متى أصبحت «عمّاً»، تترك لك المقاعد في المواصلات؟ لعلّ اللّحية غير المهذّبة والشّيب قد أضافا إلى سنوات عمرك حفنة أخرى! كان المقعد القريب من الحاجز الجانبيّ مغريا، فقبلت العرض رغم انزعاجك الأوّل. من موقعك الجديد، تبصر بوضوح سرب طيور بيضاء تطير

منخفضة بالقرب من السّفينة، وتهبّ نسمة منعشة تدغدغ فؤادك.

أنت تريد أن تؤمن بشدّة بوجود حياة بعد الموت، بالثّواب والعقاب، بالجنّة والنّار! لا يمكن لصراعك النّفسي وبحثك المضني أن يسفرا عن لاشيء.. أن تنتهي إلى جثّة متعفّنة تتحلّل وتندثر! وهل يقبل عقلك الواعي أن يكون البديل لمفهوم «الخلود» -رغم ما يثيره لديك من ارتباك منطقي- هو مفهوم «العدمية» وما يلقيه في نفسك من رعب، وشعور بالدّونية لقيمة حياتك الحالية؟ ابتسمت -رغم معاناتك من مأساوية الفكرة- حين قفز إلى ذهنك: (أتستبدلون الذي أدنى بالذي هو خير).

تنتبه إلى ضحكات قريبة منك. كانت الفتاة قد استقرّت الآن في حضن والدتها، تشاركها المقعد بعد أن تبرّعت بمكانها، تتعانقان وتتشابك أيديهما في ألفة ومحبّة. يغمرك مشهد ذلك الحضن العائليّ بالدّفء، ويذكرك فجأة بحديث نبويّ.. (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)!!

الخالق الذي هو أعلم من عباده باستعداداتهم، لا شكّ يأخذها بعين الاعتبار عند الحساب! العدل الإلهيّ لا يكمن في معاملة البشر جميعًا بنفس المعايير، ولكن في محاسبة كلّ واحد تبعًا لظروفه التي خلقه بها.. هل تراه تكبّد العناء حتّى وصل، أم أنّ الطّريق كانت يسيرة ممهّدة؟ يتسلّل إليك الاطمئنان مع خيوط الشّمس التي تدغدغ بشرتك، وتستعيد كلمات معبّرة للشيخ الألباني كنت تردّدها في سالف أيّامك: (إنّ الطّريق إلى الله طويلة، ونحن نمضي فيها كالسّلحفاة. وليس الغاية أن تصل إلى نهاية الطّريق، ولكنّ الغاية أن نموت على الطّريق).

كان البهو غاصًا بالزّوّار حين وصلت إلى مركز «هاجو باشا». عدد

لا بأس به من الأجانب حضروا لاكتشاف وجه مشوّق آخر للثقافة التركيّة التقليدية، بالإضافة إلى الزّوّار المحلّيين. مبنى المركز الثّقافيّ الذي شيّد منذ أكثر من خمسة قرون، كان في يوم ما حمّاما تركيّا عامًّا في العصر العثمانيّ، تزيّنه القباب والأقواس العالية، ومن ثمّ رُمّم واستصلح، لتبقى حجارته العتيقة شاهدة على الحضارات المتعاقبة التي مرّت بتلك الجدران. أمّا الرّقصة اللّولبيّة الشّهيرة، فهي تقليد يتجاوز عمره ثمانمائة عام، وقد غدت تلك الأمسية الموسيقيّة اليوم واحدًا من أكثر العروض شعبية في العاصمة التّركيّة.

كان الحفل الذي يستمر ساعة واحدة، يُسبق بعرض مصوّر عن حياة «مولانا جلال الدّين الرّومي»، مؤسّس الطريقة المولاوية في القرن الثالث عشر الميلادي، مع توزيع كؤوس الشّاي الدّاق، ثمّ زيارة لمتحف متعلّقاته الشّخصيّة والأدوات المستخدمة في التّقاليد الصّوفيّة. قبل بدء العرض، وقف أحد المنظمين ليؤكّد على أنّ الجلسة ليست عرضا مسرحيًّا، بل هي طقوس دينيّة مقدّسة.. لذلك وجب احترام الدّراويش كما يستحقّون.

بعد أن استقرّ الحضور على المقاعد الموزّعة حول حلبة الرّقص الخشبيّة، لبثت في انتظار متشوّق. مرّت دقائق طويلة قبل أن يأخذ الدّراويش في التّوافد من مدخل جانبيّ. دلفوا واحدا إثر الآخر متسربلين بأردية سوداء، تعلو رؤوسهم طرابيش مرتفعة من اللّبد، ووقفوا منتظمين في صفّ واحد. رفعت عينيك إلى الشّرفة الوسطى المطلّة على القاعة. كان الموسيقيّون يأخذون أماكنهم بدورهم، ثمّ ما لبث العزف أن بدأ معلنا انطلاق جلسة «السّماع المولويّة». لم تكن تبصر الفرقة الموسيقيّة بوضوح من مقعدك بالطابق الأرضيّ، لكنّك ميّزت دون عناء إيقاع القانون وهمسات النّاي ترافقها قرعات خفيفة على الدفّ، حين تسلّلت نغمات تركيّة كلاسيكيّة لتعطي

إشارة البدء للدّراويش.

تحرّكوا في خطوات وئيدة، مطأطئي الرّؤوس، وتوزّعوا حول القاعة، بقيادة «شيخهم» الذي وقف في موقع مركزيّ، يرافقه سجّاد من الفرو الأحمر متّجه إلى القبلة. أخذوا يسيرون على الإيقاع، ينحني بعضهم للآخر في احترام، ثمّ يواصل السّير في دائرة، ثمّ يتوقّفون لثانيتين قبل الاستئناف مرّة أخرى.

بعد حين، نزع الدّراويش الأردية لتظهر أثوابهم البيضاء المميزة، تنّورة طويلة منسدلة إلى أسفل الكعبين، وسترة فضفاضة ذات أكمام، ونطاق عريض يشدّ الخصر. تتعانق أذرعهم متشابكة إلى الكتفين، مستعدّين لبدء الطّقس.. ثمّ يشرعون في الدّوران مغمضي العيون، في اتّجاه معاكس لدوران عقارب السّاعة، بخطوات ثقيلة مدروسة. ثمّ يفكّون أذرعهم، يرفع كلّ منهم الكفّ اليمنى في اتّجاه السّماء ليتقبّل بركات الرّحمان، في حين تتجه اليسرى التي يتعلّق نظره بها إلى الأرض في حركة واهبة معطاءة.. ويميل الرّأس كأنّما يثقله الطّربوش. تزداد الموسيقى حماسة ويشتدّ معها نسق دوران الدّراويش، وترتفع التنّورات الواسعة مثل نواعير هواء تنفخ حولها نسيما منعشا.

لم يكن هناك تصميم دقيق للرّقصة الجماعيّة، بل بدا كلّ درويش مستغرقا في رقصته منفصلا عن رفاقه، وعن العالم. إنّهم يدورون، لأنّهم يريدون ذلك أو يحتاجونه، مثلما تدور الكواكب حول نفسها وحول الشّمس، ومثلما تدور الإلكترونات حول نواة الذّرّة.. بعد برهة، أيقنت أنّهم لا يرقصون من أجل الجمهور، ولا يضعون اعتبارا لوجوده، كلّ منهم غائب في ملكوت آخر لا يُدرك.. وأنّ الحاضرين في الحقيقة محظوظون بفرصة مشاهدة تلك الطّقوس! لذلك شعرت بالاستياء حين شرع بعض الأجانب في التّصفيق. أحدهم لم يفقه شيئا ممّا يجري أمامه!

راقبت في انتباه دورانهم الصّامت وحركات الأيدي والرّؤوس الصّغيرة والمحكمة، بينما تطير التنّورات مثل أمواج عملاقة. كانوا متوازنين بشكل مبهر، محافظين على محورهم حتّى لا يشعرهم الدّوران بالدّوار أو الغثيان. تلمح أحذيتهم السّوداء وأقدامهم عندما يمرّون إلى جوارك، بينما تستقرّ قدم بثبات على الأرض، ترتفع الثّانية بشكل متقاطع لتدفع جسد الدّرويش في مسار لولبي.

يتواصل الدّوران سريعا، ربّما عشرون أو ثلاثون لفّة في الدّقيقة. لفّات ليست من أجل الحضور، بل لله وحده. بعد فترة، تستشعر تحوّل الرّقص إلى صلاة. وأنّك بشكل ما صرت جزءا من تلك الصّلاة!

فكّرت أنّهم ربّما يتدرّبون على تلك الحركات الدّائريّة المذهلة منذ طفولتهم بلا كلل أو ملل، مثل لاعبي الجمباز، حتّى يتغلغل مفهوم التّوازن في أعماقهم، ويصير الواحد منهم جرما كونيّا يحترف الدّوران! هذا يختلف عن اليوغا والتّاي تشي. تساءلت، هل هناك معسكرات لشهر واحد لتعليم الدّوران المتوازن على الطّريقة الصّوفيّة؟

حدثتك نفسك التّائهة إعجابا بالمشهد، هل يجسّد هؤلاء الرّاقصون في قداسة شعورية تجربة الشّاعر الّذي قال:

دَوَاؤُكَ فيكَ وَما تُبْصِرُ ... وَدَاؤُكَ مِنكَ وَما تَشْعُرُ

أَتَزْعَمُ أَنَّكَ جُرْمٌ صَغيرٌ ... وَفيكَ اِنطَوى العالَمُ الأَكبَرُ

فَأَنتَ الكِتابُ المُبينُ الَّذي ... بِأَحرُفِهِ يَظهَرُ المُضمَرُ

وَما حاجَةٌ لَكَ مِن خارِجٍ ... وَفِكرُكَ فيكَ وَما تُصدِرُ

في النّهاية، يدخل «شيخ الدّراويش» الحلقة، فيصطفون أمامه وينحنون، يرخون أرديتهم السّوداء على أكتافهم من جديد، بينما يصدح ذكر رخيم من المنصّة بأسماء الله الحسنى، لينتهي بالصّلاة

على النبيّ الخاتم. كنت تفهم تقريبا كلّ ما يقال، فقد كانت العبارات قريبة من العربيّة في معظمها، وتقدّر الخشوع الذي يبديه الدّراويش والمنشدون.. بينما كان بعض الأوروبيّين الشقر يهزّون رؤوسهم في استمتاع كأنّهم يصغون إلى مغنّي أوبرا!

حين عدت إلى غرفتك، بعد أن تأمّلت الدّراويش يلفّون ويلفّون لساعة كاملة، كانت فكرة واحدة تلحّ عليك.. أن تجرّب بنفسك! وقفت وسط الغرفة، رفعت ذراعيك وخطوت على مهل، تقلّد ما رأيته خلال السّهرة. لفّة أولى، ثمّ ثانية.. بدا الأمر ممكنا. لفّة أخرى، ثمّ رابعة.. ثمّ سقطت على السّرير!

كان اليوم الاثنين. عنوان المدرسة الصّوفيّة مدوّن على هاتفك، وجلسة السّماع زادتك فضولا لتعرف المزيد. لم يكن المبنى يبعد عن فندقك سوى شارعين. تمشّيت حتّى وصلت إلى المكان المقصود. على البوّابة، كان جدول الدّروس معروضا باللّغتين التركيّة والانجليزيّة. الدّرس يبدأ على السّاعة السّادسة.. وساعتك تشير إلى الرّابعة وخمسين دقيقة. هممت بالعودة أدراجك، لكنّك لمحت حركة بالدّاخل خلف الباب الموارب، فقرّرت الدّخول.

كانت هناك سيّدة لطيفة ترتدي الحجاب الإسلاميّ خلف مكتب الاستقبال، بينما وقف رجلان يتحدّثان. كانا يرتديان العباءات السّوداء التي رأيتها منذ يومين على الدّراويش الدّوّارين وعماماتهم الصّوفيّة المرتفعة. راقبتهما لثوانٍ في فضول، قبل أن تبادرك السّيّدة:

- هل يمكن أن أخدمك بشيء؟

تظاهرت بالجهل وسألت عن حصص الدّروس التي تقدّم للأجانب عن الصّوفيّة.

- الحصّة تبدأ خلال ساعة واحدة. يمكنك الانتظار بالدّاخل واحتساء بعض الشّاي.

أشارت إلى مقاعد واطئة عند المدخل، ومائدة مرتفعة عليها دلّة شاي تركيّ. أومأت شاكرا وجلست، بينما كانت عيناك تتابعان الرّجلين باهتمام. كانت حركاتهما بنفس السّكينة التي لمحتها خلال العرض، يتكلّمان بصوت هادئ لا يكاد يسمع، ينحني أحدهما للآخر ويضع كفّه على صدره، ثمّ يبتعد كلّ منهما في اتّجاه، بخطوات خفيفة.

كان سلوك الدّراويش في الحياة العاديّة لا يختلف عنه خلال جلسة السّماع، كأنّما هي امتداد لوجودهم، لا طقس خاصًا يفصلهم عن الواقع.

تذكّرت بأسى سيرتك القديمة. لا أثر للازدواج الذي عرفته أنت في ملامح الدّراويش.. هو وجه واحد يقابلون به العالم.

– مرحبا بك، لقد وصلت مبكّرا.

التفتّ إلى الرّجل الكهل الذي وقف أمامك. كان شيخا معمّما ببدلة عصريّة. صافحك بابتسامة، ثمّ رفع كفّه إلى صدره كما يفعل الدّراويش، قبل أن يبادر إلى الجلوس قبالتك. عرّف بنفسه بكلمات قليلة. كان القائم على نشاط المركز، فكّرت بأنّه لم يشأ أن يعبّر عن مهمّته بكلمات رنّانة مثل «مدير» أو «مشرف» على سبيل التّواضع، فازددت اهتماما. تحدّثتما لبعض الوقت، عن زيارتك لإسطنبول وانطباعك عن عرض الدّراويش الدّوّارين، ثمّ سألته في لهفة:

– هل هناك سبيل إلى تعلّم الطّريقة الصّوفيّة؟

– هل أنت مسلم؟

تردّدت، ثمّ أجبت بتلعثم:

– أنا مؤمن، وأبحث عن الطّريق للوصول إلى الله!

ابتسم الدّرويش ثمّ قال:

– هذا جيّد.. لكن، لا يمكن لزائر عابر أن يتعلّم طريقتنا ببساطة. تحتاج سنوات وسنوات تتدرّج خلالها عبر مراتب تهذيب النّفس وتزكيتها، لتصبح واحدا منّا.

أصابتك الخيبة. كنت مستعدّا لترك كلّ شيء، وإمضاء الأشهر السّتة المقبلة في معتكف صوفيّ! لا اليوغا ولا النّاي تشي -رغم ما

تتركانه في نفسك من بالغ الأثر - تنافسان الحالة الرّوحيّة التي تتلبّس الدّراويش.

- كلّ شهر أو اثنين، يظهر سائح أجنبيّ ويطلب تعلّم «الرّقص الصّوفي! هؤلاء السّذّج يعتقدون أنّ الصّوفيّة نوع من العروض، مثل الرّقص الشّرقي!

ضحك الشيخ، وشعرت بالحرج. إنّك تبدو الآن واحدا من أولئك السّذّج في نظر الشيخ الدّرويش! ثمّ استمعت إليه وهو يحدّثك عن مقاصد الصّوفيّة.

تعني كلمة الدرويش حرفيًا «المدخل» ويُعتقد أنّ الدّروشة بمفهومها العمليّ مدخل من هذا العالم المادي للعالم الرّوحي السّماوي. أمّا لفظ «صوفيّ» فهو عربيّ غالبا، لكنّ المعاصرين اختلفوا في أصله. منهم من يرى أنّه نسبة إلى الصّوف، وهو لباس الزّهاد والعبّاد الذين يتركون زينة الدّنيا إلا ما يقيم الأود ويستر العورة. ومنهم من يرى اشتقاقه من الصّفاء، وهي الحالة النّفسيّة الغالبة على أهل الطّريقة. وثالث ينسبه إلى كلمة «سوفيا» اليونانيّة، التي تعني الحكمة.

- لكنّني أميل إلى الرّأي الذي يقول أنّ التصوّف منسوب إلى أهل الصّفة، من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لمشابهتهم إيّاهم في الانقطاع لله تعالى والتجرّد له والاكتفاء بالقليل...

أمّا الدّوران حول النّفس فهو نوع من التأمّل أو المناجاة، يسعى الدّراويش من خلاله إلى الوصول إلى مرحلة الكمال.. بكبح شهوات النّفس وترقيق القلب وإرهاف الحواسّ. يعتبرون دورانهم حول أنفسهم تناغما مع حركة الكون، حيث ينظم الدّوران بنية الوجود، من الأجرام متناهية الصّغر إلى تلك الأكبر جرما.. فتنشأ الصّلة بين

الرّاقص والكون.

جلسة السّماع ذاتها مقسّمة إلى أربعة مقاطع، يتميّز كلّ منها بنسق موسيقيّ مختلف. المقطع الأوّل هو ولادة الحقيقة، الثاني يعبّر عن نشوة مشاهدة روعة الخلق، والثالث هو تحوّل النّشوة إلى حبّ، خضوع تامّ وتواصل مع الله. وأخيرا يأتي الرّابع تمثيلا لتفهّم الدّرويش لمصيره وعودته للنهوض بهمّته في الكون!

الموسيقى الصّوفيّة التي تدغدغ الحواسّ ليست أبدا لهوا من أجل المتعة والطّرب، بل أداة لتنقية القلب! لقد قام الرومي وأتباعه بدمج الموسيقى في طقوسهم لأنّهم يؤمنون بأنّ الموسيقى ترتقي بالرّوح إلى عوالم أخرى، حيث يمكنها سماع أنغام متسلّلة من أبواب الجنّة!

ثمّ أخذ الشّيخ يشرح رمزيّة كلّ حركة في طقس السّماع. الأزياء التي يرتديها الدّراويش الرّاقصون ترمز لعناصر مختلفة في شكلها ولونها. الثياب البيضاء تمثّل الكفن، والعباءة السّوداء كناية عن القبر.. وفي كلّ مرّة ينزع الدّرويش العباءة ويشرع في الدّوران، فإنّه يعيش ولادة روحيّة جديدة ويخطو نحو طقس التّطهير. ذراعاه المتقاطعتان على صدره ترمزان إلى وحدانيّة الله، وحين يفتحهما ويفردهما على الجانبين ويشرع في الدّوران من اليمين إلى اليسار، فهو يعانق العالم بأسره. كفّه اليمنى المتّجهة إلى السّماء، ترمز إلى جاهزيّته لاستقبال هبات الله، لتعبر الطّريق عبر القلب وتتركها الكفّ اليسرى المتّجهة إلى الأسفل على إخوانه في الإنسانيّة. الانحناءات الطّويلة بين الدّراويش هي تحيّة من «روح إلى أخرى».. فهذا ما يكون عليه الدّراويش خلال طقس السّماع. أرواحا مجرّدة.

- يقول الرّومي: «سرّ يدور داخلنا يجعل الكون يدور. الرّأس لا

يسير بالقدمين، والقدمان مكان الرّأس. لا يهمّ. إنّهم يواصلون الدّوران».

أمّا في حياتهم اليوميّة، فهم قوم مسالمون طيّبون ومتعفّفون. لا يغالون في ردود أفعالهم ولا يرفعون أصواتهم عند الحديث. وعند التحيّة، يضعون كفّهم اليمنى على صدورهم وينحنون قليلا، بمعنى «أنت في قلبي». وحتّى حين يصافح أحدهم الآخر، فإنّ لديهم طريقة عجيبة. يمسك أحدهم كفّ الآخر ويقبّل ظهرها، علامة الاحترام المتبادل و«المساواة في الوجود». كلّ حركة تبدر عنهم تنمّ عن رمزيّة عميقة تجذّرت في سلوكهم على مدار سنوات من التّدريب الصّارم.

– وما الذي يشعر به الدّرويش حين يدور؟

– ليست هناك نشوة جنونيّة ناتجة عن طقس الدّوران.. إن كنت تقصد هذا! لكنّ الدّرويش، من خلال تدريباته على التحكّم في التّوازن، يصل إلى مرحلة وعي فائق بجسده.. تجعله يترقّى إلى عوالم فوقيّة.

رفعت حاجبيك في اهتمام، فواصل الرّجل:

– هناك مراحل ثلاث للترقّي في الطريق إلى الله.. وهي: العلم، الرؤية والوصال.

هتفت في دهشة:

– الرؤية؟!

ضحك الشّيخ بلطف ثمّ أخذ يشرح:

– نحن لسنا خيرا من موسى عليه السّلام، ومن ادّعى رؤيته لله بعيني رأسه في يقظته، فهو كاذب.. لكنّنا لا نراه، لا لامتناع الرّؤية، بل لعجز في أبصارنا.. مثل المحدّق في الشّمس، لا يملك رؤيتها،

لأن أسعفنها تبهروا! لكنّنا نراه بعين القلب. المشاهدة تعني المداناة والمحاضرة والمكاشفة.. وهي تعبّر عن مشاهدة القلب ودوام وقوفه وانتصابه بين يدي الله تعالى لمّا آمن به حتى كأنه رآه رأي العين.

- وما الوصال إذن؟

- هو الانقطاع عمّا سوى الحقّ، وليس المراد به اتّصال الذّات بالذات لأنّ ذلك إنّما يكون بين جسمين وهذا التوهّم في حقه تعالى كفر! الوصال يلزمه انفصال عن الخلق والشهوات والمدنّسات، ومن لم ينفصل لم يتّصل.. وأدنى الوصال مشاهدة العبد ربّه تعالى بعين القلب، أي أنّ السّالك يعلم يقينا في قلبه أنّه هو الله الذي هو حاضر معنا وناظر إلينا وشاهد علينا.. وأمّا إذا كان بعد رفع الحجاب والكشف، عند تجلّي الذّات، فإنّه يرتقي إلى مقام الوصال. والسّالك يبدأ في مقام المحاضرة ثم المكاشفة ثم المشاهدة. فالمحاضرة لأهل علم اليقين والمكاشفة لأهل عين اليقين والمشاهدة لأهل حقّ اليقين...

سكتُّ، وفي داخلك حسرة وتعطّش وتوق لبلوغ تلك المراتب الرّفيعة التي لا ينالها إلا المجتبون المختارون، حتى دمعت عيناك. حين شعر الشّيخ بصدقك قال:

- التصوّف يا بنيّ ليس حكرا على الدّراويش.. يمكنك أن تكون سالكا على الطّريق إلى الله أينما كنت وكيفما كانت مشاغلك. إنّما ضع نصب عينيك هذه المبادئ المختصرة: الإخلاص شرط في العمل، والزّهد ركن في الطريق، والخلوة والصّمت مطلوبان. وخير العلم ما كان موضوعه الذّات العلية، إذ هو دالّ بأوله على خشية الله تعالى وبوسطه على معاملته وبآخره على معرفته والانقطاع إليه.

غادرت المركز بعد أن استمعت إلى محاضرة دامت ساعة ونصف

الساعة عن تاريخ التصوّف ومبادئه. كان المحاضر شابًا لا تبدو عليه علامات الدّروشة، لكنّه يتكلّم الإنجليزيّة بطلاقة، ويلقي الدّرس مثل أيّ معلّم يعاين النّظريّات من خارج الصّندوق لا من داخله! وأنت كنت تريد بشدّة أن تكون داخل الصّندوق. لقد أشعرك الحديث مع الشّيخ الدّرويش بألفة شديدة، فتمنّيت أن تجاذبه أطراف الحديث لوقت أطول، لولا أن قاطعكما دخول بقيّة الطّلاّب.

كنت غائب الذّهن خلال المحاضرة كلّها. وكانت كلمات الدّرويش تتردّد في رأسك طوال الوقت. علم اليقين، وعين اليقين، وحقّ اليقين! أين أنت من اليقين؟

حين خرجت من قاعة الدّرس، رأيته يقف عند مكتب الاستقبال، وبين يديه رزمة كتب. بادرك بابتسامة لطيفة، كأنّما هو بانتظارك.

- هذه بعض المؤلّفات من أجلك. أرجو أن تساعدك على تحقيق الصّفاء.

استلمت الحمولة بامتنان، ثمّ وضعت كفّك اليمنى على صدرك وأحنيت رأسك تردّ تحيّته بمثلها.. أنت في قلبي.

دخلت غرفة الفندق متحمّسًا. كانت بين يديك مادّة نظريّة كافية لتمهّد طريقك إلى سلّم التصوّف. وأنت ترغب بشدّة في ولوج ذلك العالم ومعانقته. قلّبت الكتب بين يديك لبرهة، متأمّلًا في عناوينها. ثمّ انتقيت ما بدا لك مناسبا لقضاء السّهرة. وضعته على المنضدة، وجهّزت لنفسك كوب شاي دافئ، ثمّ استويت على السّرير مستعدًا للمسامرة.

قبل البدء، فكّرت في تفقّد هاتفك. كان مغلقا معظم الوقت، ولم تسنّ لك فرصة فتحه منذ غادرت بيكين. ما إن أضاءت الشّاشة والتقط الجهاز إشارة الإرسال، حتّى ظهرت رسالة أمام عينيك..

رسالة من ريم!

توقّفت أمام الرّسالة المغلقة مصعوقا، ثمّ ما لبثت أن تمالكت نفسك. فكّرت أنّها قد تكون رسالة مسجّلة، مثل تلك التي وصلتك قبل رحيلك! خيّرت الحذر على الأمل. أوليس الأمل أسوأ الشرور، لأنّه يطيل أمد العذابات؟ سحبت نفسا عميقا وضغطت على الزرّ ليظهر نصّ الرّسالة:

«بنيّ، هذه والدة ريم. لقد وجدت رقمك على هاتفها، ففكّرت بالاتّصال. أدرك مدى اهتمامك لأمرها رغم غيابك، لذلك رأيت أن أعلمك بهذا. لقد توقّفت رئتا ريم عن العمل منذ يومين. واليوم انهارت كليتاها، وخفقات قلبها تتباطأ بشكل ملحوظ. إنّ كلّ ما يربطها بالحياة الآن هي تلك الآلات التي تبقيها بيننا، بينما تنسحب روحها قليلا قليلا. لقد اتّخذت قرارا صعبا بفصلها عن الأجهزة لترحل بسلام. لعلّك تريد وداعها قبل ذلك».

الفصل العاشر

- عودة -

-١-

طرت مثل سحابة نفخت فيها ريح عاصف. جمعت حاجياتك في سرعة البرق، وغادرت الفندق دون تفكير. وصلت إلى مطار أتاتورك قبيل العاشرة مساءً، قصدت مكتب الخطوط التركيّة واشتريت تذكرة للرّحلة المقبلة، ثمّ جلست تترقّب متقلّبا على الجمر. هل تعود محمّلا بالحكايات مثقلا بالتّجارب، ولا تجد ريم لتروي على مسامعها مغامراتك؟ ألم تقم بتلك الرّحلة من أجلكما معًا؟ ما الذي غنمته الآن وقد رحلت في غيابك؟

حاولت الاتّصال برقمها كثيرا دون فائدة. كان الهاتف مغلقا على الدّوام. عدت إلى الرّسالة وتمعّنت في تاريخها. كانت قد وصلت منذ أربعة أيّام! أتكون قد تأخّرت؟ أتكون قد انشغلت عنها بنفسك حتّى غابت إلى الأبد؟ دفنت وجهك بين كفّيك وانخرطت في بكاء مرير. كان الانتظار مرًّا، وألم الفقد قاسيا. كنت تأمل معجزة، والمعجزات سلاح ذو حدّين، إمّا أن تجدّد إيمانك أو أن تدفعك إلى شفير الجنون. والمعجزة التي تأملها ولا تأتي، تسلبك كلّ شيء، حتّى ثقتك في الأشياء الصغيرة الممكنة.

أربع ساعات، مدّة الرّحلة بين إسطنبول وباريس. تليها ساعة عند مكاتب الجوازات واستلام الحقائب. ثمّ ثلاثة أرباع السّاعة حتّى تصل إلى المستشفى. السّاعة تشير إلى الخامسة فجرا، وأنت تجهل ذلك. فقدت إحساسك بالزّمن، أو لعلّ كلّ الأوقات تتساوى، في حياة لا ريم فيها. تعبر ممرّات المستشفى ركضا، فلا تسمع إلا وقع خطواتك وصوت انسياب عجلات حقيبتك على الأرض الرّخاميّة.

اقتحمـت القسـم، وهرولـت في اتّجـاه سريـر ريـم. توقّفـت بغتـة بفرامـل خفيّـة، وأنـت تطالـع وجههـا الشّـاحب وعينيهـا المسـدلتين.

كانت لا تزال هناك. لكنّها ما عادت هناك.

هـذا الشّـبح الرّاقـد عـلى سريـر المستشـفى يشـبه ريـم إلى حـدّ كبير.. لكنّـه لا يحمـل شـيئا مـن نضارتهـا وشـقاوتها ودفء روحهـا. جلسـت إلى جوارهـا في إعيـاء والتقطـت كفّهـا الهزيلـة. حدّقـت في الأصابـع النّحيلـة الـتي غـدت عظامـا دقيقـة وبـارزة تغلّفهـا بـشرة هشّـة بيضـاء. اغرورقـت عينـاك بالدّمـع. لقـد غبـت عنهـا لسـبعة أسـابيع.. لتجدهـا عـلى تلـك الحـال المزريـة. يتنامى إليـك أزيـز إلكـترونيّ متواصـل يصـدر عـن الأجهـزة الـتي تزوّدهـا بالمحلـول المغـذّي والهـواء وتراقـب نبضـات قلبهـا. هـذا كلّ مـا يبقيهـا عـلى قيـد الحيـاة.

أسندت رأسك إلى جانب السّرير، ودون أن تشـعر أو ترغـب، غفـوت. كنـت مرهقـا ومنهـارا حـتّى الثّمالـة. اسـتيقظت عـلى وقـع خطـوات الطّاقـم الطّـبيّ داخـل الغرفـة. وصـل الطّبيـب المتابـع لحالـة ريـم، وبرفقتـه عـدد مـن الإخصّائيـين ووالدتهـا أيضـا. ابتسـمت حـين رأتـك:

- لقد جئت!

كنـت لا تـزال مشـوّشـا. تذكّـرت الرّسـالة فجـأة. لقـد نسـيت أمرهـا. صدمتـك لرؤيـة ريـم عـلى تلـك الحـال وسرورك ببقائهـا عـلى قيـد الحيـاة أذهـلاك عمّـا عداهمـا.

- لقد حان الوقت!

أعلن رئيس القسم بصوت خالٍ من أيّ انفعال.

- أيّ وقت؟

كانت نبرتك عدوانيّة ومتحفّزة. أجابت والدتها بهدوء:

- لقد انتهى الأمر يا بني.. هل رأيت ما آلت إليه الصغيرة المسكينة ؟

كانت على مشارف البكاء، لكنها تحافظ على سكينتها بثبات تحسد عليه .

- أرجو منك أن تخطو خارجا، ولا تعطّل العمليّة!

تنهمر العبرات سخيّة على وجنتيك.

- هل يمكنني وداعها؟

- لديك خمس دقائق.

أتاك ردّه جافّا حاسما.

أنت تغلي، بركان يفور داخلك.. لكنك مكبّل الذّراعين، تلفّك حبال من وهم. تحاول أن تقاوم فكرة النهاية، لكنّك تستسلم لها دون عناء. أوليست حال ريم دلالة عليها.. تلك النهاية؟ تدرك أنّك هناك لوداعها للمرّة الأخيرة لا أكثر. لقد تقبّلت الأمر، خلال ساعات السّفرة من إسطنبول، بل على امتداد الرّحلة ذاتها. كانت ريم تغدو شيئا فشيئا مجرّد ذكرى جميلة وعابرة في وجودك. وأنت مستعدّ الآن لإنهاء المرحلة.

لا لست مستعدّا!! وكيف يكون الاستعداد ممكنا لوداع لا لقاء بعده؟

تهاجمك الأسئلة القديمة.. أين تذهب روح ريم الآن إذا ما فارقت جسدها؟ هل تحتضنها أرواح أخرى وتحنو عليها فلا تعيش غربة في عالم البرزخ؟ كيف تلقى الإله الذي كفرت به؟ هل يؤاخذها لإعراضها عنه وعزوفها عن عبادته؟

تهمس في وجع، علّ روحها المرفرفة قريبا تصغي إلى مناجاتك:

[illegible] كنّا على خطأ يا حبيبتي.. هناك خالق للكون. ولعلّك الآن ماضية لملاقاته.

يعتصر الألم فؤادك. ماذا لو رحلت بدورك قبل أن تدرك الحقيقة؟ ريم لم تملك وقتا كافيا، باغتها الموت وهي في ريعان الشّباب وأوج العطاء.. لكنّك تملك فرصة إضافيّة.

- نفدت المهلة.

على الجانب الآخر من السّرير، تجلس الأمّ المكلومة في شجن، تحني هامسة في أذن صغيرتها بالشّهادتين! ثمّ تتلو على مسامعها آيات من حفظها. ترفع عينيها إليك وتبتسم. نفدت المهلة. تتراجع في استسلام، بينما يملأ الفريق الطّبيّ الغرفة. حانت ساعة الصّفر. يلقي صوت بارد أجوف التّعليمات، فتنطفئ الأجهزة واحدا إثر الآخر. ثمّ ينطلق صفير حادّ مستمرّ من آلة مراقبة القلب، ويظهر خطّ مستقيم ثابت على الشّاشة.. علامة توقّف الزّمن.

- ساعة الوفاة.. العاشرة وست دقائق.

هل يتوقّف الزّمن حقا؟ لقد توقّف بالنّسبة إليك في تلك اللّحظة. ترى العالم يستمرّ من حولك، لكنّك متجمّد في موضعك.

- تعازيّ الحارّة دكتور مالك!

صافحك الطّبيب المتابع لريم بجدّيّة جنائزيّة، بينما سلّمته كفّا باردة مرتخية. تلمح سريرها يخرج من الغرفة مدفوعا على عجلات إلى ثلاجة الموتى، وقد غطّي لحاف أبيض وجهها وسائر جسدها. أنت أيّها الطّبيب المقيم أدرى بمآل الجثث الباردة.

خرجت من المستشفى، تجرّ حقيبتك وأذيال حسرة وضياع. لقد انتهى كلّ شيء. دلفت إلى شقّتك، واستلقيت على السّرير. لبثت ممدّدا هناك زمنا لا يعلمه إلا الله. كيف مرّت بك تلك الأيّام؟ لعلّك لا تذكر

تفاصيلها ولا تعي ما عشته فيها. يمرّ بك الزّمن، وأنت عالق قسرا في لحظة رحيل ريم.

كان يفترض بك أن تكون في تركيا ذلك الأسبوع، لذلك لم ينتبه أحد إلى مصيبتك. تخلّفك عن المستشفى كان طبيعيا، وعلاقاتك مع الرّفاق كانت متردّية بطبعها. حين أفقت من سكرة الحزن، اغتسلت وغيّرت ثيابك وغادرت شقّتك نحو وجهة واضحة. كانت لافتة «حانة الزّمن الجميل» تومض بإغراء عند آخر الشّارع. كنت قد انقطعت عن الشّرب منذ لقائك بريم ولم يبق في شقتك أيّ مخزون من مشروباتك الذهبيّة المفضّلة، واتّخذت عادات غذائيّة مثاليّة صحيّة خلال رحلتك. لكنّك الآن في حاجة إلى النّسيان والغياب.

عدت إلى إدمان الشّرب. تعبّ من الكؤوس طيلة السّهرة وحتى ساعات الصّباح الأولى، وتنام حتّى منتصف الظّهيرة مثل القتيل. نهارك ليل وليلك نهار. ثمّ انتبهت إلى تغيّبك عن العمل وأنّ الإجازة قد انتهت منذ يومين، حين وصلك تنبيه من المستشفى! لكنّك لم تغيّر سلوكك أبدا. ذهبت متأخرا وثملا في يومك الأوّل، وقفت عند الاستقبال تعاكس الممرّضات بأسلوب فجّ، ثمّ اقتحمت العيادات واحدة إثر الأخرى، باحثا عن سمّاعة صدر طبية، قبل أن تتذكّر أنّك لا تحتاج واحدة!

كان عرضا مخزيا ومخجلا، لولا أنّك كنت فاقدا للإحساس. بعد نصف ساعة، جاء رئيس القسم الذي أتاه النبأ وهو في اجتماع بإدارة المستشفى. عنّفك بلهجة حازمة، وأمرك بالمغادرة على الفور. لكنّ ذلك لم يحرّك فيك شيئا. هززت كتفيك استهانة، ثمّ انسحبت وعلى شفتيك ابتسامة غبيّة وهذيان كثير بلغات متداخلة. كانت مشاعرك قد تبلّدت وما عاد تقدير الآخرين من عدمه يحرّك فيك شيئا.

ومساء اليوم ذاته، شربت حتّى غاب عقلك، فقصدت المستشفى بدل العودة إلى شقّتك! دخلت في السّاعة الثالثة صباحا على مناوبة الطّوارئ، زائغة نظراتك، مترنّحة خطواتك ومنفلت لسانك! أخذك الزّملاء إلى غرفة الاستراحة، حيث غططت في نوم عميق حتّى الصّباح. ورغم محاولتهم التّغطية على هفواتك وتجاوزاتك، فقد اكتشف رئيس القسم أمرك مرّة ثانية!

استيقظت بطنين في رأسك على صراخ الرّئيس الهائج. كان موقفه أكثر صرامة هذه المرّة.

- لن يمرّ الأمر هكذا.. سأحوّلك إلى مجلس التّأديب!

أحاط به أطبّاء القسم الذين يعرفون مدى تميّزك في عملك ويدركون حساسيّة الوضع الذي تمرّ به رغم جهلهم حقيقته. قالت زميلة إسبانيّة متعاطفة:

- إنّه يمرّ بظروف شخصيّة قاسية!

فانفجرت أنت ضاحكا. ما الذي تعرفه تلك الحمقاء عن ظروفك؟ رفعت صوتك وشتمتها دون تردّد، فاحتقن وجهها، وانسحبت من الغرفة. بينما أعلن رئيس القسم:

- أنت مفصول لمدّة أسبوع! إن لم تمالك نفسك خلال هذه الفترة فلن أتردّد في فصلك من البرنامج بشكل نهائيّ!

حين انتبهت من سكرتك بعد الظهر، أدركت مدى سوء وضعك.

هل رجعت إلى خانة الصّفر؟

وأين تقع خانة الصّفر تحديدا؟ قبل بحثك أم بعده؟ في مكان ما بين الإيمان والإلحاد؟ على مسافة متساوية بين القناعات الفكريّة المختلفة؟ إذن أنت لست هناك! لعلّك كنت على الهامش تماما، حيث لا أرقام ولا خانات!

أنت لم تعد مهتمًا. لم تعد تفكّر. لا شيء يشغل عقلك الألمعيّ ويجبره على التّنقيب والتّمحيص. لا شيء يحرّك وجدانك ويشدّه للارتقاء إلى عوالم علويّة. كلّ العادات التي اكتسبتها في رحلاتك تلاشت دفعة واحدة، وكلّ الطّاقة الجبّارة التي تولّدت داخلك من التّأمّل والتدبّر في خلق الله تبخّرت بين يوم وليلة.

من يراك كان يدرك منذ اللّحظة الأولى أنّك إنسان فارغ، تمشي محنيّ الظهر منكّس الرّأس، مثل جنديّ مهزوم ينسحب من ساحة المعركة. غير أنّ ساحة معركتك هي حياتك ذاتها.

صار كلّ شيء بغيضًا من حولك. معالم باريس التي تذكّرك بأمسيات السّبت برفقة ريم، ونشرات الأخبار التي تبحث في وجوه مراسلاتها عن شبيهتها، وصباحات الأحد الباردة بدون قهوة تعدّها بيديها، وساعات طويلة لا تقصرها مكالمات تكون هي على طرفها الآخر. كيف يستمرّ قطار الحياة وكأنّ نزول ريم في محطّة سابقة لا يؤثّر؟ لقد كانت هي قوّة التوازن التي تبقي كيانك متماسكًا، لذا من المحتّم عليك الانهيار!

كان أسبوع الفصل يكاد ينتهي، ولا شيء ينبئ بتحسّن ممكن للوضع. كانت قد ظهرت عليك أعراض اكتئاب حادّ. أرق شديد وفقدان شهيّة، للأكل ولكلّ شيء آخر، وأفكار سوداويّة قاتمة. حلم الطبّ لم يعد يحمّسك، وكلّ ما قاتلت من أجله في السّنوات الماضية أصبح بلا معنى.

لأوّل مرّة منذ شهور، أمسكت الهاتف وتحدّثت إلى والدتك. كنت تفرّ منها غالبًا، ومن استفساراتها وشكوكها التي لا تنتهي. لا تصدّق أنّك بكيت في ذاك الاتّصال حتّى أصابها الهلع. اعترفت بصوت موجوع مثل طفل يستغيث:

- أنا متعب يا أمّي!

لقد صارت الحياة عبئا عليك. أنت مرهق من التنفّس والأكل والمشي والكلام. وهل تستقيم حياة بهذا الشّكل الموغل في الألم؟

- سوف تأتي إلى الرّياض!

قرّر والدك بصرامة. وقد انقدت باستسلام تلك المرّة.

كنت قد أنهيت -بمعجزة ما- متطلّبات السّنة الثانية من التخصّص، وأصبح متاحا لك الانتقال إلى مستشفى أجنبيّ لإتمام تدريبك العمليّ. لذلك تركت والدك يقرّر من أجلك. لقد قاومته من قبل من أجل سارة، ثمّ خوفا من انفضاح عزوفك عن الدّين، ثمّ لتعلّقك بريم.. أمّا الآن، فلم يعد أيّ من ذلك يبقيك على الأراضي الفرنسيّة. ثمّ ماذا لو اكتشف والداك ضياعك؟ تعلم أنّ خيبتك الدّينيّة أشدّ تأثيرا عليهما من خيبة دراسيّة أو مهنيّة. سيقصم الخبر ظهريهما ويطعن روحيهما. لكنّك لا تفكّر في هذا الآن. لا تحسب العواقب ولا تقدّر النتائج. إحساسك البليد غير قادر على التعاطف.

شغلك التجهيز للسّفر وإنهاء المعاملات الإداريّة في الأسابيع التي تلت. تقدّمت بطلب إجازة مفتوحة من المستشفى، إلى أن تفرغ من الإجراءات الطّويلة. أنت لا تعلم ما الذي ينتظرك في الرّياض، ولا تأمل أن تختلف الأمور كثيرا. لكنّ ثلاثة دوافع تحرّكك. أنت تفرّ من ذكرياتك وريم، ومن الخمر التي تتوافر في باريس بغزارة وتعزّ في المملكة السّعوديّة، وتشتاق إلى حضن العائلة. وهي دوافع كافية.

بعد أسبوعين من تلقّيك صفعة الطّرد من المستشفى، خفّت حاجتك إلى السّكر، وأصبحت أقدر على البقاء يقظا لأمد أطول. كانت ريم قد رحلت منذ شهر تقريبا. وكنت قد تماسكت نوعا ما، وأصبحت أكثر استعدادا لمواجهة الحياة. عمليّة الانتقال قد تستغرق

شهورا، وأنت قد أهدرت معظم مدّخراتك على مصاريف الرّحلة! أعادتك حاجات العيش الأساسيّة إلى الواقع. بعد انقطاع راتبك، كان عليك أن تجد مورد رزق تسدّد منه إيجار الشّقة وتنفق منه على طعامك وشرابك ونزواتك!

تجرأت على الاتّصال بإيرينا. توقّعت دهشتها. مضت سنة أو تزيد على الشهرة الأخيرة التي جمعتك بها. وقد أدركت بغريزة أمومة ما لديها أنّك قد عدت ولدا تائها يحتاج إلى إرشاداتها! كنت تعلم أنّها تعمل في عيادة مسائيّة بعد دوام المستشفى. لم تكن تطمع في وظيفة في تخصّصك بجراحة العظام، فأنت لم تنه تكوينك النظريّ والعمليّ بعد، لكن إن كانت تحتاج مساعدا أو ممرّضا أو كاتبا، فأنت أكثر من مناسب، بل إنّ تلك الوظيفة تعدّ إهدارا لإمكاناتك العظيمة!

استمعت إليك في اهتمام وأنت تشرح وضعك، ثمّ قالت في حزم:

- تعال مساء الغد!

وأملت عليك العنوان.

وأنت تمضي إلى عيادتها، تساءلت، لماذا لم تقصد أيّوب أو محسن؟ كنت تعلم أنّ كليهما لديه من العلاقات والصّلات ما يفي بالغرض. لكنّك آثرت إيرينا. لأنّ رأيها فيك لا يهمّك. لا يهمّك ما قد تظنّه بنجاحك من فشلك، جنونك من عقلك. لكنّك لم ترد أن تعترف لنفسك، لقد كان رأي الفرسان يهمّك في نهاية المطاف.

حين وصلت إلى العيادة، فتحت لك سكرتيرة شابّة، قادتك إلى غرفة انتظار شبه خالية. جلست تتأمّل اللّوحات الجداريّة الباهتة وأكوام المجلّات الشعبيّة الرّخيصة على المنضدة، وتفكّر فيم إن كنت قد اتّخذت القرار الصّواب. حين جاء دورك، دخلت. كانت إيرينا متألّقة كعادتها. استقبلتك بابتسامتها الأنثويّة الطّاغية، ثمّ

قائلة:

- كما ترى، ليس العمل كثيرا غالبا، ولديّ مساعدة كافية...

لم تستوعب ما تقصده. لماذا طلبت منك المجيء، إذن؟

- إن كنت يائسا إلى درجة كبيرة ومستعدا لقبول أيّ وظيفة.. ربّما يمكنك تنظيف العيادة بعد الدّوام -إنّها ليست عيادتي الخاصّة، بل هناك طبيبان آخران يشغلانها في أوقات مختلفة من النّهار- وشراء اللّوازم التي تحتاجها.. الشاش والقطن، القهوة والحليب والسّكر.. وسيدفع كلّ منّا حصّة من راتبك.

رمقتك بتلك النّظرة الطّويلة السّابرة. ربّما كان يجدر بك أن تشعر بالإهانة؟ ربّما كان يفترض بك أن تقف على الفور في ثورة واستهجان؟ لكنّك لم تفكّر في كلّ ذلك، بل شغلك تقييم عقلاني للعرض. كانت العيادة محدودة المساحة، مكتب وصالة انتظار ومدخل يحوي مكتب استقبال منزويا، بالإضافة إلى حمّام ومطبخ صغيرين. فكّرت أنّ عمليّة التّنظيف لن تستغرق أكثر من ساعة إلى ساعتين يوميّا. سألت:

- كم سيكون الرّاتب؟

- أربعمائة وخمسين يورو.

لم يكن ذلك ليغطّي إيجار الشّقّة وحده، رغم أنّك ما زلت تتقاضى مساعدات الدّولة الخاصّة بالطلبة. لكنّها ساعة واحدة في اليوم، من التّاسعة إلى العاشرة مساءً أو أكثر بقليل! تحضر بعد أن ينصرف الكلّ، فلا يراك أحد. سيترك لك هذا ساعات النّهار كلّها لتصحو متأخّرا كما تريد، وتنهمك في معاقرة الحزن كما تشاء. ستكون متفرّغا لتوديع باريس التي عرفت سنوات حبّك ونجاحك وعربدتك وبحثك وضياعك وشقائك، كما يليق بها! ستتقشّف في معيشتك، تبيع بعض الأشياء الزّائدة عن الحاجة، وتصرف مدّخراتك حتّى آخر

ستنيم.

قلت بعد تفكير عميق:

- قبلت.

قرأت الصّدمة على ملامحها.

- مالك، ما الذي حلّ بك؟

لقد عرفتك مترفّنا ومنفلتا، حيّيا ووقحا، لكنّها لم ترك يوما إلا عزيز النّفس، فأين ذهب مالك القديم؟ لقد رحل وحلّ محلّه رجل بارد ميّت الإحساس.

كان بركان حزنك قد خمد، بعد أن أحرق كلّ شيء في الأيّام الأولى. استعدت شيئا من رصانتك القديمة، وقليلا من الحياة الاجتماعيّة السّطحيّة. وجدت لك نشاطا جديدا تشغل به فترة العصر، حتّى يحين وقت الخمرة. صرت تتردّد على مقهى شعبيّ في الحيّ العربيّ. كلّ أمسية، يجتمع نفر من العجائز يلعبون النّرد والورق، أبو مازن وأبو محمّد وأبو صالح وشابّ دخيل بينهم اسمه نادر. صاروا فرسانك الأربعة الجدد.. مع البون الشاسع بين الفريقين! رفاق المقهى ليسوا أصدقاء حقيقيّين، بل لعلّهم لا يملكون أدنى مقوّمات الصّداقة. لم يكن هناك من قاسم مشترك يجمعكم. أبو مازن مهندس سوريّ متقاعد وأبو محمّد عسكريّ مصريّ سابق، بينما كان أبو صالح بقّال الحيّ. أمّا نادر فهو مدرّس عربيّة جزائريّ ومهاجر غير شرعيّ. لكنّهم صاروا بشكل ما رفاق المرحلة!

كنت تجلس إليهم لساعات، ويتطوّع أحدهم كلّ مرّة لدعوتك على المشروبات التي تحتسونها طيلة الجلسة، فلا تمانع. وغالبا ما تكون لك الغلبة في ألعاب الورق والطّاولة، فتكتفي ببضع جولات على سبيل المتعة، ثمّ تنسحب لتكون متفرّجا بقيّة الأمسية، فلا

تهين مضيفيك أو تتسبّب في سأمهم من صحبتك إذا أنت استأثرت بالفوز دونا عنهم. ولعلّك في تلك الفترة نزلت من برجك العاجيّ وأخذت تهتمّ بما يشغل النّاس في الشّوارع، وفي ضواحي باريس بشكل خاصّ. لم تكن الجلسات تخلو من تناقل لأخبار الحيّ.. آفة المخدّرات الّتي تفتك بالشّباب، والجماعات المتطرّفة الّتي تحاول اجتذابهم، وأحاديث السّياسة بشكل عام.

ولمّا كان نادر الثّلاثينيّ أقرب الحاضرين إليك سنّا، فقد كان يجلس حذوك ويرنو إليك في إعجاب معظم الوقت.. يستمع إلى آرائك الّتي تبدو في عينيه حكمة صافية، ويؤمن بشكل مستمرّ. ولنادر ذاك قصّة عجيبة ربّما يكون لها أن تنافس قصّتك في إغرابها. أفضى إليك بعد أسابيع قليلة من انضمامك إلى شلّة المقهى، بأنّه يحمل قنبلة موقوتة في رأسه! نظرت إليه في استخفاف، وقد حسبته يبالغ. فطفق يحدّثك بماضيه، حين كان يافعا، إبّان العشريّة الجزائريّة السّوداء، تلقّى طلقا غير مباشر من سلاح عسكريّ، أصابه في مؤخّرة رأسه. والأدهى أنّه لم يكتشف إصابته إلّا بعد عقود، بعد أن عبر المتوسّط على متن رحلة مجازفة كادت تتسبّب في غرقه. أصيب بارتجاج دماغيّ أثناء رحلة العبور الخطرة، فكشفت صورة الأشعّة الّتي خضع لها عن وجود رصاصة تقبع هناك في سكون تامّ! تلك الرّصاصة كانت تهدّد حياته إن هو أخرجها.. وتهدّدها إن هي ظلّت في رأسه!

ولمّا كان رفاقك الجدد مختلفين من حيث خلفيّاتهم فإنّك لم تحاول أن تناظرهم في أمور الدّين والعقيدة كما كنت تفعل مع رفاقك القدامى، ولمّا كنت راغبا في الحفاظ على غموضك دون إطلاعهم على خفايا ماضيك، فقد كانت الفلسفة المجال المناسب لتقارعهم في ساحته، وتكتشف رؤيتهم السّطحيّة البسيطة للقضايا العميقة الّتي شغلتك في السّنوات الأخيرة. كنت تلقي على مسامعهم

واحدة من المسائل السفسطائيّة القديمة التي أعيت كبار الفلاسفة وتصغي في استمتاع إلى لغطهم حولها. سرعان ما وجدت ملأً جديدًا تخطب فيه، فتلقى أطروحاتك الإعجاب والاستحسان.

وذات مرّة، طرحت عليهم معضلة حقيقة الزّمن. جلست على مقعدك في المقهى في اعتداد مثل أستاذ يختبر طلبته، وقلت:

– ما هو الزّمن؟

تبادلوا نظرات متسائلة، ثمّ أدلى أبو محمّد بدلوه:

– إنّه الوقت الذي يمضي.. ويأخذ معه أعمارنا!

ندّت عنهم زفرات حسرة وأمّنوا على قوله. ثمّ أضاف البقّال:

– إنّه ما تقيسه السّاعات!

أمسكت بطرف الخيط وسألت على الفور:

– ولكن ما هي السّاعة؟ أليست آلة لقياس البعد الزّمني؟ هل يمرّ الزمن لأنّ السّاعات لا تتوقّف عن التقدّم.. أم أنّ السّاعات لا تتوقّف لأنّ الزّمن يمرّ؟

قال أبو مازن وقد كان ذا خلفيّة علميّة:

– الزّمن يمرّ سواء تقدّمت السّاعات أم توقّفت، وقد كان يمرّ حتّى قبل اختراع السّاعات.. الزّمن ناتج عن دوران الأرض حول نفسها، ودورانها حول الشّمس.. فهي أشياء مضبوطة بمقدار زمنيّ ولا تختلف!

هززت رأسك في استحسان ثمّ استطردت:

– حين نتحدّث عن الزّمن، نشير إلى لحظة ما على خطّ الزّمن بالحاضر، الماضي أو المستقبل.. لكنّ أيّ لحظة مهما كان موقعها، فهي في وقت ما تكون في المستقبل، ثمّ تصبح في الحاضر، وأخيرا تغدو

من الماضي! مما يعني أنّ الزّمن متناقض في نهاية الأمر.. وبالتّالي غير حقيقيّ! فكيف تكون الأشياء التي تعدّ مفاهيمها متناقضة حقيقيّة؟

هتف نادر:

- الحاضر حقيقة، لأنّنا هنا.. نتحدّث الآن!

أجابه أبو محمّد على الفور:

- وكلماتك قد غدت في الماضي الآن! الماضي ليس إلّا ذكريات في رؤوسنا.. بينما المستقبل مجرّد توقّعات. فكيف تكون حقيقة؟

قال أبو مازن:

- هناك أشياء ملموسة تدلّنا على الماضي، غير الذّكريات.. الحفريّات والقطع الأثريّة التي نجدها في المتاحف، كتب التاريخ وغيرها.. بينما لا يصبح المستقبل حقيقة إلّا حين نصل إليه، فيكون حاضرا!!

قلت موضّحا:

- هذا صحيح، من وجهة نظرنا البشريّة المحدودة. لكن من وجهة نظر فيزيائيّة، الماضي حقيقيّ والمستقبل أيضا.. إنّها أبعاد الكون الفيزيائيّة. أينشتاين اعتبر الزّمن بعدا رابعا، بالإضافة إلى أبعاد المكان الثلاثة. فإذا ما أردت أن ألتقي أحدكم مثلا، فمن الضّروري أن أحدّد الأبعاد الأربعة.. المكان والزّمان. وإلّا فإنّ اللقاء لن يحصل. إذا ذهبت إلى موقع آخر من الأبعاد -نفس المكان قبل ساعتين- فلن أجد أحدكم!

أومؤوا موافقين، بينما واصلت تشرح:

- المكان يمكن أن يكون متنوّعا، ولا شيء يمنعه من ذلك. يمكن أن أغلق هذه القبضة على الفراغ التامّ، بينما أقبض باليد الأخرى على هواء مشبع بثاني أكسيد الكربون من أرجيلة أبو محمّد! هاتان

قبضتان متجاورتان، لكنّهما مختلفتان كلّياً. لكنّ الزّمن ليس كذلك.. هناك علاقة وثيقة بين نقطتين متتاليتين على خطّ الزّمن. في الحقيقة، ليس هناك شيء اسمه خطّ الزّمن! لأنّ الزّمن متضافر مع المكان لا ينفصل عنه، فكأنّهما نسيج متداخل. أرأيتم لو أنّي جلست هنا ساعة لا أغادر مقعدي، فهل أنا ثابت حقيقة؟

قال أبو صالح:

- نعم، أنت ثابت.

بينما اعترض أبو مازن:

- لست كذلك.. لأنّ الأرض تدور!

هتفت في استحسان:

- نعم، هو ذاك! حتّى لو تجمّدت مكاني ساعة، فإنّ حركة الأرض تستمرّ، والمجرّة، والكون كلّه! إذن ما يبدو لنا حركة للزّمان دون المكان هو في الحقيقة وهم.. فهما لا ينفصلان! وبما أنّنا نتنقل بحرّية من موقع في المكان إلى أيّ موقع آخر.. فهل يمكننا أن نفعل الشّيء نفسه في الزّمن؟

أجابوا بصوت واحد:

- لا، طبعا لا.

- لكن لماذا؟ أليس الزّمن بعدا هو الآخر؟ فلماذا يبدو التنقّل عبره عسيرا؟

ران عليهم صمت حائر، فاستطردت:

- هناك قوانين كونيّة ما تجعلنا محبوسين في اللّحظة الرّاهنة، نمضي في اتّجاه زمنيّ واحد.. ولكن يوما ما، حين تصل المعرفة البشريّة إلى مستوى متقدّم، سيصبح التنقّل عبر الزّمن ممكنا!

ضحك نادر وقال:

- حين نخترع كبسولة الزّمن! كم أودّ أن أكون حاضرا في ذلك الوقت!

ابتسمت ثمّ أردت أن نشاغبهم، فقلت:

- تخيّلوا معي لو أنّ الوقت يتباطأ أو يتوقّف، فما الذي سيحصل؟

سأل نادر:

- مثل الأبطال الخارقين الذين يملكون القدرة على إيقاف الزّمن؟

أطلق أبو صالح صفيرا طويلا ثمّ قال:

- كم سيكون هذا رائعا! أن يتجمّد الآخرون، بينما أتجوّل بحرّيّة.. أدخل قصر الإيليزيه والرّئيس متسمّر في مكانه، وأفعل ما يحلو لي!

ضحكوا في صخب، فتركتهم يتندّرون لبعض الوقت قبل أن تعلن في تهكّم:

- فيزيائيّا، هذا سخيف جدّا. لأنّ إيقاف الزّمن، يعني توقّف موجات الضوء فلا يكون بوسعك رؤية شيء من حولك، وتوقّف ذرّات الهواء، فتشكّل حاجزا صلبا تصطدم به إذا حاولت المشي.. بل لا يمكنك حتّى التنفّس، لأنّ كلّ شيء ساكن في مكانه، فلا هواء يدخل رئتيك أو يخرج! في الحقيقة، توقّف الزّمن يعني العدم. وإذا ما توقّف الزّمن بالنّسبة إلى كلّ العالم، فلن يكون هناك تأثير على الإطلاق، لأنّه لا أحد يشعر بتوقّف الزمن أو مضيّه في هذه الحالة!

حدّقوا فيك مبهوتين لبرهة، ثمّ ما لبثوا أن عادوا إلى صخبهم ونكاتهم الجريئة. بينما سرحت في أفكارك.

الزّمن، إنّه أحد مكوّنات الوجود.. مخلوق من مخلوقات الله! البشر لا يمكنهم إدراك ذلك البعد. لأنّهم سجناء اللّحظة الرّاهنة.. الحاضر! لكنّ الأمر مختلف بالنّسبة إلى الخالق. هو خارج نطاق

الزّمان والمكان، وهو قادر على الإحاطة بكلّ الأبعاد دفعة واحدة. لا ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل! فقط خارطة للكون في كلّ لحظاته، مثل شرائح متراصّة بعضها إلى جوار بعض، في نسيج متلاحم للزّمان والمكان...

تتساءل، متى خلق الله الزّمان؟ قبل خلق الكون أم بعده؟ قبل كتابة القدر في اللّوح المحفوظ أم بعدها؟ لكنّ السّؤال ذاته يبدو سخيفا. كيف يمكنك الحديث عن ترتيب أحداث الخلق، إذا كان الزّمن ذاته أحد المخلوقات! لا معنى للحظات الزّمنيّة حين يتعلّق الأمر بالذّات الإلهية السّامية. لكنّ عقلك لا يتّسع للمعرفة التي تسعى إلى بلوغها.. وتستمرّ في المكابرة.

- أحلى كأس شاي للدّكتور مالك!

تبتسم، حين يصل النّادل ويدور عليكم بالمشروب الحلو، وتلقي بأسئلتك المضنية إلى أقبية الوعي المظلمة.

استمرّ الوضع على تلك الحال زهاء الأشهر الثلاثة، حتّى جاءت الموافقة الرّسميّة من مستشفى الملك خالد الجامعيّ بالرّياض، واستلمت من وظيفتك القديمة خطابا يثبت التحاقك ببرنامج التخصّص لمدّة سنتين. كنت جاهزا للسّفر، مترقّبا له.

تجرّأت، وزرت كلّيّة الطبّ والمستشفى الجامعيّ، كمن يقف على الأطلال. وقفت في السّاحة طويلا، تنازع نفسك على ولوج المبنى وتصدّها. ما الذي جئت تبحث عنه تحديدا؟ وماذا لو رأيتها؟ هل تحاول تجربة تأثيرها عليك، بعد كلّ هذا الوقت؟ أم تودّعها هي الأخرى.. وداعا لا لقاء بعده؟ لقد ودّعت ريم كما يليق، لكنّ وداع سارة ظلّ مبتورا وجارحا.

كانت تستحقّ منك أفضل من ذلك. ما زالت تلك الفكرة تعذّبك.

ذرعت السّاحة جيئة وذهابا، وراقبت قسم طبّ الأطفال من بعيد زهاء السّاعتين، ثمّ انسحبت دون أن تراها. أنت لا تملك شيئا تقوله في حضورها. لا طاقة لك بتحمّل نظراتها المعاتبة أو اللّائمة أو الحانقة. لكنّك أردت أن تلقي عليها نظرة أخيرة.. هل يمكن لذكرى وجهها المشرق أن تغطّي على بشاعة رحيل ريم؟ لا تدري كيف تستقيم تلك المعادلة! لكنّك عدت منكسرا. سترحل إلى غير رجعة، وستظلّ صفحتك الأخيرة في كتاب سارة ملطّخة بالسّواد.

ثمّ زارك الفرسان الأربعة ذات مساء على غير موعد، بعد أن وصلهم الخبر بطريقة ما. ليس فرسان المقهى المستجدّين، بل رفاق الصّبا والشّدائد والتّجارب. ربّما عرف أيّوب من بعض الزّملاء، وربّما اتّصلت عائلتك بحاتم. أنت لا تدري ولا تسأل. أنت غير قادر على إبداء الجفوة أو الاهتمام. كتلة من اللامبالاة كنت. حتّى أمام عناقهم الحارّ، ووداعهم المؤثّر، بقيت جامدا كالصّخر. لكنّك تزعزعت في داخلك. ما الذي جاء بهم؟ أنت منقطع عنهم منذ شهور طويلة. لقد تركت مناظرتهم ونقاشهم وأعلنت بوضوح أنّك راض عن وضعك الجديد، فما الذي يرمون إليه تحديدا؟

قال أيّوب في عتاب:

- هل أردت الرّحيل دون أن تخبر أحدا؟ حتّى باسم الصّداقة القديمة يا أخي! لولاك ما عرف أحدنا الآخر. يشقّ علينا أن تعاملنا كغرباء، رغم كل ما مررنا به سويّا!

كان محقّا. لقد تحمّلوك، وغلظتك وسخطك وبرودك ونزواتك. لم تكن أنت لتتحمّل نفسك.. لكنهم فعلوا. حتّى وأنت تصافح أكفّهم وهم ينصرفون عنك للمرّة الأخيرة، لم تعترف لنفسك بمدى خسارتك.

نعم الأصدقاء كانوا.. وبئس الرّفيق كنت.

-٢٠-

وصلت إلى الرّياض، مثل غريب لم ينتمِ إلى المكان يوماً. هنا نشأت وتشرّبت العلم وحفظت القرآن. هنا ترعرعت وشببت عن الطّوق وعشت مراهقتك وبداية شبابك. لكنّ كلّ شيء يبدو مختلفاً اليوم. أنت نفسك مختلف يا مالك، فلعلّك ترى انعكاس حالك على البنايات والشّوارع والوجوه العابرة؟

كان من المنطقيّ أن تستقرّ حذو الأهل في الفترة الأولى، تطفئ نار الشّوق وتستزيد من دفء الأجواء العائليّة الّتي صارت نادرة ومتباعدة نظراً لتغرّبك الطويل. جعلت منك والدتك مركز اهتمامها الأوّل، وعدت في نظرها طفلاً صغيراً يحتاج إلى كثير رعاية ووفير عناية. تطعمك بيديها وتراقب حركاتك وسكناتك، تجزع لشحوب سحنتك وتنطلق أساريرها كلّما غادرت غرفتك وشاركتها الجلسة في شرفة الدّار المكشوفة.. تجلس لساعات أنت وهي، تتحدّثان في أيّ شيء وكلّ شيء، تضحكان وتتسلّيان، كأنّك تعوّضها عن فترات الغياب الممتدّة، وتنهل من معين عطفها وحنانها. وقد استسلمت لأوامرها ونواهيها لأسبوعين، استرددت خلالهما أنفاسك وصفى ذهنك.

أما والدك، فكان قد تقاعد من عمله في شركة البترول منذ سنوات. لكنّه شأنه شأن رجال الدّعوة والفكر لم يكن يستقرّ في المنزل إلا قليلاً، ويشغل وقته بالمجالس وحلقات العلم وتحفيظ القرآن في مسجده المفضّل منذ عقود. وكان يرنو إليك بتلك النّظرة الصّامتة في ذهابه وإيابه، فتقرأ في مقلتيه خيبته وخذلانه. ولده النّابغة الذي تنبّأ له الكلّ بمستقبل واعد، يرجع من غربته حليق الوجه غائم العينين!

وكان لا يفتأ يقترح عليك كلّما عنّ له:

- ألا يجدر بك أن ترى طبيبا ما؟

ربّاك والداك على الشدّة، لا على الحبّ. لذلك كانت علاقتك بهما متباعدة رغم الاحترام والودّ. لم تكن قريبا منهما كما يجدر بك أن تكون. ولدت لأبوين متديّنين، بل شديدي التديّن، مثل أنتوني فلو. كان والده كاهنا مسيحيًا.. وكان والدك رجل دعوة إسلاميّة. لكنّك لم تتنكّر للدّين مثله في وقت مبكّر. ربّما لأنّك كنت بدورك من حرّاس العقيدة الغلاظ الشّداد. كنت حريصا على الواجبات غيورا على المقدّسات، مولعا بالحدود والضّوابط، جزعا من المحرّمات والشّهوات. هل تنقم عليهما بسبب تربيتك الصّارمة وتعليمك الدّينيّ الجادّ؟

تدرك الآن أنّ عباداتك كانت تقليدًا لمن تجلّهم من رجال العائلة.. والدك وخالك، وسعيا لنيل حبّهما ورضاهما. صغيرا، كنت تحرص على صلاتك بين الرّجال ليقال نضج، وتحفظ القرآن والمتون ليقال عبقريّ.. وحين كبرت، تصدّرت في المجالس ليقال خطيب، واستعرضت معارفك في الفقه والحديث ليقال عالم.

وقد قيل!

فلماذا تلومهما إذن؟

لقد فعلت كلّ شيء من أجل ذاتك، فلا تتّهم أحدا بالتّجنّي عليك!

كانت رقابة الأهل في المملكة نعمة عليك. وقد أدركت بعد أيّام قليلة أنّك فررت من صخب شهواتك الّتي حرّرتها باريس، ولذت بأحضان المجتمع المحافظ الّذي يحميك من نفسك! كنت بحاجة إلى وازع خارجيّ يجبرك على التّماسك.

بعد أسابيع قليلة، خرجت إلى المستشفى لأوّل مرّة، لتستلم وظيفتك الجديدة. استقبلك الدكتور نديم المغربي، رئيس قسم جراحة العظام بمستشفى الملك خالد الجامعي، وقد كان كهلا في بداية الخمسينيات، مصريّ الجنسيّة. اعتذرت عن تأخّرك متذرّعا بالمعاملات الإداريّة، ثمّ تحدّثتما قليلا عن أوروبا التي كانت مكان دراسته أيضا منذ عقدين. كان خرّيج جامعة في مدينة مانشيستر البريطانيّة.

– لقد استبشرت بك خيرا يا مالك.

فاجأك بتصريحه غير المتوقّع وابتسامته المحتفية. فعاهدت نفسك في تلك اللّحظة على العمل بجدّ حتّى تكون في مستوى الثّقة التي وُضعت فيك، وأن تبدأ عهدا جديدا من الاستقامة والتّفاني، وتطوي صفحة باريس ونزواتها.

انتقلت بعد ذلك إلى شقّة خاصّة، متعلّلا بضرورة القرب من المستشفى والجامعة. كانت أوضاعك قد استقرّت، واستسلمت لنسق حياتك الجديدة. صرت تقضّي معظم وقتك في المستشفى. وإذا ما انتهت مناوبتك، جلست في مكتبة الجامعة، تلتهم المراجع والمقالات العلميّة. فإذا ما رجعت مساءً إلى شقّتك، طلبت عشاءً جاهزًا تتناوله أمام نشرة الأخبار، ثمّ تأوي إلى سريرك منهكا. وفي نهايات الأسبوع، تمارس الرّياضة في نادي الجامعة.. السّباحة وكرة الطاولة. ثمّ تزور والديك، وتقضي برفقتهما الأمسية وجزءًا من السّهرة.

لم تحاول تكوين صداقات جديدة، ولم تسمح لأحد بتجاوز حدود الزّمالة المهذّبة معك، مع الحفاظ على مساحتك الشّخصيّة. كنت قد صرت مالكا آخر في تلك الأيّام.. شخصا لا تهمّه آراء الآخرين، لا يحاول إثارة الإعجاب ولا يخوض أيّ نقاشات يثبت فيها رأيه أو

يحاول تغيير قناعات من حوله. كان نوعا من التّصالح مع وضعك، والسّلام الدّاخليّ الذي يغلّف كتلة القلق التي دفنتها في أعماقك.

وقد تمكّنت من العيش على تلك الشّاكلة لسنتين.

سنتان كنت خلالهما مثالا للطبيب المقيم الجادّ. كنت تحبّ ما تعمل، وقد فضّلت أن تهب مهنتك كلّ وقتك المتاح. لم تكن تتردّد في النّيابة عن زملائك حين تستدعي الحاجة، فتصل فترة عمل بأخرى دون تذمّر، لتسمح لهذا بحضور مناسبة عائليّة ولتلك برعاية طفل أصابته الحمّى. أمّا أنت، فلا علاقات ولا روابط أسريّة تحبسك عن أداء مهمّتك. لذلك، فقد كان رصيدك لدى الزّملاء يتنامى، وخاصّة عند رئيس القسم الذي لم يكن يفوته تواجدك شبه الدّائم بالمبنى!

في تلك الفترة، لم تكن تجاهر بمعتقدك، كما كنت تفعل في باريس. لم يكن من الحكمة أن تفصح عن انتمائك عن عادات المجتمع والسّمت السّائد فيه، مراعاة لسمعة عائلتك أوّلا، وتجنّبا لصدامات أنت في غنى عنها ثانيا. لكنّه كان من اليسير للمدقّق في أمرك أن يلحظ تخلّفك الدّائم عن الصّلاة الجماعيّة.. لكنّه ليس شأنك وحدك، فكثيرون هم المصلّون المؤخّرون لصلواتهم! ثمّ إنّ مهنة الطّبّ بشكل خاصّ تستدعي منك الحضور في أوقات الصّلاة في قاعات الطّوارئ أو غرف العمليّات.. لكنّك لم تشاهد مرّة واحدة وأنت تتوضّأ مثلا، أو تدخل غرفة الاستراحة لتؤدّي صلاة فائتة.

ما الذي كنت عليه حقيقة في تلك الفترة؟ لم تكن تحاول أن تفكّر بالأمر.. لم تعد تريد أن تتبع دليلا أو حجّة. تركت هوايتك القديمة والأثيرة، الفلسفة، ورضيت بالخمول التّام. هل كان ذلك على سبيل الاستسلام، أم نوعا من المكابرة؟ لعلّه مزيج عجيب من الاثنين. استسلام للحزن، وعجز عن إبصار الحقيقة بشكل مباشر.

أنت تخشى اتّباع الدّليل هذه المرّة، لأنّ ما يخبرك به عن مصير ريم يرعبك. لكنّك تشيح بوجهك في غباء، متغاضيا عن مصيرك أنت!

ثمّ جاء رمضانك الأوّل في الرّياض. نازعتك نفسك بين النّفاق والمجاهرة. ثمّ رأيت أن تستمرّ على نفس النّسق. أنت لا تنافق بقدر ما تراعي مشاعر زملائك ومرضاك الصّائمين! وأنت تراعي شيبة والدتك وكبر سنّها وتخشى عليها من الصّدمة. كنت تمتنع عن الأكل والشّرب طيلة النّهار، حتّى حين تكون منفردا في شقّتك -من باب التّعوّد- وتجلس إلى مائدة الإفطار كلّما وجدت نفسك مع الصّائمين، وأنت صائم حقيقة -دون نيّة أو ثواب- لا ينالك من صومك غير الجوع والعطش!

ثمّ بعد بضعة شهور، شرع الدّكتور نديم يتقرّب منك بشكل مريب. بدأ الأمر حين دعاك ذات مرّة لتناول الغداء برفقته، في مطعم المستشفى. أنت لا تنكر إعجابك بالرّجل، لمهنيّته الفائقة أوّلا، ثمّ لدماثة خلقه، وحسن معاملته لك. ومع أنّك تعوّدت الوحدة، ورفضت كلّ مبادرات الصّداقة، فإنّك لم تملك أن تعتذر هذه المرّة. لأنّه رئيسك المباشر أوّلا، ثمّ لتقديرك الشّخصيّ للرّجل المحترم والطّبيب الماهر الّذي كانه.

جلستما متقابلين أمام المائدة، ثمّ سألك دون مواربة:

- ما هو سرّك الذي تحاول إخفاءه عن الجميع يا مالك؟

شلّتك الصّدمة. هل كان أمرك مكشوفا تماما رغم محاولات التّورية؟!

ضحك أمام سحنتك الشّاحبة وعلامات التّوتّر الّتي علت ملامحك، ثمّ قال:

- حين كنت في مثل سنّك أو أقلّ قليلا، كنت أباشر العمل في

المستشفى في مانشيستر.. وذات مساء، كنت في مناوبة الطّوارئ، حين دخل رجل مسطول بكسر في ذراعه! كانت بحوزته لفافات حشيش، وكان يترنّح ويهذي بكلام غير مفهوم. كنت مع زميلين لي في القسم يومها، أحدهما بريطاني والآخر إسباني.. بعد أن اهتممنا بحالته، انسحبنا نحو غرفة الاستراحة.. وكان البريطاني يتصرّف بتكتّم غريب، ثمّ أخرج فجأة إحدى لفافات الرّجل الّتي كانت قد وقعت على الأرض! أشعلها وعرض علينا أن نجرّب معه. حاولت الامتناع، لكنّه أصرّ على أن أكون جزءًا من الخطّة حتّى لا أفشي السّرّ.. والحقيقة أنّ الفضول غلبني، فأخذت نفسا من اللّفافة.. ثمّ غادرت الغرفة على الفور، وقد انتابتني رغبة في التّقيّؤ! وحين رجعت، كان الزّميلان يضحكان بهستيريا ويغنّيان ويتقلّبان على الأرض!

شاركته الضّحك، ثمّ استطرد نديم محذّرا:

- هذا سرّ لم أبح به لأحد قبلك.. ولا حتّى لزوجتي! أنت كاتم جيّد للأسرار، أليس كذلك؟

أومأت برأسك موافقا وقد ازداد استغرابك.. بينما أضاف:

- والآن دورك.. واحدة بواحدة!

أطرقت طويلا، وفكّرت.. هل يكون من الحكمة أن تصارحه بما تخفيه؟

حين طال صمتك، وجدته يقول في إشفاق وتفهّم:

- لا بأس، إن لم تكن مستعدّا اليوم، فستتحدّث مرّة أخرى!

ثمّ سارع بتغيير الموضوع، وانتقل من شأن إلى آخر حتّى أنهيتما غداءكما.

فكّرت كثيرا بعد ذلك. هل كنت بحاجة إلى المساعدة؟ ليس تماما. أنت راض عمّا آلت إليه الأمور. لكنّك تفتقد الصّحبة، والأخوّة

الصّادقة، والفضفضة من حين إلى آخر، وأن ترى نفسك في مرآة عيني شخص آخر، يستمع إليك ولا يدينك. وكنت تحسب أنّ لدى الدكتور نديم مقوّمات الصّديق الّذي ينقصك.

قرّرت إن هو كرّر السّؤال أن تفضي إليه بكلّ ما كابدته منذ وطئت قدماك أرض تونس وحتّى عودتك إلى الرّياض من جديد. تجهّزت لحديث طويل تروي فيه قصّة حياتك، حتّى جاءت الفرصة، بعد شهر كامل من الدّعوة الأولى. جلستما متقابلين، وأمامكما أطباق الغداء، ولم يحاول هذه المرّة أن يستدرجك. لكنّك كنت مستعدًّا، فانطلقت تتحدّث دون استئذان. تعرّي سوأتك وتكشف عن المستور. وحين انتهيت، كان يحدّق فيك في إمعان وذهول. ضحك أخيرا في حرج ثمّ قال:

- أوه، أشعر أنّ قصّة اللّفافة كانت سخيفة جدّا مقارنة بهذا!!

ضحكت بدورك، في شيء من الخيلاء. نعم، ما عشته أنت وحدك يعادل تجارب عشرات البشر العاديّين الّذين لم تختبر الحياة حقيقة معدنهم بعد! لم تنته من ضلالك.. وما حقيقة معدنك أنت؟ حديد صلب خام لا تصهره درجات الحرارة الّتي تقلّ عن ألف وخمسمائة درجة مئوية؟ ربّما.. لكنّك لست ذهبا يزداد بريقا ولمعانا، فقد لطّخت التّجربة قلبك بالسّواد!

لم تختلف معاملة الدّكتور نديم تجاهك بعد حديث الصّراحة ذاك، بل لعلّك شعرت بمزيد حنان ورفق من طرفه. وقد ضايقك ذلك نوعا ما وخيّب أملك. كنت تتوقّع ردّ فعل مختلفا.. شيئا من النّقاش مثلا؟ بعضا من سلوك فرسانك الأربعة؟ لكنّ نديم فضّل تجاهلك، كأنّه بعلمك أنّ إيمانك من عدمه يخصّك وحدك؟

ثمّ جاء شهر رمضان ثانٍ لك في الرّياض. وتلقّيت دعوة غريبة،

مع ثلة من الزملاء على الإفطار في منزل الدّكتور نديم! حاولت التملّص من الحضور، لكنّه ألحّ عليك بشكل محرج، وأشار إليك وهو يغادر المبنى، أمام كلّ أطبّاء القسم:

- سأكون بانتظارك يا مالك!

لم يكن بوسعك إلّا الرّضوخ. لكنّك كنت تتساءل في حيرة، ما الذي ينويه بالضّبط؟ إنّه يعلم أنّك ربوبيّ، لا تصلّي ولا تصوم.. فما الذي يرمي إليه بدعوته تلك؟

وصلت بعد أذان المغرب ببضع دقائق. قدّرت أن يكون مضيّفك وزوّاره قد أدّوا الصّلاة ويتحلّقون حول مائدة الإفطار، وقد كان. قرعت الجرس، ففتح لك نديم بنفسه. صافحك بحرارة ثمّ قادك إلى المجلس الخارجيّ المنفصل عن بقيّة غرف المنزل. انضممت إلى آخرين حول مائدة عامرة بأصناف كثيرة من المطبخ المصريّ. ثمّ دارت كؤوس الشّاي والكعك منزليّ الصّنع.. ولما حان موعد صلاة العشاء والقيام، هممت بالانصراف، لكنّ نديم تأبّط ذراعك وقال بصوت عال:

- انتظر يا مالك، أحتاجك في شأن خاصّ...

بينما انصرف الآخرون، غادرت برفقة مضيّفك مشيا على الأقدام إلى وجهة لا تعلمها، لكنّك مذعن متساق. حتّى وصلتما أمام مسجد السّكن الجامعيّ. التفتّ إليه في ارتياك، فقال بلهجة جادّة:

- ما رأيك في أن تفتح قلبك وتجرّب؟

تجرّب؟ أولم تجرّب من قبل؟

لو كان صاحب المبادرة أيّ شخص آخر، لكنت علّقته دون تردّد وانصرفت على الفور غاضبا. لكنّه الدّكتور نديم، رئيس قسمك. قلت في حرج:

- لا أستطيع!

- لن تخسر شيئا.. إذا شعرت بالضيق، يمكنك الانصراف وقتما تشاء.

استسلمت إلى ذراعه تقودك حتى الصفوف الأماميّة للمصلّين. وجدت نفسك محاطا بأساتذة الجامعة، يتصافحون ويبارك أحدهم للآخر، ويقدّمك الدكتور نديم على أنّك تلميذه المفضّل. ثمّ جاء الإمام وهو شابّ يماثلك سنّا أو يزيد قليلا، فصافح الجميع بدوره، قبل أن يتّخذ موقعه. همس نديم:

- الشيخ عقيل زميل لنا في كلّيّة طبّ الأسنان.. وهو حافظ لكتاب الله، وذو علم شرعيّ واسع.

ابتسمت رغما عنك، وأنت تستحضر شكل طبيب الأسنان الشاب الذي صلّيت خلفه لسنوات في جامع المرسي، فغمرتك الذكرى بدفء عجيب.

ثمّ أقيمت الصلاة.

ما إن شرع الإمام في تلاوة الفاتحة، حتّى سرت قشعريرة في جسدك. كان صوته شجيّا عذبا يستدعي الخشوع ويستجلب الدمع. ثمّ أخذ يقرأ:

(أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ • أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ • أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ).

تسمّرت مكانك، وأصغيت بكلّ جوارحك. تستعيد مشهد جامع سلطان أحمد في إسطنبول وآخر عهدك بالتلاوة المؤثّرة التي تحييك

من الممات، فتعيش حالة الوجد ذاتها، كأنّك تلمس صحف القرآن النّديّة تلقي عليها نظرة لأوّل مرّة، فتهتزّ أركان ذاتك المكابرة من الأعماق.

ركع الجميع ولم تركع. فشدّك نديم من كمّ قميصك حتّى تفعل ولا تلفت الأنظار إليك، فأحنيت ظهرك وأنت لا تزال في حالة ذهول، تتداعى في وجدانك كلّ المشاعر الغامرة الّتي تذوّقتها ذلك اليوم، وأنت تنصت إلى المقرئ الـرّقي. أتكون قد خزّنت تلك «الحالة» في ذاكرتك في وضع سبات شتويّ حتّى جاء ما يوقظها؟

أنهيت صلاة العشاء دون أن تستوعب شيئا ممّا يجري حولك. كنت تسجد وترفع وتقف وتركع مثل آلة عمياء. ثمّ التقطت أنفاسك، وعدت إلى التّركيز مع التّلاوة. كان جزء خاوٍ من روحك يمتلئ. رغم كلّ شيء، كنت تفتقد تلك الرّوحانيّات الّتي تلازم شهر رمضان، صيامه وقيامه، ثمّ التهجّد ساعة السّحر. كنت في ظمأ شديد، وقد وجدت نفسك فجأة أمام نبع جارٍ شرابه عذب، يتدفّق من شفتي الإمام الشّابّ.

ثمّ جلس في استراحة بين ركعات التّراويح، وأخذ يخطب:

- سنخصّص هذه الجلسة القصيرة لتدارس أسماء الله الحسنى.. فهي باب معرفة الله، وسبب صلاح القلوب.. فهي تقوّي جانب الخوف والمراقبة وتعظم المحبّة والرّجاء في القلب، وتزيد في إيمان العبد.. والمعرفة سبب لنيل محبّة الله.. فاللّه يُحبّ من أحبّ أسماءه الحسنى! وهي تورث صدق اليقين والتوكل.. فمن عرف غِنى الله وفقر خلقه، وقدرة اللّه وعجز خلقه، وقوة اللّه وضعف خلقه، عرف مقدار افتقار الخلق لغنى الله، وضعفهم لقوّته، وتواضعهم لعظمته، وذلّتهم لعزّته، تبارك وتعالى.

أصغيت باهتمام ولهفة. لم يكن يقول كلاما تجهله، لكنّ روحك تتوق إلى تلك الأيّام الخوالي، التي تناجي في ظلمة لياليها خالقك، فتدمع عيناك.. لقد جفّت مقلتاك لأمد طويل، حتى نسيت كيف يكون البكاء بين يديه.

- ونستهلّ اليوم مع اسم الله «التوّاب».. ونحن في مطلع هذا الشهر المبارك الذي تضاعف فيه الحسنات، فليس هناك ما هو أفضل من أن نستقبله بالتوبة عن الذنوب.. والتوبة تفيد معنى الرّجوع، والتّواب بمعنى يقبل توبة عباده وفعّال من صيغ المبالغة مثل مشّاء لكثير المشي. فهو التوّاب الذي ييسّر أسباب التوبة لعباده مرّة بعد مرّة بما يظهر لهم من آياته، ويسوق إليهم من تنبيهاته.. وإذا كانت التوبة معناها الرّجوع والعودة، فإن الله تعالى كثير العودة بأشكال الإحسان على عباده، فهو يوفقهم بعد الخذلان، ويعطيهم بعد الحرمان، ويخفف عنهم أنواع البلاء، ومن توبته يقابل الدّعاء بالعطاء، والاعتذار بالغفران، والتوبة بمحو الحوبة...

استمرّ الدّرس بضع دقائق، لبثت خلالها منتبها مشدودا إلى شفتيه، حتّى قام الشيخ إلى الصّلاة مرّة أخرى. ثمّ أخذ المصلّون يتململون، وينسحبون بعضهم وراء الآخر. فاغتنمت الفرصة لتتسلّ من مكانك في هدوء قبل أن يلحظ نديم تأثرك.

ما الذي تغيّر؟ لازمك السّؤال طيلة يوم غد. كأنّ قلبك قد أفاق بعد غيبوبة طويلة، ورجع إلى نقطة توقّفه منذ سنتين، خلال رحلة تركيا. كنت على أبواب الإيمان في تلك الآونة! لقد كنت على وشك التّسليم، لولا خبر ريم الذي هدّم كلّ ما بنته داخلك رحلة التأمّل العابرة لبلدان أربع. والآن، تريد أن تستأنف الرّحلة.. على متن تلاوة مؤثّرة وموعظة تجلو الغمام عن حقيقة معرفتك بخالقك.

-٣٠-

سأصلّي وراءه اليوم أيضا!

أضمرتها في نفسك، وأنت تروح وتجيء بين أروقة المستشفى وقاعات الفحص. وحين رأيت نديم، حيّيته بابتسامة فاترة وفررت من أمامه كي لا يسألك.. فلم تكن بيدك إجابات بعد.

وصلت متأخّرا متعمّدا إلى المسجد، حتّى لا يلمحك أحد معارف الأمس وأنت تدخل أو تخرج. جلست في الصّفوف الأخيرة، واستمعت إلى تلاوة الشّيخ النديّة، ثمّ إلى درسه القصير، عن اسم الله الغفور. ثمّ تسلّلت مرّة أخرى في صمت قبل أن تقضى صلاة التّراويح.

تردّدت على مسجد السّكن الجامعيّ كلّ ليلة من الأسبوع الأوّل لرمضان. تتعرّف إلى ربّك الرّحمان، الخالق، الشّكور، الرزّاق.. وقد حسبت أنّ نديم لم ينتبه لحضورك ولم يراوده الشكّ بشأنك. ولعلّه قد نسي أمرك والتفت إلى مشاغله، لولا أنّه فاجأك بدعوة جديدة على مائدة إفطاره في نهاية الأسبوع!

وصلت مثل المرّة الأولى، متلكّئا. وحين دخلت المجلس الخارجيّ، فوجئت بشغور المكان، إلّا من الشيخ عقيل وصاحب المنزل! حيّيت الشّيخ في احترام، وأفطرت مطرقا في خجل لا تدري مأتاه.. وكأنّ حضور الشيخ أكثر ممّا تطيق من كرم مضيّفك! وبعد أن فرغتم من أطباق الحمام وصينية البطاطس والمحشي، التفت إليك نديم وقال محرّضا:

- الشّيخ أمامك، فاسأل ما تريد!

تقلّبت بصرك بينهما في تردّد، ثمّ أطلقت العنان لمارد الأسئلة

المسجون بالقمقم منذ سنوات!

سألت عن الحكمة من الخلق، وعن بيت أبي العلاء المعرّي الذي لازمك كثيرا في فترة ضياعك، فقال الشيخ عقيل:

- لما كان الله حكيمًا، فلا بد أن تكون له غايات ومقاصد لأفعاله عموما، ومن خلق البشر بشكل خاصّ.. قال تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ). ولما كان الله غنيًا عن كلّ شيء، فإنّ الغاية بالتأكيد تخصّ البشر. قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ). وخَلْقُ البشر لإلحاق الضرر بهم هو ظلم قبيح، ولما كان الله عادلًا، فيستحيل أن يكون قصده الإضرار بمخلوقاته إذن فلا بدّ أن يعود الخلق على البشر بالنفع.. أوليس الوجود خيرًا من العدم، والحياة خيرًا من الجمود؟ والجزاء في الآخرة المصحوب بتكريم وتعظيم خيرٌ من النكران.

- إذن لماذا لم يخيّرنا الله بين الحياة والعدم؟ فربما كان الإنسان ليرفض الخضوع للاختبار الدنيويّ، وهو حقّه، فلماذا أجبره الله عليه؟

- يخبرنا الوحي بأنّ الله قد خيّرنا بالفعل. قال تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)، (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ). وقد أجمع المفسّرون على معنى الآية، أنّ الله أخرج جميع بني آدم، وعددهم بالمليارات كما تعلم، من ظهر آدم على هيئة الذرّ -أي مثل النمل الصغير- ثم سألهم ألست بربكم؟ قالوا بلى، فقالت الملائكة: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين. وقد يقول قائل: ولكنّي لا أذكر تعرّضي لهذا التخيير ولا أذكر أني شهدتُ

أمام الملائكة بأن الله هو ربّنا! ذلك أنّ الله أعاد البشر جميعا إلى ظهر آدم، ليخرج كلّ منهم في وقته إلى الدّنيا ويدخل هذا الاختبار بعد أن مُسحت تلك الحادثة من ذاكرته، إلا أنّه وضع لنا علامات في الطريق، وترك فينا فطرة الشّعور بألوهيته، وأرسل لكلّ أمة رسولا...

استمرّ يحدّثك عن قصّة الخلق التي تعرفها، وعن معاني الحياة والوجود. ولبثت تنصت في اهتمام رغم الرّيبة التي تنازعك. لكنّك كنت مشدودا إلى كلمات الشّيخ، تستعذب الحديث إليه. لم تكن طريقته تشبه في شيء ما تعوّدت عليه من الشّيوخ الصّارمين الواعظين.. ولم يكن يطالعك بشفقة من يحاول ردّ شاة شاردة إلى الحظيرة الآمنة. كنت تشعر بالارتياح أخيرا. فبرحمة من الله لان لك جانبه، ولو كان فظّا غليظ القلب لانفضضت من حوله. كأنّه «رسولك» الخاصّ، يبلّغك برسالة خاتم الأنبياء، منتهجا نهجه متبعا سبيله.

انتهت الجلسة مع أذان العشاء، فرافقت مضيّفك وصاحبه إلى المسجد دون تعلّت. أنت ترغب في ذلك بكلّ جوارحك، أن تصاحب الرّجل مدّة أطول، تصغي إلى ترتيله وشروحه. ابتسم نديم وهو يشدّ على كتفك في حماس:

- أظنّ أنّنا لم ننته بعد.. كلاكما مدعوّ عندي غدا على الإفطار!

أومأت في استسلام وامتنان. كنت مستعدّا للإصغاء، تائقا إلى الخلاص.

وما أن جمعتكما الجلسة في الغد، حتّى بادرت على الفور. كنت قد فكّرت في الأسئلة التي تحتاج ردودا شافية. معضلة وجود الشّرّ!

- إن كان غرض الخلق إسعاد البشر، فلماذا يبتلينا الله، فيمرضنا، ولا يرزقنا، ولا ينصرنا، ولا يجيب دعاءنا، ولا يهدينا؟!

ابتسم الدّكتور عقيل وقال:

- هناك أنواع ثلاثة من الشّرور علينا أن نميّز بينها.. أوّلها أسبابه طبيعيّة، متعلّقة بنواميس الكون. فقد شاءت حكمته تعالى أن يخلق كونًا بنواميس صارمة، وضوابط دقيقة. فمن يضع يده في النّار سيحترق بالتأكيد، ولا يعدّ هذا عقابًا أو ابتلاءً، بل هو نتيجة حتميّة لقانون كونيّ. وإن نزل مؤمن وكافر البحر، فسيغرق من لا يجيد السّباحة، دون أدنى مراعاة لتقواه، (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا). حتّى الكوارث الطّبيعيّة، فهي تحدث نتاج تحوّلات صغيرة ومتواصلة في بنية الكرة الأرضيّة.

أخذ نفسا ورشفة ماء، ثمّ استطرد:

- وثانيها من صنيع الإنسان نفسه.. إنّ الله لم يقتل الأطفال في الحروب والمجاعات، وإنما قتلهم الطغاة والبغاة. والله لم يمرض ذاك، بل الطعام أو الهواء الملوّث هو الذي أمرضه. والله لم يهزم ذاك الجيش، وإنما هُزم لنقص عدّته وعتاده أو لقلّة خبرته. وهكذا حين نتتبّع معظم مصائب الدّنيا نجدها تحدث نتاج أسباب دنيويّة ومادّيّة وبشريّة. حتّى معظم الكوارث في عصرنا تعود إلى الاحتباس الحراري، ونشاط الإنسان الصّناعيّ والاستهلاكيّ! وقد صرّح الله تعالى بمسؤوليّة البشر عن شرور الدّنيا بقوله: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ).

- إذن لماذا لا يتدخل الله ليمنع الشرّ؟

- هذا يأخذنا إلى الصّنف الثالث.. الاختبارات. خلق الله بشرًا بإرادة حرّة وكونًا منتظمًا ثابت القوانين ليتحقّق الاختبار الدّنيويّ. لكنّ زاد كلّ منّا في وجه الاختبار مختلف. بعضنا خُلق فقيرا والآخر غنيًا، بعضنا صحيحا قويّ البنية وبعضنا هشّا ضعيفا.. هي أرزاق مختلفة، وليست شرًا محضا، ليبتلينا أنشكر أم نكفر. ما الذي نفعله

بنعمه علينا وكيف نوظّفها.. ما مدى صبرنا ورضانا!

سكت برهة ثمّ أضاف:

- تخيّل معي، لو اختار إنسان ارتكاب الشرّ، فتدخّل الله ليمنع شرّه! هل سيبقى للكون أو الحياة معنى أو وظيفة؟ وكيف سيكشف عن الأشرار والأخيار إذن؟ أما عن إقامة العدل، فيوم الحساب يعود الحق المنتهك إلى أصحابه ويجازى كلّ حسب عمله، فهو يوم استحقاق وعوض.. استحقاق الصالحين الخيّرين لثوابهم، واستحقاق الظالمين لعقابهم. وعوض الجميع عن آلامهم. قال تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا).

ثمّ أضاف مبتسما:

- ثم إن الخير والشر نسبيّان، والبعض قد يعتاد على الخير، إلى أن يشعر به شرًا، مثل أهل سبأ (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا).. أو من ينتحر لكثرة الغنى والشهرة والمال! وكل شرّ نراه في الدّنيا يقابله خير في موضع آخر.. قد نحيط به علما، وقد لا نحيط به، وهذا مردّه إلى اكتمال حكمة الله وعلمه (فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا). وكثير من الأمور ظاهرها شرّ في البداية، ثم ينكشف الشرّ عن خير عظيم، والأمثلة من قصة يوسف عليه السلام دلائل على ذلك، وقصّة موسى والخضر عليهما السّلام أيضا...

لم يكن يقول كلاما لا تعرفه. أنت تدرك كلّ تلك المعطيات، منذ زمن بعيد! أم تراه غشي قلبك كنان فلا تفقه، وفي أذنيك وقر فلا تسمع، وبينك وبين الله حجاب؟ ليس يحمل إليك اكتشافا جديدا أو نظريّة مستحدثة. لكنّك تجد صدى لعباراته داخلك، كأنّه يزيح ستارا كان يحول بين قلبك وبين ما تعرفه من حقّ! بل لعلّ أسلوب خطابه مثّل الفارق كلّه.. كانت كلماته بسيطة وواضحة، وأفكاره منطقيّة

سلسة، تحترم العقل ولا تهينه.

أنصتّ في انتباه واهتمام، تتشرّب الكلمات وتحتفي بها. لقد كانت رحلتك الطّويلة في شعاب الشكّ خيرا بالتأكيد، مهما بدت شرّا في شتّى مراحلها. أنت ممتنّ لكلّ ما عشته. تشعر بأنّ كلّ خطوة خطوتها في بحثك كانت ضروريّة، لينتهي بك المطاف أخيرا في تلك الجلسة أمام عقيل.

قلت في حسرة:

– لماذا لا تحدّثون النّاس في خطبكم بهذه الأمور التي تطمئن قلوبهم؟ هذه الأسئلة الوجوديّة المضنية، إنّها تعشّش في نفوس المراهقين مثلما تراود كبار الفلاسفة! فمن كان ذا تربية دينيّة صارمة، فإنّه سيصرف نفسه قسرا عن تلك التّساؤلات الملحّة، لكنّها ستظلّ تنخر داخله وتزعزع إيمانه.. وأمّا من كان ذا حصيلة هشّة فإنّه سيرتمي ببساطة في أحضان الإلحاد، كما يحصل مع أعداد غفيرة من شباب المسلمين! ولا يسلم إلّا من يُسكت عقله بطريقة أو بأخرى ويردعه عن التّفكير.. أرأيت الطّفل إذا سأل أبويه كيف أتى إلى الوجود؟ إن هما زجراه ونهراه عن السّؤال في تلك المسائل التي تفوق إدراكه فإنّه سينصرف عنهما ويبحث عن المعرفة من مصادر أخرى. بينما إن حدّثاه بأسلوب علميّ مبسّط واحترما عقله، فإنّه سيركن إليهما وسيعود إليهما لاحقا ليحكّمهما في كلّ ما يعترضه من مسائل مستعصية. وهذا ينطبق على شباب الأمّة وعلمائها أيضا.. إذا جاءك صبيّ يسأل في الغيبيّات، فإذا نهرته واكتفيت بالإجابة الجاهزة «لحكمة لا يعلمها إلّا الله»، فإنّه سيضيع حتما، ولعلّه يفضّل إجابات الملحدين المبنيّة على العشوائيّة والصّدفة!

في الجلسة الثّالثة، كنت أنت من يمسك بزمام الحديث. فتحت

قبلك للمرّة الأولى، منذ أربع سنوات. تحدّثت باستفاضة عن فترة بحثك. لقد كنت ذا منهجيّة علميّة، وتقدّر بشكل خاصّ التّحليل المنطقيّ والتّسلسل العقلانيّ للأفكار. لكنّك اصطدمت بآراء بعض علماء السّلف، وفيها يعترضون على سعي البعض -من أمثالك- إلى البحث في العلاقة بين السّبب والنّتيجة.. بين البيولوجيا والفيزياء المادّيّة والمشاعر والرّوحانيّات. إنّهم يعتبرون مجرّد التطرّق إلى تلك المسائل انتقاصا من إطلاق القدرة الإلهيّة ونقصا في كمال التّوحيد! وأنت تعتبر العقل هبة ربّانيّة لا يجدر بك ركنها وتعطيلها، بل أنّ في إعمالها تعظيما لكرم الله وما فضّل به الإنسان عن باقي المخلوقات. فكان أنّ تسبّب ذلك في نفورك من كتب التّراث الإسلاميّ كافّة!

قلت في مرارة:

- لقد أجمعوا على أنّ الله يخلق الفعل دون سبب، يقولون «أنّ السّكّين لا تقطع، ولكنّ الله يُحدث القطع عند حدّ السّكّين!». وكأنّهم يقولون: أمسك قطعة خشب واقطع بها، لأنّ السّكّين لا تقطع لذاتها!

ابتسم عقيل وقال:

- أنت على حقّ. لقد تخاذل المسلمون عن الأخذ بالأسباب رغم تأكيد الإسلام على احترام السّنن الكونيّة.. حتّى وصل العالم الإسلاميّ إلى هذا الوضع المتردّي. وقد أكّد الإمام الغزالي عند تعرّضه إلى قضية فاعليّة الأسباب أنّ الله وضع في الأسباب القدرة على الفعل، حتّى صار الصّواب أن نؤمن بأنّ السّكّين تقطع، بالرّغم من أنّ القطع يتمّ بقدرة الله في كلّ مرّة! إنّ إنكار فاعليّة الأسباب لدى المؤمنين يشبه إلى حدّ كبير موقف بعض فلاسفة الإلحاد، إذ يرون أنّ الكون لا يخضع لقوانين، وأنّ ما نراه من التزام للكون بنظام معيّن، إنّما هو بحكم العادة! فكيف يتماثل هؤلاء وهؤلاء!؟

هتفت في حماس:

- هو ذاك! لقد اطّلعت على جلّ ما كتب في التّراث الإسلاميّ عن فلسفة الوجود وحقيقة العقل الإنسانيّ والعلم، فوجدت أسلوبها مكرّرا.. مثل خطباء المساجد تماما! إنّهم يتحدّثون في قضايا الأمّة أو في مسائل علميّة، ويفرطون في ترصيع كلامهم بالآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة.. لا يهمّ إن انتهوا إلى تحريف العلم وإنكار المسلّمات العقليّة، في سبيل الانتصار للدّين! إنّهم لا يدركون أنّ هذا الأسلوب هو المسؤول أساسا عن اعتزال الكثيرين للدّين. ولا تنطبق هذه الإشكاليّة على وعّاظ المساجد وشيوخ الفضائيّات وحدهم، بل على علماء المسلمين أيضا. لقد أصبح الإعجاز العلميّ في القرآن هاجسا بالنّسبة إلى الكثيرين.. إنّهم مستعدّون لتحريف العلم وليّ أعناق الحقائق لتتماشى مع فهمهم السّطحيّ للقرآن! لا مانع لديهم من تعديل أو إغفال نظريّات علميّة وابتكار غيرها للدّفاع عن هذا الفهم.

كنت متخنا بالمرارة مثقلا بالغيظ. لقد كنت جادّا في بحثك عن الحقيقة صادقا في سعيك، لكنّ اصطدامك بذاك الأسلوب السّطحيّ المنفّر جعلك تفقد الثّقة في الفكر الدّينيّ، حتّى صرت تلقي جانبا بما تقرأ إذا ألفيته مشبعا بالاستدلالات القرآنيّة. كنت ترى أنّ الكاتب يعزف على أوتار العاطفة الدّينيّة ليقنعك بفحوى أطروحته، ولا يهتمّ بالمضمون أو بالأسلوب العلميّ.

أضفت في أسى:

- أخشى أنّ العالم الإسلاميّ يكرّر دون وعي منه مأساة الكنيسة في العصور الوسطى، في أوروبا. لقد هيمن الفكر الدّيني على العلم، حتّى اتّهم غاليليو بالهرطقة، لأنّه أثبت دوران الأرض حول الشّمس،

فأنكرت عليه محاكم التفتيش تقديم نظريّة معاكسة لتأويلها لنصوص الكتاب المقدس!

أصغى إليك عقيل باهتمام ثمّ أردف:

- وهل يبرّر ذلك أن نترك الدّين وراء ظهورنا، كما يفعل فاقدو الثّقة في الفكر الدّيني؟ لو كان الدّين رفاهيّة فكريّة، لأمكن ذلك. لكنّ الألوهيّة حقيقة، والدّين منهج حياة، والوحي ينبّئنا بوجود حساب وجزاء بعد الموت!

احتدّت لهجتك وأنت تهتف:

- أنت تطلب من النّاس أن يتّخذوا الدّين منهج حياة لأنّهم سيحاسبون بعد الموت؟ أليس الأولى أن يؤمنوا قبل كلّ شيء بأنّ هناك حسابا بعد الموت؟ أليست المشكلة الأساسيّة مع الأديان هي طرحها لغيبيّات لا يقبلها العقل البشري؟

استمرّ يحاججك بهدوء وثبات أعصاب:

- لقد أعلن العلماء عجزهم عن إيجاد تفسير للوجود.. إلّا بالتسليم بوجود خالق موجد للكون! ونظريّاتهم القائمة على العشوائيّة أثبتت غباءها وسطحيّتها. لذلك فالعلم الآن يقف على عتبات الميتافيزيقا. لم يعد بإمكانه تقديم إجابات متكاملة عن حقيقة الوجود دون اللّجوء إلى الفلسفة والدّين!

- أمّا إذا كان الاختيار بين الفلسفة والدّين، فأعتقد أنّ الباحثين عن الحقيقة سيفضّلون طريق الفلسفة التي بوسعهم تتبّع أدلّتها المنطقيّة.. بينما يعدّ الدّين حقل ألغام بمقدّساته ومحظوراته وحرّاسه الأشدّاء من وعاظ وخطباء! لقد غدا الدّين مؤسّسة اجتماعيّة متكاملة الأركان، يخضعها هؤلاء لرؤيتهم الضيّقة ويفرضون تأويلاتهم في وصاية تامّة على عقول أتباعهم، كأنّ الوحي يتكلّم لفتهم وحدهم!

- لكنّ الفلسفة عجزت عن الإلمام بتلك الغيبيّات التي هي مفتاح فهم الوجود.. لقد أعلنت أنّها فوق طاقتها وخارج نطاقها. ولم يبق لهذه المهمّة إلّا الدّين! صار محتّما علينا نفض ما تراكم على المعتقدات الدّينيّة من جهل وتعصّب.. ولن يكون ذلك إلّا بوضع الدّين في منزلته والعلم في منزلته، وتتمين التّلاق حين يوجد، لا فبركته وفرضه.

كنتما تلتقيان أخيرا في مساحة مشتركة، وكان يقنعك في كلّ مرّة بتسلسل عقليّ منطقيّ. يخاطبك بما تفقه، كأنّه أدرك مفتاح الوصول إلى قلبك، عن طريق سلوك مسار العقل. تابع يقول:

- لا يوجد صدام بين الدّين والعلم مطلقا.. لكنّهما في الوقت ذاته ليسا صنوين كي يوضعا على كفّتين متقابلتين، فترجح كفّة أحدهما. لكلّ منهما مجاله.. العلم يفسّر قدرة الله في الكون من منظور مادّيّ بحت، والإيمان هو النّتيجة التي تصل إليها بالدّليل العلميّ. جزء كبير من الإشكال يكمن في وضع العلم في خصومة متوهّمة مع الإيمان، وفي النّزعة المادّيّة المتعالية التي تدّعي أنّ الإنسان بلغ من المعرفة ما يجعله يستغني بالعلم عن أيّ تفسيرات ميتافيزيقيّة للكون والحياة.

وحين التقيتما مرّة رابعة، تحدّثت طويلا عن كلّ شكوكك الماضية، وخيباتك وآلامك القديمة والمتجدّدة. سألته عن أصل بلواك، رحلتك إلى فلسطين المحتلّة ولقائك بالنّاقّ اليهوديّ دانيال وراشيل، فقال بصوت هادئ:

- نحن بشر كلّنا، ولسنا زبانية جهنّم! وحساب العباد ليس موكولا إلينا، بل الله وحده من بيده تقرير جزاء كلّ نفس. فلا نحكم على هذا بالنّار ولا نقدّم صكوك غفران لمن رضينا عنه! ومن لم تصلهم

رسالة الوحي، أو بلّغتهم مشوّهة ومحرّفة، كما هو حال ملايين البشر الذين لا يسمعون عن الإسلام إلا أنّه دين إرهاب وظلم، فكيف نعتبر أنّ الحجّة قد قامت عليهم واستكبروا؟ بل يُوكل أمرهم إلى الله في الآخرة، وقد وعد سبحانه بأنّه لا يظلم مثقال ذرة.. ومن تمام عدله ألا يُحاسب هؤلاء كما يحاسب من بلغته الرسالة وقامت عليه الحجة فرفضها، وأن يكون لكلّ فرد حساب خاصّ يراعي عقله وبيئته وظروفه وعوامل أخرى لا نعلمها. فلا يحق لنا أن نجزم بمصير أحد، بل نكتفي بالإقرار بعدل الله ورحمته.. (إنّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)، (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ). وهذا ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، فقد رُوِيَ عن ابن عباس قوله: (إنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزّلهم جنة ولا نارا)، وأثر عن أمير المؤمنين علي قوله في قوله تعالى: (إنّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ: هذه الآية تأتي على القرآن كله).

زفرت، وقد أحسست بثقل يراح عن صدرك، ثمّ استرسلت، تشجّعت، فعرضت عليه نظريّتك الخاصّة بالقضاء والقدر، والأكوان المتوازية. استمع إليك في اهتمام حتّى انتهيت من شرحك. ثمّ سألك:

- هل تؤمن بأنّ الله الذي خلق الكون عادل لا يظلم مثقال ذرّة؟

- نعم!

- وهل تؤمن بأنّه حكيم، ورحيم وأنّه قدير؟

- نعم!

- وأنّه عليم كلّ المعرفة؟ وأنّه سبحانه يعلم ما كان وما سيكون، وما هو كائن، وما لم يكن لو كان كيف يكون، لا يخفى عليه من ذلك صغيرة ولا كبيرة؟

- نعم!

- إذن ما حاجتك إلى هذه النظريّة؟ كأنّك تقول أنّ الله -حاشاه- لا يمكن أن يكون عالما بكلّ أعمالنا وخياراتنا فيكتبها علينا دون أن يكون في ذلك إجبار لنا!

ثمّ أطرق للحظات قبل أن يضيف:

- ثمّ إنّك تحلّ أحجيتك بالاستناد إلى نظريّة علميّة غير مثبتة. وهذه هي خاصّيّة النظريّات، أنّها تنهار إذا ما جاءت نظريّة جديدة تفنّدها! وهذا ينطبق بنفس الشّكل على من يبني إيمانه على الإعجاز العلميّ في القرآن وحده. فإذا ما بدا له تناقض ظاهريّ بين آية قرآنيّة ونظريّة علميّة، خرّ إيمانه على رأسه!

أصغيت في ارتباك وتململ، ثمّ هتفت:

- وما فائدة هذه العقول التي أودعت رؤوسنا، إن نحن لم نستخدمها لإيجاد الإجابات الشّافية؟

- العقل، يا أخي الكريم، لا يستطيع الوصول إلى تفسيرات منطقيّة للغيبيّات، كما أنّه لا يستطيع التّفكير بمنطق خارج التّجربة والحدس والبديهيّات المتأصّلة فيه. الإجابات المعقولة الوحيدة التي يمكننا الرّكون إليها هي تلك التي جاء بها الوحي! وطالما أنّ الوحي لم يخبرنا عن آليات عمل القضاء والقدر فلا ينبغي لفيلسوف ولا عالم أن يضيّعا الوقت في البحث عنها.

- هل يعني هذا أن نُجبر عقولنا على عدم طرح الأسئلة؟

- طبعا لا. فالعقل لا يمكنه التوقّف عن التفكير! ولكن يمكننا أن نضبط أسئلته لتصبح محدودة بحدود قدراته، كي يتمكّن في النهاية من الإجابة عنها. فإذا شككت في وجود «الحكمة الخفيّة» بسبب حيرتك أمام وجود الشرّ في العالم، فيجدر بك تحويل عقلك إلى السّؤال

المبدئيّ: كيف يمكن لهذا الكون المعجز بأدقّ تفاصيله المدهشة أن ينشأ عن صدفة؟ وإذا سلمت بوجود الله وبخلقه للكون، فلا بدّ أن يسلّم العقل بما أخبرنا الله به من غاية هذا الخلق. أمّا التفاصيل الدّقيقة للخلق فلم يُطلعنا الوحي عليها ولم يكلّفنا بالبحث عنها. ومن يدفع بعقله لمحاولة تجاوز حدوده فلن يصل إلى أيّ معرفة يقينيّة، وحتى إذا بلغها بضربة حظ جدلًا فلن يكون بمقدوره أن يبرهن عليها.

سكتَ لبرهة ثمّ أضاف:

- أرأيت لو كنت بحّارًا، وقيل لك أنّ البحر هائج وخطر ولا يمكنك خوضه بقاربك الصّغير -عقلك- فإنّك ستحرص على تعزيز المركب بآليات الحماية -المعرفة البشريّة المتوفّرة- وستحمل معك بوصلة وطعامًا وغير ذلك ممّا تحتاجه في الحالات الطارئة. أما إذا علمت مسبقًا بأن آلاف البحّارة الأبطال قد غامروا في ذاك البحر وضاعوا فيه ولم يرجعوا أبدًا إلى اليابسة فمن الجنون أن ترمي بنفسك فيه!

ابتسمت، وأنت تتذكّر البحر الهائج الذي خضته بجنون. لقد كنت أنت ذاك البحّار المغامر لا ريب. لكنّك تجد طريقك رويدًا رويدًا نحو اليابسة. بينما واصل الشّيخ عقيل:

- والأهمّ هو أنّ هذه المعرفة لن تغيّر شيئًا في طبيعة حياتنا وواجباتنا تجاه خالقنا، فنحن جميعًا وجدنا أنفسنا داخل «أحجية» هذه الحياة بكلّ ما فيها من شقاء وغموض، واهتدينا بالوحي والعقل إلى غاية وجودنا، فالعاقل منّا هو الذي يضع ثقته في الخطة الإرشادية -الوحي- التي وضعها خالق هذه «الأحجية» كي يجتاز اختبارها بنجاح...

سكتَ لدقائق طويلة تهضم ما سكبه على مسامعك من موعظة

حسنة. ثم قررت أن تسأله عن الطقوس التي أشعرتك بالرّاحة وأعادتك إلى ضفاف السّكينة بعد أن كنت تخوض موجا متلاطما ولا تعرف لك مرسى. سألته عن رأيه في التصوف، فقال:

- التصوّف الإسلامي القويم هو أن يبلغ المؤمن درجة «الإحسان» التي هي أعلى الدّرجات في التوجّه إلى الله عز وجل -بعد الإسلام والإيمان- والتي يشير إليها القرآن الكريم في قوله: (والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلنا وإنّ الله لمع المُحسنين). ويقول عنها الرّسول صلى الله عليه وسلم: (الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك). وللصّوفية طائفة من الأخلاق الفاضلة الكريمة التي يحثّ عليها الإسلام.. لأنّ عماد طريقتهم هو التأديب والتهذيب، وتطهير الرّوح، وتصفية النفس. ويمكن أن نطلق عليهم اسم زهّاد، إذا كان زهدهم لا يوقعهم فيما حرّمه الله تعالى وإذا كانوا لا يزيدون في عباداتهم عمّا أمر به الله تعالى، ولا يبتدعون. وكان من الصّوفية أئمة أوائل، أثنى عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وضمهم مع أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وعدّهم من أئمة الهدى الذين جعل الله لهم لسان صدق في الأمة من أمثال أبو إسماعيل الهروي صاحب «منازل السائرين»، وذو النون المصري، والقشيري صاحب الرّسالة، وكلهم نجوم زمانهم فقها وورعا وعلما وحكمة.. ومنهم من حاد عن الطريق فقال بالحلول والاتحاد ووحدة الكون، مثل محيي الدّين بن عربي! ألا ترى -رعاك الله- أنّ الله قد أنزل الوحي ليعلّم النّاس الدّين، وأحبّ طقوس العبادة إليه سبحانه، هي ما افترضه عليهم.. فما رأيك فيمن يخالفها ويزيد عليها؟

أومأت برأسك مؤيّدا، ثمّ شددت على كفّ الشّيخ شاكرا.

- أشعر أنّ كلّ قطعة من الأحجية قد أخذت مكانها الصّحيح في رأسي!

التقيت الدّكتور عقيل بعد ذلك مرّات عدّة، وامتدّت بينكما النّقاشات والسّجالات. وكنت تزداد يقينا كلّ يوم. حتّى أفقت في ليلة النّصف من رمضان، وقد غدت رؤيتك واضحة جليّة، ففيم المكابرة؟ تناولت سحورك ثمّ توضّأت وتعطّرت ولبست ثوبا أبيض مكويّا بعناية، وخرجت إلى صلاة الفجر في المسجد القريب من شقّتك.

كنت تشعر بنشوة تهزّك، وأنت تسير في ممرّات المستشفى، تشقّ إبتسامة عريضة وجهك! كنت تريد أن تحدّث أيّ أحد وكلّ أحد عمّا تجده من طمأنينة وصفاء. لقد كنت تجد للإيمان حلاوة على طرف لسانك، مثل حلاوة الرّطب السكّري الذي تفطر عليه بعد صومك.

– لقد نويت العمرة!

أبلغت نديم ذلك الصّباح. لم تكن تحتاج إذنه، فإجازة العيد تغطّي فترة تغيّبك المزمعة. لكنّك تبشّره، وتفصح عن التّغيير الصّامت الذي لمسه فيك منذ أوّل ليلة صلّيت فيها وراء عقيل. عانقك بحرارة وقال:

– لا تنسني من صالح دعائك!

أحرمت صبيحة السّادس والعشرين من رمضان. وقفت أمام المرآة، تطالع شكلك بالإزار والرّداء الأبيضين في رضا. لقد قطعت عهدك بهما منذ سنوات، وها أنت تجدّد العهد أخيرا. غادرت بسيارتك ميمّما وجهك شطر مطار الملك خالد الدّولي. وضعت سيارتك في المواقف السّفليّة، سحبت حقيبتك الخفيفة وقصدت مكاتب التّسجيل.

بعد ساعتين، كانت الطائرة تحلّق بك إلى جدّة.

قبيل نصف ساعة من موعد الهبوط، أعلن عبر مكبّرات الصّوت الدّاخليّة للطائرة أنّ الميقات قد اقترب. استويت في جلستك وأخذت ترقب المشهد من علٍ في لهفة المحروم. وفوق الميقات، أبصرت جبالا قاحلة وصحراء موحشة تغطّي مساحات شاسعة تفصلك عن مكّة.. طالعتها بحنين طاغٍ وقد بدت لك في تلك اللّحظة آخذة للألباب، ساحرة للعيون.. لا تنازعها خضرة غنّاء ولا جنّات وارفة، كم حلّقت فوقها من قبل وطائرتك تهبط في مطار باريس! أخذ قلبك يردّد قبل لسانك في خشوع: لبيك اللهم عمرة.. لا رياء فيها ولا سمعة...

رميت ببصرك أبعد ما يصل إليه طرفك، وكان لسانك لا يفتر، يلهج في حرقة وإخلاص: (لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك). كانت الكلمات -رغم اعتيادك عليها لسنوات في ماضي أيامك- تزلزل كيانك.. وكأنك تدخل الإسلام لأوّل مرّة. رحت تمسح بطرف رداء الإحرام دموعك الحرّى التي أغرقت لحية استطال شعرها في الأسابيع الفائتة.. فقد أعفيتها منذ أول ليلة في رمضان، وسألت الله بكل حرارة للشيخ عقيل والدّكتور نديم أوفر الجزاء، وابتهلت إليه أن يسعدهما، جزاء صبرهما الجميل على تعنتك وكلّ ما قدماه لك.

حين وصلت إلى مطار جدّة، كانت السّاعة تشير إلى منتصف النّهار تقريبا. طلبت سيّارة أجرة أقلتك إلى مكّة، وبعد ساعة ونصف، كنت تقف في السّاحة الخارجيّة للحرم، قبالة «باب الملك فهد». لقد وقفت تلك الوقفة منذ سنتين ونيف، برفقة حاتم. لكنّك كنت في حال أخرى. تنهّدت، وأنت تمضي إلى داخل الفندق.

اغتسلت وجدّدت وضوءك ثمّ خرجت متشوّقا إلى الحرم. عبرت الأروقة حتّى شارفت بلوغ الصحن، وهناك ظهرت لك الكعبة الشّريفة متزيّنة بردائها الأسود المنقوش بخيوط الذّهب، فاغرورقت عيناك وأنت ترفع كفّيك بالدّعاء: «اللهمّ زدْ هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة».

ثمّ شرعت في مناسك العمرة. وقد كانت عمرة مختلفة عن كلّ ما سبقها، فهي عمرة توبة وتجديد إيمان. وكلّما هممت بركن من أركانها، مثلت أمام عينيك عبارات تلفّظت بها جهلًا وعدوانًا يوما ما وأنت تحدّث حاتما. ها أنت تطوف حول حجر، وتسعى بين حجرين، ترنو إلى حجر تتمنّى تقبيله لكنّ الزّحام يمنعك، ثمّ تسجد وتركع أمام حجر، تقوم وتجلس في حركات لا تدرك جلّ غاياتها.. إلّا أنّها تعظيم لشعائر الله!

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. هذا بيت بناه خليل الله، ليكون بيت الله العتيق في الأرض.. وبين تينك الحجرين، سعت زوجه هاجر وهي ترجو السّقيا، حتّى فجّر الله بئر زمزم تحت قدميها. ألا يكفيك هذا حكمة وغاية؟

وحين فرغت من الشعائر، انزويت في ركن قصيّ وتناولت مصحفا، وأخذت تقرأ. انتبهت فجأة، حين سمعت رجلا ينادي على بعد خطوات منك، فتاة في مقتبل العمر، لعلّها ابنته. سارة. رفعت رأسك وبحثت بعينين ملهوفتين عن صاحبة الاسم، ثمّ ابتسمت وقد ثبت إلى رشدك. سارة؟ هل يمكن أن تجمعكما تصاريف القدر هكذا في الحرم؟ أطلقت تنهيدة طويلة. ما تراه حلّ بها خلال السّنوات الماضية؟ هل تزوّجت؟ أنت لم تحاول قطّ تقصّي أخبارها. قرّرت في

تلك اللحظة أنك ستفعل ما إن ترجع إلى الرّياض. ستتّصل بأيّوب، وتسأل عنها. زوجته سميّة ستعرف بالتّأكيد إن كانت قد ارتبطت بأحدهم. انقبضت لذلك الخاطر، فهمست في دعاء:

- يا ربّ، اجمع بيني وبينها بتقديرك وحكمتك.. أنت القادر على كلّ شيء!

ثمّ صرفت تفكيرك عنها وانغمست من جديد.

قضيت بقيّة يومك من صلاة العصر وحتّى أذان المغرب، تتلو آيات من ذكر الله الحكيم. وكنت قد نويت ألّا تقطع التّلاوة إلّا من أجل الصّلاة، وكأنّك تعوّض حرمان روحك من القرآن لسنوات. أزمعت أن تفطر مع جموع المسلمين في الحرم، على التّمر واللّبن وماء زمزم، وتقضي الوقت إلى العشاء في التّلاوة ومراجعة الحفظ.

كانت ظلال الطّمأنينة والسّكينة تغشاك، وأنت جالس في موضعك ذاته لساعات طوال. لقد بدأت مراجعة الحفظ منذ بدأ التّغيّر الّذي طرأ عليك في الرياض.. ولكن هنا في مكّة، فإنّ شعورا آخر يتملّكك. كنت تقرأ الجزء شفاهة في فترة وجيزة من المصحف، ثم تغلقه وتتلو الآيات عن ظهر قلب. كنت في تحدّ مع نفسك.. تريد أن تختم مراجعة القرآن كاملا، قبل عودتك إلى الرياض. تريد أن تستعيد شرف لقب «الذين أوتوا العلم»! إنه ليس لقبا بشريا أو منحة من أحد، بل هو لقب إلهي لا يحظى بشرف حمله إلا من يحمل القرآن كاملا في صدره!

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾.

بعد أن أدّيت صلاة الفجر في المسجد الحرام، ومكثت في الذّكر حتى طلوع الشمس، وأدّيت ركعتي الضحى، قفلت عائدا إلى الفندق، لتنال ساعات من النوم تستعين بها على الطاعة. ثم مكثت من

صلاة الظهر في الحرم لم تفارقه، إلى صلاة العصر، وما بين الفرضين أكملت بنهم روحي مراجعة حفظك للقرآن. تابعت في دأب وحماس، حتى دنا وقت أذان المغرب.. ثمّ ختمت بالإخلاص والمعوذتين، وسجدت سجدة شكر طويلة، تلوت معها دعاء ختم القرآن، في امتنان عميق.

سالت دموعك حتى بللت موضع سجودك. كنت تغسل بعبراتك سنوات الخطيئة، وتقترب من الحضور الإلهي.. (واسجد واقترب)، وما أبعد القلب القاسي! كنت تعوّض حرمان روحك الشقيّة وتتطهّر من الإثم.. ولا يطهّر إثم القلب سوى دمع العين. لم تدر كم طالت سجدتك.. لأنك لم ترفع رأسك منها إلا حين صدح المؤذن بصوته النّديّ في جنبات الحرم مكبّرًا. أفطرت مع جموع المصلين، وصليت المغرب، ثمّ عدت إلى الفندق لتتناول إفطارك في المطعم، فلم تكن قد حصلت على وجبة مشبعة منذ يومين.

لمحتها في ردهة المطعم، تمشي بين والديها وتبادلهما الهمسات والبسمات. هل يهيّأ إليك أنّك تراها، لضعفك وتشوّش ذهنك؟ أم أنّها حقيقة ماثلة أمام ناظريك؟ هل تخيّل صورتها، كما فعلت في الحرم حين سمعت اسمها؟ أم أنّ الله استجاب إلى دعائك بسرعة؟ تابعتها بعينين مسحورتين، يتعلّق بها بصرك غير مصدّق أنّ الأرض قد طويت مسافاتها على حين غرّة حتى باتت سارة على مبعدة أمتار منك!

وَقَد يَجمَعُ اللَّهُ الشَّتيتَينِ بَعدَما ... يَظُنّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَن لا تَلاقِيا

ولعلّها أحسّت بتحديقك -تماما كما فعلت في مدرّج الجامعة في عهد قديم أكل عليه الدّهر وشرب- فاستدارت ناحيتك. كان عليك أن تغضّ بصرك وتنسحب خجلا من كلّ ما يفرّقكما ويزرع الشّوك في ثنايا

الذاكرة.. لكنّك بادلتها تلك النّظرة المبهوتة والمضطربة لثوانٍ، قبل أن تثوب إلى رشدك، فتهرع مغادرا قاعة الطعام والفندق كلّه.

تقف على الرّصيف المزدحم بالخلق وترفع عينيك في اتّجاه الحرم المكّيّ، يهبّ نسيم منعش يوقظ حواسّك، وتهمس مرتبكا بأنفاس مضطربة.. يا ربّ، أنت حملتها إليّ بعد كلّ هذه السّنوات، بعد أن حسبت لقاءها قد غدا مستحيلا.. لم تجشّمني عناء البحث عنها وتقصّي أخبارها.. فاجعلها من نصيبي!

تدرك في تلك اللّحظات أن ذكراها لم تفارقك قطّ. لقد كانت حاضرة في كلّ مرحلة، تعذّبك بذنب اقترفته تجاهها، وغضب من هوانك في عينيها، وحنين إلى زمن كانت فيه أقرب العالمين إلى وجدانك. سارة. تتبس باسمها في مناجاة، تستعذب رقّة الرّاء وهمس السّين. ثمّ حسمت أمرك.

عدت إلى الدّاخل مهرولا، تخشى أن تفوتك الفرصة. دخلت مطعم الفندق، تفتّش عنها في لهفة، حتّى أبصرتها. كانت تجلس إلى مائدة قاصية قرب الواجهة الزّجاجيّة، تتناول إفطارها على مهل. لقد رأتك منذ قليل، ولعلّ صدمتها لا تقلّ عن صدمتك. ترفع شوكتها إلى فمها الصّغير في حركة بطيئة، وتلوك لقمتها بينما تسرح نظراتها إلى الخارج في ذهول. اقتربت، إلى حيث يبدو لك المشهد واضحا، لكنّها لا تراك. تتفرّس في أصابع كفّها اليسرى، ثمّ اليمنى إمعانا في التثبّت. لا دبل على الإطلاق. تعرف أنّها لا تهوى المجوهرات عموما، لكنّها كانت لتضع خاتم خطبة أو زواج لو أنّها -لا قدّر الله- مرتبطة بأحدهم.

اقتربت أكثر، لتصبح في مجال بصر والدها، ثمّ هتفت بعد أن التقت عيونكما:

- عمّي صفوان! يا لهذه الفرصة السّعيدة!

يقف الرّجل مبهوتًا، يصافحك بابتسامة فاترة. هذا أمر متوقّع حين يتعلّق الأمر بخاطب تبخّر منذ أربع سنوات بلا أيّة اعتذارات أو تبريرات. تستمرّ في وصلتك الأحاديّة:

- كيف حالك وحال العائلة؟ أنتم هنا للعمرة؟ هذا مدهش.. لم أتخيّل أن نلتقي هنا.. يا سبحان الله!

تلمح تردّده وارتباك ردّة فعله، فتقرّر الإمساك بزمام الأمور قبل أن يفلت الموقف منك. سحبته جانبا، وهمست في رجاء:

- هل يمكن أن نتحدّث بعد صلاة التّراويح؟

- حسنا.. إن شاء الله.

اكتفيت بذلك الوعد. صافحته مجدّدا، ثمّ استدرت تحيّي بانحناءة من رأسك والدتها، وتسترق نظرة خاطفة إلى وجهها الشّاحب وعينيها المذعورتين. سرت مبتعدا وأنت تتخيّل أيّ نوع من الحوارات السّاخنة سيحتدم على مائدة العائلة بعد انصرافك. اخترت مائدة بعيدة، وجلست متنهّدا. تلك كانت الخطوة الأولى. والآن عليك تحضير الكلام المناسب لموعدك. رغم اضطرابك، كنت تستشعر نوعا من الاطمئنان. إنّ القدر الّذي ساقها إليك في العشر الأواخر من رمضان لا يمكن أن يكون إلا خيرا. تردّد مسكّنا من روعك: خيرا بإذن الله.

انتبهت إلى أنّك لم تضع شيئا في طبقك بعد. سرت في اتّجاه بوفيه الخدمة الذاتية. كنت قد انتقيت بعض الأصناف، حين لمحتها تقف في منتصف القاعة، تبحث بعينيها بين وجوه روّاد المطعم. اقتربت وقد تعالى وجيب قلبك، وناديتها:

- سارة.

لا تزال علامات الصّدمة جليّة في ملامحها. أتاك صوتها العذب

المحتَجِب أخيرا:

- أنت هنا للعمرة؟

كانت تسأل عن شأن يُدرك بديهيّا. إنّها ترى في هيئتك أسباب الطمأنينة. كلّ شيء فيك يدلّ على استقرار أحوالك وعودتها إلى سابق عهدها.. تلك اللّحية التي شرعت في إطالتها منذ بداية رمضان، والقميص الأبيض، ثمّ تواجدك هنا في هذه الأيّام المباركة. لكنّها ما زالت في حاجة إلى تأكيد لفظيّ واضح. أومأت برأسك بابتسامة خفيفة، ثمّ أضفت:

- لقد وجدت نفسي واهتديت إلى نور الحقّ أخيرا.. لقد تطلّب الأمر وقتا طويلا، أطول ممّا يصبر المرء على احتماله...

غضّت بصرها وقد أدركت ما ترمي إليه. لم تكن أنت لتعطي لنفسك فرصة في ذلك الوقت أو لتمنّيها بأزمة قصيرة سريعا ما تنفرج، فضلا عن توقّع انتظارها هي لعودتك. أنت لا تعرف بعد ما إن كانت قد انتظرت، أو لعلّها سلتك في غيابك وعاشت ما عشت من تحوّل القلوب وربّما أكثر. أما هي فقد ابتسمت وهمست:

- حمدا لله.. أنا سعيدة من أجلك.

ثمّ همّت بالمسير. استوقفتها في رجاء، وأنت تأخذ بمجامع شجاعتك:

- لكنّني أطمع في غفرانك وصفحك.. وأن نُطوى تلك الصّفحة السّوداء...

قالت بلهجة جادّة:

- أنت لست في حاجة إلى صفحي.. توبتك إلى الله تجبّ ما قبلها.

لكنّ ذلك لا يكفيك.

أنت تذكرين قصدي يا سارة.. ما حصل في ذلك اليوم...

قاطعتك على الفور:

- لا تحتاج إلى تفسير.. أعلم أنّك لم تكن على طبيعتك في تلك المرّة.

- إذن سامحتني؟

أجابك صمت طويل من طرفها، فاستطردت:

- سأتحدّث إلى والدك بعد الصلاة.. إنّما أردت استئذانك.. سأطلبك منه مجدّدا، وسأقبل بكل شروطه دون جدال!

طالعتك بنظرة منكسرة، تذكرك بما اقترفته تجاهها. يغوص قلبك في صدرك في ألم. تدرك أنّها لم تطوِ الصّفحة بعد. تحتاج قدرا أوفر من التّفاني والبذل لتمحو بشاعة الذكرى من وجدانها.

- عن إذنك.

ابتعدت هي دون كلمة إضافية، واتّخذت أنت قرارك على الفور. غادرت الفندق على عجل. كانت محلّات الذهب قد استأنفت نشاطها للتوّ بعد استراحة الإفطار. دخلت محلّا فاخرا جذبتك لوحته المضيئة العملاقة. وقفت أمام المعروضات لثوانٍ ثم خاطبت البائع:

- أريد خاتم خطوبة، بماسة عملاقة تملأ العين!

عدّلت على الفور وأنت تفكّر في ذوق سارة المرهف وميلها إلى البساطة.

- لا أريدها كبيرة بشكل مبالغ به.. حجم كافٍ ليرضي والديها، وتصميم ناعم ومميّز ليناسب أناملها الرّقيقة.

بعد تمعّن وتقليب في البضاعة، توقّف اختيارك على خاتم بدا لك مناسبا. قال البائع مهنئا:

صناعة إيطالية أصلية.. يليق بأميرة بنت أمراء!

وضعت علبة المخمل الحمراء في جيب قميصك، ومضيت إلى الصّلاة بابتسامة راضية، ومنّيت نفسك برضا الأميرة.

عجّلت بمغادرة المسجد بعد انقضاء صلاة التراويح مباشرة، وجلست متوتّرا في بهو الفندق حيث اتفقتما على اللّقاء. مضت دقائق عصيبة قبل أن تلمح والدها مقبلا بمفرده. جلستما متقابلين على مقاعد الاستقبال الوثيرة. كنت قد أعددت كلاما كثيرا، وكنت مستعدّا لكلّ الشّروحات والوعود الممكنة، لكنّ الرّجل باغتك حين ابتدأ الكلام:

- قالت سارة أنّك أصبت بمرض شديد، منذ أربع سنوات.. ولذلك انفصلت عنها فجأة.

شلّتك الصّدمة. لقد حفظت ماء وجهك ولم تفضحك أمام والديها! أومأت في ألم وأجبت بصوت منكسر:

- نعم، لقد كان مرضا طويلا، ولم أحسب حينذاك الشّفاء ممكنا.. لكنّ الله منّ عليّ بالعافية منذ وقت قريب، وما هذه العمرة إلّا شكر لله على نعمته.

هزّ رأسه متفهّما:

- ونعم بالله.

ثمّ سألك في فضول:

- أيّ مرض هذا؟

أجبت دون تردّد:

- داء في القلب!

- حمدا لله على سلامتك يا ولدي! اعذرني على التّدقيق، ولكن

أليس هذا النّوع من الأمراض مزمنا؟ الأعمار بيد الله طبعا، والدّاء والدّواء رهن إرادته.. لكن ماذا إن عاد إليك المرض لا قدّر الله؟ هل ستتركها وتكسر قلبها ثانية؟ لقد رأيت ابنتي الوحيدة تذبل مثل زهرة بائسة انقطعت عنها السّقيا.. ولا أريد أن يتكرّر الأمر أبدا.. أبدا!!

ارتفع صوته وهو يلوّح بسبّابته بلهجة قاطعة، فهتفت بصوت متهدّج، وأنت تغالب دموعك:

- لن يحصل ذلك، أعدك!

أطرق الرّجل في وجوم ولفّكما السّكون بعد ذلك. مرّت دقائق من الصّمت قبل أن تخرج علبتك المخمليّة الحمراء. وضعتها على الطاولة أمام والدها، ثمّ قلت:

- أعلم أنّ التفاصيل المادّية لا تهمّ سارة.. لكن هذا لتدرك مدى جدّيتي.

مدّ الرّجل يده وفتح العلبة. راقبت ملامحه تبحث عن علامات تطمئنك. لكنّه أعاد العلبة إلى مكانها وقال في جمود:

- لو كان الأمر بيدي لأنهيت الأمر هنا في هذه اللحظة، بل لكنت محوت اسمك من ذاكرتها منذ أربع سنوات! لكن...

تعلق قلبك بتلك الـ «لكن».

- لكنّ القرار لها أولا وأخيرا.

أومأت موافقا. ذلك ما تأمله، أن يغلب بداخلها الحنين على المرارة، فتوافق. افترقتما على أن يردّ إليك الجواب في القريب.

حين رأيته في بهو الفندق بعد صلاة الفجر، قال في برود:

- إنّها تحتاج مهلة تفكير.

أومأت في رضا وتسليم.

أمضيت سحابة يومك في المسجد الحرام كعادتك، بين يدي الله وفي رحاب كلماته. فإذا أضناك الجلوس وقفت تطوف وتدعو. ثمّ أدّيت صلاة التراويح، وحضرت ختمة القرآن الكريم.. وبكيت سيولا مع دعاء الختمة الذي يهزّ القلوب الغافلة، ثمّ عدت إلى التلاوة حتّى التهجّد.. متحرّيا ليلة القدر إلى آخر فرصة.

طلعت عليك شمس التاسع والعشرين من رمضان، وأنت بعد تترقّب ردّها. وبعد صلاة المغرب بهنيهة، أعلن عن رؤية هلال عيد الفطر. لا صلاة تراويح إذن ولا تهجّد. أفطرت في المسجد على بضع تمرات وانتظرت صلاة العشاء.

بعد الصلاة، خرج النّاس من أبواب الحرم أفواجا. بعضهم مغادر إلى جدّة ومنها إلى دولته، وبعضهم الآخر عائد إلى مدينته داخل المملكة أو إلى كنف بيته في مكة ذاتها. الكلّ يسعى إلى قضاء ليلة العيد بين أحبابه. أمّا أنت فعدت إلى الفندق. مررت بسرعة على قاعة الطعام لإدراك وجبة الإفطار، تأخذ منها ما يشدّ أزرك ويقوّيك على ما عزمت عليه.

عدت إلى غرفتك وقد انتويت أن تقضي أنت أيضا ليلة العيد في كنف من تحب. ستتهجّد الليلة في الحرم.. ستكون في معيّة الله. استرحت لسويعات، ثم استيقظت عند منتصف الليل. اغتسلت وتوضأت وتطيّبت وارتديت ثوبا نظيفا ثمّ غادرت الفندق متيقّظا متحفّزا.

كنت تتهيّأ للقاء أغلى الأحبّة، يحدوك الشوق ويحرقك الحنين. خرجت تسابق الخطى إلى اللقاء. ستقضي الليلة بين يدي الله.. تناجيه، وتشكره على كلّ شيء.

ستشكره على الهداية.. وتثني عليه، وتسأله الثبات.

ستحمده على النّجاة.. حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

ستستغفره على كلّ لحظة جفوة وعصيان.

ستطلب عفوه على قسوة البعاد وظلمة الفؤاد ودنس الخطايا ورجس العناد.

خطت قدماك داخل أروقة الحرم. وكان عدد المعتمرين أقلّ بكثير منه مساء الأمس، فقد غادر أغلبهم. كان صحن الحرم والمطاف هادئا على غير العادة. وكانت روحك منتشية محتفية بتلك السّكينة الأقرب إلى الخلوة. كان النّاس متفرّقين، بين طائف ومسبّح ومصلّ، كلّ منهم منشغل بخالقه عمّا سواه. جلست قريبا من الكعبة ورفعت بصرك إلى بنيانها الذي رفع أبو الأنبياء، قواعده، يعلو شامخا في مهابة وجلال.. باقيا ما بقي الطائفون والعاكفون والرّكع السّجود.

تداعت في ذاكرتك صور من تجاربك الحديثة مع التأمّل.. معبد اليوغا الخيالي، موازنة الأحجار في جزيرة نائية، حركات التاي تشي البطيئة والمحكمة، الصّلاة الزّينيّة، والدّوران الصّوفي.. ابتسمت. كم كنت ساذجا. كيف خدعتك تلك السّكينة الوهميّة وتركت نفسك للتّرّهات السّخيفة! لا شيء من كلّ ذلك يماهي ولو قليلا جلستك بين يدي الله، مناجيا إيّاه، في الوقت الأحبّ إليه وفي المكان الأكثر قدسيّة على الأرض.

رفعت كفّيك إلى السّماء، وهمست في خضوع: يا ربّ!

فشعرت بالكلمة تتردّد في صدرك، لتجد صداها بين جنبيك، وتسري موجاتها في كلّ خلاياك، تعبرك من أعلى رأسك إلى أخمص قدميك.

كرّرتها في حرقة.. يا ربّ!

تخرج من بين شفتيك مثل زفرة حرّى، تحصد في طريقها الأشواك العالقة بفؤادك وتجرف الأدران التي رانت على قلبك، تطهّرك وتمسح ذنوبك.

يا ربّ!

تهطل الدّموع من عينيك سيولا تحفر أودية على وجنتيك، وتستشعر نور الإيمان يملأ قلبك، ويسكبه فيغرق روحك، ويفيض من كلّ مسامّك.

رحت تردّد في يقين: الآن أراك.. الآن أراك!

-٥-

للصّائم فرحتان، إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربّه فرح بصومه، ولك فرحة ثالثة بتوبتك، وفرحة رابعة تأمل أن تكون من نصيبك.

كنت متشوّقًا للرّدّ متحرّقًا لموافقتها. لكنّك مطمئنّ القلب، هادئ الفؤاد. فارقك ما كان يصاحب مثل هذا الشعور من قبل من توتر وقلق وحرمان. أتراه تأثير نضج السنين؟ أم هو شيء آخر لا عهد لك به آنفا؟

السّكينة، إنّها السّكينة! تظلل بجناحيها روحك.. فتذرك مطمئن النفس، هانئ البال، مستقرّ الفؤاد. فارقك الجزع والاضطراب اللّذان لازماك سنوات، فدمّرا كل جميل في روحك. أدركت لحظتها كم جنيت على نفسك في الماضي.

صلّيت العيد في المسجد الحرام واستمعت إلى الخطبة، ثمّ رجعت إلى الفندق، وأنت تبحث بنظراتك عن خيالها حولك. وهل يكون لعيدك معنى إذا لم ترها ولم تعايدها؟ وما بالها تأخّرت عليك بالرّدّ كلّ هذا الوقت؟ هي أيّام ثلاثة لا أكثر. لكنّها تبدو في عينيك دهرا.

لمحت والدها عند مكتب الاستقبال، فهرولت نحوه. وقفت تنتظر ريثما ينهي معاملته، فوصلت كلماته إلى مسامعك دون أن تقصد التجسّس.

- سيّارة إلى المدينة.. على السّاعة الثانية عشرة ظهرا.

تقلّصت ملامحك في دهشة، يرحلون؟ بهذه السّرعة؟ التفت الرّجل ناحيتك أخيرا، فهرعت إليه تصافحه وتهنّئه بالعيد. ثمّ لفّكما

الصمت، حتّى قال بلهجة جافّة:

- تعال إلى جناحنا في الطّابق العاشر.. بعد ساعة.

أومأت بإذعان دون أن تسأل. رغم ملامحه الواجمة فإنّ الدّعوة بادرة خير لا محالة. خرجت على الفور إلى محلّات المرطّبات القريبة، واقتنيت بعض الحلويات. لا يليق بك أن تزورها خالي الوفاض. عدت إلى غرفتك، غيّرت ثوبك وتعطّرت، ثمّ بقيت تراقب السّاعة حتّى أتى موعدك. كان جناحهم فوقك بطابقين. ارتقيت الدّرج بخطوات واسعة، ثمّ طرقت الباب على استحياء.

فتح لك العمّ صفوان بنفس الوجوم. إنّه لم يغفر لك أبدا، مع أنّه لا يدرك حقيقة فعلتك. فماذا لو عرف؟ شعرت بانقباض في صدرك، وأنت تتبعه إلى الصّالة. دعاك إلى الجلوس، ثمّ اختفى بالدّاخل. لمحت الحقائب مركونة حذو المدخل، استعدادا لسفر قريب. وضعت على المائدة أمامك طبق الحلويّات والعلبة المخمليّة الّتي رفض الرّجل استلامها في الموعد السّابق.

بعد دقيقتين، خرجت سارة وأمّها. كانت الأمّ مبتسمة محتفية بحضورك.

- عيد مبارك يا خالة.

- عيد مبارك يا بنيّ، تفضّل بالجلوس.

غصت في مقعدك من جديد، بينما تابعت وهي تتّجه إلى المطبخ:

- سأحضّر الشاي.

أنت تجلس الآن قبالة سارة، ترفع عينيك إليها في حياء، تحاول أن تقرأ الجواب على ملامحها.

- عيد مبارك.

تهمس بصوتها الرّقيق المحبّب إلى قلبك، فتنتعش قسماتك وتمدّ يدك إليها بالعلبة الحمراء المغلقة.

- هذه هديّتك.

قلت مازحا وأنت ترقب ردّ فعلها وهي تطالع الخاتم:

- في عاداتنا، يهدي الرّجل زوجته قطعة حليّ يوم العيد امتنانا لصبرها وجهدها في المطبخ طيلة شهر رمضان.. صحيح أنّني لم أجرّب طبخك بعد، لكنّني واثق من مهارتك.

رأيت ثغرها يفترّ عن ابتسامة خجلى، فانطلقت أساريرك. ثمّ ظهر والدها من جديد، واتّخذ مجلسا إلى جوارها. اكتست ملامحك مسحة جديّة وأنت تقول:

- أنا جاهز لكلّ الشّروط يا عمّي.

- أريد أن أعمل!

كانت سارة من بادر على الفور. فانتابك إحساس غريب بالزّمن، كأنّه يرجع بك إلى الوراء.. إلى أربع سنوات خلت. تتمثّل نفسك في جلسة مماثلة، في صالة بيتهم في باريس. وسارة تجادلك بشأن تخصّصها كطبيبة أطفال. يهيّأ إليك أنّ السّنوات الّتي تلت بأزماتها ومشقّاتها كانت كابوسا مزعجا، وقد استيقظت الآن، لتستأنف ذلك الحوار المعلّق. ابتسمت، وقلت في رضا:

- لك ما تريدين.

أضاف والدها:

- سارة أنهت هذه السّنة تخصّصها، وهي تجهّز للرّسالة.

- ما شاء الله، مبارك يا سارة.

أرخت جفنيها في حياء، بينما يواصل عنها:

- وأين تنوي الإقامة؟

- أنا أقيم في الرّياض الآن يا عمّي، فإن شاءت سارة مرافقتي.. يمكن أن تجد بسهولة وظيفة في المستشفى الجامعي الذي أعمل به، ويمكن أن تلتحق بمستشفى خاصّ. أمّا إن كانت تفضّل باريس أو أيّ مكان آخر في العالم، فلها ما تشاء!

دخلت والدتها تحمل طبقا عليه أكواب شاي ساخن وقالت:

- الرّياض تبدو مناسبة.. إنّها قريبة من الحرمين، ويمكننا أن نأتي لزيارتكم كلّ عام ونؤدّي العمرة.

أومأت في حماس، بينما التزم العمّ صفوان الصّمت على مضض. قلت تطيّب خاطره:

- أظنّ أنّ معرفتنا السّابقة تقتضي أن نسرّع بالزّواج الآن، أليس كذلك يا عمّي؟ لقد أهدرنا سنوات ثمينة من أعمارنا، فما رأيكم أن نعقد القران في باريس بعد شهرين؟

- على بركة الله!

لم يكن متحمّسا، لكنّه أبدى موافقته، وذلك يكفي.

- نعتذر منك يا بنيّ، فنحن مغادرون بعد قليل إلى المدينة.

- طبعا يا خالة. أتفهّم ذلك.

وقفت مكرها، وقد حزّ في خاطرك أن تلقاها بعد فراق مديد ولا تأخذ كفايتك من قربها. لكنّك عزّيت نفسك بما حقّقته من نجاح في ذلك اللّقاء القصير. ستعود المياه إلى مجاريها والطّيور إلى أعشاشها، وستستأنف رحلة بترتها سلفا.

ودّعتهم وأنت تغالب الشّوق، والجزع من الفراق مرّة أخرى. لكنّك كنت مطمئنّا إلى خطة القدر الّتي تسبق خطتك. كانت يد القدر تعمل، وأنت فقط شاهد عليها. فلتسلم زمام أمرك راضيا..

{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}. كنت تستشعر بقوّة هذه المعيّة، وهذه العناية.

كلّ شيء بعد ذلك مرّ كلمح البصر. رجعت إلى الرّياض في المساء ذاته لتنبئ عائلتك بالخبر السّعيد. وقد كان خير معايدة تقدّمها لوالديك.. أن يرياك منفرج الشحنة ضاحكا، بعد أن خيّم الحزن على قلبك لأمد طويل. وبعد شهرين، كنت قد شغلت نفسك خلالها بتجهيز الشّقّة بما يليق بساكنتها الجديدة، سافرت إلى باريس كما وعدت، برفقة عائلتك، لتعقد قرانك على سارة.

لم تنس أن تدعو الفرسان الأربعة. وقد رأيت سعادة صادقة تنضح من قسماتهم وقرأت بشرا وحفاوة في عيونهم وهم يعانقونك بعد سنتين من الغياب، وقد عدت مالكا القديم الذي يعرفهم ويعرفونه. ثمّ رفعوك على أعناقهم ورقصوا بك على ضربات الدّفّ، ورموا بك في الهواء فوق الرّؤوس، لتحلّق في جذل، وأنت تستشعر دفقا من الأمان والطمأنينة تغمرك، من معين أخوّة صافية لا ينضب.

كان احتفالا ضيّقا، اقتصر على المقرّبين، وارتدت سارة «قفطانا» تقليديّا أبيض بدت فيه مثل ملاك هبط من السّماء ليملأ قلبك بهجة وحبورا. وحين انصرف المدعوّون إلى الوليمة، جلست تطالعها في حبّ، وأنت لا تصدّق وجودها إلى جوارك، بعد أن فرّقت بينكما مسافات القلب والعقل والجغرافيا.

قالت سارة، وهي ترمقك بابتسامة عذبة:

- ألم أقل لك؟ الله لن يضيّع إيمانك!

ثمّ أضافت ووجنتاها تتورّدان:

- لقد كنت أتتبّع أخبارك عن طريق سميّة، زوجة أيّوب.. وكنت أدعو لك كلّ يوم، بالهداية والرّشاد. وحين وصلت إلى مكّة، ورأيت الكعبة أوّل مرّة، جرى على لساني الدّعاء تلقائيّا وبكيت.. اللهم اهد

مالكا! لذلك ظننتني أهلوس، حين لمحتك في قاعة الطعام بعدما بأسبوع واحد! لم أصدّق أنّ الله قد استجاب أخيرا لدعائي...

ابتسمت وأنت تسترجع صورا من الماضي:

- هل تعلمين، مع أنّي كنت أكابر وأرفض أن أعترف بسطوتك على فؤادي، فقد كنت أستحضر وجهك في أشدّ اللّحظات غرابة.. حتّى وأنا أحاول التأمّل في حصّة يوغا على جبل هنديّ شاهق، كنت أتحدّث إليك!

ضحكتما، ثمّ قالت وهي ترنو إلى لحيتك الّتي خالط الشّيب شعيراتها:

- لقد غزا الشّيب عارضيك.. كبرت يا مالك!

ارتسمت على شفتيك ابتسامة مشاغبة وقلت مداعبا:

- هل تسمعين عن شاعر ثائر على الأمويّين، يدعى عبد الله بن قيس الرّقيّات؟

هزّت رأسها نافية، وما كانت على ولعك بالشّعر إطلاقا، وسألت:

- وما الرّقيّات؟

- لقد أحبّ الشّاعر ثلاث نساء وتغنّى بهنّ، وكلّ منهنّ اسمها رقيّة!

ضحكت سارة، بينما رحت تنشدها، من أبيات الشاعر:

بَكَرَت عَلَيَّ عَواذِلي ... يَلحَينَني وَأَلومُهُنَّه

وَيَقُلنَ شَيبٌ قَد عَلاكَ ... وَقَد كَبِرتَ فَقُلتُ إِنَّه

إِنَّ العَواذِلَ لُمنَني ... وَلَن أُطيعَ أُمورَهُنَّه

فيما أُفيدُ مِنَ الغِنى ... وَاللَهِ سَوفَ يُهينُهُنَّه

وَلَقَد عَصَيتُ الناهِيا ... تِ الناشِراتِ جُيوبَهُنَّه

حَتّى إِرعَوَيتُ إِلى الرَّشا ... دِ وَما إِرعَوَيتُ لِنَهيِهِنَّه

خــاتمــة

الرياض في ٢٠ يناير ٢٠١١،

صديقي العزيز مالك،

اسمح لي أن أخاطبك بصديقي، رغم لقائنا الوحيد منذ شهور. ربّما لا تكون صداقتنا بالمعنى التقليديّ للكلمة، فهي أحاديّة الجانب. لكنّني بعد أن عرفت تفاصيل قصّتك وعشت معها خلال الفترة الماضية، أشعر بنوع من الألفة، وأخشى أن تفترق سبلنا ببساطة وقد استأنست بك وانغمست في تجربتك حتّى أذني.

لقد انتهيت من مسودّة الرّواية تقريبا. أرجو أن تراجعها وتوافيني بملاحظاتك إن رأيت فيها ما يحتاج التّعديل أو التّحرير، قبل أن أرسلها إلى دار النّشر.

التقيت منذ يومين صديقنا المشترك، الدّكتور نديم المغربي. أخبرني أنّك قد سافرت إلى تونس أخيرا بعد عقد ونصف من الغربة، مع زوجتك المصون وطفليك الرّائعين. أهنّئك على الثّورة التونسيّة التي أهدتك فرصة حرّيّة جديدة، وأبارك لك وصالك مع الوطن وتصالحك مع ماضيك المؤلم.

كنت أفكّر في قرارة نفسي أنّ جراحك لن تبرأ حقيقة، إلّا بعد أن تعود إلى ميدان السّياسة وتثأر لخيبات الأمس وتجدّد انتماءك لقضيّة آمنت بها ولم تنصفك. أتخيّلك الآن تذوب في زخم الثّورة وتجلّياتها، وأنت تخرج في الاحتجاجات، تقود الجموع كما فعلت دائما، تخطب فيهم بصوتك الجهوريّ وتشعل حماستهم. أتخيّلك وأنت تعتصم أمام مباني الوزارات وترفع القضايا واحدة تلو الأخرى، ضدّ من عذّبوك بالأمس، من ظلموك وسلبوك كرامتك، ودفعوا بك إلى شراك اليأس، بل وترافع فيها عن نفسك!

الثّورة تناسبك جدّا يا صديقي، إنّما خلقت لمن هم مثلك.

لقد رأيتك هادئا، تتضح قسماتك بالسّكينة والطّمأنينة، في لقائنا

الوحيد. لكنّني رأيتك في كلّ أحوالك على الورق. لعلّك الآن تلتفت بعجب إلى تلك المواقف التي دفعتك إلى اليأس، وحتّى الرّغبة بالموت، وقد تجاوزتها، وربّما تنساها في خضم مشاغلك الجديدة؟ ولعلّك تستغرب اليوم من شعورك السّابق بالقنوط وترى أنّه كان مبالغا فيه؟

لكنّني، والحقّ أقول، أرى أنّك قد كابدت من مشقّات الحياة ما إنّ تقله ينوء بالعصبة أولي القوّة. لكنّ التحدّيات كانت تدفعك أبعد وأعلى في بناء ذاتك، وترميمها باستمرار رغم الهدم المتكرّر. أليس من رحم المعاناة يولد الأبطال؟

هل أبوح لك بسرّ صغير؟

لم يكن لقاؤنا في منزل د. نديم صدفة محضة. لقد خطّط لذلك مسبقا، وقرّر جمعنا في تلك الجلسة، تماما كما جمعك من قبل بالدّكتور عقيل! لقد أراد -جزاه الله خيرا- أن أستمع إلى قصّتك كلّها، وأنشغل بها عمّا أهمّني. لقد فقدت زوجي وولدي منذ حوالي السّنة، توفّاهما الله في حادث أليم. وقد تقوقعت على نفسي منذ ذلك الوقت، وعشت اكتئابا حادّا، واعترضت على قدر الله الذي رأيته ظالما.. وراودني ما راودك من الحيرة والسّخط والضّياع.

لقد كانت قصّتك حبل النّجاة الذي امتدّ إليّ بمعجزة ما، لأخرج من تلك الأزمة السّاحقة، فأستعيد تماسكي وتوازني. لقد كذبت عليك حين تواصلت معك في المرّة السّابقة. عرضت عليك أن أكتب قصّتك، ليس بدافع أدبيّ صرف، بل لحاجة في نفسي، قضيتها، وأنا أقرأ أفكارك وأعيد صياغتها. أتشرّبها وأعيشها، وأقطع مدّ الألم الذي سيطر على قلبها.

أعرف اليوم أنّ قصّتك تستحقّ أن تنشر، علّها تكون سببا في إنقاذ أرواح كثيرة أخرى، كانت سجينة القنوط والعذاب والألم.

تحيّاتي،

صديقك

شكر

إلى د. عمرو شريف مؤلف كتاب «رحلة عقل» الذي كان لأفكاره القيّمة أثر بالغ في بناء الرواية.